سمير شيخاني

أعلام الحضارة

لقاءات في حوار

الجزء الأول

مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر

أعـلام الحضـارة

« ليس من انسان عظيم يحيا بلا فائدة .
إن تاريخ العالم ماهو إلا سيرة الرجال العظام » .

توماس كارلايل

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر
هاتف: ٢٧٣٦٣٦ - ٢٧٥٥٣٢ - ٢٧٥٥٦٣ - ٢٧٥٨٦٧ - ص.ب: ١٣/٥٢٥١ بيروت - لبنان

المقدمة

الحضارة ، او المدنية ، هي قصة الانجازات البشرية في تطوراتها المذهلة . انها تبرز ما كان البشر ، خلال مئات الآلاف من السنين ، يعرفون عن أنفسهم ، وعن العالم والمخلوقات التي تشاطرهم اياه . وقد بلغوا الفضاء البعيد ، ودرسوا المذنّبات التي يصلهم ضوؤ ها بعد ملايين السنين . ومن جهة اخرى فككوا الذرّة وعالجوا في براعة الالكترونيات ، تماماً كما كانوا يلعبون بالحصى .

والحضارة هي سجل اختراعات الانسان بدءاً بصقل أقسى الصوّان ، وانتهاءً بالميكروسكوبات الدقيقة المضبوطة ، وابداع الجمالات المتعددة في الاشكال والألوان ، والكلمة ، ووسائل التعامل مع سائر البشر ، والتعاون معهم . انها قصة اهداف الانسان وطموحاته السامية ، واخطائه وخيبات امله المحتملة . وبالاختصار كل تلمّسات طريقه وضعفه وقصوره المثبّط للهمم ، وانتصاراته التي لا تصدّق .

والحضارة ، بمعنى آخر ، هي إنجاز مفرد ، وحيد ، مذهل للجنس البشري !

ان يكون الواحد منا جاهلاً شيئاً خارج اختصاصه ليس جريمة في

شيء ، وأن يكون مثقفاً ثقافة واسعة ليس فضيلة ، ولكن أن يكون محبا للاطلاع فانه بذلك يكون اكثر حكمة .

وفي هذا الكتاب الذي بين يديك طائفة من الرواد والاعلام من مختلف مسالك الحياة ، صنعوا الحضارة البشرية على مدى الاجيال ، ستتعرف اليهم في حقول اختصاصهم المختلفة ، وحسب التسلسل الزمني لتاريخ وفاتهم . . .

فتعال معي ، ايها القارىء الكريم ، الى هؤلاء العظماء لنقابلهم واحداً واحداً ، ونحاورهم ، ونحاسبهم ، ونعاتبهم ، لنتعرّف اليهم أكثر فأكثر ، ونقدّر الاعمال التي أسدوا بها الى البشرية أجل الخدمات . ففي ذلك متعة لا تعدلها متعة !

ومن خلال اطلاعنا على سير العظماء ندرك انهم ليسوا الا بشراً مثلنا ، لهم الأخطاء والمساوىء نفسها ، كما لهم الميزات والصفات والمواهب التي يتمتع بها الكثيرون منا . وكل ما هنالك أنهم صقلوا تلك المواهب وبلوروا تلك الميزات ، وثابروا على العمل الجدي المتواصل ، حتى طغت الفضائل عندهم ، وبرزت الميزات وخلدت المواهب ، سواء بالاكتشافات ، أو الاختراعات ، او الانتاج بألوانه وأشكاله المتعددة . . .

وهكذا اصبح العظماء مختلفين عن غيرهم ، وهكذا اصبحوا روّاداً ومن الخالدين . اما حياتهم العادية فلم تكن تخلو من المفارقات ، والملابسات ، والازمات ، وساعات الضعف ، والفشل ، والخيبة ، والحرمان ، والحسد ، والغيرة ، وسوى ذلك من ردود الفعل البشرية التي تخامر كل إنسان . . .

بيروت في ٤ تموز سنة ١٩٨١
سمير شيخاني

الفصل الأول

٢٥ من أعلام العلم

طاليس	:	أبو العلم
فيثاغوراس	:	عبقري من لبنان
ابقراط	:	ابو الطب
جالينوس	:	عبادة عمياء
بايكون	:	أحبّ العلم وتألم
غوتنبرغ	:	مخترع الطباعة
باراسلسوس	:	رفعِ الطبيعة على قدميها
كوبرنيكوس	:	محطم التماثيل
براهة	:	ابو علم الفلك الحديث
هارفي	:	دفن جالينوس
نيوتن	:	مستكشف الكون
ليناوس	:	ملك الزهور
لافوازييه	:	أبو الكيمياء

لامارك	:	من عالم النبات الى عالم الحيوان
تشيزبرو	:	مكتشف الفازلين
فاراداي	:	منحنا عصر الكهرباء
مورس	:	رسّام ومخترع
مورتون	:	المنقذ من الألم
داروين	:	الثائر اللطيف
باستور	:	مكتشف الميكروبات
كوخ	:	مطارد الجراثيم
فابر	:	هوميروس الحشرات
مدام كوري	:	مكتشفة الراديوم
ماركوني	:	ابو اللاسلكي
بانتنغ	:	مكتشف الانسولين
آينشتاين	:	أبو النسبية

طاليس : أبو العلم
(٦٤٠ قبل الميلاد ـ ٥٧٤ قبل الميلاد)

صوت :عندما يبدأ نور التاريخ بالاشعاع عبر سهول أتيكا ، هناك ينتصب طاليس . ولد حوالي منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، ولنقل في سنة ٦٤٠ ، والجميع يتفقون على أنه عاش حتى بلغ من العمر عتياً ، أي ، بلا تحديد ، بين التسعين والمائة وعشر سنين . أما كيف كان شكله ، وأي نوع من الحياة اليومية كان يحيا ، فليس ثمة أي سبيل الى معرفة شيء من ذلك . وليس هنا مجال التحدث في الموضوع . حتى أن جنسيته غير مؤكدة . فأبو المؤرخين هيرودوتس يقول إنه فينيقي الأصل ، ولكن المؤرخ زيلر يعتقد انه كان يونانياً ، أصله من آسيا الصغرى . الا ان المرجح هو الأصل الفينيقي .

طاليس :الواقع أن هيرودوتس المصيب في هذا الترجيح ، فأنا فينيقي ، ومن مواليد صور . وقد هاجرت اسرتي الى اثينا سنة ٦٠٠ ق.م.

صوت :اكزاميوس كان والده ، وكليوبولين كانت أمه . وهذان الاسمان خالدان بسبب النسب والأبوة . فالمتفق عليه أنهما كانا من النبلاء ، وعلى جانب كبير

من الثراء . واذا كان الأمر كذلك ، فان طاليس كان كريم المحتد . . .

طاليس : . . . وقد بررت ذلك ، يا سيدي ، أفضل تبرير .

صوت : البعض يعتقدون ، يا سيد طاليس ، أنك كنت تاجراً ، وان الأعمال التجارية هي التي حملتك الى مصر .

طاليس : الأمر غير ذلك تماماً ، واذا شئت الا تستبق الاحداث، ستعلم لماذا ذهبت الى مصر . على أي حال ، فقد تعرفت الى الحكمة المصرية خلال تلك الزيارة .

صوت : لقد كنت بالطبع مؤهلا لاختزان الحكمة والعلم لأنك كنت ولا ريب متعلماً ، ما دام والدك كان نبيلاً وينبغي ان يكون قد اهتم بتلقينك العلم على أيدي المعلمين الاكفاء .

طاليس : ذلك هو الواقع . ولكنني في الحقيقة كنت غريب الأطوار ، فلم اكن أقبل بأي رأي من الآراء على انه رأي نهائي حاسم . كان عليَّ ان اعرف الامور بنفسي . ولم تكن الاجوبة التي يقدمها الدين كافية . ولما لم يكن بوسعي العيش في عالم يضج بالتساؤلات ويزخر بعلامات الاستفهام ، فقد سعيت لوضع اساس للكون كما انظر اليه .

صوت : وعلى هذا الاساس فقد احرزت ، عن جدارة

واستحقاق ، بوضعك ذلك الاساس للكون ، لقب « ابو العلم » .

طاليس : شكراً على من أطلق علي هذا اللقب الذي لم أسمعه الا منك الآن .

صوت : سيدي طاليس ، بين الحين والآخر ، يحدث كسوف كلي للشمس ، يُشاهد في بعض ارجاء العالم . والحقيقة ان ذلك ظاهرة غريبة تبعث على الخوف والهلع وبعد ان يرىٰ المرء هذه الظاهرة مرة واحدة ، يسهل عليه ان يدرك الرعب الذي كان البشر البدائيون يقعون فريسته .

طاليس : كانوا يعتقدون ان الشمس تتعرض للتدمير ، ولكي يمنعوا حدوث تلك الكارثة كانوا يطلقون الاسهم بكثرة في الفضاء لينحروا الوحش الذي انقضَّ على الشمس . . . أو كانوا يوقدون الحرائق الهائلة ليعيدوا القوة الى مصدر النور الخابي المتلاشي . بذلك كانوا يحاولون قهر الطبيعة باللجوء الى السحر .

صوت : الغريب في الامر أنه مع تقدم العلم ما يزال البشر في بعض انحاء العالم يفعلون الشيء نفسه فيروحون يقرعون الطبول والتنك ظناً منهم أنهم بذلك يرعبون التنين أو الحوت الذي ابتلع الشمس . . .

طاليس : لقد حاولت بصفتي رائداً في هذا الميدان أن أقنع المشككين والذين كانوا يسخرون من آرائي العلمية ويسفهونها ، أنني اعرف ماذا يسبب كسوف

الشمس . واكثر من ذلك ، فقد حسبت زمن الكسوف التالي . قلت إن سنة ٥٨٥ ق.م. ، ستكسف الشمس في ٢٨ أيار . . .

صوت :وبالطبع لم يصدقك أحد ، وسخر منك الجميع وقالوا ان جهودك وحساباتك تذهب هدراً ، وكان اكثر المسفهين الميديون والليديون . وهكذا فكروا في أنهم سيسجلون انتصاراً مبيناً عليك في ٢٨ أيار من تلك السنة ٥٨٥ .

طاليس :ولكن خاب فألهم ، لانه في الموعد الذي حددته ، اختفت الشمس ، واستولى الهلع على مناوئيّ فاستكانوا ، وآمن المشككون .

صوت :وعلى الرغم من تسجيلك هذا الانتصار بتحديد موعد الكسوف ، فان علم الفلك لم يكن الميزة التي كنت تتفوق بها على أقرانك .

طاليس :ومع ذلك فقد قمت باشياء كثيرة في هذا الميدان تعتبر ذات أهمية وقيمة . لم أكن اؤمن بأن الشمس شيء صغير لا يتجاوز قطرها القدم - وكان ذلك الاعتقاد السائد في تلك الأيام . وقد عمدت الى قياس الشمس فتبين لي انها هائلة الحجم - ١ من ٧٢٠ جزءاً من قطر دائرة البروج. . .

صوت :. . . هنا ، يا سيد طاليس ، دعني أذكر ان قياسك هذا هو أقل كثيراً ، من قطر الشمس الحقيقي البالغ ٨٦٤ الف ميل .

طاليس :حسناً ، ولكن حساباتي اعطت الشمس حجماً أكبر من الحجم الذي تجرأ أي كان قبلي على تصوره . وفضلاً عن ذلك ، فقد لفتَّ اهتمام البحارة الى الـدب الأصغر على انه دليل أفضل من الدب الاكبر ـ الذي كان ذا شعبية ساحقة طوال قرون ـ لكي يستعينوا به في شؤون الملاحة .

صوت :وبملاحظاتك الدقيقة وحساباتك الصائبة عرفت أن طول السنة هو **٣٦٥** يوماً . . .

طاليس : . . . أوَ ليست هذه الدقة محمودة عندما تعلم ويعلم الجميع انه لم يكن بين يدي أي أدوات عمل تساعدني في أبحاثي ؟

صوت : ونأتي الآن الى زيارتك لمصر حيث درست مبادىء الهندسة وشرعت في التفوق على اساتذتك .

طاليس :كان هؤلاء الاساتذة مطلعين على هندسة المسطحات ـ وكانت علماً يستخدمونه في حفظ تحديدات العقارات والاراضي في المناطق التي كان النهر كل سنة يفيض فيمسح كل العلامات الموضوعة للتحديد .

صوت :فجئت أنت تنتقل من هذه القضايا الملموسة الى المجردات ، وخلقت للمرة الاولى في تاريخ العالم علم الهندسة المعروف اليوم . فاكتشافاتك بالنسبة الى الطلاب الثانويين اليوم تبدو بسيطة وعادية ، ولكن بالنسبة الى الاغريق منذ اكثر من ٢٥٠٠ سنة ، فإنها

كانت هائلة . فهلّا ذكرت لنا بعض مبادئك الهندسية ؟

طاليس :حباً وكرامة . فانا أول من قرر الأمور التالية :

« تقسيم الدائرة بواسطة قطرها الى قسمين متساويين » .

« الزوايا في قاعدة المثلث المتساوي الساقين ، هي متساوية » .

« اذا تقاطع خطان مستقيمان تكون الزوايا المتعاكسة متساوية » .

« الزاوية في نصف الدائرة هي زاوية قائمة » .

ان كلاً من هذه المبادىء بديهي ، أليس كذلك ؟ ومع ذلك فإن مبادىء الهندسة المدروسة والمفصلة نمت من نظريات كهذه .

صوت :وقد تطلّب ذلك رجلاً حكيماً ليقررها عندما كان عليه أن يستخرجها من رأسه دون ان يكون ثمة اي سابقة ودون أي قواعد موضوعة . لقد كان المصريون يعالجون هذا العلم طوال قرون ، ولكنهم لم ينتجوا قط في تاريخهم الطويل نظرية مجردة واساسية كأي من تلك النظريات .

طاليس : الا أنه كانت لي ناحية عملية كذلك ، ولم أكن لأتردد في تلقين المصريين في حقلهم الخاص . فكهنة وادي النيل لم يكونوا قادرين على اعتماد طريقة لقياس علو اهراماتهم . فجئت أنا أقول لهم : « قيسوا طول ظل الهرم ، عندما يكون ظل الواحد منكم مساوياً تماما لطوله » . إنه أمر بسيط جداً ، أليس كذلك ؟

صوت :بالطبع ، إلا ان طريقة التفكير ، قبل ان تتوصل أنت الى هذه النتيجة كانت معقدة جداً ، ولم يسبق لأحد قبلك ان قام بهذا الربط الصحيح بين الافكار . ولكن ، اسمح لي ان أقول انك على ما كنت عليه من العظمة كأول عالم ، فانك وقعت فريسة سخافات لا تغتفر . من ذلك أنك كنت ساذجاً لاعتقادك ان عينيك تدلانك على الحقيقة . وفي حين ان أي انسان عاقل حكيم وحديث ، حتى قبل ظهور اينشتاين ونظريته النسبية ، يعلم ان النظر خدّاع ولا يمكن الوثوق به . وأنت ، يا سيد طاليس ، لم تعرف ذلك . وكانت النتيجة انك اعتقدت ان العالم كان صغيراً أشبه شيء بالصحن ، وحوله تدور الشمس والقمر والنجوم .

طاليس :وعلى الرغم من اعتقادي ذاك ورؤيتي العالم صغيراً ومحاطاً بدائرة فانني وضعت الارض حيث يجب ان تكون بإحلالها في وسط الكون العظيم .

صوت :وفي سبيل الاخلاص للحقائق العلمية ، اسمح لنفسي بالقول إنك ارتكبت خطأ فاحشاً آخر في سعيك الى الجواب عن الخليقة وكيف تمت . ولكي ترضي نفسك حول هذه النقطة جعلت الماء المبدأ والعنصر الرئيسي لكل الاشياء .

طاليس :ماذا تريد ، فقد فُرضت علي واستأثرت باهتمامي أهمية الماء اثناء اقامتي في مصر حيث الحياة تعتمد مباشرة على فيضان النيل سنوياً .

صوت : الحقيقة أنك ، يا طاليس ، عشت في عالم محاط بالماء من كل جانب ، فهل ثمة مجال للدهشة اذن لأن تعتقد ان الحياة جاءت من الماء ، وهي تعتمد عليه ؟!

طاليس : أحسنت ، فأنا معذور إذن . . . أليس كذلك ؟!

صوت : وفي ختام هذه المقابلة الشيقة المفيدة أود أن اذكر أنك كنت شديد الولع بالالعاب الرياضية . وقد زاولت القفز والجري ورمي الاثقال والمصارعة . ومن أقوالك المأثورة التي نرددها اليوم : « السعيد هو الصحيح الجسم ، الكثير الرزق ، المثقف العقل » .

فيثاغوراس : عبقري من لبنان
(حوالي ٥٨٠ قبل الميلاد ـ ٥٠٠ قبل الميلاد)

صوت : هناك اسم بين أسماء الاغريق القدامى ما يزال يرن في الآذان ويتردد على الالسن . وهو اسم مألوف بطريقة او باخرى لدى كل واحد منا تقريبا . فاذا كنت ، يا قارئي الكريم ، من الذين يميلون الى الاعتقاد بعلم الفلك فان اسم فيثاغوراس يردده على مسمعك اي عرّاف . واذا شئت ان تسبر غور المستقبل بالاعداد فيسقال لك ان فيثاغوراس اخترع علم التنجيم وكشف الطالع .

فيثاغوراس : الواقع ، يا سيدي انني لم اخترع اي شيء من ذلك ولكن لا بأس ، ما دمت قد ذكرت ذلك .

صوت : حسنا . . . وفي المدرسة لا بد انك سمعت بذلك الرجل الذي وجد ان في المثلث ذي الزاوية القائمة يكون مربع وتـر الزاوية القائمة مساويا لمجموع مربع الضلعين الآخرين .

فيثاغوراس : ولكنني اعتقد ان احداً لا يشكرني على ما فعلت ولعل الكثيرين الكثيرين قد نسوا ما يعني ذلك .

صوت : سوى ان اسم فيثاغوراس يذكره الكثيرون . والآن علينا بالجد : انت ابصرت النور حوالي سنة ٥٨٢ ق.م

في ساموس باليونان . وقد جعلت نفسك خالدآ بشخصيتك الفذة ، ذلك بأنك كنت عبقريا .

فيثاغوراس : قبل كل شيء كانت لي القوة على كسب الاصدقاء والاحتفاظ بهم . وكنت محدثا من طراز رفيع ، ولا ابالي بالكتابة . . .

صوت : وشاء والدك الثري منيسارخوس ان تتلقى العلم ، فوفر لك اثنين من اعظم رجال ذلك العصر هما فيريسيديس ، وهرموداماس ، لتتلقى على ايديهما التربية والتعليم .

فيثاغوراس : فتعلمت بسرعة هائلة ، وسرعان ما تغلبت على استاذيّ الاثنين في الرياضيات والفلسفة . ولم يعد ثمة من حاجة لبقائهما معي .

صوت : وكنت بعد يافعا ، وتحت العشرين من عمرك حتما ، عندما تأهبت للقيام بجولة في مختلف ارجاء المعمورة لرؤ ية روائعها وعجائبها . فرحلت اول ما رحلت الى الشرق .

فيثاغوراس : تصور فتى في مثل سني ، طويل القامة منتصبها ، فضوليا ، تضيء نفسه الآمال والمثل ، ويحدوه حب الاستطلاع ، يحمل محفظة منتفخة بالمال وتحمله احلام الصبا والشباب الى بابل .

صوت : اولى زياراتك كانت لبابل حيث جلست طويلا عند اقدام حكماء ينتمون الى الشعب الذي كانت له ثقافة ومدنية عريقتان عندما كان الاغريق ما يزالون بعد اقواما متوحشين . وهناك تعلمت الكثير .

فيثاغوراس :ولكن السلام الذي نشدته لم يكن في حكمتهم ، فقد كان الشرق ما يزال يرنو اليه .

صوت :ولذا دخلت الهند حيث انفتحت امامك خزائن المعرفة وحكمة القرون . ولدى الهنود وجدت الكثير من الفائدة في علومهم الطبيعية وفلسفتهم ، كما وجدت من بلور بقية حياتك : وجدت بوذا .

فيثاغوراس :ولكن ليس صحيحا انني كنت بوذيا .

صوت :الصحيح هو ان تنسكك ، وتشذيدك على الصفات الروحية ، والتأمل ، كل ذلك يظهر بوضوح تأثير بوذا فيك ، وبعد ذلك دارت بك قدماك غربا فدخلت مصر .

فيثاغوراس :وفي وادي النيل ، ومن الكهنة المصريين تعلمت مبادىء الفلسفة . . .

صوت :وتقول الاسطورة انك في مصر حللت للمرة الاولى معضلة المثلث ذي الزاوية القائمة . واخيرا عدت الى اليونان ، فما كان من امر الفتى الضاحك الذي حمل عصا الترحال قبل ذلك بسنين وسنين ؟

فيثاغوراس :دعني اجب عن هذا السؤال : لقد عدت الى بلادي رجلا هادئا رزينا ، وفوق كتفي ثلاث وخمسون سنة من العمر . . . ولو انني لقيت حتفي خلال السنوات الثلاثين التي قضيتها في تجوالي في الشرق ، لما كان العلم سمع بأسمي قط .

صوت : ولكنك عشت وعدت الى اليونان لتتحدث وتؤلف اخوية ، وتصبح خالدا بين الخالدين في كل عصر ومصر . ولعلك حملت فكرة الاخوية هذه من الشرق حيث كان للبوذيين منظمات مماثلة للرهبانيات التي عرفتها اوروبا فيما بعد .

فيثاغوراس : تماما . . ولقد فرضت طقوس التقشف والطهارة ، والتأمل . وكانت الغاية من ذلك تطهير النفس البشرية ، وتأمين نوع من التخلص من المصير ـ « عجلة الولادة » ـ الذي يقذف بالواحد منا الى الحياة ويستمر في قذفه لنا . . .

صوت : واشتركت في السياسة في مدينة كروتونا الايطالية ، حيث كنت تقيم . ولكنك لم تنجح في اي من مساعيك .

فيثاغوراس : شئت ان انشىء الدولة المثالية ، ولكن كان ينبغي لي بما كنت اتحلى به من حكمة وذكاء ، ان اعرف مسبقا ان ذلك مستحيل .

صوت : صحيح ان اصدقاءك احرزوا نصرا قصير الامد ولكن عندما تضافرت جهود رجال المال والاعمال ، وعقدوا خناصرهم ، رأيت نفسك مع اصدقائك خارج الحلقة . فانتقلت مع من بقي من اعضاء الاخوية الى ميتابونتوم حيث عشت حياة وادعة هادئة ، وعلّمت تلاميذك الفلسفة الروحية الغريبة التي طالما احببت . والان ما كانت تعاليمك التي يمكن ان تثير اهتمام العلماء في القرن العشرين الذي نعيش فيه ؟

فيثاغوراس: كنت ، اولا ، فلكيا ، وكان نظامي افضل ما عرفه العالم في ذلك الزمان . . .

صوت: (مقاطعا) . . . حتى جاء العالم الفلكي الاشهر في القرن الخامس عشر كوبرنيكوس بنظرياته . . .

فيثاغوراس: وقلت ان الارض مستديرة ومعلقة في الفضاء ، وليست جامدة ، واقفة ، ولكنها تدور حول نار مركزية تدعى هستيا . ولم تكن هذه النار الشمس ، لان الشمس كانت تضاء بانعكاس اشعة هستيا عليها .

صوت: وكان شيئا عظيما حقا في ذلك الزمن القول ان الارض ليست مسطحة ، ولا جامدة ، او بلا حركة .

فيثاغوراس: وكانت الكواكب السيارة طبعا ، تدور كذلك حول هذه النار المركزية ، وبحركتها ودورانها عبر الفضاء تصدر عنها اصوات عالية واضحة ولكننا لا نسمعها لاننا اعتدنا عليها .

صوت: وكنت ، يا سيد فيثاغوراس ، شديد الولع بالاعداد ـ على حد قول علماء الاعداد ولكنهم لا يعرفون ، ولا احد يعرف ماذا عملت بالاعداد . فقد توفيت ووريت الثرى قبل قرن كامل من تدوين شيء عن نظريتك العددية .

فيثاغوراس: كل ما يمكنني قوله لك الآن ان نظريتي تقوم على القول ان كل الاشياء اعداد .

صوت: ولعل هذا يمكن التوسع فيه ليتلاءم ونظرية الالكترون الحديثة ، اذا انت اضفت اليها الحركة . . .

فيثاغوراس : الواقع انني لم اكن اعرف شيئا عن الالكترون وثق انني لم اعنِ شيئا من ذلك . . .

صوت : يقول المعلم الاول ارسطو : « يعتقد فيثاغوراس ان عناصر الاعداد هي عناصر كل الاشياء » . ولقد كان لنظرية العدد نتيجة واحدة عظيمة اذ انها اوصلته الى الاختبار بالنوتات الموسيقية واكتشاف ان الاوتار المرنة تصدر الحانا تتوقف على اطوالها . ولعل الآلة التي صنعتها لتجربة صحة نظريتك هي اول آلة علمية فيزيائية صنعت في العالم .

فيثاغوراس : وقد اظهرت كذلك كيف ان الحساب ينبغي ان يقرن بالهندسة ، فابتكرت هكذا فرعا جديدا في الرياضيات .

صوت : ويقال انك اعطيت اليونان المكاييل والاوزان . . .

فيثاغوراس : وفي علم الفلك حددت نجوم المساء والصباح ،وكنت اول من قال ان القمر يضاء بانعكاس النور عليه .

صوت : ونعود الى الاصدقاء الذين احطت نفسك بهم في ميتابونتوم بعد نبذك السياسة ، فليس ثمة اشارة الى انشقاق حدث بين اتباعك وهؤلاء . . .

فيثاغوراس : لعل السبب في ذلك عدم وجود المرأة بيننا . . .

صوت : الواقع انه ليس ما يدل على انك تحدثت الى امرأة طوال حياتك ، مع ان اكثر الفلاسفة اليونانيين كانت لهم آراؤهم في النساء، ومعظم اقوالهم تطري بنات حواء .

فيثاغوراس : باستثنائي ، فقد لزمت جانب الصمت حول هذا الموضوع .

صوت : اسمح لي ان اتساءل ههنا هل تركت حبيبات في الشرق ، في بابل ، او الهند ، او مصر ؟ ولن احرجك في طلب الجواب ، بل اختم هذه المقابلة بالقول انك كنت تزداد حكمة كلما ازددت تقدما في السن . وقد رحلت عن العالم الاول بعد ان هرمت . وباتت ركبتاك تتخاذلان تحتك ، الا ان خطبتك وانت على فراش الموت قد فقدت ، وضريحك مجهول المكان ، وحتى تاريخ وفاتك غير ثابت ! . .

فيثاغوراس : اعتقد ان وفاتي كانت في مطلع القرن الخامس قبل الميلاد . . .

صوت : مات فيثاغوراس المتكلم المتحدث ، ولكن فيثاغوراس المعلم لما يمت . وسيبقى فيثاغوراس حيا ما دام هناك اناس يصغون الى الموسيقى المنبعثة من الاجواء .

فيثاغوراس : لقد ذكرتني بالموسيقى ، فأنا استمع كل مساء وقبل ان انام ، الى العزف بالقيثارة لانقي نفسي من هموم العالم ومشاكله ، واخلّصها من كل الشوائب العالقة بها .

صوت : خيرا تفعل ! . . والآن استأذنك بالانصراف .

فيثاغوراس : مع السلامة .

أبقراط : ابو الطب
(حوالي ٤٦٠ - حوالي ٣٧٧ ق.م.)

صوت :كان كفاح الانسان من اجل الصحة متشابكاً تشابكاً غريباً مع دينه . وهو ما يزال الى اليوم مرتبطاً به : والصلوات التي ترفع لشفاء المريض أمر يحدث يومياً . وذلك شيء طبيعي ، لأن الكثير من الألم الجسماني لا يوجد إلا في العقل ، وعندما يصحح ذلك ينتج عنه صحة الجسد . بمعنى آخر « العقل السليم في الجسم السليم » . وقد بدأ كفاح الانسان من اجل الصحة في الغابة ، حيث لعبت المصادفة دوراً رئيسياً في الحد من السنوات التي يعيشها على الارض . وحتى في عصور ما قبل التاريخ ، كان للعلم دوره في هذا الكفاح المرير . فلقد وجدت متحجرات تثبت ان البشر في العصر الحجري عرفوا ما فيه الكفاية لتجبير العظام ، وكانوا يثقبون الجمجمة ليطردوا الشيطان الذي كان يعذب الضحية .

وعندما يبدأ التاريخ نجد الكهنة هم الاطباء ، وآلهتهم مسؤولين مباشرة عن الشفاء أو الوفيات . وهكذا فان الدين والايمان في بعض النفوس عقدا اليدين مع الخرافة والجهل في نفوس الكثيرين ،

ومشى الكل إلى جانب العلم الذي كان ينبغي للبشر ان يهتموا به قبل أي شيء آخر .

وفي اليونان كان اسقلبيوس إله الشفاء . وما تزال الى اليوم آثار المعابد التي شيدت له قائمة . كان إلهاً عظيماً ، وشعبياً ، إذ أي شيء يرغب فيه البشر اكثر من الصحة والتحرر من الألم ؟ على مذبح معابده كان يصلي الضعفاء والمتألمون ، ويستلقون هناك ويستسلمون للنوم بانتظار الشفاء مما بهم . ولن نطيل اكثر من ذلك في هذه المقدمة ، لكي نقفز من عبادة الآلهة الى الكلام على الاطباء أنفسهم ، وعلى ابيهم ، أو رائدهم ، ابقراط - وهو معنا الآن .

ابقراط : شكراً على اللقب أولاً ، وبعد ذلك أود ان أقول انني لم اكن لأهتم البتة بالكهنة الذين ذكرتهم وربما لم اكن اعير اسقلبيوس هذا أي اهتمام . فقد شئت قبل أي شيء آخر أن أطبب الناس وأشفيهم ، وفي سبيل ذلك كان علي ان اعرف لماذا هم مرضى .

صوت : ولدت في جزيرة كوس حوالي سنة ٤٦٠ ق.م. وترجع الاسطورة بنسبك عبر ابيك الى اسقلبيوس ، وعبر أمك الى هرقليس ، او هرقل !

ابقراط : اذا كان ما تقوله الاسطورة ، صحيحاً ، فأكون حقاً عاقاً ذلك بأنني انزلت اسقلبيوس عن عرشه ، وبعملي هذا القيت ظلاً على اعمال هرقليس الجبارة .

صوت : كان الدك الحقيقي هرقليدس ، ووالدتك

فاناريتي . درست الطب اولا مع والدك ، ولكن فيما بعد ذهبت لتتلقى مزيداً من هذا العلم على يد الطبيب هيروديكوس من مدينة سيلامبريا . وكان هذا الطبيب هو من جعل مرضاه يمشون مسافة عشرين ميلاً بغية تخليصهم من « الاخلاط » الكريهة البغيضة فهل لك ان توضح لنا ماذا تعني بالاخلاط التي ذكرت ؟

أبقراط : الأخلاط أربعة وهي : الدم والبلغم والصفراء والسوداء ، وكان القدامى من العلماء يزعمون أنها تقرر صحة المرء ومزاجه .

صوت : ثم اكملت دراساتك بالسفر ، غير ان تنقلاتك كانت محدودة جداً بالنسبة الى تنقلات من سبقوك . فأنت لم تزر الشرق الاقصى ، ومن المؤكد انك لم تذهب قط الى مصر .

ابقراط : لقد زاولت مهنتي على جزيرة ثاسوس ، وفي مدن عديدة من مقاطعة تساليا . وكان أول مريض مشهور الملك برديكاس الثاني المقدوني . وكان الثاني ديمقريطوس الذي عرف بلقب الفيلسوف الضاحك ، واليه يعزى اكتشاف الذرة .

صوت : أعتقد ان من يعيد اكتشاف الذرة الى ديمقريطوس هذا مخطىء جداً ، لأن أبا الذرة الحقيقي ـ لمعلوماتك ولمعلومات الجميع ـ هو موخوس الصيدوني الذي عاش حوالي ١٢٠٠ ق.م. .

ابقراط :حسناً ، وشكراً على هذا التوضيح الهام . . .

صوت :وخلال اقامتك في مقدونيا قررت أن اليونان مهددة بالطاعون ، ولم تكن أقوال الملك برديكاس لتحملك على البقاء بعيداً عندما يكون موطنك مهدداً بالخطر . فذهبت لتوك الى آثينا ، وباشعالك الحرائق الكبيرة في مختلف أرجاء المدينة استطعت أن تجنبها الوباء الخطير .

ابقراط :لقد سبق لي أن لاحظت أن الحدادين هم الذين منحوني فكرة أن لهيب النار يطهر الاجواء ـ وهذا أمر معروف وثابت علمياً .

صوت :ومع أنك أبصرت النور في أسرة من الأطباء ـ الكهنة ، فانك قطعت صلتك نهائياً بتلك البدعة . فالقيت جانباً التعاويذ ، ورفضت الاعتراف بقوة الصلاة . فقد كنت ثائراً ضد فريق اسقلبيوس ، ومتمرداً عنيفاً .

ابقراط :ومع ذلك لم يضطهدني أحدٌ ، ولم تجر أي محاولات للتخلص مني .

صوت :على أي حال ، فقد كنت رجلاً فرداً ، وكان المرضى لا يحصون .

ابقراط :صحيح أنني كنت رجلاً فرداً ، ولكنني هدمت معبد الآلـه وبدأت اصلاحاً اعتقد أنه ما يزال يعصف بالبشرية من اجل رؤيا أوضح للمرض والصحة .

صوت : كنت ، يا سيد ابقراط ، شجاعاً لا تعرف الخوف ، وصادقاً شريفاً . وصحيح أن أشياء كثيرة لم تكن تعرفها ، إلاّ أن شيئاً واحدا كنت تتمسك به وتتشبث : وهو رغبتك في المعرفة .

ابقراط : كنت واحدا من اولئك المشككين الاصيلين الذين كان ينبغي لهم ان يروا بأم اعينهم ويلمسوا بأيديهم - وحتى مع ذلك لم يكونوا متأكدين تمام التأكيد .

صوت : ان نظرتك الاخلاقية الى مهنة الطب جديرة بكل تمجيد ، وانطلاقاً منها وضعت لهذه المهنة الجليلة وللاشخاص الذين يمتهنونها ما عُرف بيمين ابقراط ، التي ما يزال يؤديها الاطباء المتخرجون من الكليات الطبية عاماً بعد عام . ولا بأس ههنا من ايرادها كاملة تعميما للفائدة من هذا العهد الذي نعتمد على اكثره حتى يومنا هذا .

ابقراط : « اني أُقسم بالله رب الحياة والموت وواهب الصحة ، خالق الشفاء وكل علاج ، وأقسم باسقلبيوس ، وأُقسم بأولياء الله من الرجال والنساء جميعاً ، وأُشهدهم جميعاً على أني أفي بهذه اليمين وهذا الشرط ، وأرى ان المعلّم لي هذه الصناعة بمنزلة آبائي ، واواسيه في معاشي ، واذا احتاج الى مال واسيته وواصلته من مالي . وأما الجنس المتناسل منه فأرى أنه مساوٍ لأخوتي ، وأعلّمهم هذه الصناعة إن احتاجوا الى تعلّمها بغير اجرة ولا شرط ، وأُشرك

اولادي واولاد المعلم لي والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في هذه الصناعة . واما غير هؤلاء فلا أفعل به ذلك . وأقصد في جميع التدبير بقدر طاقتي منفعة المرضى . وأما الاشياء التي تضرّ بهم وتدني منهم بالجور عليهم ، فأمنع منها بحسب رأيي ، ولا أعطي اذا طلب مني دواء قتالاً ، ولا اشير أيضاً بمثل هذه المشورة . وكذلك أيضاً لا أرى أن أدني من النسوة فرزجة تسقط الجنين ، وأحفظ نفسي في تدبيري وصناعتي على الذكاء والطهارة ، ولا أشق ايضاً عمن في مثانته حجارة ، لكن أترك ذلك الى من كانت حرفته هذا العمل . وكل المنازل التي أدخلها انما أدخل اليها لمنفعة المرضى وأنا بحال خارجة من كل جور وظلم وفساد إرادي مقصود اليه في سائر الاشياء ، وفي الجماع للنساء والرجال ، الأحرار منهم والعبيد . وأما الاشياء التي أعانيها في اوقات علاج المرضى أو اسمعها ، أو في غير اوقات علاجهم ، في تصّرف الناس من الاشياء التي ينطق بها خارجاً فأمسك عنها وأرى ان مثالها لا يُنطق به . فمن أكمل هذه اليمين ولم يفسد منها شيئاً كان له أن يكمل تدبيره وصناعته على أفضل الاحوال وأجملها، وأن يحمده جميع الناس فيما يأتي من الزمان دائماً. ومن تجاوز ذلك كان بضده». (منقولة ترجمة «عهد ابقراط» عن« المجلة الطبية العلمية» التي كان يصدرها الدكتور فؤاد غصن ـ الجزء ٣٠ ـ المجلد الاول، تشرين الأول ١٩٢٣).

صوت : وفي العقد التاسع من عمرك او بعده بقليل توفيت في لاريسا في مقاطعة تيساليا . ودخلت التاريخ باسم

خالد حيكت حوله الاساطير والروايات الغربية العجيبة .

ابقراط : يدهشني ذلك ، يا سيدي ، مع أنني القيت جانباً الاسطورة والاعتقادات المبتذلة وحاولت شق طريقي الى سر الصحة . . .

صوت : لقد كنت في الواقع في حقل الطب أول من رأى وفكر في ما رأى . أردت ان تعرف ، ولكنك اردت ان تعرف من اجل شفاء المرضى . ولم تكن لك رغبة في خداع مرضاك واللجوء الى الشعوذات . ومن بين وسيلتين من المعالجة الزمت نفسك باختيار الطريقة الأقل اثارة للعجب والاعجاب .

ابقراط : بالطبع ، فان عرض المهارة للتأثير على المريض نوع من الغش والخداع ، وأنا فوق كل شيء اردت ان اكون صادقا مع اولئك الذين كانوا يأتون لعيادتي . وقد بلغت بي الامانة المهنية الى حد كنت ارفض معه معالجة اولئك الذين كنت اعتبر ان حالاتهم ميؤوس منها .

صوت : لا يسعني في هذا المجال الا القول انك انتزعت الطب من الفلسفة وجعلت منه علماً . وقد انشأت طريقة سليمة صحيحة للتصرف والعمل وأتحت لمن سيأتون بعدك امكانية استئناف العمل من حيث توقفت . ولست مخطئاً اذا كان التقدم طوال قرون قد انتهى عملياً بخليفتك العظيم جالينوس . فقد دللت على الطريق وجاء بعدك ليبدأ من حيث توقفت .

فهلا حدثتنا باختصار عن بعض اساليب المعالجة الطبية التي كنت تتبعها .

ابقراط : ان اول الاسس والمبادىء التي اعتمدتها ـ وبذلك شذذت عما كان متبعاً في مصر وسواها من قبل كـان البدء بمعالجة المريض فور زيارته لي .

صوت : الواقع ان ذلك امر بديهي ، ياسيد ابقراط ، ولكن سبق ان قلت انك شذذت عن القاعدة التي كانت متبعة . فهل لنا ان نعرف كيف كانت تتم المعالجة قبلك .

ابقراط : كانوا في السابق يدعون المريض المتألم دون ان يفعلوا شيئاً لعلاجه طوال خمسة ايام . فبعد ذلك اذا بقي حياً كانوا يبذلون الجهد لشفائه مما به . وفي ظل مثل هذا النظام كان الموت ربما ينقذ الطبيب من كل ازعاج . وبالطبع لم اكن أرى أي معنى لذلك ، وأهملت هذا التقليد كلياً .

صوت : وماذا لديك غير ذلك تضيفه في هذا المجال ؟

ابقراط : كنت الاحظ بدقة ماذا يأكل المريض . فالأكل باعتدال أمر صحي ، والحمية بحكمة فيها استعادة للصحة . وبالنسبة الي كان الفارق بين الطبيب الماهر والطبيب الفاشل هو في كيفية وصف العقـاقير وفي المهارة في وصف الطعام المسمـوح به للمريض .

صوت : على ذلك تكون ، يا ابا الطب ، الرائد في حقل التغذية والحمية الذي يعلق عليه عالم اليوم الحديث

اكبر اهمية . وقد قلبت رأسا على عقب كل ما عرف عن المعالجة في حالات الحمى .

ابقراط : ما نزال في حقل التغذية والحمية ، يا سيدي . فكان من رأيي ان الجسم البشري يضعف بفعل الحمّى ، ولذا ينبغي الاهتمام والتشدد كثيراً بأمر الاكل والحركة . ذلك بأن كل التغييرات في ذلك الحين تكون خطرة على الانسان .

صوت : انك بذلك اقتربت كثيراً من الآراء الطبية الحديثة . فقبل زمنك قضي على الكثيرين بعلاج الحمّى الذي كان يقوم خطأ على ممارسة الحركة العنيفة والطعام الثقيل المفرط .

ابقراط : بوجه عام كنت أشعر أن الصحة الوافرة هي بمثابة المرض . ويلخص نظرتي هذا المبدأ : « ان الاصحاء لا يعرفون شيئاً عن صحتهم . ولكن المرضى وحدهم يعرفون » .

صوت : وكنتيجة لهذه النظرية نصحت بالحاح بالاعتدال في كل شيء .

ابقراط : أود ان أوضح ههنا ان القاعدة الذهبية كانت اساس مفهومي للحياة الحكيمة .

صوت : وبالرغم من انك ورثت عن الاطباء ـ الكهنة الذين سبقوك ٢٦٥ عقاراً ، فانك لم تستعملها الا نادراً جداً . وقد اكتفيت بالاعتماد على المناخ والماء والحمية ـ تاركاً الطبيعة تأخذ مجراها .

ابقراط :وقد كتبت عن تأثير الرياح والمياه والنجوم ، واعتقد ان تحليلي لتأثيرات المناخ والطقس ما يزال صحيحاً .

صوت :انه في الواقع لكذلك . أما في ما يتعلق بتأثير النجوم ـ فاسمح لي ـ بأن أذكر انك لم تتخلص مما كان الماضي المظلم ينسبه اليها . ولكن على الرغم من الكثير من الاخطاء فانك نبذت الفكرة القديمة القائلة ان المرض تضرب به الآلهة البشر عقابا لهم . وذلك أمر محمود يسجل لك .

ابقراط :شكراً ، يا هذا . واني اعترف بجهلي الكثير عن العظام والعضلات والاعصاب . . .

صوت : . . . والكثير من الاعضاء ووظائف الجسم الاخرى . ولكن ما يشفع لك هو اننا ـ اذ نذكر اخطاءك ـ لا يسعنا ان ننسى انك لم تر جسماً بشرياً مشرّحاً قط ، كما انه لم يكن بين يديك اي مجهر ، ولم تكن مطلعاً على الكيمياء ، ولم تعرف شيئاً عن الجراثيم ، وعن عمل الغدد .

ابقراط :صحيح ، كنت شخصا في غرفة مظلمة ، يحاول بلا ادوات ان يصلح آلة دقيقة الصنع . وصحيح كذلك ان جهودي كانت غير مصقولة وبسيطة ـ فانني لم ادمر الآلة التي عملت على اصلاحها .

صوت :يكفي ، يا سيد ابقراط ، أنك كنت تحاط من كل جانب برسوم الخرافة لأنك اعلنت ان المرض ينشأ من اسباب طبيعية ، ونزعت عنه غموضه الزائف .

وبذلك ازحت الكثير من رعبه . وكلمة اخيرة :
وجدت الطب يلفظ أنفاسه في معابد دين بالٍ ،
وتركته مسيطراً وحيوياً قائماً على أساس رسالته السامية
للتحرر من الألم .

جالينوس : عبادة عمياء
(حوالي ١٣١ ـ حوالي ٢٠١)

صوت :ليست برغاموس مكانا يُذكر اليوم ، ففيها يعيش حوالي عشرين الف نسمة ، قوام حياتهم التجارة التي يتولونها بين الشرق والغرب. لم تكن هذه المدينة كبيرة في يوم من الايام ، ولكنها كانت على جانب من الاهمية والشهرة حوالي السنة ١٩٧ قبل الميلاد . بعد ذلك اخذت في الانحطاط ، ومع مرور الايام اصبحت شهيرة بسبب شيء واحد هو أنها مركز ابليس ، كما يصفها القديس يوحنا في الرؤيا . اما مقر ابليس فكان ربما العرش الجميل الذي اقامه الشعب الاغريقي الورع لرب الارباب زفس .

اسس برغاموس احد الخصيان ويدعى فيليتاروس ، وكان قد اوفد الى هناك لحراسة كنز ، فأعلن العصيان على سيده ، وانشأ لنفسه دولة خاصة . ولكن السبب في بقاء اسم برغاموس حيا في التاريخ هو بسبب القديس يوحنا من جهة ، وبسبب جالينوس ، آخر عظماء الاطباء من الاغريق من جهة اخرى . . .

والآن ها نحن مع جالينوس نتجاذب اطراف الحديث في هذه المقابلة بقصد التعرف الى شخصيته واعماله

الجليلة في حقل الطب . . . هات حدثنا عن نشأتك يا سيد جالينوس .

جالينوس :انا ولدت في برغاموس سنة ١٣٠ للميلاد ، وكان والدي نيكون من اليونانيين المثقفين والمتعلمين ، ولعله كان يمارس مهنة الهندسة . اما والدتي فانها كانت امرأة سليطة ولا تفتأ تشكو وتتذمر . . .

صوت : انها معذورة في ذلك ، فلا بد ان زوجها ، اي والدك ، كان مسرفا ومبذرا . ولما اظهرت انت عبقرية فائقة لم تعد الحياة سهلة بالنسبة اليها .

جالينوس :ذلك ممكن ، يا سيدي ، ولكن ما لنا ولهذا الآن . لما توفي والدي كنت في العشرين من عمري ، فعزمت على التجوال في العالم لدراسة الطب . . .

صوت :الواقع انه ليس هناك سجل دقيق مدونة فيه رحلاتك تلك ، ولكن من المؤكد انك اقمت زمنا في ازمير ، حيث درست ، وكنت كذلك في الاسكندرية فاستمعت الى محاضرات في الطب القاهـا ستراتـونيكوس واسكريون ، كما استمعت الى محاضرات في علم لتشريح كان يلقيها هيراكليانـوس،والثلاثة من اشهر معلمي ذلك العصر . ولكن اي نوع من الشباب كنت ؟ وهل كانت لك قصة غرام ؟ . ان أي رد يمكن ان يكون صحيحا ، ولكن المؤسف انك لم تذكر شيئا عن ذلك ، فهل لنا ان نعرف الحقيقة الآن ؟

جالينوس : :ما دمت قد لزمت الصمت في الماضي في ما يتعلق

بحياتي الخاصة ، فلا أرى من المناسب الآن ان اتحدث في هذا الموضوع . كل ما استطيع قوله انني كنت مجتهدا ، ونشيطا ، ما دمت وانا بعد في الثامنة والعشرين قد عدت الى برغاموس لممارسة مهنة التطبيب . وقد كنت بالطبع ناجحا ومتفوقا على جميع اقراني ومعاصري . وقد انهمكت فترة من الزمن في تكديس الخبرة والمهارة .

صوت : وخلال تلك الفترة لم يأت احد على اي ذكر لوالدتك . ولما كانت برغاموس اصغر من ان تتسع لعبقريتك ، فقد يممت شطر نيويورك تلك الايام - اي روما - ولكنك استُقبلت فيها بكل فتور لانك لم تكن تهتم بالمدارس الطبية الحديثة التي كانت سائدة عهدئذ .

جالينوس : الحقيقة هي ان ابقراط ، أبا الطب المعروف ، كان مثالي الاعلى وبطلي المفضل ، وقد ألقيت جانبا بكل ما كان الاطباء الحديثون والمجددون يحاولون قوله وتثبيته .

صوت : وقد حالفك الحظ ، فلما شفيت انديموس الذي كان يعتقد انه مصاب بمرض عضال ذاعت شهرتك . وقد تقبلتك روما وراح المرضى يدفعون لك اجورا مرتفعة . ومما يروى ان سيدة ثرية عالجتها مدة اسبوعين اثنين دفعت لك ما يوازي الفي دولار لقاء خدماتك الطبية ، وكانت قيمة العملة في ذلك العصر اكبر مما هي عليه اليوم .

جالينوس : وقد اضطر ماركوس اوريليوس ، الفيلسوف الملك ،

اللطيف الى اتباع الموضة ، فعالجت جلالته من الم في المعدة ، ووصفت له الحمية عن الطعام وقصرت طعامه على الجبنة ، فكانت النتيجة مرضية للغاية لانه لما اضطر للذهاب الى الحرب وضع ابنه كومودوس في رعايتي وتحت اشرافي الطبي .

صوت :كل ذلك الانصراف الى طبقات المجتمع العليا لم يضر بجالينوس بل جر عليك الانتقاد اللاذع القاسي من قبل اخوانك الاطباء . . . وربما كانوا على شيء من الغيرة والحسد منك ، وانت الشاب اليوناني الوسيم النابغة الذي كان يتأنق في ملبسه ولكنه يعمل بجد واجتهاد كما لو كان من اولئك الذين يحمّلون السفن ويفرغونها . ولكنك لم تكن لتأبه في قليل او كثير بهؤلاء النقاد ما دام البلاط الى جانبك .

جالينوس :والواقع انني كنت مشغولا جدا ، لا يسعني ان اضيع وقتاً ثمينا وطويلا للرد عليهم ، وكنت دائم الدرس ، ولكن ليس في الكتب . فالطبيعة كانت مدرستي المفضلة ، وكان جل اهتمامي ينصبّ على معرفة ما يجري داخل الجسم البشري ، فكيف يتسنى لي ذلك ؟ لقد كان تشريح جثة رجل ميت اهانة كبرى . حتى نفوذ البلاط الملكي لم يكن لينقذني فيما لو ارتكبت مثل هذه الجريمة النكراء . ولكنني كنت خصب الخيال ، ففكرت انه ليس ثمة كبير اختلاف بين الانسان والقرد ، وهكذا درست علم وظائف الاعضاء البشرية وعلم التشريح بتقطيعي القردة وتشريحها . . . ولما كنت لا اجد القردة كنت الجأ الى تشريح الخنازير . . .

صوت : تماما كما هي الحالة اليوم ، فان اكثر التجارب الطبية والعلمية تجري على الخنازير، لو تعلم !

جالينوس : وبهذه الطريقة تسنى لي ان اعرف اشياء كثيرة ، كان المعاصرون لي من الاطباء يجهلونها جهلا تاما . كان ارسطو يعلم ان الشرايين مملوءة هواء . . . فأظهرت اعمالي ان المعلم الاول كان على خطأ في ما ذهب اليه لان الشرايين تحتوي على دم .

صوت : والواقع ، يا سيد جالينوس ، انك كدت تكتشف الدورة الدموية التي اكتشفها من بعدك الطبيب والعالم الانكليزي وليام هارفي ، ومن قبله بزمن طويل جدا الطبيب والعالم العربي المعروف ابن النفيس الدمشقي . فلقد كان تشريحك يعوزه شيء من التقنية ، وهكذا في حين وجدت ان ثمة دورة دموية عبر الرئتين ودورة دموية في العروق او الاوردة ، فانك لم تربط بين الدورتين ، فلقد كان نظام العروق او الاوردة عندك يبدو ان مصدره الكبد ، ولم تكن واضحا البتة في تفصيل كيفية عودة الدم . وقد فاتك كذلك معرفة اي شيء عن وجود العروق الشَعرية او الرفيعة جدا ، وكذلك كانت لك فكرة غريبة عن القلب . وجدت الصمامات ولكنك لم تربطها بحركة الدم ، ولم يخطر ببالك ان القلب هو اداة او محرك للضخ . وهذه النظريات الخاطئة لم تكن لتؤثر تأثيرا كبيرا لو لم تكن قد كسفت تماما كل واحد من الاطباء والعلماء بحيث اصبحت كلمتك هي الكلمة الفصل طوال قرون .

جالينوس : اما في ما يتعلق بالعظام ، فقد كنت على اطلاع اوسع وأفضل فيها . ويمكن القول ان الحظ حالفني اكثر في هذه الاعضاء من الجسم البشري فقد شاءت المصادفة ان اعثر فوق قمة احد الجبال على هيكل عظمي للص مقتول ، فعكفت على دراسة تلك العظام . اما معلوماتي عن العضلات والاوردة فقد استقيتها من دراستي للقردة .

صوت : ولكن عملك في هذا الحقل لم يكن على شيء من الدقة ، فقد قلت بأن اعصاب الاحساس مصدرها الدماغ ، واعصاب الحركة مصدرها السلسلة الفقرية ، وكنت بين الاوائل الذين اكتشفوا واثبتوا ان هناك نوعين من الاعصاب ، وقد دوّنت ذلك بكل ذكاء ومهارة حبرا على ورق ، ووصفت الاعضاء التي في الصدر والجذع ، وعرفت معرفة جيدة وظيفة كل عضو منها . ومع انهماكك في التطبيب والدرس وجدت الوقت الكافي لتكتب كل ما تعلمت والكثير مما لم تتعلمه ، فهل تذكر لنا عدد مؤلفاتك ؟

جالينوس : بلغت مؤلفاتي سبعة وثمانين كتابا واربع عشرة مقالة طبية ، منها تسعة كتب في علم التشريح ،وسبعة عشر كتابا في علم الصحة او الفيزيولوجيا ، وستة كتب في علم الامراض،اسبابها واعراضها او الباثولوجيا ، وستة عشر كتابا حول المداواة والعلاج ، وثلاثين كتابا في الصيدلة .

صوت : وعلى وفرة المواضيع التي عالجتها في كتبك السبعة

والثمانين نلاحظ انك لم تكتب شيئا حول موضوع الولادة ، فلماذا يا ترى ؟

جالينوس : الواقع أن ولادة طفل كانت شيئا لم يكن ليهتم به أي رجل عاقل ، وقد دامت هذه الحال قرونا عديدة على ما اعتقد .

صوت : صحيح ، والواقع ان هذا الموضوع لم يُنتزع الا حديثا من بين ايدي القابلات القانونيات ، هذا اذا كان قد انتزع منهن حقا . واسمح لي الآن ان اكون على شيء من الصراحة معك ومناقشتك في بعض النظريات التي خلطتها بالكثير من السذاجة ، اذا لم نقل السخافة او البلادة . فقد كانت لك نظرية لكل شيء ، ودوّنت كل نظرياتك ، ومن بين نظرياتك الشاملة الكاسحة تلك القائلة بأن كل شيء في الطبيعة يدل على التخطيط الذكي ، وهو شاهد على طيبة الخالق ، ولم يخطر قط ببالك ان الحياة تعدّلها تعديلا كبيرا حركة القوتين العظيمتين الوراثة والبيئة .

جالينوس : اصحيح ما تقول ، يا سيدي ؟ هل ثبت ذلك علميا بعد العصر الذي عشت فيه ؟

صوت : بالطبع ، يمكنك ان تأخذ كلامي على محمل الصدق والجدّ ، كن واثقا من ذلك . وأنتقل الى نظريات ثلاث طلعت بها فأثارت طوال قرون المتاعب بالنسبة الى مهنة الطب ، وكنت قد اعلنت انها وقائع لا تقبل الجدل .

جالينوس : وما هي هذه النظريات الثلاث التي تتحدث عنها ؟ اود ان اعرفها واعرف رأي الطب الحديث فيها .

صوت :النظرية الاولى تقول بأن الدم يأخذ مزاجا عقليا او نفسيا طبيعيا في الكبد ، ومزاجا حيويا في البطين الايسر ، ومزاجا حيوانيا في الدماغ ، وان الجسم بكامله تحركه الروح او النفس .

اما النظرية الثانية فهي ان الدم يمر من البطين الايمن الى البطين الإيسر من خلال مسام خيالية موجودة في الجزء الذي يقسمها . وثالثا ان الصديد ينبغي ان يتكون في الجرح الذي يلتئم ، وهي نظرية عرفت بعد زمن طويل بالتئام الجرح . . . وقد اخرت هذه الفكرة الجراحة زمنا طويلا وتسببت في وفاة الآلاف المؤلفة من البشر .

جالينوس :شكراً لك على اطلاعي على هذه النظريات المثيرة !

صوت :والآن ، يا سيد جالينوس ، لقد ولدت محبا للتجوال يحدوك التعطش الشديد للمعرفة .

جالينوس :ولقد بقيت في روما اطول مما بقيت في اي مكان آخر ، ولكن حتى روما لم تستطع ان تشدني اليها الى الابد . .وقد سرت شائعة غامضة اتهمتني بأنني هجرت المدينة الامبراطورية هربا من وباء الطاعون ، ولكن ذلك غير صحيح .

صوت :بالطبع ، ولقد فعل ابقراط العكس تماما . . . وعلى اي حال تركت مهنة التطبيب وقمت برحلات طويلة ،لا احد يعرف كل الاماكن التي زرتها ، ولكن شوهدت في جزيرة لمنوس التي جذبتك اليها تقارير عن وجود معدن

« تيرا ميتا » ذي الخصائص العلاجية . والمرجح انك لم تطل الاقامة هناك ، ولكن المؤكد انك لم تعد الى روما بعد ذلك اليس هذا صحيحا ؟

جالينوس : انه الواقع ، يا سيدي ، وقد تعددت زياراتي الى عدد من الاماكن التي كنت اتردد اليها دارسا كاتبا ومخبرا اصدقائي باكتشافاتي ، مهتما بالطبيعة اشد الاهتمام .

صوت : وهكذا يكتنف الغموض اواخر حياتك ، حتى اننا لا نعرف تاريخ وفاتك ومكانها .

جالينوس : اذا كان تاريخ وفاتي قد بقي مجهولا فانني سأكشفه لك الآن . فقد عشت ثمانين سنة ، وكانت وفاتي في جزيرة صقلية .

صوت : شكراً لك على هذه المعلومات ، ولكن لا يسعني في هذا المقام الا ان اقول انه من الغريب حقا ان تكتنف الظلمة العشرين سنة الاخيرة من حياة امرىء شهير مثلك اشرق طويلا في سماء روما ولمع في القصر الامبراطوري ، ولكن على الرغم من اختفائك فان عملك واثرك بقيا خالدين . فبعدك لم ينهض اي معلم طوال الف سنة . وقد اصبح اسمك اسطورة ، بل مرادفا للعصمة والالوهية . وقد سيطرت الف سنة على عقول البشر ، وخصوصا عقول الناس في القرون الوسطى المظلمة التي كنت بالنسبة اليها معجزة المعجزات . لقد رأيت كل شيء ، وعرفت كل شيء.لم تخلّف اي اسرار وكنت بالنسبة الى الطب ما كان ارسطو بالنسبة الى العلماء ، وكان من يتعلم جالينوس

يتعلم اتقان الطب . وزهاء الف سنة كان العالم عند قدميك يمنح اخطاءك التقديس نفسه الذي يمنحه لحقائقك، ولعل الخلود كان من نصيبك لأن الناس عبدوك بعد الله عبادة عمياء . . . لم تقصد ان تصيب الطب بأي ضربات قاسية ، ولكنك مع ذلك تحيا الى اليوم بسبب التقدير الذي قوبلت به اخطاؤك !

جالينوس :لقد غمرتني بتقديرك البالغ ، يا سيدي ، فشكرا لك وافرا .

رودجر بايكون : أحب العلم وتألم
(١٢١٤ - ١٢٩٤)

صوت :كانت اوروبا تستيقظ وقد جَلبَتْ نهايةُ رُقادِها القَلِق السكولاستية او الفلسفة النصرانية التي كانت سائدةً في القرون الوسطى واوائل عصر النهضة ، وقد بُنيت على منطق ارِسطو ومفهومهِ لما وراء الطبيعة ولكنها اتَسَمَتْ في اوروبا الغربية خاصة باخضاع الفلسفة للاهوت . ومن ابرز رجالها توما الاكويني الذي حاول ان يُقيم صلةً عَقلانية بين العقل والدين ، وكان ذلك افضلَ من لا شيء ؛ ولكنْ افضلُ قليلا. وكانت هذه الحركةُ السكولاستية هي التي جعلت ارسطو معصوما عن الخطأ ، ورفعت جالينوس الى مستوى الالهة . وكان من الكفر والهرطقة الشكُّ في تعاليم هذين العظيمين ، ولم يكن ثمة اي شيء يعرف بالاختبار ، فارسطو قد حل كل المشاكل المتعلقة بما وراء الطبيعة وبالتاريخ الطبيعي . وجالينوس قد اطلع البشر على كل ما يُمْكِنُ ان يُعْرَف عن الجسم البشري واستعمالِ العقاقير . ومن كان مُطلعا على تعاليم هذين الرجلين كان يُعْتَبَرُ مثقفا ومتعلما .

وإنه ليبدو غريبا بالنسبة الينا اليوم ان يَقْبَلَ ايُ واحد مثل هذا الايمان الاعمى . فعندما يَطْلَع اي عالم في يومِنا هذا بنظريةٍ ما فان آلاف العلماء يُجْرونَ الاختباراتِ للتحقُق من النتائج التي توصل اليها . ولكن الناس في اوروبا في القرن الثاني عشر كانوا كالاطفال في تصرفاتهم وردود فعلهم العاطفية إزاء مثل هذه الامور ، تماما كالاطفال الذين يتقبلون دون تساؤ ل كُلَ ما يُروى لهم ، سواء عن الجن او بابا نويل وما شاكَلَ ذلك ومثلما هنا وهناك يقومُ طفلٌ ذكي في العاشرة من عُمُره فيثير الاعتراضات مُطالبا بانَ تُبَرْهن له الاشياء هكذا نهض في اوروبا في هذه الفترة او تلك امرؤٌ رفض ان يُعميَه الايمان عن الحقيقة وتجرأ على طَرْح الاسئلة لماذا لماذا ولماذا ؟ ان مِثْلَ هذا الرجل ولعله كان اكثرَ من رجلٍ عادي هو رودجر بايكون .

بايكون : شكرا يا سيدي على هذه المقدمة الوافية والرائعة حقا .

صوت : انت من مواليد سنة ١٢١٤ في الشستر في مقاطعة صمرسيت بانكلترا . ومجردُ مراجعة كُتُب التاريخ عن عصر الملك هنري الثالث يبرزُ لنا اي بلد كانت انكلترا في العهد الذي عاش فيه بايكون .

بايكون : كان السكان على احسن حال ممكن من اليسر وخصوصا اهلي . وقد درست في اكسفورد حيث تخصصت في علم اللاهوت ، واصبحت كاهنا سنة ١٢٣٣ . وكنت فتى ذكيا ، بل لامعا ، وقد اعترف بمقدرتي وانا بعد في التاسعة عشرة .

صوت : ومن اكسفورد انتقلت الى باريس ، وهناك درست في الجامعة ، واحرزتَ شهادة الدُكتوراه في اللاهوت .

بايكون : وخلال اقامتي في باريس وقعت تحت تأثير اعلام كبار من العرب . وقد تأثرت اكثر ما تأثرت بكتابات العالم المغربي الخازن ، وابن سينا . ولا ريب ان اعمال هذين الخالدين كان لها اعظم الاثر في حياتي . وصحيح انني منذ البدء كان مُقدرا لي ان اصبح من رجال الكنيسة ، الا هذا الامر لم يؤثر في اهتمامي بالعلوم ، ذلك الاهتمام الذي قوي وترسخ اكثر فاكثر بعد ان اصبحت في سلك الرهبنة الفرنسيسكانية .

صوت : وحوالي سنة ١٢٥٠ عاد الى انكلترا وحاضر في اوكسفورد اغربُ راهب عرفه العالَم حتى ذلك الزمن . وكانت محاضراتُكَ تُعالِجُ العِلْمَ والتربية ، لا المواضيعَ الدينية . وعندما كُنتَ تتحدثُ عن المعرفة او التعليم كُنت تَعْني تماما ما نَعْني به نحن اليوم في عصرنا الحديث ، البحثَ العميق عن الحقيقة . اما بالنسبة الى السكولاستيين فلم يكن ذلك معنى المعرفة ، ولم يكن ذلك معناها في نظر الاسكندر ، من مدينة هاليس اليونانية الذي كان يُعتبر اعظم المُربين في العالم لانه وضع مُؤَلَفا فيه اسئلة واجوبة يروي فيها كُلَ ما يرغبُ المرء في معرفته ، وكان يكفي الطالب ان يحفظ ذلك الكتاب عن ظهر قلب .

بايكون : ضد هذا الرجل اطلقت ضرباتي الحامية . . . قلت ان طريقته في التربية كانت سخيفة ، وانه شخصيا لم يكن له

الا معرفة سطحية بالتربية، ووصفته بأنه كالصدفة الجوفاء في ما يتعلق بالمعرفة ، ونعته مع امثاله بالدجل والادعاء الفارغ . . .

صوت : وبالطبع كان ذلك ، مع رفضك الانحناء امام المرجع الثقة التاريخي ، كافياً لكي يَجُرّ عليك المتاعب والدمار ، ذلك بان زعيم الرهبنة الفرنسيسكانية بونافنتورا قد امرك بالتوقف عن القاء محاضراتك الهرطقية والذهاب الى باريس . وقد المح لك بعض اصدقائك بانك ان فعلتَ ذلك فتكون كمن يضعُ رأسه بين فَكَي الاسد . . . ففي انكلترا انت في امان ، ولكن في باريس من يَدري ماذا سَيَحُل بك !

بايكون : ولكنني كنت امرءاً بسيطا وصادقا وشديد الثقة بالآخرين وذا ضمير حي . وقد كان عليّ ان اصدع بالامر لان العهد الديني الذي اخذته على نفسي كان يقضي بالطاعة العمياء .

صوت : وذهبت الى باريس . . . وطوال عشر سنين كنت اسيرا لم يكن يُسَمحُ لك بان تَمْتلكَ كتباً او اجهزة او ادوات للكتابة .

بايكون : ولم يكن شركائي الرهبان يشاطرونني آرائي ولا يبذلون اي جهد للتخفيف من الاعباء التي تثقل كاهلي . وطوال عشر سنين أُخضعت لاقسى نظام تفرضه الرهبنة ، ومُنعت من كل اتصال مع اناس مثقفين .

صوت : ولكن مع ذلك فان المرء ليتصور ان عقلك وفكرك كانا

يعملان باستمرار . وفي سنة ١٢٦٥ أصبح غي دو فولك الذي عرفته في انكلترا ، البابا كليمان الرابع ، وبات رأس الكنيسة ، وعلى الاثر طلب اليك ان تضع له كتابا في العلوم . وقد اكببت على تأليف هذا الكتاب ، بحماسة عارمة ، وكانت الكتب ما تزال محظورةً عليك .

بايكون : صحيح ، ولكن كل ما كنت احتاج اليه كان في رأسي الذي تغطيه قلنسوة الرهبان . وفي غضون ثمانية عشر شهرا انجزت لقداسة البابا ثلاثة مجلدات كانت بمثابة موسوعة كاملة في العلوم جميعاً ولم تكن شاملة او وافية كافية ، كما يقولون ، لان المقصود منها هو ان تكون اساسا للبناء عليها وتوسيعها فيما بعد . الا ان بالوسع القول انها كانت من ناحية معينة موجزا دقيقا لكل المعرفة العلمية التي كانت معروفة في ذلك الزمان .

صوت : الحقيقة ، يا سيد بايكون ، ان عملك هذا كان ضخما بالفعل ، وخصوصا انك قمت به بمفردك دون اي مساعدة ، وذلك يندر ان يحدث مثله في التاريخ . وقد اثبتَ بذلك ، بما لا يَقْبَلُ الجَدَل ، أن مطالعاتك كانت كثيرة ومتنوعة وذاكرتك جبارة لا تقع في العجز والخطأ . وبالنسبة الى عصرك والى الذين جاؤوا من بعدك كان كتابك المعروف باسم « اوبوس ماجوس » ، وهو احد المجلدات الثلاثة التي وضعتها بناء لامر البابا كليمان الرابع ، جليل الفائدة ولا يُقدرُ بثمن . ففيه ، وللمرةِ الاولى منذ عهد أرخميدس ، بَسَطت بوضوح الطريقة الصحيحة للبحث العلمي . . . فهل لك ان تعدد لنا قواعِدَك المعروفة بقواعد بايكون ؟

بايكون : حباً وكرامة ، يا سيدي ، قواعدي الاربع تتلخص بما يلي : رفض كل شيء يُسمع من شخص آخر . رفض كل شيء ينتج عن الاستنتاج الاستقرائي . اثبات او برهان كل شيء . هناك دليل واحد الى الحقيقة ، وهو الاختبار المدعوم بالاستنتاج .

صوت : كان ذلك صوتا جديدا في العالم الحديث ، ونحن،ايها السيد المحترم ، بايكون،الذين نعتبر انفسنا ورثَة البحث العلمي والمستفيدين منه لا يُمْكِنِنا ان نُقَدر كم كانت مذهلةً هذه الكلمات للطلاب في القرن الثالث عشر الذين كانوا شديدي التمسك بالعقيدة الدينية الجامدة ، والذين كانوا يَتلهَّون بالجَدَل العقيم حول مواضيع سخيفة . وفجأة ظهرتَ انت الرجل المؤمن التقي الورع الشريف فقلتَ إن لا شيء يمكن ان نتعلمه او نَعْرِفَهُ بهذه الطريقة ، ولعلَ افضل ما يمكن التوصل اليه بواسطِة ذلك الاسلوب الاعمى هو أننا نَحْفُرَ حُفرةً لروحنا او لنفسنا ونقعُ فيها .

بايكون : ولقد برهنت على انني اعرف ما اتحدث عنه ، وذلك بتحليلي بعض اسرار الطبيعة واظهار السهولة التي يمكن التوصل بها الى الحقيقة من جراء القيام بالاختبارات . خذ ، مثلا قوس قزح ، فقد نسجت الاساطير حول هذه الظاهرة . كان قوس قزح ـ او قوس الغمام كما يعرف ايضا ـ بحد ذاته سراً جميلا ورمزاً وتحذيراً او بركة لم يكن بالوسع فهمه ، لانه كان شيئا خارقا للطبيعة ـ آثار اصابع الله عبر السماء . فعمدت الى التوضيح بشيء يسهل على ابسط الناس في ذلك الزمن فهمه بأن قوس الغمام هذا

تسببه اشعة الشمس وهي تمر من خلال قطرات المطر . كان ذلك امراً سهلا ويكاد يكون صبيانيا ، ولكن لم يفكر احد قبلي باجراء اي اختبار حول قوس الغمام الذي يرتسمُ في السماء ، كما ان احدا من قبل لم يفكر بأن بين الالوان في قطرات الندى ورذاذ المحيطات تشابهاً مع قوس قزح نفسه .

صوت : يبدو ان الضوءَ كان يَفْتُنُك وانت الراهب الذي كُتب عليه طَوالَ سنواتٍ عديدة ان ينعزل بين جدران الدير المعتمة ، ويقضي معظم وقته في إجراء التجارب بالعَدَسات ، ولكن لا احدَ يعرف اذا كنتَ قد صَنَعْتَ تلسكوبا او مكروسكوبا .

بايكون : على اي حال ، يا سيدي ، انا فهمت مبدأ تركيب العدسات تركيبا يتيح تقريب الاشياء ، وكتبت عن هذا المبدأ العلمي الشيء الكثير .

صوت : اذن لماذا اضطُرَ العالَم ان ينتظر ثلاثَمائة سنة ليأتي غاليليو ويبتدع التلسكوب ؟

بايكون : لان الكنيسة حرَّمت تداول مؤلفاتي ، ولا ادري لماذا ؟

صوت : صحيح ، من الصعب معرفةُ السبب الذي حَمَلَ الكنيسة على تحريم كتاباتك العلمية ، وأغلبُ الظن أن الكنيسة في ذلك الوقت لم تكن تسمحُ لأحد بأن يسبر غَوْرَ الطبيعة واسرارها . على اي حال يقتضينا الانصاف ان نَذْكُرَ ان فكرك كان بمثابة جسرٍ رَبَط بين هوةٍ مداها سبعة قرون وأطلعك على روائع تحققت في العصر الحديث

وحسب . فانت تكهنت بصُنْعِ سفنٍ تَسيُر بوسائل ميكانيكية، وتحدثت عن عربات لا تجرهـا الخيول، وعن الطائرات.

بايكون : الحقيقة ان تلك لم تكن مجرد طلقة في الظلام ، فقد عرفت شيئا عن المحرك البخاري ، واستطيع القـول انني ربما صنعت مثل هذا المحرك في مختبري .

صوت : لا احد يدري ماذا صنعت كذلك من ادواتٍ او اجهزة كانت غريبة في عصرك . على اي حال انت ابتدعت ما كان فيه الكفاية لكي يُثير الاقاويل ويجعَلَ الكثيرين يتهمونك بانك تُمارِسُ السحر والشعوذة. ان كُلَ الكتب تروي اليوم أنك كنت خيميائيا، اي مُشتغلا بالكيمياء القديمة ، وتؤمن بحجر الفلاسفة .

بايكون : انا شخصيا اقول عن الكيمياء او الخيمياء القديمة هذا القول : « ان المشكلة ليست في تحويل المعادن البسيطة الدنيا الى معادن اثمن ، ولكن في رفع الذهب الى اعلى درجات الاتقان » .

صوت : وطوالَ حياتك كانت كل اعمالك سحراً وشعوذة في نظر جيرانك لم يكن لديهم اي فكرة عما كان يجري في دُكان الحِدادة الشيطاني - اذا صح هذا التعبير - بل كانوا يظنون بك ابشع الظنون . وكان المحركُ الذي ابتدعتـه ، وعدساتُك وعملك الدائب في مختلف اشكال الحياة ، والعناصر الغربية ، كل ذلك كان كافيا لأن يُرْسِلَك الى خشبة الاعدام حرقاً ، وقد احرق بعدَك بثلاثماية سنة جيوردانو برونو لاقل من ذلك . ولذا لم يكن مُستغربا أن

تذهب انت الراهب الحكيم الى ابعد ما امكنك لتؤيد الخُرافات الشعبية التي كانت سائدةً في ذلك العصر .

بايكون : ولكن حتى ذلك الموقف لم ينقذني فقد كان البابا نقولا الثالث اقل شجاعة وعلما من سلفه البابا كليمان الرابع ، فلما لفت نظره الى مؤلفاتي وجدها ملأى بالكفر الفظيع على حد زعمه ـ وسارع من فوره الى تحريمها . ومرة اخرى صدرت الي الاوامر بأن اسلم نفسي الى الفرنسيسكانيين، وقد كنت اتوقع مثل هذا الهجوم فجهزت دفاعا انكر فيه كل علاقة لي بالسحر والشعوذة ، ولكن دون طائل . ذلك بأن هذا الدفاع لم يفدني شيئا لان خصومي وأعدائي لم يكونوا مستعدين لسماع الحكمة التي كانت تنطوي عليها كلمات ذلك الدفاع والاعتراف بها . . . فقد كان مثل ذلك الحديث بعيداً كل البعد عن افهام اناس صمموا على تحطيمي لاسكاتي الى الابد . وفي سنة ١٢٧٨ القيت في السجن بعد ان نجوت من الموت المحقق بواسطة نفوذ بعض الاصدقاء .

صوت : اني اتصورك وقد تقدمت بك السن وأثبتَّ انك اعظمُ مفكرٍ عاش في تلك الفترة واكثرُ الناس علماً ومعرفة ملقى وحيداً في غياهب السجن ، محروما من كُلِ الوسائل التي تُيحُ لك مواصلةَ دراساتك . وابحاثك واختباراتك ، ومُضطرا الى الاتصال وحسب بأناسٍ ادنى منك مستوى عقليا ، وفي نفوسهم يغلي الحِقْدُ الشديد ، يا لهذه المأساة المفجعة حقا !

بايكون : وقد قاسيت هذه الحياة وعانيت هذه المعاملة طوال اربع

عشرة سنة ، حتى تحطمت صحيا ونفسيا ، وعندها قيّض الله لي بعض الاصدقاء المخلصين الذين عملوا على اطلاق سراحي .

صوت : ولكن مع كل ذلك كان عملك قد تم ، فعشت حوالي سنتين اخريين ، ثم اصبت بمرض كان قاضيا عليك . ويشعر البعض ان رودجر بايكون ، بعد ان قضى اربعا وعشرين سنة من حياته في السجن ، ينبغي ان يكون قد شعر بالرضا والاكتفاء بالكثير الكثير الذي حققه وهو حر طليق ، ولكن الامر ليس كذلك لانك القائل . . .

بايكون : « انه بسبب جهل الذين اضطررت الى التعامل واياهم لم استطع ان انجز اكثر مما انجزت ! . . »

صوت : رائعٌ قولُكَ هذا ، يا سيدي ، واسمح لي أن اردد ههنا عبارة « اضغاث أحلام » . وفي اللحظة الاخيرة مرارةً وخيبةُ امل بحيث أنك رددتَ وانت على فراش الموت « إني نادمٌ الآن لانني سببتُ لنفسي كُلَّ ذلك الاضطراب والقلق من اجل حُبِ العلم ! » .

بايكون : لعل تلك العبارة كانت صادرة عن لحظة ضعف وهي ليست مستغربة من امرىء في حالة النزع الاخير ، وقديما قال السيد المسيح : « يا ابتاه ، اعبر عني هذه الكاس!»

غوتنبرغ : مخترع الطباعة
(بين ١٣٩٤ أو ١٣٩٩ - ١٤٦٨)

صوت :كلنا نعرف ان الانسان محاط باستمرار بالطباعة ، وان المجتمع الحديث لا يمكن ان يوجد او يحيا بدون الطباعة! وعلى الرغم من مختلف الاشكال الحديثة للاعلام والاتصال بالجماهير احتفظت الطباعة بدورها الطليعي ، وتفوقها عليها جميعا . وما يزال صحيحا ذلك الوصف الكلاسيكي للطباعة بأنها « الفن الذي يحفظ كل الفنون » ويحتل المقام الاول في كل لائحة تتضمن الاعمال التي تقوم بها الطباعة في المجتمع الحديث كل من التعليم وحفظ المعرفة فضلا عن ان الطباعة تنشر المعلومات والانباء ، وتوفر التسلية وتسهم في تصريف السلع وبيع الخدمات، وتكمل الشؤون التجارية والادارية العامة. واخيرا، وليس آخراً، تؤمن التمييز للعملة والطوابع البريدية، والماركات المسجلة والعلامات الفارقة الى ما هنالك من امور لا يمكن الا ان تكون الطباعة قوامها. والطباعة كما تعرفها الحضارة الحديثة بدأت في منتصف القرن الخامس عشر في مايانس، في المانيا على يد عامل المطبعة يوهان غوتنبرغ مخترع الطباعة بالحروف المتحركة الذي سنعرف الآن قصته مع هذه الوسيلة الحضارية الخطيرة.

غوتنبرغ : اهلا وسهلا بك ايها السيد ، وقد احسنت اذ ذكرت انني مخترع الطباعة بالحروف المتحركة ، دفعا لكل لبس وغموض ، واحقاقا للحق . فقد عرف الصينيون والعرب الطباعة قبل ان نعرفها نحن الاوروبيون بقرون عديدة . فكانوا ينقشون على الخشب الحروف البارزة مكتوبة بالمقلوب ، ثم كانوا يطلونها بالحبر لدى الطبع فتظهر الحروف على الورق كما تظهر اختام دوائر البريد في ايامكم هذه .

صوت : وانتقلت الطباعة الى اوروبا ، بعد ذلك فاحتضنتها ، ودفعتها دفعة قوية الى الامام . ولكن قبل ان نعرف منك كيف كان ذلك لا بد لي من ان اذكر انك مع فضلك الكبير في هذا الحقل ، لم تحظ الا بالقليل من الدعاية . فاسمك لم يظهر على اي نشرة او كتاب اصدرته مطبعتك .

غوتنبرغ : وتصور ان اصدقائي انفسهم واسيادي لم يقرنوا اسمي باختراعي ذاك لدى حديثهم عنه .

صوت : وليس ثمة اي صورة حقيقية لك ، وتعتبر كل رسومك التي تبدو على المداليات والانواط والتماثيل او الصحائف زائفة . . .

غوتنبرغ : يا للهول ماذا تقول، يا سيدي ؟

صوت : انه الواقع المؤلم ، يا سيد جنسفلايش . . . (يقهقه) وهذا اسمك الحقيقي ،اليس كذلك ؟

غوتنبرغ : صحيح . . جنسفلايش .

صوت :كل ما نعرف عن حياتك الاولى انك ولدت في بلدة مايانس سنة ١٣٩٧ في اسرة ميسورة الحال طردت من مايانس فاستقرت في استراسبورغ . وفي هذه المدينة وقّعت اتفاقية مع بعض الاشخاص لتعليمهم اصول الطباعة فلما توفي احدهم فسخت الاتفاقية وعدت الى مايانس حيث مولك احد الصاغة يوهان فوست للمضي في مشروع الطباعة .

غوتنبرغ :الا ان هذا ما لبث ان سحب مساعدته المالية عندما عجزت عن تسديد ديوني .

صوت :وما هو اول كتاب اصدرته المطبعة التي مولها فوست .

غوتنبرغ :انه « توراة مازاران » الذي انجزت طبعه ١٤٥٦ . وقد دعي هذا الكتاب « توراة مازاران » لان النسخة الاولى التي وضعت وجدت في خزانة كتب الكاردينال مازاران ، السياسي الفرنسي الشهير .

صوت :ان « توراة مازاران » هذه تقترن كذلك باسمك وتُعرف بتوراة غوتنبرغ . وهي تعتبر اول كتاب طبع بالحروف المتحركة . . . الامر الذي يؤدي بنا الآن الى سرد قصة اختراعك الطباعة بهذه الحروف .

غوتنبرغ :كان من عادتي ان العب الورق مع زوجتي بعد العشاء في حجرة خلف مصنعي . وفي ذات ليلة لفت نظرها تأملي ورق اللعب باهتمام ، مما جعلها تقول ان من يراني على هذا النحو يعتقد انني اتأمل وجه احد القديسين .

صوت : ولماذا كنت تتأمل ورق اللعب في تلك الليلة على غير عادتك مما استرعى انتباه زوجتك ؟

غوتنبرغ : كنت افكر في الطريقة التي رسم بها الورق .

صوت : لعلها رسمت باليد كسائر الصور ثم لونت .

غوتنبرغ : ذلك ما قالته زوجتي انًا ، وقد اجبتها اذ ذاك بقولي : ليس الامر كذلك . فقد رسمت الخطوط في بادىء الامر على قطعة من خشب ، ثم تم حفر ما حولها فاذا بالخطوط تصبح نافرة ، وبعد أن طليت بالمداد وضع عليها قصاصة من الورق فانطبعت عليها الصورة التي نراها . وكانت تلك الطريقة ، كما استنتجت انا ، اسرع من طريقة الرسم باليد لان الخشب عندما ينقش او يحفر مرة واحدة يصبح بالوسع استخدامه بعد ذلك في طبع عدد غير محدود من النسخ .

صوت : ومذ ذاك انصرف اهتمامك الى طبع الصور اليس كذلك ؟

غوتنبرغ : ذلك ما كان من امري ! فرسمت صورة احد القديسين على قطعة خشبية وكتبت تحت الصورة جملة بخط يدي وحفرت الصورة والجملة معا ، وظهرت الصورة والكتابة واضحتين سوى انني لاحظت عيبا في الحبر المستعمل ، اذ وجدته رقيقا ، لا يلبث ان يسيل او يتشربه الخشب الامر الذي يشوه الصورة .

صوت : وكيف تسنى لك ازالة هذا العيب ؟

غوتنبرغ : لقد ازلته بمزجي الحبر ببعض الهباب حتى اصبح اشبه شيء بالزيت . ولقيت هذه الصورة رواجا كبيرا لم اكن اتوقعه فاحتلت مكان الصدارة في العديد من البيوت . الا ان ذلك لم يسرني كثيرا لان الناس اقبلوا على شراء الصور التي كنت اطبعها وانصرفوا عن شراء المجوهرات التي كنت ابيعها فتدر علي المال الوفير .

صوت : وهل كنت تعمل في صياغة الحلى والمجوهرات .

غوتنبرغ : اجل ، وقد فاتني ان اذكر ذلك في مطلع هذا اللقاء . . وفكرت مرارا بترك صناعتي الجديدة الطباعة والعودة الى صقل الجواهر والاحجار الثمينة كالسابق بعد ان كاد اليأس يتسرب الى نفسي .

صوت : من حسن الحظ انك لم تستسلم الى اليأس ، فانت اليوم خالد بين الخالدين لانك اخترعت الطباعة ، ولو بقيت صائغا لانطفأ ذكرك مع انطفاء جذوة الحياة فيك .

غوتنبرغ : صحيح ما تقول . . ويعود الفضل في مواصلتي الطباعة الى زوجتي التي شجعتني على المضي فيها قائلة انه سيأتي يوم ابيع فيه ما اطبع من كتب متقنة كما يفعل الرهبان .

صوت : ان ذلك ليثبت مجددا صحة القول ان وراء كل عظيم امرأة (يقهقهان) .

غوتنبرغ : كما تشاء يا سيدي . . وقد اشارت علي بأن اعرض

رسومي المطبوعة على رئيس دير مجاور لبلدتنا . فاعجب رئيس الدير برسومي وابتاعها كلها ، وطلب الي ان اطبع لحسابه كتاب تاريخ القديس يوحنا «الحبيت» وهكذا عـاودني الامل مجددا ، واكببت بسرور عظيم على حفر صفحات ذلك الكتاب كما كنت احفر الصور على الخشب ، حتى أتـيـت على الكتاب كله وبعدها طبعت عددا من النسخ وضعتها في السوق للبيع . ولكن الحظ لم يحالفني كما رجوت ولذا لم اعمد الى اعادة طبع هذا الكتاب بل طبعت كتابا آخر هو « قواعد اللغة » المقرر تدريسه لطلبة الكنيسة .

صوت : هل وفقت في هذا المشروع الجديد ؟

غوتنبرغ : كل التوفيق ، ذلك بأن ثمن النسخ المطبوعة كان اقل من ثمن النسخ المخطوطة .

صوت : بلا ريب . . .

غوتنبرغ : وشرعت افكر في طبع الكتاب المقدس . فلما اوشكت على اتمام حفر الصفحة الاولى منه اهتزت يدي بالمدية فشقت الخشب المحفورة عليه الاسطر ، وتلفت الصفحة ولم تعد صالحة للطباعة .

صوت : نحن نقول « لا تكرهوا شيئا لعله خير لكم » . فقد كانت تلك الزلة فاتحة العهد الجديد في فن الطباعة على ما اعتقد .

غوتنبرغ : تماما ، يا سيدي . صحيح انني حزنت في بادىء الامر لضياع جهدي ، ولكن ذلك جعلني افكر في

صنع حروف متفرقة ، مستقلة الواحدة منها عن الاخر ، من الخشب طبعا صالحة للطباعة ، بدلا من حفر صفحة خشبية بكاملها ونفذت الفكرة دون ابطاء. فتجمعت لدي كدسات من الحروف الهجائية . فنظمت الحروف الواحدة في مكان واحد ليسهل تكوين الكلمات منها. تلك هي يا سيدي الكريم قضة الحروف المتحركة والطباعة بها.

صوت : اما الحروف المعدنية التي حلت محل الحروف الخشبية لانها امتن منها واطول عمرا فيعود الفضل في ابتكارها الى بيتر شوفر ، اليس كذلك ؟

غوتنبرغ : اجل وبيتر شوفر هذا اشترك معي في طباعة الكتاب المقدس بعد ان حصلت على مبلغ من المال لاستئناف طبعه ، من الثري فوست الذي ذكرته في سياق حديثنا .

صوت : حبذا لو كنت تحيا اليوم في عالمنا الارضي لتتطلع على مدى التطور العظيم الذي حققه فن الطباعة .

غوتنبرغ : حبذا ذلك ياسيدي . .

صوت : ولكن اطمئن بالا ، يا سيد غوتنبرغ ، فان فضلك على هذا الفن لا ينسى ، وهو محفور بحروف من نور في كل مكان يطبع فيه حرف.

غوتنبرغ : حروف في حروف في حروف ! . .

باراسلسوس : رفع الطبيعة على قدميها
(١٤٩٣ - ١٥٤١)

صوت

كانت مدينة بال السويسرية وجامعتها تعيشان عيشة الاكتفاء الذاتي المحترمة، وكان المواطنون يخافون الله ويترددون على الكنائس لفرط تقواهم وورعهم، وكان الأساتذة محافظين يتقبلون كل ما ورد في الكتب على انه الحقيقة والواقع . وبين هذه الوقائع كان هناك الالف خطأ وخطأ التي خلدها ارسطو وجالينوس . لم تكن هذه الاخطاء لتناقش ولم تكن لتدرس لتثبت صحتها بل على النقيض كانت تنقل على انها حقائق مطلقة، وكان كل ذلك الانتقال يجري باللاتينية . لم يكن احد يعلم لماذا ولكن جرت العادة ان يكون الامر كذلك ولذا ينبغي ان يكون ذلك صحيحا . وكانت اسرار العلوم والفلسفة اقدس من ان تناقش باللغة الالمانية العادية المبتذلة . . .

وفي صيف ١٥٢٦ سرت في بال انباءُ وصول طبيب شهير لزيارتها هو باراسلسوس وحارت الاوساط العلمية في المدينة السويسرية في امر هذا الطبيب فمن يكون وما هي مكانتُهُ الحقيقية ؟

فقد انتشرت قبله تقارير كثيرة واخبارٌ عن علاجه

الشافي ونجاحه في تحقيق المُعْجزات الطبية ولم يكن بوسع اي طبيب أنْ يفعل ما كان يفْعَلُه . ولذا قالوا بينهم وبين انفسهم إن هذا الطبيب هو اما في خدمة الشيطان واما انه يتمتعُ من خالِقِهِ بقوةِ الايمان العظيمة . وفيما هم في ثرثرتهم اقبل باراسلسوس بطلعته المهيبة . وسابدأ على الفور بمحاورته لنستعرض معا مراحل حياته المثيرة واعماله الاكثر اثارة وغرابة . . . سيدي . . . اهلا وسهلا بك .

باراسلسوس : اشكرك على هذه المقدمة وعلى هذا الترحيب بي وقد سبق لاهل بال واساتذتها الكبار ان احسنوا استقبالي عندما هبطت تلك المدينة وانا في السادسة والثلاثين من عمري ، واذهب الى ابعد من ذلك فاقول ان السلطات مدت الي يد المساعدة وطلبت الاوساط العلمية مني ان القي محاضرات في الجامعة الى جانب عملي الطبي في عيادتي الخاصة .

صوت اما محاضراتُك فقد كانت جليلة الفائدة بالنسبة الى الطِب والى نُموِ اوروبا الفكري ولكنها كانت السبب في دمارك وسنرى ذلك فيما بعد اليس كذلك ؟ اما الان فلنَحْصُر اهتمامنا قليلا في المحاضرات . . . فعلى باب الجامعة علق اعلانٌ عن محاضراتك ولم يكن اعلانا متواضعا البتة ،فيه ذكرت أنك اوريولوس تيوفراطوس بومباستوس فون هوهنهايم ، الطبيب الاعلم والاعظم والاوحد بين الاطباء .

باراسلسوس : وتجرأت على التصريح كذلك بانني لن احاضر من

كتب جالينوس او ابن سينا بل من كتاب الطبيعة الذي استوعبت محتوياته وكشفت أسراره ،وقد جنيت ثمرة هذه الجرأة في الاعلانين اذ غصت القاعة بالحضور .

صوت : ولكنك ادهشْتَ الجميع عندما تكلمت اليهم باللغة الالمانية . ولم يكن ذلك امرا معقولا ، حتى لأكاد اقول انه كان بمثابة التجديف . صحيح ان الطلاب سرهم ذلك ولكن الاساتذة اصيبوا بصدمة عنيفة لم يكونوا يتوقعونها ولم يكن ذلك سوى جزءٍ من الصدمة التي اصباتهم .

باراسلسوس : لقد هاجمت الاطباء والاساتذة عندما قلت لهم انني احتقر اولئك الذين يفنون حياتهم بين قبضة يد ميتة واحقد عليهم؛ فالكتب هي اشياء ميتة بالنسبة الي، اما الطبيعة فهي حية رائعة وصادقة ! الكتب محشوة بالاكاذيب والاغلاط والذين يقرأون الكتب اناس جهلة وذوو اكتفاء ذاتي اما انا فلم اكن اقرأ اي كتاب وكنت اعرف من كل الاطباء مجتمعين .

صوت هذا رأيك الشخصي الذي لا اعتقد ان احدا يشاطرك اياه . . . فمن اين يكتسب المرء المعرفة والمعلومات اذا لم يكتسبها من الكتب التي تضم خلاصة التجارب البشرية على مر العصور ؟ على اي حال فأنا لن اجادلك في ذلك في هذا المقام بل اسألك من اين كان لك كل تلك المعلومات الطبية والكيماوية التي نقلتها الى المستمعين الى محاضراتك مما

لم يحلموا به من قبل، الامر الذي المبهم حماسة وجعلك بين ليلة وضحاها رجل العصر؟

باراسلسوس من الطبيعة! ألم اقل لك يا سيدي؟ من ارث منحني ذلك النوع من العقل. كان والدي ابنا غير شرعي لاحد النبلاء وقد تدرب على الطب وكانت والدتي ممرضة ومشرفة على المستشفى في اينزيديلن فعندما التقت والدي وليام بومباستوس فون هوهنهايم وتزوجته هجرت مهنة التمريض واكتفت بان تكون زوجة طبيب.

صوت : لقد كنت ابن طبيب وممرضة. وكانت ولادتُك سنة ١٤٩٠ على ما نعرف. وقد دَرَسْت بالطبع الطب على يد والدك الذي كان بلا ريب ينتمي الى المدرسة القديمة ولم يكن له شيء من فرديَتِك الفذة وقد دخلت جامعة بال في سن السادسة عشرة... وما هي الا عشرون سنة حتى بدأت بالقاء المحاضرات الطبية.

باراسلسوس : حتى وانا في السادسة عشرة كان الروتين المدرسي يضايقني كثيرا وقد غادرت المدرسة والبلدة ونفسي ملأى بالقرف وذهبت الى سبونهايم لدراسة الكيمياء على يد العالم الشهير في ذلك الوقت تريتيميوس وكانت كلمته هي الكلمة الفصل في هذا العلم. وكان حجر الفلاسفة او تحويل المعادن الى ذهب خالص هو هدف كل عمل يجري في المختبرات.

صوت : الا انك لم تجد في سبونهايم ما امّلته من مغادرتك

بال ، انت الفتى المتوقد الذهن ، الباحث عن المعرفة والحقيقة والاستطلاع .

باراسلسوس كنت في الحقيقة اود ان امزق الطبيعة وارى ماذا يجعل العجلات تدور . اردت معرفة الحياة في حالتها الخام ولذا ذهبت الى مناجم التيرول حيث وجدت ما كنت ابحث عنه . رأيت الجهد الذي تبذله الطبيعة لتخرج الذهب والفضة وتعلمت درسا من الصراع الضروري لتنقية وتصفية هذه المعادن وشاهدت الرجال متعبين مقهورين ويموتون إذ يذهبون ضحية الحوادث ودرست طريقة الطبيعة في اصلاح ما تسببه من دمار، بكلمة اخرى تعلمت في التيرول ان اكون طبيبا وهناك عزمت على الا امد يدي بعد ذلك الى اي كتاب واكتفي بالذهاب إلى المادة الاساسية الخام بكل ما اريد من معرفة وانا القائل « ينبغي للمرء ان يقرأ كتاب الطبيعة ويمشي على اوراقها » .

صوت : ومشيت طوال سنوات ، مشيت وتجولت عبر اوروبا . ولعلك وصلت الى الشرق وغرفت من معين الحكمة في لبنان وسوريا والهند كما ادّعيت .

باراسلسوس : ارجوك يا سيدي انا لم ادَّعِ شيئاً ، فقد همت على وجهي طويلا وزرت كل الاماكن التي ذكرت وخلال هذه المرحلة من حياتي اطلق علي لقب « المتشرد الجاهل » وربما كنت استحق لقب « المتشرد » ولكن الجهل كان بعيدا عني بعد الثريا عن الثرى، اليس كذلك ؟

صوت : لا ريب في ذلك ... فقد كنت تجمعُ المعرفة والمعلومات من كُل مكانٍ تذهبُ اليه وكانت ذاكرتُك قويةً جدا ولو أنك لم تكن تُصنّف وتُنَظّم ما يتكونُ لديك من معلومات وحقائق . ولقد درست الامراض التي كان يتعرضُ لها السكان في مختلف البلدان وقد حللت انواعَ المعالجة المحلية وحسنتها وانت القائل بكل صدق « لكي اعرف ابناءَ بلدي وعشيرتي ينبغي لي ان اعرف كُلَ البشر » .

باراسلسوس ذلك هو الهدف الذي وضعته نصب عيني ورحت اتنقل من بلد الى بلد متابعا طريقي كما تتبع الطيور طريقها غير المخطط وغير المنظور . ومهنة الطب التي شئت ان اكرمها وارفع مستواها قد اساء اليها كثيرا وحط من قدرها الجهل والخرافة . وانا كرهت الجهل والخرافة كما كرهت اولئك الذين ختموا على عقولهم ووضعوا نصب اعينهم الاهداف المنحطة الدنيئة . كانت تحدوني الشعلة التي تتأجج في نفس كل رائد . سعيت وراء الحقائق التي يمكنني بواسطتها ان اهاجم خصومي واعدائي وبالتالي تلك الحقائق التي اشن بها حربا من اجل الاصلاح وتمكنني من الانتصار في هذه الحرب ...

صوت : ولكن يا سيدي باراسلسوس اذا كانت مدينة بال قد غلت كالمرجل بسبب محاضراتك بالالمانية وهجماتك العنيفة على الاطباء ولم تحرك ساكنا ضدك فان ما حدث ذات يوم قد قلب الموقف رأسا على

عقب أفتروي لنا تلك الحادثة الغريبة التي كنت بطلها ؟

باراسلسوس : اقام التلامذة احتفالا واضرموا نارا في الهواء الطلق وراحوا يغنون ويرقصون حولها وخرجت من الباب الامامي للجامعة حاملا بيدي المرفوعتين فوق رأسي ليرى الجميع كتابين احدهما لجالينوس والاخر لابن سينا ورفعت صوتي قائلا : « موت القديم وولادة الجديد » والقيت بالكتابين الطبيين اللذين كانا يعتبران جليلين وسط النيران المشتعلة مضيفا : « لتذهب اخطاؤهما وتعاليمهما الزائفة طعمة النيران الى الابد . واذا كان فيهما اي حقيقة فانهـا لن تحطم » .

صوت : وهذه الاهانة لآلهة الطب في ذلك الزمان اقامت عليك بال ولم تقعدها وجعلتها تغلي بالحقد عليك انت الذي اتهمتك بالهرطقة، حتى ان تلاميذك اصيبوا بصدمة عنيفة والذين كـانوا يكـرهونـك راحوا يلعنونك . اما الذين كانوا يخشونك فقد تشجعوا بالموقف الشعبي وهاجموك . واتهمت بالشعوذة وتحديت بان تبرز شهادة رسمية في الطب . وسرعان ما اختفت شهرتك وشعبيتك وكأنها لم تكن فوقفت وحدك تحارب مدينة باسرها كلها اعداء لك .

بارسلسوس : الا انني مع ذلك صمدت وبقيت اصارح الاطباء برأيي فـيهـم وتـابعـت مهـنتي في الـتـطبيـب ووصـف العـلاج للمـرضى . لم اكن لافكـر في التـوقف والاستسلام مع ان كل شيء كان ضدي . وصحيح

اني هزمت ولكن بعد ان هزرت عظام الطب الجافة . اوقدت نارا ورحت انعشها حتى تأججت كثيرا . صحيح انني كنت مكروها الا ان عقاقيري كانت تثبت مهارتي حتى انني كنت ادعى لمعالجة اناس اصبحت حالتهم الصحية ميؤوسا منها وعجز الاطباء من اتباع المدرسة القديمة عن شفائهم فهل اكون مشعوذا كما اطلق علي ؟!

صوت : مضى اقل من سنتين على وجودك في بال ، احرزت خلالهما الشُهرَة والشعبية وفقدتها ، ولم يبق الا عددٌ ضئيل من الذين كانوا مستعدين للدفاع عنك او لمساعدتك . اما الجميع من رئيس الكهنة والاطباء والاساتذة والقضاة ، فكانوا ضدك وقد اجمعوا على التخلص منك لانك كنت في نظرهم مثيرا للشغب والقلق . مُعْظمُهُم كان يُريدُ طردَكَ من المدينة وحسب وقلة منهم كانت ترغب في موتك . وهذه القلة وضعت خططها . فانت باسلوبك العنيف قد أهنتهم كما اهنت اجدادهُم وذريتهم . كان العصر ما يزال عصرا خشنا والعدالة امرا خاصا جدا . وكانت فكرةُ تعذيبك او قتلك في نظرهم يمكن ان تُعيدَ الاعتبار الذاتي والسلام .

باراسلسوس الا ان صديقا لي اكتشف المؤامرة وانذرني في الوقت المناسب عندما كانت جماعة الانتقام مني على وشك ان تضرب ضربتها . ولم اكن جبانا سوى انه لم يكن باستطاعتي ان احارب دزينة من البشر فهربت ولم يتح

لي إن احمل شيئا من ممتلكاتي . وفي احدى الليالي غادرت بال بلا عودة بعد ان فقدت اصدقائي القليلين وكتبي وادواتي وحتى ملابسي وهمت على وجهي شريدا معدما طوال سنوات . ومذّاك لم اعرف لي بيتا . ولكي اكون صادقا اقول انني عرفت حوالي نهاية حياتي مستقرا لي ولم يكن بوسعي صدّ الضربات التي استمرت بال في توجيهها الي .

صوت : الا ان ما يدهش حقا يا سيد باراسلسوس هو انك رفضت الاستسلام فمضيتَ تتحدى كعادتك ، وتلعنُ الماضي وتهزُ العالم مُشيرا الى قُرب بزوغِ فجرٍ جديد وسمعَتْ صوتَك واصغت اليه كُلُ من مدينةً كولمار ونورنبرغ حتى دفعتْكَ العاصفة التي هبت في بال الى ميادين جديدة انت الذي عُرِفْت بلقب « نبيّ الطب » وكانت بال دائما تتعقبُك فلا تتيُح لك البقاء اكثر من بضعةِ اشهر في المدينة الواحدة ، ولم تصل هذه المُدة مُطلقا الى سَنَةٍ من الزمن! وعشت في الحرمان والفقر محروماً من فُرْصَة اجراء الاختبارات وتجهيز اي مُختبر واتساع المجال امامك للكتابة والتأليف وهكذا تنقلت بين مختلف المدن السويسرية والالمانية .

باراسلسوس الا ان الاسفار المتواصلة والحياة الصعبة كانت شديدة الوطأة علي جسديا لا روحيا او فكريا . وثق يا سيدي ان الهزيمة والفقر لم يستطيعا اسكاتي . فقد كان لدي حقيقة اردت ان اعلنها على الملأ . عندما هربت من بال في التاسعة والثلاثين . فلما قُدِّمَ الي ملجأٌ اخيرا كنت قد تجاوزت الخمسين . اكثر من

عشر سنوات قضيتها متنقلا في طول اوروبا وعرضها متعرضاً للهزء والسخرية. واكثر من عشر سنين كذلك تأكلت المرارة قلبي. لقد عرفت قيمتي وعبقريتي حق المعرفة وعرفت قوة رسالتي. غير ان المؤسف هو ان قليلين كانوا يودون الاصغاء الي او تصديقي. اما من قدم الي الملجأ الاخير سنة ١٥٤١ فكان رئيس اساقفة سالزبورغ ارنست وهكذا اتيح لي اخيرا ان احقق ما طالما رغبت فيه: المختبر والتفرغ للانتاج والتحرر من القلق والسلام. واصبح بامكاني ان ادون افكاري وآرائي حبرا على ورق واختبار نظرياتي. وبعبارة اخرى اصبح بامكاني ان احقق الالف شيء التي خططت لها وحلمت بها.

صوت ولم يكن ممكنا ان تقومَ بكُلٍ ذلك لان الوقت كان قصيرا ولم تعرِفك مدينةُ سالزبورغ الا لبضعة اشهر. ذلك بأن شرارة أطلقت اخر مشهد عظيم في حياتك انت الجبار المذهول. لعلها انطلقت من بال من احد الاعداء الذين نشروا فضيحة قديمة في سالزبورغ حيث كان من حقك ان تعتبر نفسك سالما مطمئنا. لقد هبطت تلك المدينة لترتاح وكنت بريئا ووجدت صديقا مخلصا. ولكن الاكاذيب القديمة عادت الى الظهور ولم يكن بالوسع تحملها واخيرا في تلك الليلة المشؤومة من يوم الرابع والعشرين من ايلول سنة ١٥٤١ دخلت احدى الحانات لتحتسي كأسا من شراب وتتبادل الحديث مع بعض الصحاب وقد كانت في تلك الليلة وفي ذلك المكان وفاتُك! وسواء أكانت تلك النهاية في الحانة

على يد احد اعدائك الالداء ام كما تروي الاسطورة فوق شفير الهاوية المشرفة على الصخور والمياه المصطخبة حيث هاجمك احد المسلحين خلسة ، فان التاريخ لا يكشف اسم ذلك الدنيء الذي قضى عليك دون ان يستطيع القضاء على اسمك . فانت تحيا الى الابد قويا ، وصوتا مجلجلا يهز نفوس البشر . انك من رعيل جماعة قلة من الثائرين الخالدين في دنيا الفكر والعلم ، امثال سبينوزا ، وغاليليو ، وهارفي ، ولستر ، وفاراداي !

باراسلسوس : الحقيقة ، يا سيدي ، انني لم اكن عبقريا خلاقا بقدر ما كنت محطم تقاليد وتماثيل وذابح اشباح . ولقد قطعت اليد الميتة التي قبضت بشدة على الطب طوال اكثر من الف سنة . انزلت عن عرشها النجوم التي اعتبرت عوامل فعالة في شؤون البشر . ورفعت الطبيعة على قدميها ، وتوجتها بكرامة جديدة . احرقت كتب البشر الصغيرة ودللت على السبيل الى جداول الاختبار الرائعة .

صوت : سيدي باراسلسوس ، بالصواب نطقت ، فشكرا على تلطفك بهذه المقابلة الجريئة حقا .

كوبرنيكوس : محطمّ التماثيل
(١٤٧٣ - ١٥٤٣)

صوت : ماتت عبقرية العالم البريطاني رودجر بايكون مع موته ، وفقد معظم اعماله . كان نورا مشعا وسط ظلام اوروبا ، وقد اطفأت الظلمة النور . ترك العالم كما وجده . كان عالم متعصبين ، وكانت القوة في ايديهم . وطوال مئتي سنة اخرى لم يخطر رأي جبار عبر سهول اوروبا . ثم اطل كوبرنيكوس : نيكولاوس كوبرنيكوس المولود سنة ١٤٧٣ ، والذي كان ، كرودجر بايكون من رجال الكنيسة ولم يكن ذلك بالامر الغريب ، ففي ذلك العصر كانت هناك مؤسستان وحسب مفتوحتين امام الشباب الطموح : الجيش والكنيسة. وكان كوبرنيكوس اكثر حكمة من ان ينخرط في الجندية . معي الآن هذا العالم الفلكي الشهير في مقابلة نتعرف فيها على شخصيته واعماله الجليلة . انت ، يا ،سيدي مولود في ١٩ شباط من سنة ١٤٧٣ في بلدة طورن من اعمال بولونيه البروسية ، وتقع على ضفاف نهر الفستولا ، وانت الماني الاصل ، والبعض يعتقد انك روسي ، وآخرون يقولون انك بولوني ، فماذا تقول انت ؟

كوبرنيكوس : انا بولوني !.. فلو كنت بروسيا لكنت ابعد ما امكن عن الاعتقاد الشائع عن البروسيين . فقد كنت هزيل البنية مولعا بالدراسة ، رقيق القلب ، متدينا ، ومتواضعا . وكانت رغبتي في التعلم والغرف من المعرفة لا تعرف حدودا . ونتيجة لذلك درست الطب في كراكوفيا الى جانب الرسم ، ثم ذهبت الى جامعات فيينا وبولوني في ايطاليا ، وبادوى وفيرارا في ايطاليا كذلك ، ثم الى روما وفي كل واحدة من هذه المعاهد الكبرى تابعت دراسة الرياضيات بحماسة مفرطة ، والتهمت كل كتاب وقعت عليه يداي ، ويعالج الفلكيات .

صوت : وعندما بلغت الرابعة والعشرين رحلت الى مدينة فراونيبورغ بصفة كاهن ، وبقيت فيها معظم حياتك ، ولكن الخرافة لم تقيد هذا الكاهن وتغل يديه . فقد مارس التطبيب مجانا ، ولم يكن يؤمن بأن المرض يأتي من الله ، ولا يمكن ان يعالج في معظمه الا بالصلاة في احد المعابد او بعبادة اثر مقدس .

كوبرنيكوس : لقد تجرأت على النظر الى الطبيعة وجها لوجه ، ولم ادع تقواي وورعي يقنعانني بأن الكتاب المقدس هو كتاب علمي ، ومعنى ذلك ان هناك رجلا اخر قد ولد يستخدم دماغه وتفكيره ، اليس كذلك ، يا سيدي ؟

صوت : لا جدال في ذلك ، يا سيد كوبرنيكوس ، فلنتابع حوارنا . . .

كوبرنيكوس : كما تشاء .

صوت :كان الجميع في ذلك العصر من باباوات واباطرة ، وابسط الناس يعتقدون ان العالم ساكن ، لا يتحرك ، ولم يكن الجميع يعتقدون انه مسطح ، على الرغم من ان معظمهم كان يعتقد ذلك الا ان الجميع قالوا بأن الارض هي محور الكون ، وحولها يدور كل شيء آخر . وكان يعتبر من الهراطقة كل من ينكر ذلك ، وكان الافضل ان يرسل الى جهنم بسرعة . ذلك كان التراث العظيم الثمين الذي خلفه بطليموس لاوروبا .

كوبرنيكوس :لقد كنت شخصيا اعتقد مثلهم بجهنم ، ان لم اكن اكثر منهم اعتقادا بما يصورونها عليه . ولكنني لم اكن اتوقع ان يحكم على شخص ما بالذهاب الى جهنم ، لمجرد انه استخدم عينيه وعقله . وعندما كانت تساورني الشكوك فانني كنت اضعها جانبا وارحب بكل طيب خاطر ان اجرب حظي ، كما يقولون .

صوت : تذكر يا سيدي ، ان بعض علماء الاغريق ، ومن بينهم مثلا فيثاغوارس - ويقال انه لبناني الاصل - كانوا يقولون بأن الشمس ساكنة لا تتحرك ، وبأن الارض تدور حولها .

كوبرنيكوس :اذكر جيدا ما قاله فيثاغوارس وسواه من العلماء اليونانيين القدامى ، وقد عثرت على هذا المبدأ فبدا لي امراً معقولا . وبقدر ما كنت افكر كان يبدو لي

معقولا اكثر فاكثر ان تكون الارض هي التي تتحرك وتدور . وقد بدأت بعمليات حسابية متعددة ، ووجدت انه تبعا لهذه النظرية كانت الامور اكثر مناسبة نوعا ما عما كانت عليه حسب خطة بطليموس . وقد اضطررت الى استخدام سلسلة من افلاك التدوير ، وهي دوائر صغيرة يدور مركزها على محيط دائرة اكبر منها ، لكي اجعل التغييرات في الكواكب تصبح مضبوطة . ولكن ذلك كان بسبب اعتقادي ان كل شيء على شكل دائرة .

صوت : ان تحسين فكرة الدائرة قد اخذتها كذلك عن علماء الاغريق ، وخصوصا عن ارسطو .

كوبرنيكوس : بالطبع ، يا سيدي ، انا لا انكر ذلك ، الا انني لم اكشف حقيقة هذه المعلومات التي تجمعت لدي . فقد اوقفني امران عن اعلان ما توصلت الى اكتشافه وهما : كوني غير متأكد تماما من انني على صواب في هذه النظرية العلمية ، وخشيتي من الكتاب المقدس . فلا احد من الاحياء في ذلك الزمان كان بامكانه ان ينسى ان يشوع بن نون قد امر الشمس بأن تتوقف بلا حراك ـ وقد توقفت .

صوت : ولكنك كما سبق وعرفنا في مطلع هذه المقابلة لم تكن تؤمن بأن الكتاب المقدس هو كتاب علم . ان هذا الكتاب هو وحي ديني ويشكل قانونا ممتازا للاخلاق . وهذه الامور انت تؤمن بها تماما كما تؤمن بوجود الله الاحد .

كوبرنيكوس : صحيح ، ولكنني تحققت من ان غالبية الناس

تؤمن بالكتاب المقدس من اول حرف فيه الى آخر حرف ، وتشك بوجود اي معرفة خارج هذا الكتاب ولذلك فهي بالطبع ترفض كل شيء يعارض اي عبارة من عباراته . كان الجميع او معظمهم يتسامحون مع من يوافقهم على آرائهم . ولم اكن انا ارغب في خلق المشاكل لنفسي . وكم هو سهل الوقوع في المشاكل ، والتسبب باثارتها اذا كان المرء يعمل فكره قليلا . ولذا فقد اشتغلت على اساس نظريتي ، واثبت البراهين الحسابية والرياضية ، ثم وضعت المخطوطة جانبا ونسيت كل شيء عنها ومضيت في العناية بالمرضى ومعالجتهم ، وفي تأدية واجباتي الدينية ، فضلا عن التأمل والتفكير المستمرين .

صوت : اذن لم تكن تهتم في قليل او كثير بالشهرة ، وعلى غرار العلماء الحقيقيين كنت تسعى وراء معرفة الحقيقة ، وكنت مستعدا لاظهار هذه الحقيقة او لنقلها الى سواك عندما تجدها .

كوبرنيكوس : ذلك تماما ما فعلته وما كان ينبغي ان افعله ، وهكذا عندما جاءني البروفسور جورج يواكيم الالماني مستعلما ، اخبرت هذا الشاب بكل ما اكتشفت واطلعته على كتابي . وكان يواكيم هذا استاذا للرياضيات في جامعه فتبرغ واحد الباحثين ايضا عن الحقيقة ، ليس لان اللوثريين خامرهم الشك في وقت من الاوقات بحكمة الكتاب المقدس العلمية ، ولكن لوثر نفسه الذي قرأ كثيرا وفكر كثيرا ، وتحدى كل

الشياطين في مدينة فيرمس لم يكن ليرضى بهذه الفكرة الجديدة واتهمني بالجنون .

صوت : وهكذا صدر كتابك المنتظر حاملا في صدره تلك المقدمة الجريئة . ولكن لم تكن تتوقع ان يروج رواجا منقطع النظير بين لحظة واخرى .

كوبرنيكوس : لا ، بالطبع . فقد قوبل بالسخرية والازدراء في ذلك الحين ، ونبذه الكثيرون !

صوت : ولمعلوماتك الشخصية اقول لك انه بعد وفاتك بزمن طويل نبذته الكنيسة ايضا ، ووضعته على اللائحة السوداء . ولم يكن حظ كتابك بأفضل من ذلك بالنسبة الى عالمين جليلين هما تيكّو براهه وفرنسيس بايكون ، فقد رفضاه جملة وتفصيلا . وكان الساخرون منه اكثر عددا من المؤمنين به . وبالنسبة الى الانسان العادي كان مجرد سخافة وهرطقة .

كوبرنيكوس : ولكن الموت على اي حال قد وفر علي السخرية والمديح معا .

صوت : اني اتخيلك الان طبيبا وكاهنا عجوزا تقوم بأعمالك العادية في مدينة فراونبورغ ، بعد ان بلغت الشيخوخة في خدمة الله والانسان . لقد فكرت طويلا وعملت كثيرا وبجهد ، واشرفت على النهاية ، وعندما الح عليك جورج يواكيم لتنشر كتابك العلمي الجريء لا بد انك فرحت كثيرا .

كوبرنيكوس : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، فطوال حياتي لم

يحدث لي الا القليل من الامور والاحداث التي تعتبر غير عادية او مألوفة . فلقد عشت اقرب ما اكون الى آلام البشر . وكما تعلم فان الطبيب والكاهن يريان الانسان في حالات الحزن والكآبة . ولكم هو مذهل ان يحمل امرؤ مثلي على كاهليه طوال ثلاثين سنة كاملة الاثقال عن نصف سكان فراونبورغ .

صوت : والغريب في الامر ، يا سيد كوبرنيكوس ، انك لم تنظر الى نفسك قط مرة واحدة على انك رجل عظيم . فارسطو من قبلك ، وورودجر بايكون من بعدك ، كانا معتدين بعبقريتهما ويملأ نفسيهما الغرور . واكاد اقول اكثر من ذلك ، فأنت لم يخامرك لحظة واحدة الشعور بأن اسمك سيخلد خلود العالم .

كوبرنيكوس : كان كتابي سينشر ، فكنت في آن معا مسروراً ، ومذهولا وخائفا وحزينا . . . اتصدق هذا ؟ ذلك بأنني كنت اعلم تماما ماذا يمكن ان يفعل عدم التسامح مع امرئ يجرؤ على السير بمفرده . . .

صوت : ولعلك كنت تهمس في اذن صديق هنا وهناك بأن اشياء على جانب كبير من الخطورة على وشك ان تصيبك . ولكن كان الله بعونك ، فانت لم تكن تدري ماذا سيحدث لك عندما يقع كتابك بأيدي رجال الدين .

كوبرنيكوس : صحيح . . . ولا اكتمك انني كنت اذ ذاك مصابا بحمى الاثارة ، وهذه الحمى اقعدتني في الفراش سنة

١٥٤٣ ، بعد ان اصبت بالشلل قبل ذلك بسنة . ولبثت انتظر . . انتظر صدور كتابي ، وانتظر النهاية . ولم يأت الكتاب ولم تأت النهاية ، كنت اريد كتابي وكانت طريقة اصداره بطيئة جدا . وازددت ضعفا ولكنني لم افقد الامل . وتلاشى الامل ، وكانت انفاسي تتلاشى كذلك ، والروح على وشك ان تفارقني ثم . . .

صوت : لقد كانت كلماته بالحرف الواحد : « ان الاشياء الكثيرة الغريبة التي يفترضها كوبرنيكوس لهي انجازات تحدد شخصية رجل لا يفكر اي تفكير في ادخال الخيال من اي نوع كان ، الى الطبيعة ، شرط ان تثبت حساباته صحتها » . . .

هذا ما قاله فرنسيس بايكون عنك. فاسمع الآن ما قاله عنك شخص يدعى مورتون ، وهو تقدير اصدق لك ، ايها الفلكي العظيم : « ان مظهر الكاهن العجوز الجبار المبهم يبدو انه يرتفع عاليا من بين المسطحات البعيدة التي تحيط به ، ويشق برأسه سحب الضباب التي تخيم عليها ، ويلتقط اول اشعة الشمس المشرقة » .

كوبرنيكوس : الشكر الوافر للتقدير هذا من مورتون ، وكذلك لبايكون نفسه . ولك انت ، يا سيدي ، لتلطفك بنقل ذلك الى. ففيهما اكبر العزاء لي .

صوت : والآن ، يا سيدي ، كربونيكوس ، دعني اشكرك بدوري على هذه المقابلة التي اختتمها بهذا التعليق

وفيه شيء من العرفان بجميلك على العالم والعلم . . . فقد كنت بسيطا وشجاعا وكثير الصبر في بحثك عن الحقيقة وتعرّفك اليها لدى بروزها الى ضوء الواقع . لم تكن لك عبقرية غاليليو ، ولا قدرة كبلر في الرياضيات ، ولكنك كنت شجاعا عندما كانت هذه الفضيلة وحدها ذات قيمة ، وكنت شريفا عندما كان الجميع من حولك فاسدين . لقد ولدت لتكون محطم التماثيل والمؤسسات التقليدية ، الثابت القوي الذي لا يعرف الاستسلام ، وبضربات عنيفة عملت على تحطيم بطليموس وانتزاع خطأ جديد آخر من العالم .

تيكو براهه : أبو علم الفلك الحديث
(١٥٤٦ - ١٦٠١)

صوت : ليس من شعب تشده الخرافة الى تحت يستطيع ان ينمو ويتطور . ان الجهل ليجد جوابا ، وهو دائما خاطىء ! ذلك يوقف البحث والتحقيق ، وعندما ينتزع المرء مجموعة « اللماذا » فانه يجفف العقل . ولم يعش قط اي شعب يستطيع ان يغلب الاوروبيين في القرون الوسطى من حيث تعلقهم بالخرافات ، وهذه الاساطير والجهالات كانت كلها وثيقة الصلة بديانتهم .

وكانت معالجة اي موضوع منها تستدعي معالجة الآخر ، وذلك يعني السجن والمشاكل ، واحراق الهراطقة الذين تجرأوا على الخوض في هذه او تلك من القضايا . ولذا كان اكثر سلامة وراحة الاعتقاد بالخرافات .

ان نمو الفكر في اوروبا سار جنبا الى جنب مع موت المخاوف والمعتقدات السخيفة . ومن هنا انبثق علم الفلك من العصور المظلمة ليمنح الحياة للعالم الحديث . وكان علم الفلك نسبيا علما عواقبه سليمة نوعا .

كان افضل كثيرا من محاولة اطلاع الناس على شيء يتعلق بأجسامهم ، وقد وجد ميغيل سيرفيتوس الجراح الاسباني ذلك بعد فوات الاوان . فقد القت عليه القبض محكمة التفتيش واحرق حيا سنة ١٥٥٣ . كل ما فعله سيرفيتوس هو انه حاول زعزعة بعض الخرافات ، وكان ذلك كافيا !

اما العالم الذي سنتعرف اليه في هذه المقابلة فلم يتخصص في الطب او في علم الصحة . انه تيكو براهه ، وكان ذلك من حسن طالعه ، لانه بما عرف عنه من مزاج كان يمكن ان يكون مصيره في غاية السوء ، فيما لو لم يكتف برصد النجوم ، ويمكننا القول كذلك انه من حسن طالع العالم أجمع انه كان فلكيا لا طبيبا . حدثنا ، يا سيدي ، الفلكي عن اصلك ونشأتك !

براهه : ولدت في سكانيا ، وهي مقاطعة دانمركية ، سنة ١٥٤٦ ، وكنت الابن البكر في اسرة مؤلفة من عشرة . وكان والدي ، اوتو براهه ، محاميا ، تولى عدة مناصب حكومية ، وعيّن اخيرا للاشراف على قلعة هلسنغبورغ . ولكن لم يربّني ، بل عمي هو الذي عني بي وانشأني .

صوت : نعرف جيدا انك قبل ان تبصر النور كان والدك وعمك قد اتفقا ان يتبنى العم ، جورج براهه ، اول ابن يرزقه شقيقه اوتو ، لانه كان بلا اولاد . ولكن عندما ابصرت انت النور رفض والدك ووالدتك

التخلي عنك ، الامر الذي اثار شيئا من المرارة بين الشقيقين . الا ان عمك جورج كان من الحكمة بحيث ترك الامر سنة بطولها رزق بعدها والداك بابن ثان . وقد عز على عمك ان يبقى وحيدا بينما لشقيقه ابنان ، فعمد الى اختطافك . وسلم والداك بالامر ، على ما يبدو ، بعد ان رزقا طفلا جديدا ، ولم يثيرا اي مشكلة مع عمك الغني ، وتركاك في كنفه وعهدته .

براهه : لقد عرفت كل هذه التفاصيل فيما بعد ، يا سيدي ، بالطبع ، فدعني الان اواصل حديثي عن نشأتي ، ففي سن الثالثة عشرة دخلت جامعة كوبنهاغن . وكنت على شيء من التهور والطيش ، كما كان متوقعا من فتى تربى في عهدة عم مشغوف به . ولم يكن لدي اي اهتمام بالدرس ، انظر الى الحياة كما هي ، وادعها تسير كما تشاء .

صوت : ولكن عندما بلغت الرابعة عشرة حدث ما ايقظك . ففي ٢١ آب من عام ١٥٦٠ ، حدث كسوف رؤي في كوبنهاغن ، فكان لهذه الظاهرة تأثير كبير عليك . لم تكن روعة هذا المشهد هي التي أثارتك ، بل ان ما هزك هو الدقة والضبط اللذان رافقا التكهن بحدوث ذلك الكسوف . وعندها عزمت على دراسة علم الفلك والرياضيات ، بحيث تصبح قادرا على تحقيق مثل هذه التكهنات .

براهة : وجمعت اعمال بطليموس في علم الفلك وعكفت على

دراستها . ولعل المعرفة التي حصلتها عن السموات في تلك السن المبكرة هي التي جعلتني اتشبث بحزم طوالي حياتي بنظريات بطليموس ومبادئه العلمية . ولم استطع في وقت من الاوقات ان اجد اي معنى لنظرية كوبرنيكوس . . .

صوت : . . « كوبرنيكس المجنون » كما كنت تسميه !

براهه : غير ان هذا الميل العلمي اثار غضب عمي الذي كان يريدني ان اصبح محاميا وعضوا محترما في المجتمع . ولكي يشفيني - على حد تعبيره - من مرض رصد النجوم ، ارسلني سنة ١٥٦٢ الى لايبزيغ ، وأرسل برفقتي معلما يدعى « فيدل » ، وكان يكبرني باربع سنوات ، وكانت مهمة هذا المعلم ان يسهر على تركي النجوم وشأنها والاهتمام بعلم البلاغة .

صوت : وكان فيدل هذا شابا مستقيما ، شريفا ، حي الضمير ، يعمل كل ما بوسعه ليحصل معيشته !

براهه : ولكنني كنت حاد الذكاء ومحبا للدرس اكثر مما تصور فيدل . فكنت كلما رأيته يستسلم الى الرقاد ليلا ، اتسلل الى الخارج واقضي ساعات في مراقبة النجوم او درس الرياضيات . وكان نشاطي جما وطاقتي على الدرس لا تحد . . . لا شيء كان يتعبني ، وكانت تكفيني ساعتان وحسب من النوم في الاربع والعشرين ساعة !

صوت : ولقد بدأت دراستك الجدية حول الكواكب السيارة

في سن السابعة عشرة ، فوجدت ان مواقعها تختلف كثيرا عما ذكر في الكتب . فحملك ذلك على التشدد في ضبط المراقبة ما امكنك . ومن هنا انطلقت في الميدان الذي اصبح شغلك الشاغل طوال حياتك . . . ولم يكن لديك اي تلسكوب للرصد لانه لم يكن قد اخترع بعد . . .

براهه : اتقول تلسكوب ؟ ومن اين كان لي شيء من ذلك ؟ كل ما توفر لدي بعض الادوات التي كنت اصنعها بنفسي فقط . . . وكانت ادوات بدائية ، رحت احسنها واطورها على مر الايام ، الا انني لم احظ يوما بمتعة النظر الى السماء من خلال اي عدسة . وتشاء الاقدار ان تنتهي مهمة فيدل التجسسية ، بوفاة عمي جورج براهه وانا في التاسعة عشرة . ويشاء حسن الطالع ان ارث ثروة لا بأس بها لافعل ما اشاء ، وقد فعلت حسبما كنت اشتهي . . .

صوت : ومن لايبزيغ ذهبت الى جامعة روستوك ، وقفزت من فورك تقريبا الى الشهرة غير المرغوب فيها . فقد كان ثمة خسوف للقمر سيحدث . فاذا بك تعلن نبوءة مؤادها ان هذا الخسوف هو مقدمة لوفاة سلطان الامبراطورية العثمانية . وسرعان ما وصل نبأ وفاة السلطان ، فكانت النتيجة الحتمية انك اصبحت بين ليلة وضحاها بطلا ، ورجل القدر ! . .

براهه : . . . ولكن عندما وصل نبأ اخر يفيد ان السلطان توفي قبل حدوث الخسوف ، انهارت اسطورة بطولتي

وذكائي وعبقريتي ، واصبحت هدفا للهزء والسخرية الشديدين .

صوت : ولكنك لم تكن لتطيق المزاح والنكات . فثارت ثائرتك ولم تسلم بأي تسامح مع من شاء ممازختك في امر تلك النبوءة التي ادت الى المبارزة الوحيدة التي اشتركت فيها في حياتك . . . ولكن هناك من يقول ان تلك المبارزة جرت بينك وبين احد زملائك من الطلبة بسبب ادعاء كل واحد منكما انه اخبر في علم الرياضيات . على اي حال جرت المبارزة في الظلام الدامس بالسيوف ! . وبدأت المبارزة واستمرت فترة من الزمن سجالا بينكما دون ان يصاب احدكما بضرر ، حتى وقف انفك في طريق خصمك ، وعندها خسرت المبارزة . . .

براهه : . . . وخسرت انفي ، وقد ارضي الشرف ، وحملت الى الطبيب للمعالجة . ولم اشأ ان اقضي حياتي بلا انف ، فعكفت على صنع انف جديد ، ولكن من فضة وذهب . . .

صوت : . . . ولكن البعض يقولون ان هذا الانف الذي صنعته كان من النحاس . . .

براهه : كذب وافتراء . . . فانا لا يمكن ان ارضى بأنف من نحاس . . . تأكد من ذلك بنفسك ، يا سيدي . اقترب مني وتفحص انفي الذي لازمني منذ تلك المبارزة المشؤومة . انه وايم الحق ، من الذهب الابريز !

صوت انك صادق ، يا سيد تيكو براهه ، ولا حاجة بي الى التأكد بنفسي ، كما تقول . على اي حال يطيب لي هـهنـا ان اذكر انك لم تكن لتدخل بعد ذلك في مبارزات . وقد كان لك طباع فظة ولسان مر لاذع . وكنت تتخاصم مع الجميع تقريبا ، ولكن اصدقاءك سرعان ما فطنوا الى انهم لا ينبغي لهم اخذك بجدية تامة ، الامر الذي جنبك القتل . ومن حسن الطالع انك بقيت في قيد الحياة لتفيد البشرية من علمك الواسع . ونمضي في استعراض مراحل حياتك واعمالك فنذكر انك عملت بعض الوقت في الكيمياء بغية الحصول على الذهب ، او ما كانوا يسمونه « حجر الفلاسفة » . وقد قمت بتركيب بعض الادوية والعقاقير . ولكن حدث في احدى ليالي تشرين الثاني من سنة ١٥٧٢ انك كنت تنظر الى السماء فذهلت اذ ابصرت نجمـا جديدا يلمع في قبة الفلك ، ولم تصدق عينيك . ولجأت الى سائق عربتك فأكد لك صحة ما رأيت ، وظل هذا النجم يظهر ليلة بعد ليلة ، ويزداد لمعانا حتى نافس المشتري في لمعانه ، ثم ما لبث ان راح نوره يتضاءل شيئا فشيئا حتى اختفى كلية . فكانت تلك الظاهرة نقطة العودة الى حبك الاول : الفلك !!!

براهه : صحيح ، وقد درست هذا النجم في مختلف حالات تبدله ، ثم انتهيت الى تدوين ما رأيته بكل دقة . ولكني لم اشأ في بداية الامر ان انشر هذه

الدراسة لان حبر الطابعين كان ادنى من مستوى امرىء نبيل مثلي . وللسبب نفسه ايضا رفضت القاء محاضرة في جامعة كوبنهاغن عندما طلب الي ذلك . ولكنني بدلت رأيي بعد ان اقترح الملك ان القي تلك المحاضرة . وعدت الى الدانمرك لتصفية ميراث عمي ، ولم اكن انوي الاقامة فيها . كنت اعتبر براغ او بال مكانا انسب لعملي ، فتأهبت لمغادرة وطني .

صوت : ولكن حدث شيء غريب في نفسك في تلك الفترة لم يستطيع مؤرخو حياتك الارستقراطيون تفسيره . فقد تحولت من ارستقراطي لم يشأ ان ينشر بحثا عن نجم جديد ، او يلقي محاضرة علمية في جامعة ، الى امرىء يحب الفلاحين ، ويمنحهم الدواء مجانا لانهم اصبحوا اصدقاء !

براهه : وفعلت اكثر من مصادقة هؤلاء الفلاحين . . . وقعت في حب ابنة فلاح ، ولم اكن احلم قط في الزواج ، ولكنني تزوجت الصبية الفلاحة وعشت واياها واولادنا عيشة هادئة سعيدة . . .

صوت : وعندما كنت تتأهب لمغادرة الدانمارك ارسل الملك فريدريك الثاني نداء مستعجلا يدعوك فيه الى القصر الملكي بعد ان عرف قيمتك العلمية . وقد جرّت هذه المقابلة بينكما الى نتائج عظيمة في حقل العلم . وقد اقنعك بالبقاء في الدانمارك ، وخصص لك المبالغ الطائلة لتنفقها على بناء مرصد في جزيرة هوين ، واقامة المنشآت وشراء الاجهزة اللازمة لذلك فضلا عن تخصيص مرتب لك .

براهه : لقد كانت تلك بالنسبة الي من الايام السمان ، بعد ان حظي علمي المحتقر بالقبول الملكي . وهكذا وضعت الحجر الاساسي للمرصد في ٨ آب سنة ١٥٧٦ ، في اورانيبورغ ، ودعوته « قلعة السموات » ، فكان اكبر المراصد وادقها تنظيما في العالم . وطوال عشرين سنة تابعت فيه رصدي النجوم ، وجمع المعلومات والمعطيات ، التي نشرها العالم كبلر في براغ فيما بعد ، ودعاها « الجداول الرودولفية » تيمنا بحاكم براغ رودولف الذي وجدت فيه بعد هجري الدانمارك راعيا وصديقا .

صوت : كان ذلك العصر الذهبي في حياتك . كنت تعمل العمل الذي تحب في الظروف الاكثر مثالية التي يمكن ان تتصورها . ولم يكن لديك سوى عينيك الثاقبتين لرصد النجوم . وعلى الرغم من كل العوائق ما تزال الى اليوم ملاحظاتك وحساباتك الفلكية مثار اعجاب العلماء على الاطلاق . وليس من السهل الاعتقاد انك وانت تراقب دوران النجوم الازلي عبر السماء لم تستشعر حقيقة النظرية الكوبرنيكية وصحتها . ولعل الغرور اعماك عن ضآلة الارض التي كنت تقف عليها . فلما رسمت هيئة الكون ، جاء الرسم على نسق ما وضعه بطليموس تماما . فجعلت الارض محور كل شيء ، ولكنك قلت بأن الكواكب تدور حول الشمس ، في حين ان الشمس وكل النجوم تطير حول الارض . ذلك كان نظامك الفلكي ، وقد

مات بموتك ، الا ان الانصاف يقتضينا الاقرار بأنك خلقت علم الفلك الحديث ، لان يوهانس كبلر الالماني واسحق نيوتن الانكليزي بنيا على الاساس الذي وضعته .

براهه : شكرا على هذا الانصاف والتقدير ، يا سيدي !

صوت :وكنت ، يا سيد تيكو براهه ، افضل استثمار قام به الملك فريديرك الثاني . فقد اصبحت مدينة اورانيبورغ المركز العلمي في العالم بأسره . فتدفقت على جزيرة هوين الصغيرة جماعات غفيرة من الساسة والفلاسفة والطلاب . وما هي الا فترة قصيرة حتى كان يعمل معك بضعة شبان كانوا يتلقون على يديك دروسهم في علم الفلك . وبالنسبة الى الزائر الذي كان حقا يود ان ينهل المعرفة كنت المضيف المثالي . اما الفضوليون فكنت معهم شديد العنف ، وترفض ان تعرض امامهم ادواتك واجهزتك . ولما كنت قد اصبحت راديكالي النزعة فقد بقيت كذلك . ولم تكن لتحترم الاشخاص مهما سمت مكانتهم الاجتماعية !

براهه : لم يكن لدي تفريق في معاملة اي شخص كان لا اهتمام له بعملي ، حتى ولو كان هذا الزائر ملكا او اميرا وولي عهد . وكان معظم زائري من النبلاء وأوساط البلاط ، ودائما كانت زوجتي الفلاحة هي المضيفة . وكان بوسع من لا يرغب في ذلك ان يبقى بعيدا عني وعن وسطي .

صوت : وكان استهتارك في استقبال علية القوم سببا في

تقلبهم عليك والحاق الاذى بك ... ونذكر من تلك الحوادث ما جرى لك مع ولي العهد كريستيان الرابع ، ثم مع مستشار الدانمارك فالكندورف ، وكانت كلها وبالا عليك ، اذ اتحد هذان الشخصان بعد وفاة الملك فريديريك الثاني ضدك ، وأذلاك ، وحطماك في النهاية . وهذان الرجلان اللذان ما يزالان حيين في التاريخ لانهما حقدا عليك ، كانا من القوة بحيث انتصرا عليك ، لسـوء الطالع !!!

براهه : وشيئا فشيئا انتزعت مني ممتلكاتي وثروتي . وكنت قد انفقت ثروتي الشخصية في تزويد مرصد اورانيبـورغ بالاعتدة للاستمرار في العمل ، فاذا بي اجد نفسي عاجزا عن مواصلة ذلك . فاستأجرت منزلا في كوبنهاغن . ولكن فالكندورف لم يكتف بذلك ، بل شكل لجنة لتحكم على قيمة اعمالي الفلكية . وقلما ترفع لجنة ما تقريرا لا يلائم رغبات سيدها . فكانت النتيجة ان هذه الدمى التي اوجدها المستشار الحاقد وجدت اعمالي زائفة ، ومؤذية بالنسبة الى اخلاق الشعب الدانمركي ، ووحدة روحه . وبكلمة اخرى كان ذلك يعني ان تيكو براهه كان من الهراطقة . هكذا فهم سكان كوبنهاغن الطيبون القرار المذكور ، ولم يكونوا قط بحاجة الى هراطقة .

صوت : ولكن تيكو براهه كان قد حظي بشهرة عالمية ، وسجل اسمه بين الخالدين . ولم يحدث قبل ذلك الوقت ان أسلم رجل بعظمتك الى الجماهير

المجنونة . فقد اعتدى عليك سكان كوبنهاغن ، وكنت قد اصبحت عجوزا ، هدت قواك المحاكمات وخيبة الامل في الاشهر القليلة الاخيرة ، ولكن شيئا لم يكن يقوى على تحطيم روحك . وبعد عشرين سنة هجرت الدانمارك ، وقد فتر حبها في قلبك ، ويممت شطر براغ حيث وجدت في حاكمها رودولف خير صديق وراع لعلمك . وكانت وفاتك في ٢٤ تشرين الاول من سنة ١٦٠١ ، بين اصدقائك وافراد اسرتك ، وعلى رأسهم زوجتك الفلاحة المخلصة . ودفنت ، ووضع رودولف ادواتك المحببة اليك في احد المتاحف . ولكنها لم تبق فيه ، وضاعت وحطمت اثر غزو براغ والهجوم على المتحف . وبعد ثلاثين سنة من تلك الغارة الهوجاء الغاشمة عثر على الكرة الفلكية النحاسية فعرفت انها كانت لك ، وحملت الى اكاديمية العلوم في كوبنهاغن حيث ما تزال الى يومنا هذا ، تثبت بصمت ان تيكو براهه قد عاش وعمل على هذه الارض . اما الارستقراطيون الذين طردوك من الدانمارك ، فقد اجتاحوا جزيرتك هوين واختفى المرصد ، ولم يبق منه الى اليوم الا كومة من التراب تدل على المكان الذي قام فوقه ذات يوم مرصد اورانيبورغ « قلعة السموات » !

براهه : يا لهول ما اسمع ، يا سيدي . أانتقام مني في حياتي وفي مماتي ؟ هذا منتهى الجور والحقد !

صوت : صحيح . . . ولكن لا عليك ، فأنت ابو علم

الفلك الحديث لانك وضعت نظام العمل الفلكي ، وأوجدت الاساس الذي بنى عليه كل من كبلر ونيوتن عمارتها الرائعة . ولقد فعلت ذلك بكفاحك الدائب ، من اجل الدقة والضبط ، وجداولك اقرب ما يمكن من الصحة ، بحيث ان المراقبين ، حتى مع وجود ادق الاجهزة والآلات بين ايديهم ، يجدون صعوبة في اضفاء اي تحسين عليها !

براهه : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذا التقدير . انه يثلج صدري ، وينسيني كل ما عانيت في حياتي !

ويليام هارفي : دفن جالينوس
(١٥٧٨ - ١٦٥٧)

صوت : كان قد مضى خمس عشرة سنة على وفاة فيزاليوس عندما ابصر ويليام هارفي النور في فوكستون من اعمال مقاطعة كنت سنة ١٥٧٨ . وقيل انه جاء الى هذا العالم في الوقت المناسب ، وقد وضع قدمه في وقت مبكر على الطريق الذي شقه له كل من سرفيتوس وفيزاليوس وكولومبوس وغبريللي فالوبيو وامبرواز باريه واندريا سيزالبينو ، ولم يكن عليه الا ان يتقدم الى امام ، وكان كل ما في نفسه يدعوه الى ذلك .

كان والده مزارعا ناجحا ورجلا ذكيا صلبا منحه المَسْكَنَ الممتاز ووفر له فُرصةَ دراسة وتعلم كل ما كان معروفا في ذلك الزمن . وقد اوفده الى جامعة كيمبريدج وهو في السادسة عشرة . وفي العشرين قرر ان يتعلم الطب فذهب من فوره الى بادوى في ايطاليا ليُصبح من اتباع ابقراط . أليس كذلك ؟

هارفي : وفي بادوى حيث علَّم فيزاليوس وضرب ونفي ، درست علم التشريح ، وبقيت هناك طوال خمس سنوات عدت بعدها الى انكلترا طبيبا ماهرا ولما اتجاوز الرابعة والعشرين .

صوت : وفي نفسك الهادئة المستكينة لم يكن هناك شي من الثورة والعاصفة اللتين تميز بهما باراسلسوس وفيزاليوس ، ولم يَخْطُرْ قط ببالك ، كما خَطَرَ ببال سَلَفَيكَ العظيمين من قبل ، أنك ستُمسك بخِناقِ العالَم وتقولبه حسب طريقة تفكيرك الخاصة .

هارفي :ولعله لم يخطر ببالي انه كان لدي اي شيء جديد خاص امنحه للعالم .

صوت : لذا استقر بك المقام في لندن على عَهْد الملك دجيمس الاول كطبيب شاب متواضع املا ان يمرض الناس فيلجأوا اليك لمعالجتهم وشفائهم مما يشكون من آلام . وقد كنت اذ ذاك شابا لائق المظهر ، اقصر قامة من المتوسط ، معتدل البُنية ، فاحمَ الشَعر ، وعيناك صغيرتين سوداوين ، نافر الجبين ، ولك ابتسامة صادقة ، فلم يكن مُستغربا ان تَقَعَ في حبك ابنةُ الدكتور الشهير لانسيلوت براون ، الطبيب السابق للملكة اليزابث الاولى . وقد تم زواجكما سنة ١٦٠٥ ، وكانت زوجتك افضل زوجة لطبيب .

هارفي : صحيح ... واذا شئت الحقيقة فأنا اصارحك بأنني لم اكن في البدء شديد الاهتمام بالطب . ولكنني سرعان ما ابديت رغبة في هذه المهنة ، ونجحت فيها وتوصلت الى معالجة المرضى الذين كان بوسعهم ان يدفعوا اجورا مرتفعة ، وكان في جملتهم رئيس مجلس اللوردات ، والرئيس الاعلى للقضاء فرنسيس بايكون، وايرل اوف آرنديل . ونجحت كذلك في

الوصول الى عضوية الكلية الملكية للاطباء . وكان ذلك شرفا عظيما لا يحلم اي طبيب كان في الحصول عليه . ومن هناك ، وبتوصية من الملك دجيمس الاول ودعم ، عينت طبيبا في مستشفى القديس بارثولوميو . . .

صوت : الامرُ الذي يعني أنك لَفتَّ اليك انتباه إما صاحب الجلالة نَفْسه او انتباه أحد المقربين من العرش ، وقد حدث كُلُّ ذلك وانت لم تتجاوز الثانية والثلاثين ، وهو امرٌ يُحمدُ لك . ولعل حَمَاكَ الدكتور براون العجوز قد ساعدك في بلوغ ما بلغت .

هارفي : ولكن لا تنسى ، يا سيدي ، انني لو لم اكن دبلوماسيا في طبيعتي ولطيفا في معشري لما استطاع احد ان يدفعني الى امام بمثل هذه السرعة .

صوت : وخصوصا انك لم تكن حتى تلك الفترة من حياتك قد حققت شيئا يُذْكَر في عالَم الطِبِ . ففي سنة ١٦١٦ ، وهي السنة التي انطفأ فيها سِراجُ شكسبير ، بدأت بالقاء سلسلةٍ من المحاضرات في مستشفى القديس بارثولوميو ، ولم تكن مستحدثات وتجديدات الطبيب باراسلسوس تعني شيئا بالنسبة اليك ، فتمسكت باللُغة اللاتينية كما لو ان الامور التي كان عليك ان تَطلع بها ارفع من ان يتناولها اللسان الانكليزيُ العادي بالشَرح .

هارفي : غير اني مع محافظتي على الشكل التقليدي كانت محاضراتي راديكالية من حيث التفكير ، كأي شيء

حلم به باراسلسوس او فيزاليوس . ولقد هاجمت من فوري قضية حركات القلب والدم . ولكن هذه المحاضرات لم تحدث اي تموجات في جدول الطب المحافظ الهادىء ، ولعل ما كان عندي من معلومات تتضمنتها المحاضرات لم تصل الى ابعد من حدود قاعة المحاضرات .

صوت : الحقيقة ، يا سيدي ، الطبيب ، أنك لم تكن صاحب شخصيةٍ فذة تجعلُ من الاستاذ ذا شعبية ، فضلاً عن أنه لم يؤثرْ عنك انك اَلْهَمت طالبا واحدا الرغبة الملحة للمعرفة . وطوال تلك الفترة كُنت ولا ريب تعيشُ عيشةً تقليدية . نستنتج ذلك من مجرد تعيينك سنة ١٦١٨ طبيبا فوق العادة للملك جيمس الاول . ولما توفي هذا الملك اصبحت طبيبا خاصا للملك تشارلز الاول . وعينت في مركزٍ ثابت في البلاط. وفي سن الخمسين لم يكن اسمُك معروفا خارج لندن ، وكان مجهولا تماما في القارة الاوروبية .

هارفي : الا ان سنة ١٦٢٨ حملت الي الشهرة وأحلتني بين العلماء الخالدين على مر العصور كما يبدو لي ، وفي طليعتهم ابقراط وجالينوس . وفي تلك السنة بالذات نشرت كتابي عن حركات القلب والدم .

صوت : يقيني أنك تقصِدُ بذلك نظريتَك في الدورةِ الدموية وهنا اسمحْ لي أن اقول إن عالِما او طبيبا عربيا سَبَقَك الى اكتشاف ذلك بحوالي اكثر من اربعماية سنة ، وهو ابن النفيس الدمشقي ، الذي عاش بين ١٢١٠ و ١٢٢٨ ، وكان رئيس اطباء مصر ، وله كتابٌ

يشرحُ فيه تشريحَ ابن سينا ، ويتضمن وصفاً لدورة الدم الصغرى ، فهل لك ان تُطْلعَنا على قِوامِ نظريتك هذه ؟

هارفي :الواقع ان حركة القلب والدم عرفت منذ اقدم الازمنة . وفي ايطاليا وبمساعدة غاليليو عمل الكثير في حقل النبض . وسرفيتوس كتب عن دورة الدم عبر الرئتين ، كما اكتشف سيلفيوس الصمامات في الاوردة والعروق ، ووصفها . اما مساهمتي في هذا الحقل فهي انني واصلت العمل الذي اضطر سرفيتوس ان يتركه ، والعمل الذي لم يستطع سيلفيوس ان يواصله ، وقد قلت ان الدم يجري في سيل متواصل عبر كل اجزاء-الجسم من القلب ويعود من جديد الى القلب . وقلت كذلك بأن تقلص القلب يدفع الدم خارجا ، وعندما يسترخي هذا القلب يجري الدم اليه ويملأه . وقد دفنت ـ اذا صح هذا التعبير ـ جالينوس عندما اظهرت ان لا علاقة بين الجانبين الايمن والايسر من القلب الا من خلال الرئتين .

صوت : ان تلك النظرية التي تبدو امراً مفروغا منه اليوم كانت في العصر الذي طَلَعْتَ بها على الناس وطبعتها في كتاب امرا يُعتبر هرطقة وتهديماً للاصول والمبادئ المقررة . وقد عرفنا ان فيزاليوس نُفي لانه كان اسوأ اقلَ من ذلك ، وسرفيتوس أُحْرِق حيا لاسباب اتفه ، وكذلك براسلسوس رُجم في مدينة بال وَقُتِلَ في النهاية لقوله اشياء ليس بمثل اهمية الاشياء التي قُلتها انت ،

فكيف نجوت ، وقد ذهبت الى ابعد مما ذهب اليه اسلافُك الذين ذكرت ؟

هارفي : الواقع انني لم أنجُ تماما ، يا سيدي . فبعد ظهور كتابي تأثرت مهنتي الطبية كثيرا لانه لم يكن هناك من يثق بطبيب مجنونٍ - كما وصفت - ليضع بين يديه حياته . ولكن الحقيقة هي انني لم اتأثر كثيرا بهذه الخسارة المادية بسبب كوني طبيبا للملك تشارلز الاول ، ومع ذلك تحامرني الذعر وأنا اقدّم كتابي الى العالم .

صوت : المعلوم انك نجوت من مغبة تطرفك العلمي ، ولم تتعرض لكثير من الانتقاد ، وربما كان ذلك عائدا الى أنَ ظلَ العرش كان يحميك ، وكتابك المؤلف من ستٍ وسبعين صفحة ، وقد كتب ليبرهن على أن كُل شيء تقريبا مما كُتب في السابق عن القلب والدم كان هُراء ، ما يزال حتى اليوم مرجع ثقة ودليلا على عبقريتك ، الا انك اخطأت في نظرية طلعت بها تتعلق بالروح تقول فيها ان الروح موجودة في الدم ، وقد فاتك ان ترى بثاقب بصيرتك ان الروح ليست في الجسم ، واذا كان هناك شيء من ذلك فان الجسم هو في الروح . ولكن الانصاف يقتضي بأن اقرر في هذا المجال ان مثل هذه الهفوة لا يمكن ان تثير انتقادا لاشهر طبيب انكليزي .

هارفي : وهكذا سارت الامور على ما يرام بالنسبة الي

كطبيب للملك تشارلز الاول . وفي سنة ١٦٣٠ رافقت الدوق اوف لينوكس الشاب في جولة طويلة شاهدت فيها معظم ارجاء اوروبا . وبعد ذلك بست سنوات كنت مع الايرل اوف ارنديل في براغ ، وقابلت اطباء كبارا كان بعضهم ما يزل يسخر من نظريتي الخاصة بدورة الدم . وعدت من تلك الرحلة الى لندن لأمارس الطب ، ولكن الملك تشارلز الاول حملني الى اسكتلندا سنة ١٦٣٩ ، ثم تُركت وشأني مدة ثلاث سنوات تعاطيت خلالها تطبيب سكان لندن من طبقة المجتمع الراقي ، وكتبت خلالها رسالة في الدفاع عن اكتشافي الطبي العظيم .

صوت : كان ذلك امراً رائعا ، ولكنه مع الاسف لم يستمر طويلا . فقد وصل كرومويل الى الحكم مع جماعته من المتزمتين ، فكان ذلك بالنسبة اليك الخيانة بذاتها ، وانت الملكي حتى اطراف اصابعك ، كما يقولون ، وقد بقيت الى جانب الملك في الاضطراب الذي حدث سنة ١٦٤٢ ، وكنت معه في معركة إدجهيل تقرأ خلف احدى الخمائل عندما ابعدتك عن ذلك المكان رصاصة متطفلة ، ولما لم يستطع تشارلز الاول ان يحقق النصر الحاسم المنتظر انسحبت برفقته الى اوكسفورد تاركا الحرب تَسيُر سيرها الطبيعي .

هارفي : في اثناء وجودي في اوكسفورد عكفت على دراسة نمو الصوص في البيضة ، فكنت اكسر بيضة كل يوم واراقب ما حدث خلال الاربع والعشرين ساعة

الماضية . وهكذا تجمع لدي مادة لكتابي عن موضوع التكوين ففي هذا الكتاب وضعت الكثير من المعلومات والملاحظات . ولكن اهميته كانت جد ضئيلة من حيث القيمة العملية . وقد رأيت ان اشير الى ذلك في هذا المقام لان ذلك انما أحيا دراسة هذا الموضوع الذي بقي منسيا منذ عصر ارسطو .

صوت : وخلال اقامتك في اوكسفورد التي استمرت ثلاث سنوات كِدْتَ تَفْقد منصبك في مستشفى القديس بارثولوميو لانك انضممت الى الحزب المناوىء للبرلمان ، وكان من الطبيعي ان يتشوق كروموبل او أحد من رجاله الى معرفة ما يدين الطبيب وليام هارفي طبيب الملك الخاص . وهكذا قُلِبَت حُجُراتك في هوايتهول رأسا على عقب وصودر وضبط كُلُ شيء ، بما في ذلك المخطوطات . فكانت تلك ضربة قاسية بالنسبة اليك .

هارفي : وقد تلتها ضربة اشد قسوة ، يا سيدي ، فقد استسلمت اوكسفورد لفيرفاكس ، فكان ذلك بالنسبة الي نهاية العالم ، وقد اختفى اولئك الذين كانوا من الاصدقاء الحميمين طوال اربعين سنة ، وطردوا من منازلهم ، والقصر الذي لمعت في نوره واشرقت ، هدم من اساسه . وكان ذلك في نظري بمثابه مسح لندن عن وجه الارض . ووحدي لم يكن بوسعي ان احارب دعاة الجمهورية بزعامة كروموبل ، فانسحبت وأنا في الثامنة والستين من الحياة العامة الى عزلة

كادت تكون تامة هربا من طرق البشر واساليبهم المكروهة .

صوت : ولكنك عدت فظهرت مرة واحدة عندما قررت الكُلية الملكية للاطباء دفعك مُجددا الى الواجهة بتعيينك رئيسا لها ، اليس كذلك ؟

هارفي : ولكنني رفضت ذلك التكريم بسبب تقدمي في السن .

صوت : وربما رفضته ـ كما قيل ـ لانك لم تكن لتستطيع التفكير بانكلترا من دون ملك ، ورفضت ان تهتم بالمتعصبين الذين حَطموا بلادَك حَسبَ اعتقادك . ونعودُ الى عملك وبحثك في موضوع تولد الحيوانات الذي نُشر سنة ١٦٥١ ، ولم تكن تأبه لذلك ، ولكن طبيبا يدعى جورج إنتْ ، رأى مؤلفك فألحَّ عليك لنشره على الملأ .

هارفي : تلك هي الحقيقة ، فلم يكن يهمني في شيء ان ينشر الكتاب او لا ينشر بعد ان اصبحت أرمل ، لا ولد لي ، وبعد ان انتزعوا مني مليكي وجميع الاصدقاء من ذوي النفوس الذكية التي شعت كذلك على قدمي العرش ، لم يبق لي شيء في هذا العالم بعد ان قاربت الثمانين . وما ازال اذكر العبارة اليائسة التي رددتها اذ ذاك « ان الدولة هي فريسة الاضطراب والعواصف ، وانا شخصياً في قارب مكشوف وسط البحر الخضم » .

: وفي كانون الثاني من سنة ١٦٤٩ أُعْدِمَ الملك تشارلز الاول ، وكانت قد انقضت ثماني سنوات على اغتصاب كرومويل السلطة وتحكّمه بانكلترا . وبزغ فجرُ الثالث من حزيران ١٦٥٧ مشرقا عليك ، ايها الطبيب العجوز ، الذي لم يستطع ان ينقذ مليكه ، وهو الان اعجز من انقاذ نفسه . فقد ضربك الشلل فلزمت الفراش ابكم ، ولكنك لم تفقد الوعي . واحاط بك انسباؤك واصدقاؤك الذين فارقتهم الى العالم الآخر في نهاية ذلك اليوم بالذات ، وبموتك ودع العالم واحدا من عظمائه الخالدين .

هارفي :شكراً على هذا التقدير، يا سيدي .

اسحق نيوتن : مستكشف الكون
(١٦٤٢ - ١٧٢٧)

صوت[١] : قبيل نهاية حياة مكتشف الكون ، اسحق نيوتن ، اقيمت له حفلة تكريمية ، فأسهب مكرموه في ابراز اعجابهم الشديد به وبنظرياته العلمية القيمة التي مهدت الطريق لفهم الكثير من غوامض الكون . فلما دنا وقت شكرهم ، انبرى قائلا لهم : « لا تحسبوا ان النجاح الذي أحرزته كان وليد تفوق ذهني ، او وليد ملكات خاصة ، وانما هو وليد الصبر ، والمثابرة ، والتفكير العميق الطويل دون سأم او ملل . فلقد اعتدت ان احدد الموضوع ، وأظل افكر فيه حتى يتبدد الظلام الذي يكتنفه » .

تلك لعمري. هي الطريقة العلمية المثلى في التفكير ، ومعالجة المعضلات . وذلك هو التواضع الجم الذي ينبغي ان يتحلى به كل عالم حق . معي الان اسحق نيوتن . . .

نيوتن : ولكني سئمت البحث العلمي في اواخر حياتي ، وعملت مديرا لدار سك النقود . وبقيت في هذا المنصب حتى ارتحلت عن العالم الاول دون ان أتزوج . . .

صوت : الغريب في امرك انك لم تتزوج مع انك كنت وسيم الوجه ، وضاح الجبين ، براق العينين ، ومتوسط القامة . ولا احد يدري ما اذا كنت قد قمت ببعض المغامرات العاطفية . الا انني لن احرج موقفك الآن . ولعلي اجد تفسيرا لبقائك عازبا في ردك على من سألك لماذا لا تدخن التبغ اذ قلت : «لأني لا اريد ان اخلق لنفسي مشاغل جديدة ! » (يقهقهان) .

نيوتن : اذا كان التدخين يخلق مشاغل جديدة ، فما بالك اذن بالزواج ؟!

صوت : حسنا ، يا سيد نيوتن ، والآن لنعد الى يوم ولادتك .

نيوتن : فجر يوم عيد الميلاد من سنة ١٦٤٢ أبصرت النور في مقاطعة لنكولن في انكلترا .

صوت : وقد ولدت طفلا هزيل البنية ، قطعت القابلتان اللتان أشرفتا على ولادتك المبتسرة بأنك لن تعيش حتى مساء ذلك اليوم .

نيوتن : ولكنك تنسى المثل القائل: «كذب المنجمون ولو صدقوا » . . . فقد عشت حتى الخامسة والثمانين من عمري .

صوت : وقد كان عقلك بحق اروع عقل علمي عرفه العالم قاطبة. مع انك كنت من اسرة خاملة لم ينعم احد

منها قبلك بالمواهب والعبقرية التي كانت تنطوي عليها نفسك.

نيوتن : وعبثا حاول علماء السلالات البشرية ، والمهتمون بسيرتي ، الكشف عن سر عبقريتي الخلاقة ، وعقلي النير ، فلم يجدوا في حياة آبائي وأجدادي طوال ثلاثة اجيال تسبق مولدي ، ما يدل على وجود اي مبرر لعبقريتي . . .

صوت : . . مع ان ظهور مواهبك غير العادية كان بطيئا . فقد كان يسبقك في المدرسة اكثر زملائك ، في بادىء الامر .

نيوتن : ولكن حادثا جرى لي مع احد زملائي المتفوقين ادى الى اشتباك بيننا ، جعلني اصمم على محو العار الذي لحقني، وذلك بالتفوق على أقراني .

في التاسعة عشرة، التحقت بجامعة كيمبريدج حيث أدهشت مواهبك الرياضية اساتذة الجامعة الذين تنبأوا لك بمستقبل زاهر.

نيوتن : ولقد كتب استاذ الرياضيات في الجامعة المذكورة تقريرا عني قال فيه : « أعتقد ان للشاب اسحق نيوتن مواهب فذة غير عادية ، تبشر بمستقبل عظيم » . واوصى عندما استقال من الجامعة لكبر سنه ، بأن أخلفه في منصبه .

صوت : ولكن تفشي وباء الطاعون في لندن سنة ١٦٦٥ ،

وقضاءه على عشر سكانها في غضون ثلاثة اشهر فحسب ، قطعا عليك تعليمك .

نيوتن : أغلقت الجامعة أبوابها ، وعدت الى البيت ـ بيت أمي ، لأن ابي كان قد توفي قبل اسابيع من ولادتي .

صوت : وفي تلك الفترة بالذات من حياتك ظهرت قدرتك على التركيز والتفكير في المسائل المعقدة الساعات الطوال دون ملل . كما ظهرت موهبتك في الاستنتاج المنطقي ، والتسلل الفوري الى جوهر المشكلة التي تعترضك .

نيوتن : وفي هذه الفترة بالذات طرأت لي فكرة تطبيق قوانين الجاذبية على كل العالم . غير أني لم أنشر على الملأ نظريتي هذه الا سنة ١٦٨٧ بسبب انعدام بعض المعطيات العلمية الضرورية لحساباتي .

صوت : ما دمت قد ذكرت قوانين الحركة والجاذبية ، فما مدى صحة قصة التفاحة التي وقعت على رأسك وأنت مستغرق ذات يوم في تأملاتك ؟

نيوتن : ان هذه القصة ، يا سيدي ، مصدرها الفيلسوف والاديب الفرنسي فولتير الذي صرح بأنه سمعها من احدى نسيباتي ، ولعلها ابنة اخي ، كاثرين بارتون التي كانت تعنى بشؤون منزلي في لندن . وكانت فتاة جميلة ، لطيفة المعشر ، وربما شاءت مداعبة فولتير فروت له ما روت (يقهقهان) .

صوت : ومع ان اكتشافك قانون الجاذبية الارضية كان أبرز

اعمالك ، الا ان ابحاثك عن الضوء كان لها تأثير كبير في الميدان العلمي . فأنت من حلل الضوء ، وقلت انه مجموعة من مختلف الاشعاعات التي تسبب الاهتزازات الملونة ، وما الضوء الابيض الا مزيج من هذه الالوان كافة .

نيوتن : اوَ تدري ان هذا الاكتشاف العظيم لم يكلفني اكثر من قروش معدودة ، اشتريت بها بعض قطع الزجاج ؟ وفي الوقت نفسه ابتكرت نوعا من التلسكوبات صنعته من العدسات الزجاجية والمرايا .

صوت : ولكنك لم تعلن شيئا عن نتائج تأملاتك وتجاربك العلمية المختلفة ، وعدت الى الجامعة سنة ١٦٦٧ . فما ان اتممت دراستك حتى عينت استاذا للرياضيات فيها . وقد امضيت فيها ثلاثين سنة كاملة .

نيوتن : وضعت سنة ١٦٦٨ تلسكوبا رصدت به نجوم جوبيتر السيارة . وبفضل هذا الاكتشاف انتخبت عضوا في الجمعية الملكية بعد اربع سنوات من ذلك . . .

صوت : وقد احاطك اعضاء هذه الجمعية بحماسة شديدة دفعتك الى اطلاعهم على الدراسات الخاصة بالضوء والاشعة ، وهي الدراسات التي اثمرت ابتكارك الجديد .

نيوتن : الا ان تقريري الضافي احدث ضجة صاخبة وجدلا طويلا ، لان تلك الاكتشافات لم تكن ضمن اطار

النظريات التي كان معمولا بها في ذلك العصر . فتناولني كثيرون من العلماء بالنقد اللاذع والتعليقات الجارحة . وترك الشك في صواب نظرياتي ، والاصوات المعارضة التي تعالت اثرا مريرا في نفسي فكتبت اقول : « في اعتقادي انه يترتب على المرء اما ان يكف عن البحث لتحقيق اي تقدم علمي ، او ان يكرس نفسه للدفاع عن نظرياته الجديدة واكتشافاته المبتكرة » .

صوت : على الرغم من اكتشافك طريقة الحساب اللامتناهية قبل اكمال دراستك في كيمبريدج ، الا انك تركت نتيجة دراستك هذه طي الكتمان ، فلما توصل بعد بضع سنوات العالم الرياضي الالماني الكبير لايبنتس الى اكتشاف طريقة مشابهة تقريبا لطريقتك ، واصبح الناقش حول الموضوع عاما راح انصار لايبنتس يذيعون انك انتحلت طريقة زميلك العالم الالماني .

نيوتن : وقد حسم النزاع حول الموضوع عالم رياضي سويسري شهير يدعى جان برنولي بوضع معضلتين رياضيتين امامنا ، ومنحنا مدة سنة لحلهما . وتمكن لايبنتس من حل المعضلة الاولى ، وانهمك في حل المعضلة الثانية عندما انتهت المهلة المقررة . اما انا فقد توصلت الى حل المعضلتين معا بعد اربع وعشرين ساعة من تسلمي اياهما . وارسلت الحل الى الجمعية الملكية مع اغفال اسمي . فما ان اطلع العالم السويسري على النتيجة حتى صاح : « ان الاسد

يُعرِف بمخالبه . . . لا شك ان نيوتن هو الذي سبق الى كشف تلك الطريقة » !

صوت : واتفق في ذلك الحين ان عالما شابا من علماء الفلك النابهين يدعى ادموند هيلي كان يحاول ان يحسب سير مجرة المذنّب المعروف باسمه « مذنب هيلي » فراجعك لكي تساعده في ذلك . وقد دهش ايما دهشة عندما اخبرته بأنك سبقته الى ذلك .

نيوتن : وشرعت في البحث عن الاوراق التي سجلت عليها ذلك الحساب . فلما اعياني العثور عليها ، اعدت امام هيلي تسجيلها من جديد بسرعة اذهلته ، وجعلته يلح علي بتصنيف الاوراق التي كانت مكدسة كوما كوما في ادراج مكتبي ، تمهيدا لنشر ما تتضمنه .

صوت : وقد كان ، ونشر كتابك المعروف باسم « برنسيبيا » او القوانين ، ويعتبر من اعظم الكتب العلمية لانه اشتمل على افكار ونظريات كان لها اكبر الاثر في تطور التفكير البشري حتى ظهور نظرية النسبية لآينشتاين .

نيوتن : كتابي « القوانين » يحمل كذلك عنوانا اخر هو « خطط الكون » ، وقد وضعته باللغة اللاتينية ، لغة العلم في ذلك العصر ، اما المعضلات التي يعالجها فهي وعرة المسالك ، ومعقدة . وقد عرضتها عرضا عاليا مقصودا « كي لا يتعرض لها صغار علماء الرياضيات » .

صوت : سيدي نيوتن ، لعل اعظم انتصاراتك تم بعد وفاتك بقرن كامل . فقد اعترف علماء الفلك بصحة وكمال نظرية الجاذبية الكونية عندما اكتشفوا الفرق الطفيف في الوضع المحسوب للكوكب السيار اورانوس . فقد ذهبوا الى انه لا بد ان يكون قد اصيب ببعض الاختلال بسبب وجود كوكب آخر لم يكتشف بعد يقع تحت جاذبيته . ونتيجة للدراسات الدقيقة تم اكتشاف الكوكب نبتون .

نيوتن : لقد احسنت ، يا سيدي ، صنعا باطلاعي على كل هذه المعلومات ، فشكرا .

صوت : في نهاية هذه المقابلة اسمح لي بأن اتلو ما تضمنته تلك الورقة التي وجدت في مكتبك . فقد كتبت فيها تقول : « لست أدري كيف بدوت في نظر الناس ، ولكنني أبدو في نظر نفسي طفلا صغيرا يلهو بجوار احد المحيطات ، فكان يعثر من حين الى آخر على حصاة عادية ، بينما المحيط الشاسع المليء بلآلىء الحقائق ما يزال مجهولا مني ! » .

نيوتن : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، وليس من باب التواضع في شيء !

صوت : أما وفاتك عن خمسة وثمانين عاما فكانت اثر مرض شعرت به وانت ترئس جلسة للجمعية الملكية ، وذلك في العشرين من آذار من سنة ١٧٢٧ . واما جثمانك فيرقد في كاتدرائية وستمنستر ، مقبرة العظماء !

ليناوس : ملك الزهور
(١٧٠٧ - ١٧٧٨)

صوت : لكل امرىء شخصية تاريخية مفضلة ـ عظيم يجرؤ على تسميته صديقا على الرغم من تباعد الزمن ـ شخصية يعتبرها خالدة ، لا تنسى ، مع انه لم يقابلها قط . واسارع الى القول ان اختياري يقع على كارل ليناوس ، أحد اعظم العلماء الطبيعيين الذين عرفهم العالم . فعندما بزغ فجر القرن الثامن عشر الذي عاش فيه ، كانت العلوم الطبيعية تشويشا كتبيا . فاذا بهذا الجبار ليناوس يخترق الظلمة السائدة ليفتح نوافذ العقل على مصاريعها بحيث يدخل غرف الدرس صباح نوار المشرق حاملا معه الاريج والاصوات . في الطبيعة نفسها اكتشف النظام والمعنى ، ومن الفوضى خلق النظام او الترتيب العضوي . وبوضعه يده على علمه أحدث ليناوس انسجاماً يعلن كالترنيمة وحدة كل الاشياء في ظل الله . فمن اين نبدأ ، ياسيدي ؟

ليناوس : من البداية بالطبع ، فقد ابصرت النور سنة ١٧٠٧ في كوخ حقير مؤلف من غرفة واحدة يقوم في الريف السويدي حيث كان والدي كاهنا .

صوت : ولم تكن السويد في ذلك الزمان المملكة المزدهرة ، المثقفة التي نعرفها اليوم .

لينَاوس : لقد كانت بريّة شاسعة يعيش عليها شعب مجتهد نشيط ، وتغطيها غابات الصنوبر الخضراء ، وتتلألأ فيها البحيرات المنتشرة هنا وهناك وتمتد حتى تختفي في السهول الجرداء في المنطقة القطبية الشمالية . وهذه الطبيعة المشعة هي التي غذّت افكاري وانا الهو والعب في حديقة الاب ليناوس ، والدي .

صوت : وفي سن الرابعة كنت تخرج الى الغابات والحقول برفقة والدك الذي كان يدلك على الزهور وجذورها وبذورها ، مرسخاً في ذاكرتك اسم كل نوع من انواع النبات . وكانت طريقة تعليم والدك لك مبتكرة حقاً . ففي تلك الايام قلما كان الدارسون والباحثون يلجأون الى الطبيعة بحثا عن نبات او حيوان ، فقد كانوا يرجعون الى كتاب يستحسن ان يكون قد كتبه اغريقي قبل الفي سنة . بحيث انه اذا عثر تلميذ ما على زهرة لم يذكرها ذلك المرجع الموثوق به ، ربما رماها جانبا غير مكترث لها .

ليناوس : اذن عرفت الآن سبب دهشة البروفسور سلسيوس من المعهد الديني في جامعة اوبسالا ـ وهو شخصيا عالم نباتي ـ عندما رآني ذات صباح من نيسان سنة ١٧٢٩ جالسا على احد مقاعد الحديقة النباتية المهملة ، متأملا ومتفحصا بدقة واهتمام بعض الزهور . وبدلا من التفتيش عنها في احد الكتب ، كنت ابدو انني اكتب كتابا عنها . وعلى الرغم من مظهري الرث ، فقد احدثت انطباعا حسنا في نفس ذلك العالم عندما وقف

على معلوماتي النباتية العلمية المذهلة ، بالرغم من قلة تدريبي . فعرض علي ان ارافقه الى منزله ، وكساني ، واطعمني ، واوكل الي مهمة ادارة مكتبته العامرة .

صوت : وكانت مكافأته ما كتبته وانت في الحادية والعشرين نتيجة لدراساتك الزهور عن كثب . وقد اسميت كتابك « عرس الازهار » لانك فيه ذكرت حقيقة بسيطة ولكنها قلما كانت معروفة وهي ان للنباتات كالحيوانات ، حياة جنسية . وقد كانت تلك العبارة الساذجة ، ولكن الجريئة ، في ذلك الوقت ، كافية لصدم الاخلاقيين المتزمتين ، وابهاج المهتمين . ذلك بأنها فتحت عصرا جديدا في العلم ـ هو العصر اللليناوسي ، اذا صحّ التعبير ، أي صفوة الاكتشاف والفهم اللذين نجني ثمارهما اليوم . وهكذا اصرع راعيك البروفسور سلسيوس الى صديقه البروفسور رودبك ، العالم الاول في اوبسالا الذي اكتشف عبقريتك من فوره في الصفحات التي كنت قد دوّنتها .

ليناوس : وقد شدَّد البروفسور رودبك على ان اعيش معه . ففعلت ، واكتسبت منه ذخيرة علمية قضى حياته بطولها يجمعها ، وقد وسّع آفاق تفكيري ، وعمّق مطالعاتي ، وآثار خيالي ، وما لبثنا ان فكّرنا في تحضير اعظم حملة علمية خطرت ببال احد من قبل . وقد تم تنفيذها ذات صباح من شهر ايار سنة ١٧٣٢ .

صوت : الا ان تلك الحملة كانت في الحقيقة تقوم عليك وحدك فسافرت شمالا الى « لابلاند » حيث المجاهل

السويدية، لدراسة الطبيعة دراسة علمية دون ان تحمل معك من الكتب سوى ثلاث مخطوطات وضعتها بنفسك عن النباتات والـطيـور .

ليناوس : اما سائر الاشياء التي حملتها فقد كانت عصا للقياس ، وتلسكوبا ، ومجهرا ، ومدية ، وبندقية خفيفة لصيد الطيـور ، وبعض الورق لتجفيف النباتات ، ومحبرة ، وعلبة فيها اقلام ، ومفكرة ، وناموسية لاتقاء البعوض ، كل ذلك حملته على ظهر جوادي .

صوت : ان هذه البساطة التي تميزت بها تلك الحملة العلمية لتبعث على الابتسام حقا بالنسبة الى امرىء مطلع على ماهية الحملات العلمية التي تقوم بها المؤسسات الغنية او الجامعات اذ توفر لافرادها كل الادوات اللازمة ووسائل البحث والراحة والرفاهية .

ليناوس : انك تنسى، يا سيدي ، ان المهم في الامر ليس الادوات ، بل الانسان الذي يقوم بالحملة وليست النماذج التي يعود بها بل الآراء والافكار . أليس كذلك ؟

صوت : بالطبع، يا سيد ليناوس ، وقد كان عقلك متوقدا ومتفتحا ومشعا كذلك الصباح من ايار عندما امتطيت صهوة جوادك واتجهت شمالا حيث قضيت ستة اشهر بطولها في المناطق القطبية دارسا باحثا ، منقبا ، وجامعا من الطبيعة الحية المعلومات العلمية القيمة التي لم يجمعها قط اي عالم من قبل . وجلست الى مكتبك

لتضع التقارير عن تلك الحملة الجيولوجية ، النباتية ، الاثنولوجية ، الاقتصادية، والطيورية - نسبة الى علم الطيور .

ليناوس : وقد اقتضاني جمع هذا الحصاد العلمي من المذكرات والملاحظات ورؤوس الاقلام التي دوّنتها في حملتي ثلاث سنوات كاملة. وسرعان ما انتشر الحديث عني. فوصلت انباء حملتي العلمية الى الصحف في المانيا وانكلترا . ومضى وقت غير قصير قبل ان تعرف السويد نفسها القيمة العلمية التي يمثلها ابنها كارل ليناوس .

صوت : وهكذا دعيت الى اقليم داليكارليا لتقوم بمثل العمل الذي قمت به في لابلاند ، ولكن بمساعدة معاونين لك ، ولقاء تأمين كل النفقات . فلما انهيت ذلك المسح العلمي كانت اجراس رأس السنة الجديدة ١٧٣٥ تقرع بفرح ، وكنت تدخل منزل الوجيه الدكتور مورايوس كضيف في ذلك العيد . ورقصت مع ابنة الدكتور ساره-ليزا ، وقررت من فورك ان تجعلها شريكة لحياتك . كنت اذ ذاك في الثامنة والعشرين وفقيرا . في حين كان الدكتور مورايوس غنيا ، فوافق على تزويجك ابنته لقاء شرط هو ان تحصل من هولندا على شهادة الطب ثم تعود فتفتح عيادة وتجمع منها مالا يؤهلك للزواج .

ليناوس : صحيح ، ولكن الدكتور مورايوس من جهته وعد بأن يردّ كل طلب ليد ابنته سارة - ليزا بانتظار عودتي من هولندا . وقد كان ، وانتظرت الخطيبة ثلاث

سنوات ونصف السنة قبل أن يعقد قراننا في حزيران سنة ١٧٣٩ ، وذلك بعد ان اثبت جدارتي كطبيب ناجح في استوكهولم . . .

صوت : وما ان ابتعدت عن المذبح مع شريكة حياتك حتى اقترنت ـ اذا صح التعبير ـ بحبك الآخر ، العلم ، اذ عيّنت في منصب عالم نباتي في جامعة اوبسالا . وهكذا عدت الى ما كان سابقا منزل رودبك ، فصرت سيدا عليه وعلى الحديقة النباتية المحيطة به . وهو مكان يحظى اليوم بتكريم السويد.

ليناوس : وكان المعجبون يرسلون الي من مختلف ارجاء المعمورة نباتات لتلك الحديقة . وحظيت بتكريم العظماء ومساعداتهم . فقد تحمّلت ملكة السويد نفقات بعض تلاميذي من الذين اوفدوا الى الخارج للدراسة والبحث . واهداني ولي العهد مجموعة رائعة من نباتات آسيا الاستوائية . وكان المسافرون يرسلون الي النماذج لتعيين اصنافها ، ويوصون لي بكنوزهم النباتية ، كما كان قباطنة السفن السويدية يحملون الي النباتات والطيور الغريبة من الموانىء التي يزورونها فكنت ادرسها بدقة تمهيدا لوضع كتاب يصف كل النباتات المعروفة في العالم حتى ذلك الحين . هذا الكتاب الذي بدأت بوضعه وانا فتى لتصنيف الازهار كان يستغرق اربع عشرة صفحة ، فاذا به يصبح في طبعته الثانية عشرة التي نشرتها في سنة ١٧٦٨ ، مجلدا من الفين وخمسمئة صفحة .

صوت : والاهم من ذلك ، يا سيد ليناوس ، أن نظام المعرفة الذي رعيته ما يزال ينمو ويزدهر الى يومنا هذا . ويطيب لي في ختام هذا اللقاء ان اذكر انك لم تغادر السويد بعد ذلك ، بل اقمت في اوبسالا ، وكنت كثيرا ما تتردد على الريف الجميل المجاور مواصلا العمل الذي كرست له حياتك .

ليناوس : وكنت احاضر في تلاميذي سواء في الصف ، او في الحقول حيث كان هناك اناس مهمتهم ابعاد الفضوليين وحفظ النظام اثناء مناقشاتنا العلمية . وكنا ونحن عائدون عبر شوارع اوبسالا نستقبل بالهتافات : « يحيا العلم ، يحيا ليناوس » .

صوت : والحقيقة انك تحيا اليوم في التلاميذ الذين درّبتهم وانتشروا في اربعة ارجاء المسكونة ، حاملين علمك ، نافثين في الآخرين روحك المرحة . وانك لتحيا من اجلنا جميعا في الرسم البياني العظيم الذي وضعته للطبيعة !

ليناوس : شكرا لك ، يا سيدي !

لافوازييه : ابو الكيمياء
(١٧٩٤ - ١٧٤٣)

صوت : في حقل الكيمياء صارع العلماء الانكليز بلاك ، كافنديش ، وبريستلي الطبيعة صراعا مريرا طويلا وطلعوا من صراعهم بحقائق مذهلة حقا . ولكن كان العالم بحاجة الى واحد اعظم منهم ليحلل تلك الوقائع ، ويفسرها ويجعلها تقف على قدميها ، ازاء الجهل والشك . وكان ذلك العظيم على الابواب .

كان الملك لويس الخامس عشر يتربع على عرش فرنسا عندما ابصر النور انطوان لوران لافوازييه في باريس في ٢٦ آب من سنة ١٧٤٣ . وكانت باريس اذ ذاك ما تزال مخلصة لمليكها ، ولكنها باريس التي ستعصف فيها بعد بلويس الخلف ، وبهذا الطفل انطوان . اما هذا الملك الملقب بالمحبوب ، فانه سيدفن غير محبوب من احد . اما خلفه الملك لويس السادس عشر الذي كانت هوايته صنع الاقفال واصلاحها فقد اثبت عجزه التام عن مجابهة الاحداث الخطيرة والتيارات المعاكسة . وهكذا وقع في ايدي خصومه وانتهى نهاية مفجعة . ولكنه لم يكن يعرف شيئا عن ذلك المستقبل الاسود ، لا هو عندما كان لا يزال وليا للعهد ، ولا انطوان لوران لافوازييه . كلاهما كان ينظر بأمل الى المستقبل :

احدهما كان ينظر الى العرش ، والاخر كان ينظر الى نوع آخر من المجد والخلود . اما ولي العهد فقد كان من حسن الطالع بحيث انه توفي تاركا ابنه الملك لويس السادس عشر فيما بعد ، ليواجه تلك العاصفة الهوجاء ، وكان اصغر من لافوازييه بأحد عشر عاما . تلك العاصفة الهوجاء كانت تتجمع منذ امد ، فما لبثت ان عصفت بشدة في شوارع باريس . وكانت قد انقضت خمس عشرة سنة على هجر الملك المحبوب العرش قبل ان تتجمع الفوضى حول اقدام الملك لويس السادس عشر وزوجته ماري ـ انطوانيت ، وتطيح بهما . والان سيدي لافوازييه اهلا بك الى هذه المقابلة . . فقد كنت في الحادية والثلاثين عندما توفي الملك لويس الخامس عشر .

لافوازييه : كنت في الحادية والثلاثين ، وقد حققت لنفسي الشهرة.ولا عجب في ذلك فقد اسعفني الحظ الذي كان بامكان فرنسا ان تقدمه ، اذ ارسلني والدي المحامي الى كلية مازاران ، دون ان يقطب ما بين حاجبيه بسبب ميلي الى العلوم الطبيعية . بل على النقيض ، لقد شجعني على دراسة العلوم من رياضيات ، وفلك وكيمياء على ايدي اساتذة اختصاصيين خارج الكلية .

صوت : الواقع ان كل شيء كان يعترض سبيلك من مختلف انواع المعرفة كان يطحن جيدا تحت رحى فكرك النير . ولذا اشتغلت في كل حقل من حقول العلم وبرعت في كل شيء تعاطيته . وكنت في الثالثة والعشرين عندما

منحت اول وسام ذهبي تقديرا لرسالة كتبتها حول افضل طريقة لانارة مدينة كبيرة .

لافوازييه : ارأيت يا سيدي انه كان على كتفي رأس منظم وفكر راجح ؟ ولكن هذا الرأس الذي حمل الي التقدير والتكريم المبكرين قد حمل الي المأساة فيما بعد .

صوت : الواقع انك لم تضع حدودا لنشاطاتك ، وبدأت تقدم النصائح لحكومة كانت تسرع نحو اللهو . وضعت رسالة في موضوع الزراعة التجريبية ، واخرى حول العملة التي لا يمكن تزييفها . وعالجت عددا من المواضيع ، في طليعتها البارود ، والتنويم المغناطيسي ، وجر المياه ،والكراسي الخاصة بالمقعدين ، والعصي السحرية . وكان الاعتقاد السائد بين العلماء والعامة ان الماء بالتصفية المتكررة يتحول الى تراب . فجئت انت تقول لا ، واجريت الاختبارات لتثبت سخافة تلك الفكرة .

لافوازييه : منذ البدء كنت ثائرا في الحقل العلمي ومحطما للمعتقدات التي لا تقوم على اي اساس علمي ثابت حتى ولو جاءت على لسان علماء وخط الشيب رؤوسهم ولحاهم .

صوت : وكانت الكيمياء طوال خمسين سنة تتحرك وتغلي بشدة ـ اذا صح التعبير ـ ولكنها كانت ما تزال راسفة في القيود . ولم يكن المحرر قد ظهر بعد . فجئت انت لتقوم بهذا الدور . لقد كان طريق التقدم مسدودا بنظرية اللاهوب ـ وهي المادة الكيميائية الوهمية التي

كان يعتقد قبل اكتشافك الاوكسجين انها مقوم اساسي من مقومات الاجسام الملتهبة،اليس كذلك ؟ ولم يكن بالامكان تكوين اي فكرة صحيحة عن الاحتراق والهواء ما دامت تلك الكذبة مسيطرة .

لافوازييه : صحيح،لقد عالجت هذا الموضوع دون ان ادري ما هي النتيجة التي سأتوصل اليها . قلت في نفسي : « على اي حال لنحسم هذا الموضوع ، لنرَ ما امر هذه المادة التي نتحدث عنها جميعا فاذا كان ثمة شيء يدعى اللاهوب فاننا سنبحث عنه في الارض ثم نسحبه منها ونلقي نظرة عليه ، فاذا وجد ، فان ميزاني سيكتشفه » . وفي رسالة مختومة قدمتها الى اكاديمية العلوم في اول تشرين الثاني سنة ١٧٧٢ وضعت تقريرا ليس في مصلحة اللاهوب . اما ما اعطاني اياه ميزاني فهو ان الكبريت والفوسفور عندما يحترقان يزداد وزنهما لانهما يكونان قد امتصا الهواء . ولكن اول اوكسيد الرصاص الذي يحترق بفحمة في اناء مغلق فانه يزن اقل . هاتان كانتا الحقيقتين اللتين اظهرهما ميزاني .

صوت : ولكن نظرية اللاهوب ظلت راسخة مع ذلك حتى عرفت من العالم الانكليزي بريستلي بتجريد الهواء من هذه المادة ، وقد جر ذلك الى اختبارات عديدة نتج عنها مولد كلمة اوكسجين، اساس الحوامض . وهو الاسم الذي اطلقته انت عليه ، وعندها قضي نهائيا على نظرية اللاهوب وعرف العالم حقيقة نظرية الاحتراق . ولكن بقي هناك لغز آخر هو

الهيدروجين. كان ينبغي ان يكشف امره ، وتوليت انت تلك المهمة .

لافوازييه : لماذا ينبغي للهيدروجين ان يتكون عندما تذوب المعادن في الجوامض ؟ ولماذا ينبغي للهيدروجين ان يمتص عندما يصبح ما تخلف من المواد الكلسية في حالة معدنية ؟ هذان السؤالان هما اللذان طرحتهما على نفسي ، ووجدت الجواب عليهما لدى العالم الانكليزي الاخر كافنديش ، وكنت في الحقيقة لا اقيم اي وزن لرأيه العلمي في ذلك الميدان ، وهكذا قضي نهائيا على نظرية اللاهوب ، واختفت عن وجه الارض لانه لم يبق لها اي مكان فيها .

صوت : طوال مئات الالوف من السنين عاش البشر في هذا العالم الغريب قبل ان تظهر . وطوال هذه العصور كانوا يتنفسون دون ان يكون لديهم اي فكرة عما يدخل في رئاتهم او ماذا يتنشقون . كانوا يكتفون بتسمية ذلك هواء ، ولا شيء غير ذلك . اما انت فلم تكتف بهذه التسمية فاردت ان تعرف اكثر من ذلك . كان لديك نظرية ، وكان لديك مختبر ايضا . فوضعت نظريتك على المحك . ونجحت . فكان القسم الوحيد من الهواء الذي يجعل الحياة الحيوانية ممكنة هو الاوكسجين . وقلت ان التنفس هو شكل من اشكال الاحتراق .

لافوازييه : ذلك هو الواقع . يختفي الاوكسجين ، ويبقى النيتروجين دون تبدل ، ولكن مضافا اليه حامض

الكربون . والشيء نفسه يحدث عندما تحترق شمعة في اناء محكم السد .

صوت لقد انتظر العالم الآلاف المؤلفة من السنين ليعرف سر عملية حيوية ، وقد طلعت انت بها واضحة وضوح النهار . ولكن بقي امامك موضوع اعظم واخطر كان يشغلك - كما شغل من قبلك احلام الكثيرين منذ اللحظة الاولى التي اصبح فيها الانسان حيوانا مفكرا وهو : لماذا لا يبلى العالم ؟ مع كل هذه النباتات والحيوانات التي تعيش فيه ، ما الذي يمنع فناءه ؟ في هذا الحقل اطلقت العنان لمخيلتك ، ووجدت الجواب المدهش الصحيح . فهل لك ان تردده علينا ؟

لافوازييه : النباتات تتغذى من الهواء والماء ، والحيوانات تتغذى من النباتات او من الحيوانات التي تأكل النبات وكل فئة من هذه الفئات بدورها تعيد في النهاية الى الارض الطيبة كل شيء التهمته . فالاختمار والتعفن والاحتراق ،كل ذلك يعيد الى الارض كل ما اخذ منها . فالحياة تدور في حلقة من التراب والى التراب . . .

صوت : المتفق عليه يا سيدي لافوازييه انك لو بقيت عالما فحسب ، لعشت اطول مما عشت على هذه الارض . لقد فعل ذلك زميلك لامارك . ولكن يبدو ان روحك الجامحة ، الشديدة التوق الى الحماسة ، فرضت عليك الاشتغال بأمور كثيرة منها السياسة التي كنت تميل الى تعاطيها ميلا شديدا ، ولا ريب انك وجدت بفكرك

النير الجواب عن الكثير من قضايا فرنسا التي لم تجد لها حلولا .

لافوازييه : كان لدي اشياء كثيرة احيا من اجلها ولكن لم يسعني ان انجو من النتائج المشؤومة ، كان هناك مثلا آن ـ ماري ، الفتاة الحسناء الكيسة ابنة محصل الضرائب بولز ، التي سحرتني واوقعتني في حبالها .

صوت : صحيح انها اوقعتك في شباكها وسحرتك ولكنها هي بدورها اخذت بوسامتك واناقتك الى جانب ذكائك المفرط وشهرتك وانت بعد دون العقد الثالث من عمرك ، ومؤهل لتولي ارفع المناصب وهكذا ووسط ما كان يدور في باريس في ذلك العهد من مغامرات ومؤامرات تقابلتما وتبادلتما الحب ثم تزوجتما سنة ١٧٧١ . وكان والدها مسرورا بذلك الزواج ، ووضع المخططات الجريئة بفضل كونه صاحب حظوة في البلاط الملكي .

لافوازييه : صحيح، فلم تمض اربع سنوات على زواجنا حتى بدأت بالاهتمام بقضية البارود . فانا من وضع حدا لموجة البحث عن الملح الصخري او ما يدعونه نترات البوتاسيوم او الصوديوم ، في ارجاء باريس وفي الوقت نفسه زدت انتاج هذا النوع من المتفجرات وكنا في امسّ الحاجة اليه .

صوت : كنتم في امس الحاجة اليه وقتذاك ، وبقيتم في حاجة اليه كذلك حتى نهاية عهد نابوليون بونابرت بعد ان اشتعلت فرنسا من اقصاها الى اقصاها بالحروب

المتواصلة . وعلى ذلك لم يكن ممكنا ان تنجو من الثورة ، او ان تقف على الحياد ، مراقبا ما يحدث دون ان تنجرف مع التيار ، فقد كنت في المعمعان . ففي سنة ١٧٨٩ وضعت تقريرا رفعته الى الجمعية الوطنية وهدير سقوط سجن الباستيل ما يزال يطن في اذنيك ويصمهما . وبعد ذلك بسنتين وكنت العالم الذي يشتغل في كل شيء عينت مفوضا للخزينة وقد وضعت نظاما للحسابات لم يسبق له مثيل من حيث الدقة .

لافوازييه : ولكن حساباتي سواء اكانت دقيقة ام لم تكن فانها لم تستطع انقاذي . ترى هل كنت احمل الماء على كتفي الاثنتين ـ كما يقول المثل؟ لست أدري ، فكل ما هناك أنه كان ثمة البلاط من جهة وقد نالني منه كل عطف وتقدير ، ومن جهة ثانية كان هناك الثوار الذين لم اكن مدينا لهم بأي شيء. ولكن العدالة القاسية التي استجابت لصلواتهم لا ريب انها مستني فكيف كنت تنتظر مني ان اتصرف ؟ ولكن اذا كان المرء يقوم بكل استعداد ونية حسنة ودقة بالمهام التي تطلبها منه الثورة فهل بالامكان ان يطلب اليه القيام باكثر من ذلك ؟

صوت : الواقع يا سيد لافوازييه ان بالامكان طرح العديد من مثل هذه الاسئلة ولكن في ذلك الوقت ومع كره اعضاء الجمعية الوطنية لمحصلي الضرائب وفارضيها ، ومطالبتهم بالتخلص منهم ، بقيت انت فوق مستوى الشبهات ، وارفع من زملائك بعد ان ملأ اسمك الاسماع وذاع لقبك « ابو الكيمياء » الا ان مارا ،احد

زعماء الثورة ـ وقبل ان تقضي عليه شارلوت كورداي وهو في الحمام ـ اتهمك بانك ملأت جيوبك مالا من جراء البحث عن البارود في فرنسا . ولم يكتف بذلك بل صب اتهامه العنيف على الاكاديمية العلمية برمتها . . .

لافوازييه : لم يكن مستبعدا من زعيم ثائر مثل مارا ، ان يقف هذا الموقف بل الغريب المدهش ان الضربة جاءت من بيت ابي ، كما يقولون . فانطوان فرنسوى ، الكونت دو فوركروى ، وكان كيماويا ومحاضرا شهيرا في هذا العلم في « كلية حديقة الملك » ويفخر حتى قبيل تلك الفترة بانه صديقي وتلميذي ـ تصـور ـ سرعان ما تنكر لكل ذلك بعد ان علا صوت الجماهير في الشوارع والجمعية الوطنية اثر نشوب الثورة الفرنسية واعلان حقوق الانسان وسرعة ارتفاع وسقوط المقصلة .

صوت : صحيح انه في ظروف الرعب ، وعند تغيير الدول يسارع الكثيرون في المحافظة على رؤوسهم وابقائها حيث هي ، ضاربين بالمبادىء ومقاييس الكرامة عرض الافق . وكما يغيرون مبادئهم وآراءهم، كذلك يغيّرون اصدقاءهم،فلا يدهشنك ذلك ولا تستغربن كيف نهض فوركروى هذا نفسه في الجمعية الوطنية مطالبا باجراء تطهير مرددا : « اذا كان ثمة اعضاء في هذه الجمعية فاترون ، تعوزهم الحماسة في معركة الحرية الكبرى هذه فارفسوهم خارجا ، فنحن الوطنيين لا ينبغي لنا

ان نصاب بالعدوى من جراء وجودهم بيننا ».وقد قال ذلك وهو يرمق اخوانه العلماء بنظرات الاتهام .

لافوازييه : ولكن الكثيرين رفضوا اجراء التطهير الذي طالب به فوركروى . الا ان هذا الرجل الذي كان يكافح من اجل الاحتفاظ برأسه ، لم يكن ليستسلم وما لبث ان اعاد الهجوم ومضيت شخصيا في سبيلي المعتاد ، ولكنني لم اعرف مذ ذاك السلام والطمأنينة منذ فشلت محاولة اجراء حركة التطهير تلك . ففي آب من سنة ١٧٩٢ طردت من مصنعي ومختبري فأقمت مختبرا آخر واصلت فيه ابحاثي . ومضت سنة كاملة . وفي آب من العام التالي عاد النور فاشرق من جديد واتيح لي ان اعمل بحرية تامة في مختبري كما اتيح لسائر العلماء ان يتنفسوا الصعداء عندما اصدرت حكومة الكونفونسيون مرسوما يقضي بتوحيد المقاييس والموازين. فقد بدا واضحا ان المشترعين لا يمكنهم السير بمفردهم، فهم بحاجة الينا . . .

صوت ولكن وقت الابتسام لم يكن قد آن أوانه بعد، لأن فوركروي الذي خذلتموه قبل سنة ما عتم أن قام يطالب بوضع نهاية لاكاديمية العلوم ، فكانت تلك بداية النهاية . وهكذا القي القبض على معظم محصلي الضرائب بتهمة سوء التصرف بالاموال العامة . وشكلت لجنة كان فوركروى من اعضائها حذفت اسم لافوازييه من لجنة الموازين والمقاييس . وقد حدث كل ذلك في صيف عام ١٧٩٣ .

لافوازييه : اذكر ذلك جيدا واذكر انني انتزعت من بين ذراعي زوجتي وزج بي في السجن، وكنت وقتئذ اجري ابحاثا حول التعرق او الترشح .

صوت : ان اختباراتك وابحاثك كان يمكن ان تنتظر ولكن ذراع الثورة القوية لم يكن بوسعها الانتظار، والقي القبض كذلك على حميك العجوز وسجن، وتركت زوجتك ماري ـ آن حرة طليقة . وقضيت شهورا طويلة في السجن تضع المخططات وتهرب الرسائل الى زوجتك التي كانت تنتظر بأمل ورجاء، في حين كانت المقصلة لا تني ترتفع وتسقط مدحرجة معها الرؤوس . وكان روبسبيير ما يزال سيد الموقف ، ولم يبلغه اي طلب استرحام . واستمرت فترة الارهاب الفظيع التي قرأنا فيها بعد الكثير عنها طوال شتاء سنة ١٧٩٤ . ولكن عندما اقبل الربيع على باريس سمع السجناء ورأوا ، او شعروا بأن ثمة تبديلا فعاودهم الامل . كان تاليان يعمل وكان سواه يعمل كذلك ، وكان هناك دلائل على ان نهاية روبسبيير اصبحت وشيكة . ومع ذلك كان سامبسون ما يزال منهمكا ، وكذلك المقصلة . وبالنسبة الى الكثيرين الذين كان يحدوهم الامل لم يكن ثمة امل .

لافوازييه : وفي هذه الاثناء كنت ما ازال في غياهب السجن انا لافوازييه الذي وصفت بأنني الشاب الوسيم الطويل القامة ذو الشخصية المحببة ، الذي لم يعرف اي بؤس في حياته ، ولا اي فشل ولا اي خزي . طوال نصف

قرن من الزمن كانت الآلهة تعطف علي دائما ثم فجأة تخلت عني . ففي ٢ ايار سنة ١٧٩٤ مثلت امام محكمة الثورة لان الكونفونسيون امرت بأن تتم محاكمتنا نحن جميع محصلي الضرائب السابقين . ولم نكن نتوقع اي عدالة على ايدي تلك المحكمة . عرفت ذلك كما عرف معي كل من معاونيَّ وزوجتي ماري ـ آن ، وحتى حميي بولز العجوز عرف في النهاية ان شيئا مفجعا سيحدث .

صوت : وذلك ما حدث فعلا .فقد قلت في محاكمتك مع سبعة وعشرين آخرين من رفاقك انك تطلب مهلة لانهاء اختباراتك حول التعرق التي بدأتها في مختبرك بحيث تضيف مجدا وشرفا جديدين لوطنك المحبوب فرنسا فكان جواب رئيس المحكمة « ان الجمهورية ليست بحاجة الى علماء »! وقرع المنضدة بقبضة يده في سورة غضب عارمة . وهكذا كنت الرابع في سلسلة الثمانية والعشرين الذين تدحرجت رؤوسهم على خشبة الاعدام تحت المقصلة . وقد كتب لاغرانج يقول معلقا على ذلك « لم يقتض الا لحظة واحدة وحسب لقطع ذلك الرأس ولكن رأسا مثله لا يمكن ان يوجد في مدى مئة سنة » .

لافوازييه : شكرا له على هذا التقدير بعد الوفاة . . .

صوت : واسمع يا سيدي كذلك قول رجل آخر فيك هو فيرتز « الكيمياء علم فرنسي وقد اسسها لافوازييه الخالد الذكر» . اما تعليقي انا فهو هذا : « تلك كانت

عبقرية وقيمة الرجل الذي كان بامكان جمهورية ثائرة ان تنقذ حياته » .

لافوازييه : وشكرا لك ، يا سيدي ، كذلك على ايرادك هذا التعليق ونقل التعليقين الآخرين .

لامارك : من عالم النبات الى عالم الحيوان
(١٧٤٤ - ١٨٢٩)

صوت :كانت فرنسا التي ازدهرت في عهد الملك الشمس لويس الرابع عشر ، على وشك أن تشيخ . فقد كان « الملك المحبوب » - لويس الخامس عشر ما يزال متربعا على العرش ، لاهياً مع عشيقاته الكثيرات ، عندما ابصر النور في منطقة بيكاردي في اول آب من سنة ١٧٤٤ رجل كتب له أن يهز العالم فيما بعد في حقل العلوم الطبيعية . انه جان باتيست بيير انطوان دو مونيه ، الذي اشتهر باسم لامارك . كان أصغر أفراد اسرة مؤلفة من احد عشر شخصا . ولم تكن تلك الاسرة غنية ، ولكنها كانت على شيء من نبل المحتد ، وقد عرفت بميولها العسكرية . أما جان - الذي سنقابله في هذه العجالة - فقد اختير من دون سائر اخوته الذين كانوا يقضون معظم اوقاتهم متنقلين بين مخيمات الجنود في ارجاء اوروبا ، لكي يعيش عيشة أهدأ وأسلم ، ككاهن . وكان شقيقه الاكبر قد قتل في معركة برغن - اوب - تسوم . اما بعض اشقائه الآخرين فقد كُتب عليهم الا يحيوا طويلا . اما هذا الاخ الاصغر فكان ينبغي ان توفّر له حياة الطمأنينة والسلام ، أليس كذلك ، يا سيد لامارك ؟

لامارك : الواقع ، يا سيدي ، ان تلك لم تكن فكرتي . فقد كانت تبهرني المعارك ، والمغامرات التي يتعرض لها الجنود ، ولكن ارادة ذويّ هي التي سادت في النهاية ، وأدخلت الى كلية اليسوعيين في مدينة آميان ، وشغلت نفسي ،على مضض ، أقول، بكتبي ، حالماً بما ينبغي للمرء ان يقوم به من جهد ليكسب مجد الله والملك . وقد تحررت من كل ذلك بموت والدي .

صوت : وكانت فرنسا في ذلك الحين في حروبها التقليدية مع المانيا ، وفي برغن ـ اوب ـ تسوم كانت الجيوش تحتشد متأهبة للهجوم الحاسم . فلما دفنت معارضة والدك معه ، غادرت من فورك كلية اليسوعيين الى الابد ، وكنت بعد في السادسة عشرة ، وفي عروقك تجري حرارة الحرب . ولكن قضية دخول الجيش وقفت عائقا في طريقك .

لامارك : ولكن الا تدري ان النساء دائما متحمسات لدفع الرجال الى الحرب ؟

صوت : ماذا تقول ؟

لامارك : انها الحقيقة ، يا سيدي . . . فقد كانت مدام دو لاميت على صلة وثيقة ببعض الضباط ، وكان رسالة منها كافية لكي تكون بمثابة جواز لي او ورقة اعتماد رسمية . فلما طلبت تلك التوصية منها كتبتها من فورها . ولم يبق امامي سوى قضية الوصول الى الكولونيل دو لاستيك ، من كتيبة بوجوليه . وقد

وضعت يدي على جواد عجوز، هزيل امتطيته لمقابلة ذلك القائد ، ورافقني فتى قروي في مثل سني كان ينوي الانضمام الى الجيش الفرنسي .

صوت : اذن فقد كنتما تنويان القضاء على حياتكما ؟ . . ماذا حلَّ برفيقك ؟ امات في المعركة الطاحنة الاولى ؟ ام لعله لم ينجح في دخول الجيش لانه لم يحمل توصية من مدام دو لاميت ؟ اعاش طويلا لكي يخبر اولاده فيما بعد انه رافق مرة على جواده العالم الشهير لامارك ؟

لامارك : الواقع انني شخصيا اجهل المصير الذي آل اليه ذلك الفتى القروي ، ولا التاريخ يذكر شيئا من ذلك . مع ان هذا التاريخ يسجل الوقائع القليلة التي خضت غمارها بشجاعة بعد ان قدمت التوصية التي زودتني بها مدام دو لاميت ، ونظراً لبلائي الحسن في احدى المعارك الضارية والحكمة التي تصرفت بها آنذاك رقيت الى رتبة ملازم .

صوت : الا انه بالرغم من بدايتك العسكرية الرائعة فانك لم تبق في الجيش . فبعد هزيمة الجيش الفرنسي في فيسنغشاوزن ، وانسحابه ، انتقلت الى طولون ، ومنها الى موناكو حيث كانت نهاية حرفتك العسكرية . هل لنا ان نعرف السبب في ذلك ؟!

لامارك : في موناكو شاء احد الرفاق ان يمازحني فرفعني عن مقعدي بشدي من رأسي . فآلمني ذلك ، وكانت له مضاعفات على الغدد اللمفاوية التي تضخمت والتهبت ، مما استدعى انتقالي الى باريس للمعالجة .

وفي النهاية اجريت لي عملية جراحية ، وبقيت آثار الجراح ظاهرة بوضوح على عنقي . . . وهكذا انتهى عهدي بالجندية ! وبدأت بدراسة الارصاد الجوية ، من غرفتي الحقيرة على السطوح ، كما يقولون ، مجاورا السحب . ولم يكن ممكنا ان احيا باربعمائة فرنك وحسب في باريس . فدخلت احد المصارف للعمل ، ولكنني كنت احلم بأشياء اخرى يوما بعد يوم . وكان في جملة اهتماماتي الطب ، والموسيقى . سوى ان شقيقاً اكبر سناً مني صرفني عن دارسة الموسيقى وحتم علي دراسة الطب التي استمرت اربع سنوات ، ايقنت بعدها عن اقتناع تام انني لا اود ان اصبح طبيبا .

صوت : ولكنها لم تكن تلك المدة ـ على اي حال ـ اربع سنوات ضائعة ، فقد وضعت لك الاسس السليمة المتينة لعملك الذي ما لبثت ان قمت به في حقل العلوم . فقد كان جان ـ جاك روسو في تلك الفترة معبود فرنسا . فقابلته ذات يوم وانت تتنزه في حديقة النبات . واسمح لي ان أصارحك بأن روسو لم يفكر قط اذ ذاك انه في حضرة انسان اعظم منه ، ولكنه على اي حال رأى فيك روحا تشبه روحه ، وحرارة تغلي في عروقك ، فلم تلبث ان ربطت بينكما صداقة وثيقة .

لامارك : كان ذلك على جانب كبير من الاهمية بالنسبة الي . . . فقد كنت دائما شديد الميل الى العلوم . وقد دفعني روسو الى دراسة ما كنت مؤهلا له افضل تأهيل . ومنذ تلك اللحظة اصبحت عالما طبيعيا .

وألقيت جانبا الطب ، والموسيقى ، ووظيفتي في البنك ، لاكرس كل لحظة من لحظات حياتي للعلم .

صوت : وهكذا تحولت بكل قواك وانت في الرابعة والعشرين من عمرك الى علم النبات الذي عملت فيه بجهد ، ونشاط ، وجدّ طوال عشر سنين متواصلة . لم يعرف احد كيف عشت ، ولكن العالم بأسره يعرف كيف عملت وماذا عملت !

لامارك : في نهاية تلك السنوات العشر بذلت ستة اشهر من العمل اليائس لوضع كتاب عن النباتات الفرنسية . كل ما كنت قد عرفته في تلك الفترة وضعته في ذلك الكتاب . وقد درَّ علي بعض المال ، والكثير من الشهرة ، والقليل من الاصدقاء ، وفي جملتهم العالم الكبير بوفون ، اعظم الاصوات بين العلماء الفرنسيين . وفي احد الايام قال لي بوفون : « سافر مع ابني . اصحبه الى اقصى المعمور ، وأره سبل الحياة » . وفعلت ذلك ولم اكن فحسب رفيقا لبوفون الابن ، بل عالما نباتيا ملكيا .

صوت : وكنت في تلك الرحلة ترسل الى باريس باستمرار النباتات والبذور ، والحيوانات ، والمعادن فأغنيت المتحف ، ولكن لما عدت الى فرنسا لم تكافأ بشيء يستحق الذكر . كان هناك بالطبع منصب عادي هو منصب امين مكان حفظ نماذج الاعشاب المجففة والمرتبة ترتيبا نظاميا ، بمرتب سنوي يبلغ الف فرنك ! وكان ذلك سنة ١٧٧٩ . ومع ذلك ، وجدت متسعا

من الوقت للحب والزواج ـ وقد بقيت زوجتك ظلا ، ولم تبرز قط في مقدمة الصورة . ولكنك لم تذكر شيئا ما عن تذمرها من ذلك ، على اي حال . . .

لامارك : علي اي حال اسمح لنفسي ، يا سيدي ، ان اقول ، انني من بين سائر العلماء الكبار ، كنت اقلهم كتابة عن نفسي ، وعن اسرتي التي كانت مكونة من ستة اولاد ، وتعيش وسط الفقر والبؤس ، دائما ، ولكن دون ان يبدر من احد منا اي تذمر او شكوى . كان هناك ، وحسب ، العمل الدائب ، والايمان بي ، والمثابرة ، وقوة الجلد !

صوت : وبعد عشر سنوات من تعيينك في تلك الوظيفة الحكومية ، وعشية الثورة الفرنسية ، بلغ مرتبك السنوي ١٨٠٠ فرنك . هكذا كانت العبقرية والنبوغ يقدران في اللحظة التي كانت فيها فرنسا تندفع في تيار الثورة .

لامارك : على اي حال لم يكن المرتب بالغ الاهمية بالنسبة الى من كان مثلي يبحث عن الحقائق . الا انني رفعت صوتي بالاحتجاج الصارخ عندما اضطرت الحكومة التي واجهت الافلاس الى الاقتطاع من المرتبات يمينا ويسارا بغية التوفير . لفتّ انتباه الجمعية الوطنية الى قيمة العمل الذي اقوم به ، فتركت في منصبي . ولكن الفقر لم يتحاشاني . وطوال هذه الفترة كان العالم يتحطم من حولي ويتناثر اربا اربا ، فلم اكن لاتنبه اليه ، لان لا شيء من ذلك الحطام كان يقع قريبا

مني ! الآخرون سحقوا ، اما انا فلم تؤثر فيَّ العاصفة . . .

صوت : الواقع انك قلما كنت شاعرا بوجود اي عاصفة . فوسط كل ذلك لم تكن الا عالما نباتيا ، ولا شيء غير ذلك . وطوال خمس وعشرين سنة كان جلّ اهتمامك منصبّا على النبات . ولم يخطر قط ببالك ان عملك الحقيقي يمكن ان يكون في غير حقل النبات . فلما ذهب الملك لويس السادس عشر ، ذهبت معه الحدائق الملكية ، ومكانها ارتفع المتحف الوطني . وفي ذلك العهد الجديد الذي بزغ فجره انتقل لامارك العالم النباتي ، الى لامارك العالم الحيواني ، وهكذا ، في النهاية ، وجدت عملك الذي اقتصرت عليه حياتك ! ولم يكلف ذلك التبديل الحكومة الفرنسية سوى بضع دقائق لتجعل منك عالما حيوانياً.

لامارك : ولكن ذلك اقتضى مني عشر سنين كاملة قبل ان اجعل من نفسي عالما حيوانيا . ومن سنة ١٧٩٤ حتى سنة ١٨٠٣ ، لم افتح فمي مطلقا ، وعشت مع حيواناتي ، ولكن بعد ذلك الصمت الطويل تكلمت . وكانت اولى كلماتي عن العلم الذي اجبرت على خوض غماره والتخصص فيه .

صوت : هل لك ان تردد علينا كلماتك الاولى تلك ؟

لامارك : بالطبع ! قلت اذ ذاك : « ان هذه الحيوانات الدنيا تُظهرلنا ، افضل من الحيوانات الارفع منها مستوى ،

سبيل الطبيعة الحقيقي ، والوسيلة التي استخدمتها لكي تمنح الوجود لكل الكائنات الحية ! » كنت بالغريزة ، مؤمنا بمبدأ اساسي . دخلت ميدان العلم دون ان يكون لدي نظرية لابرهنها ! كل ما شئت هو ان اعرف ما يجري . وقد كنت بذلك على وفاق تام مع سير التفكير العادي في فرنسا في ذلك الزمان .

صوت : لن نتوقف لمناقشة آرائك ونظرياتك العلمية التي شرحتها وفصلتها في مجلدك الضخم الشهير « اللافقاريات » الذي احدث ضجة كبرى في كثير من الاوساط ، وبرزت فيه انك سبقت عصرك بزمن طويل لان ذلك لا يهم الا العلماء ، ويطول شرحه ، بل ننتقل ، اذا سمحت لي ، الى متابعة تفاصيل سيرتك الشخصية ، غير مبال بما اعترض سبيلك العلمي من عقبات وصعاب . فليس ثمة عبقري ثائر عاش حياة اغرب من حياتك . ومع شهرتك الواسعة وانت في الرابعة والعشرين ، فانك لم تغتنِ بهذه الشهرة !

لامارك :على غرار العالم الالماني كبلر ، كان الفقر خدني وصديقي الحميم . ومثله كذلك مضيت في سبيلي دون ان اتوقف او اتخاذل او اتذمر ! وتعرف مبلغ الالم والحزن اللذين نزلا بي ، غير انني في كتاباتي كلها لم اتطرق قط الى الاشارة الى اي منها لانها كانت خسارة شخصية . . .

صوت : صحيح ، ما تقول ، ولكن دعني اذكر ما حل بك من نكبات استكمالا للصورة التي نرسمها عنك . فقد

تزوجت اربع مرات ، واربع مرات ترملت ، ثلاثة من اولادك ماتوا ، والباقون باستثناء ابنتك كورنيلي ، طواهم النسيان ، ولا يذكر التاريخ شيئا عنهم ، حتى ولا اسماءهم ! سوى ان كورنيلي ، بعد مرور اكثر من قرن من الزمن ما تزال تسطع بجانب والدها لامارك الشهير . انها تقف معك هادئة ، صابرة ، متجلدة ، رمزا للحب والتضحية !

لامارك : لقد مرت الايام بسرعة بالنسبة الي ، والطاقة التي كنت اتمتع بها واحسبها لن تنفد قد تلاشت . فقد باعد بيني وبين منزلي في بيكاردي اكثر من ستين سنة ، منذ ذلك الصباح الذي عوّلت فيه على ان اصبح جنديا . . ستون سنة من البحث والتنقيب عن تلك الذرة الصغيرة من الحقيقة التي يمكنها وحدها ان تجعل حياتي ذات اشعاع وفائدة !

صوت : ولكن حياتك ، يا لامارك ، كحياة غاليليو من قبلك كتب لها ان تنتهي وسط الظلمة . فكل تلك الاشياء الصغيرة التي انهمكت فيها طوال حياتك اختفت الى الابد . ففي المتحف الوطني حلّ محلك رجل آخر . ولم يعد من شأنك ان تقلق لمرض فيل ، او تناسل عنزة ، او ولادة عجل صغير ، او ظهور اسنان الاشبال . كل هذه الامور الحميمة اصبحت بين ايدي سواك ، بعد ان اصبحت كفيفا ! ولكن عملك لم ينتهِ اذ ذاك ، اليس كذلك ؟

لامارك : بالطبع ، لم ينتهِ اذ ذاك ، ويسعني القول انه اذ ذاك

بدأ . فقد ظللت منصبًا على وضع كتابي عن « اللافقاريات » . فمثل غاليليو كان عقلي ما يزال يعمل ، وكذلك كانت ابنتي كورنيلي تعمل معي ! صحيح ان منزلنا كان حقيرا ، والمال كان يعوزنا ، ولكن كان لدينا ما يكفي لسد حاجاتنا نحن الاثنين . والفيلسوف الذي يكافح من اجل انهاء عمله ، لا يتطلب اكثر من المأوى والمأكل للاستمرار .

صوت : لم يكن احد يزورك ، ولم تكن تخرج من المنزل الا لحضور اجتماعات اساتذة المتحف فقد كنت مواظبا على حضور تلك الاجتماعات، والى ذلك المجلس قدمت مجلدات كتابك الشهير « اللافقاريات » فور صدورها عاما بعد عام . الا انك مع حالة الهجر التي وجدت نفسك فيها من اولئك الذين كانوا يتدفقون لسماع محاضرات العالم كوفييه القيمة ، فانك لم تبتئس ولم تيأس . فقد كانت لك محبة كورنيلي ، ومعاونتها الثمينة ، كما كان رأسك يعج بالافكار العظيمة ولو انه حرم نعمة النظر !!! كنت تجلس منتصب القامة فوق كرسي مستقيم الظهر في غرفتك الصغيرة مواجهـا النافذة ، تملي على كورنيلي التي تستوعب بسرعة وتكتب بسرعة اكثر . واني لأتصوركما تعملان باهتمام في المجلد الاخير من « اللافقاريات » ـ الذي كان آخر فصل في حياة رجل عظيم ، اغمض القدر عينيه قبل الاوان ، ولكنه لم يبدِ اي مرارة او تذمر . . .

لامارك : حتى الحادي عشر من تموز ١٨٢٨ كنت اتردد بانتظام

الى اجتماعات مجلس اساتذة المتحف الوطني ولكن بعد ذلك التاريخ انقطعت عن تلك الجلسات . . .

صوت : والغريب في الامر ان احدا لا يعرف كيف كانت حياتك خلال الثمانية عشر شهرا التي بقيت من حياتك بماذا كنت تهتم ؟ ماذا كنت تفعل ؟ ما كانت الأفكار التي جالت في رأسك الذي راح ينحني شيئا فشيئا ؟ لم يصدر عنك اي شيء من ذلك .

لامارك : ولن يصدر عني شيء من ذلك الآن ، يا سيدي ، فأرجو ان تسمح لي بذلك . كل ما يمكنني قوله ان كورنيلي لم تخذلني قط . . لم تدعني لحظة واحدة ، فقد كانت ذات قلب قوي ، وعلى شيء كثير من المحبة والتقدير لي . كانت تلازمني اذا شعرت بالضعف ولم استطع مغادرة المنزل ، وقد جاء يوم لم اعد اقوى فيه على القيام بنزهة قصيرة .

صوت : اذن فقد اوصدتما انتما الاثنان الباب دونكما في ذلك المنزل المعتم ، ونسيتما ان هناك في الخارج عالما يسبح في اشعة الشمس . وبعيشتكما هكذا في تلك العزلة المخيفة اقتربت نهاية سنة ١٨٢٩ . . . وفي ١٨ كانون الاول منها حللت اللغز الكبير الاخير ! . . وهكذا بعد ان اتمت كورنيلي عملها باتقان اصبح بوسعها ان تخرج لترى العالم الذي ابتعدت عنه طويلا . ولكن كان من الصعب عليها ان تلتقط خيوط تلك الحياة الجديدة ، وقد فات الاوان لكي تتزوج وتصبح امًّا ، كما فات الاوان ليعرف قلبها اي غبطة حقيقية . فقد لازمها

القلق لان مشكلة الحصول على الرغيف بقيت بحاجة الى حل . ولكن من حسن الطالع ان مجلس الاساتذة قد استطاع مساعدتها . فعيّنها في وظيفة مرتبها الف فرنك في السنة . وقوامها الصاق النباتات المجففة على اوراق سجلات خاصة بالمتحف . هذا يا سيدي لامارك ، ما احببت ان اخبرك اياه عن كورنيلي الابنة المخلصة التي رحلت عن عالمها وانت قلق عليها ، لاسكب شيئا من الراحة والطمأنينة في قلبك الكبير !

لامارك : شكرا لك ، يا سيدي !

روبرت تشيزبرو : مكتشف الفازلين
(عاش ٩٦ سنة)

صوت : السباحون والغواصون يطلون اجسادهم بمادة الفازلين ، وممثلات السينما يستعلمن الفازلين لتقليد الدموع . والمصورون يغطون به نيكاتيف الصور لكي يجنبوها الشطوب . متسلقو الجبال يفركون به جلد قفازاتهم لتنعيمه . سائقو السيارات يمسحون بقليل من الفازلين زجاج سياراتهم الامامي تحسبا للجليد . صانعو شفرات الحلاقة يستخدمون الاطنان من الفازلين ليحفظوا مليارات الشفرات من الصدأ . العميان يستعملونه لتنعيم اصابعهم التي تجعلها خشنة القراءة بحروف براي النافرة . والجنود في الحروب غالبا ما يستعملون الفازلين للحلاقة بدلا من الصابون .

ان هذه المادة ذات المجالات المتعددة هي جسم مدهن يستخرج من البترول ويعرف عالميا باسم الفازلين ، ولعل هذه التسمية مستوحاة من كلمتي ماء بالالمانية ، وزيت باليونانية . ولقد صنع الفازلين للمرة الاولى منذ اكثر من قرن ، وهو يباع بشكل مرهم ، رخيص الثمن ، لا رائحة له ، ولا لون ، ولا طعم . . . وتستخدم منه في العالم اليوم كميات هائلة بعد ان اصبح من الصناعات الضخمة .

عن مولد هذه المادة التي اكتشفت مصادفة ، سنتحدث مع مكتشفها الكيماوي الاميركي روبرت تشيزبرو من بروكلين ، وهو معنا الآن .

تشيزبرو : صحيح ما تقول يا سيدي ، عن مولد مادة الفازلين بطريق المصادفة . واليك القصة ، في ذات يوم من صيف ١٨٥٩ سمعت باعة الصحف ينادون معلنين عن اكتشاف بئر نفط ضخمة في بنسلفانيا . ولما كنت كيماويا ومتخصصا في تحويل زيوت الفحم الحجري الى كاز ، او كيروسين ، فقد عرفت للوهلة الاولى ان اكتشاف بئر هامة للبترول الطبيعي يهدد تجارتي تهديدا مباشرا . لذلك قررت ، على الرغم من انني لم اكن اتجاوز وقتئذ الثانية والعشرين من عمري ، ان اضع مواهبي في اعمال التنقية والتصفية ، في خدمة الذهب الاسود ، فضلا عن شراء بطاقة سفر في السكة الحديدية من المال القليل الذي كنت أدخره للذهاب إلى مدينة تيتوسفيل الصغيرة في بنسلفانيا، هذا المنجم الجديد للذهب الأسود.

صوت : ووصلت الى موطن آبار النفط الجديدة تلك ، فماذا فعلت هناك ؟

تشيزبرو : هناك رحت اجوب حقول النفط متفتح العينين ، متيقظ الذهن . فأبصرت احد العمال ينظف المكابس والمضخات المستعملة في استخراج النفط من الآبار المحفورة هناك . وكان يقشط عنها المادة اللزجة الشبيهة بالشمع ويردد ان تلك عملية مرهقة ، ولكن التنظيف

ضروري بين آن وآخر ليقشط عن المكابس ما يعلق بها من تلك المادة الشمعية الشبيهة بالبارافين. وكان العمال يحتجون لان ذلك يوسخ المضخات ، ولكنهم عندما يصابون بأي حرق او جرح كانوا يسارعون الى وضع قليل من هذه المادة على مكان الاصابة . وكان ما سمعته مذهلا حقا ، ونقطة تحوّل في حياتي . اذ حملت علبة ملأتها بذلك الشمع وعدت بها الى غرفتي المتواضعة في بروكلين ، مرددا ان البشر منذ قديم الازمنة استعملوا المراهم ، فهل من الممكن ان يحتوي هذا الشمع على مادة لها خصائص طبية ، وبالوسع تحضيرها في المختبر ؟

صوت : وقد صدق حدسك ، وفي غضون شهور قليلة ابتكرت طريقة تتيح لك استخراج رواسب مكررة من البترول ، وفي المرحلة النهائية من العملية حصلت على عصير مجمد شبه شفاف . ولكي تتحقق من الخصائص العلاجية لهذا البلسم الجديد ، وقدرته على توفير الشفاء ، حوَّلت نفسك ، كما هو معروف ، الى حقل بشري للتجارب ، فكنت تصيب نفسك بالجروح والحروق بالنار والحوامض ثم تعمد الى وضع تلك المادة التي اكتشفتها عليها ، فيتبين لك دون اي شك انه حقا مرهم له خصائص ملينة للجروح ومسكنة ، ويساعد على شفائها .

تشيرزبرو : ولم اكتف بذلك ، فبعد ان اختبرت هذا البلسم الجديد بنفسي وعلى نفسي ، رحت اختبره على العمال

والبنائين ، فكانت النتائج مرضية جدا ، وعندها ايقنت انني وضعت يدي على علاج عظيم الفعالية ، ويمكن ان يكون مصدر ثروة طائلة . ولم يبق امامي بعد ذلك سوى انتاج هذه السلعة صناعيا واطلاق اسم عليها . وهكذا اقمت مصنعا ، وابتدعت اسم « الفازلين » وشرعت في ارسال النماذج المجانية منه الى الاطباء والصيادلة ، والجمعيات العلمية ، ولبثت انتظر الردود ، والطلبات ، فهل تدري ماذا كانت النتيجة ؟ . .

صوت : لقد بادر الجميع بالطبع الى طلب كميات منه بعد ان عرفوا خصائصه الممتازة ، اليس كذلك ؟

تشيزبرو : حبذا لو كان الامر كذلك ، كل ما فعلوه هو انهم بعثوا الي برسائل لطيفة ، رقيقة ، وارسلوا يطلبون المزيد من النماذج المجانية ، الا انني لم ايأس ، بل قمت بحملة توزيع شاملة ، لعلها الاولى من نوعها في هذا الحقل . فقد اقترضت عربة خيل ورحت اتنقل بها في شمال ولاية نيويورك، حاملا آلاف النماذج المجانية من الفازلين . وكنت اعطي اناء منه كل من اصادفه في طريقي . وكذلك كنت اتوقف في كل المزارع واترك اناء لزوجة كل مزارع . وبالطبع كنت ازور في كل منطقة الصيدلي الذي ستتدفق عليه ، بلا ادنى ريب ، الطلبات التي ستنجم عن ذلك التوزيع المجاني .

صوت : وقد اثمرت بالطبع هذه الحملة الفريدة من نوعها حقا ، الامر الذي دفعك الى اطلاق بضعة عشر بائعا

متجولا يجوبون طرقات نيو دجرزي وكونكتيكت .
وبعد بضع سنوات بدأ الناس يبتاعون الفازلين بمعدل اناء واحد كل دقيقة ، وعندما حصلت على موافقة الجسم الطبي على اكتشافك لم يعد يساورك اي قلق بالنسبة الى الفازلين.

تشيزبرو : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، فقد القيت الاضواء بصورة خاصة على مزايا الفازلين في كانون الثاني من سنة ١٩١٢ ، وخلال حريق اندلع في احدى شركات التأمين الكبرى في نيويورك . فقد اصيب كثيرون من المستخدمين والموظفين بحروق خطيرة ، فاستعمل الفازلين بالكيلوغرامات لتخفيف آلامهم . ومنذ ذلك التاريخ بدأت جمعية الصليب الاحمر الدولية ، والجيش الاميركي باستخدام الفازلين لمداواة الجروح البسيطة ، والحقيقة ان الفازلين يحفظ الجراح من الجراثيم التي تولد الامراض . واذا ما وضع الفازلين مع ضمادة معقمة مشدودة فانه يخفف من فقدان السائل العضوي .

صوت : وهكذا صارت للفازلين الذي اكتشفته شهرة عالمية بفضل الدعاية الكثيفة التي تمتع بها ، تلك الدعاية التي كانت في البدء من الفم الى الاذن ، ثم تولتها على طريقة علمية حديثة شركات الاعلان الذكية .

تشيزبرو : والفازلين يا سيدي ، يستحق الدعاية التي عملت له . فقد استعمله الرحالة الشهير بيري ، المستكشف القطبي فلم يتجمد على الرغم من انخفاض درجة

الحرارة حيث كان الى اربعين درجة تحت الصفر . . . وفي بعض البلدان الاستوائية ، استخدمه السكان الاصليون كنقود للتبادل لانه لا يزنخ تحت شمس خط الاستواء . . والاغرب من ذلك كله ان احد موظفي مصنعي اخبرني بدهشة ان بعض الهنود يصنعون سندويشات من الفازلين ، فلم ادهش البتة وطمأنته بقولي : « الا تدري ، ياصديقي ، ان الفازلين الذي ننتجه يؤكل ؟! فأنا شخصيا قد تناولت منه حتى الآن كمية تقدر بعدة كيلوغرامات ».

صوت : وكنت صادقا في قولك . فالمأثور عنك انك دأبت على اكل مقدار ملعقة كل يوم ، معتبرا اياه دواء شافيا لكل الامراض .

تشيز رو : وذات مرة اصبت بداء ذات الرئة ، وكنت اقترب من سن الستين ، فطلبت الى الممرضة ان تطلي جسمي بالفازلين من رأسي حتى اخمص قدمي . وقد فعلت ذلك ، وتحسنت حالي بسرعة وشفيت تماما .

صوت : وكانت وفاتك في سن السادسة والتسعين . وقد اكدت وانت على فراش الموت انك مدين بتعميرك الى الكمية اليومية التي كنت تتناولها من الفازلين ، قبل كل شيء آخر ! . . وفي نهاية هذه المقابلة المفيدة ، يا سيد تشيزبرو ، اود ان اطلعك على ما جدَّ بعد رحيلك عن العالم الاول . فان شركتك تتلقى باستمرار رسائل من زبائنها يكتبون اليها فيها انهم يكتشفون دائما استعمالات جديدة للفازلين . ولعل احدث خبر ازفه اليك هو ان

احدى جمعيات صيادي الاسماك تبين لها ان قطعا صغيرة من الفازلين تشكل طعما ممتازا لصيد سمك الترويت المعروف بترويت قوس الغمام . . .

تشيزبرو : انها لمعلومات جديدة عن الفازلين تفرحني حقا وتثلج صدري ، فشكرا لك ، يا سيدي !!!

فاراداي : منحنا عصر الكهرباء
(١٧٩١ - ١٨٦٧)

صوت : معنا الآن عالم كبير ابصر النور سنة ١٧٩١ وعاش على الارض حتى الخامس والعشرين من آب سنة ١٨٦٧ ، عندما اغمض الموت عينيه بعد ان اتم عملا من أجلّ الاعمال التي افادت البشرية : انه العالم الانكليزي مايكل فاراداي الذي اتاح لنا عصر الكهرباء الذي نعيش فيه ، وكل الروائع التي يحملها الينا ، وكل تلك الروائع التي يمكن ان يحملها في قرون مقبلة الى اولادنا من بعدنا . فبجده واجتهاده وعبقريته المولدة ، استطاع فاراداي الذي بدأ حياته العملية ، وهو بعد حدث ، في احدى مؤسسات تجليد الكتب في شارع بلاندفورد في لندن ، لصاحبها جورج ريبو ، ان يشق لنفسه طريقا الى الخلود ، على الرغم من ان الحظ لم يسعفه لتلقي العلم . فقد كان والده حدّادا ، يكسب معيشته من تعرّضه للنار طوال النهار ، وصحيح انه كان يمنح اسرته المأكل وبعض اسباب الراحة الجسدية ، الا انه لم يكن ليستطيع ان يوفر اي شلن للفخفخة . والعلم والمدرسة كانـا يعتبران من الكماليات . اليس كذلك يا سيد فاراداي ؟ . .

فاراداي : صحيح ما تقوله ، ولم يكن ليخطر ببال والدي دجيمس فاراداي ان ثمة حاجة الى العلم لكي اعمل في اي مهنة تدر علي ما يتيح لي العيش ، كما لم يخطر بباله ايضا ان بامكاني ان اتوصل الى بلوغ شيء افضل من ممارسة مهنة ما . ففي انكلترا ، في تلك الفترة من الزمن ، كان المرء مشدودا الى الطبقة الاجتماعية التي ابصر فيها النور وترعرع .

صوت : وقد ولدت انت لتعمل بيديك ، اليس كذلك ؟

فاراداي : هذا ما كان مفروضا ان يحدث لولا اجتهادي وتحصيلي الشخصي . . . ففي الثالثة عشرة دخلت مؤسسة التجليد التي كان يديرها جورج ريبو ، وكانت مدة العقد سنة واحدة ، ما لبث ان جددها لمدة سبع سنوات لانه رضي عن عملي ومواظبتي . حتى انه سمح لي بأن اقرأ ما تتضمنه الكتب التي كنت اجلدها ، باعتبار ان اضاعة ساعة من الوقت في ذلك لا تفقده شيئا ما دمت اتقن عملي ، من جهة ، ولانني لن اصبح مجلدا سيئا اذا انا عرفت ما بداخل الكتب كما اعرف ما في خارجها .

صوت : وعلى ذلك رحت تقرأ ، وتلتهم ما يقع تحت ناظريك ، انت الفتى الذي لم يدخل قط مدرسة ، فما هو اول كتاب طالعته ؟

فاراداي : ان اول كتاب جعلني افكر كان كتاب « العقل » لواتس . ثم في احدى الموسوعات التي كنت اعمل في

تجليدها وقعتِ على بحث حول الكهرباء . ولم اكن اعرف شيئا عن الكهرباء عندما رحت التهم عبارات ذلك البحث الذي لم يفدني شيئا كثيرا ! . .

صوت : ولكن ذلك البحث بالذات هو الذي اطلق شرارات مخيلتك ، وجعلك تردد لنفسك : « لن اقضي وقتا طويلا لاتعرف الى كل ما هو معروف عن تلك الكهرباء الغريبة ، لان المعروف عنها قليل جدا » . . .

فاراداي : صحيح ، يا سيدي ! فقد انقضت تلك السنوات السبع التي عملت خلالها في تجليد الكتب ، والتي في اثنائها وقعت بين يديّ نسخة من كتاب « اختبارات في الكيمياء » فألتهمت محتوياته ، وابتعت بما كنت ادخره من مال زهيد بعض الاجهزة الرخيصة لاجراء الاختبارات العلمية بواسطتها . . . وبقدر ما كنت اتقدم في ذلك السبيل كان فضولي يزداد ، واهتمامي بذلك يصبح اعظم . ولم يكن اي كتاب علمي يفوتني الاطلاع عليه ، بل التهامه !

صوت : كانت تلك قضية رجل عبقري يشق طريقا لنفسه في حقل العلم . وكان الفقر ، والعمل ، والجهل ، العوائق الوحيدة التي اضطرت روحك الى التغلب عليها .

فاراداي : وكم كنت اضحك واسعد كلما نجح اختبار من اختباراتي .

صوت : والحقيقة انك عرفت برصيدك الممتاز من الحماسة

الضاحكة ، والجرأة والاندفاع الرائعين اللذين يختفيان وراء التواضع الصادق ! ولولا تلك الجرأة كنت ولا ريب قضيت حياتك تعمل في تجليد الكتب . فقد ذكرت مرة امام احد زبائن صاحب مؤسسة التجليد ريبو انك ترغب في حضور محاضرات السر همفري دايفي في قاعة المعهد الملكي . وكان ذلك الطلب مستغربا من عامل تجليد .

فارادای : صحيح ، كان طلبي مستغربا ، بل مستهجنا ، ولكن ذلك الزبون كان متفهما ومتسامحاً جدا . فلم يكن الامر يكلفه الا بضعة شلنات !

صوت : لقد ابتاع ذلك الزبون الخلود بدفعه عنك ثمن اربع بطاقات لسماع تلك المحاضرات العلمية ! هكذا ذهبت الى تلك المحاضرات ، واصغيت اليها باهتمام شديد ، ودونت ملاحظات ورؤوس اقلام ، وفهمت كل ما كان يذكر فيها . وفيما بعد ، في حجرتك الحقيرة في المنزل رقم ١٨ في شارع ويموث ، كنت تتوسع في تلك الملاحظات ورؤوس الاقلام ، مبرهنا بطريقتك الخاصة انك هضمت ما كان يقوله السر همفري . ولكن هل خطر ببالك ، وانت تجلس دارسا ، كاتبا ، وكاتبا ، وكاتبا ، بنشاط حتى تشعر بالألم في ذراعك ، وبالدوار ، انك كنت مقبلا على تبدّل عظيم ؟

فارادای : من منا يمكن ان يخطر بباله شيء من هذا النوع ؟ ولكن ، مع ذلك ، كان ثمة حاجة الى التبدل ، فالعمل في التجليد لم يكن طريقا مزروعا بالورود .

صحيح ان ريبو كان لطيفا معي ويقدّر اجتهادي ويسمح لي بتقليب صفحات الكتب التي اعمل في تجليدها للاستزادة من المعرفة ، ولكن عملي الجديد لدى مؤسسة التجليد التي يديرها دو لا روش لم يكن سهلا وميسرا كالسابق ، اذ ان رب العمل الجديد كان فظ الطباع ، وعاطفيا ، يتلفظ بأقواله قبل ان يفكر . ولذا حصر عملي في التجليد . ولم يسمح لي بأي مطالعة علمية ، مرددا عليَّ قوله : « اطرد من فكرك كل هذه السخافات . اهتم بخارج الكتب ، لان ما بداخلها محرّم عليك ! . . » .

صوت : ولقد عز عليك بالطبع ان تحرم من المطالعة بعد ان عرفت التسامح الكثير من رب عملك السابق ريبو . فكيف تصرّفت ؟

فاراداي : كنت كلما ازددت معرفة بشؤون العمل الذي اعيش منه يتبين لي انني لم أُخلق له . لقد كان هناك نداء العلم ، ولكن كيف يتسنى لي ان اعيش من العلم . فلم اكن خبيرا ، ولم اكن حاملاً اي شهادة . ولم أكن أعرف شيئاً من الرياضيات، فضلاً عن أنه لم يكن لي أي أصدقاء، أي أنني كنت بلا نفوذ . وقد شجعتني جرأتي النادرة المختبئة وراء تواضعي الصادق على الكتابة الى العالم الكبير السر همفري دايفي رسالة مرفقة بالملاحظات ورؤوس الاقلام التي دونتها من محاضراته تدليلا على جديتي ، ولبثت انتظر رده ، وانا غير مقتنع تماما بأنه سيهتم بي .

فلقد كان اكثر المحاضرين شعبية في لندن ، واحد اعظم العلماء في العالم . فكيف سيضيع وقته في الرد على عامل تجليد بسيط فقير؟! ولكن دايفي ردّ على رسالتي بكل لطف ، وحدّد موعدا للاجتماع به .

صوت : وقد حقق دايفي بذلك اعظم اكتشاف حقا : اكتشف مايكل فاراداي ! فهل لك ان تروي لنا تفاصيل ذلك اللقاء ؟

فاراداي : بكل سرور ، ولكن دعني قبل ذلك اذكر شيئا عن شهرة دايفي المبكرة ، فقد اكتشف وهو بعد في الحادية والعشرين ان استنشاق اوكسيد النتريك لا مضاعفات مضرة له . وقد اذاع هذا الاكتشاف مع صدور كتاب له بعنوان « ابحاث كيماوية وفلسفية » في السنة التالية ، شهرة، فعهد اليه الكونت رامفورد بالقاء محاضرات علمية في المعهد الملكي في لندن الذي كان قد اسسه حديثا . . . صحيح انه لم يكن وسيما ، ممتلىء الجسم ، الا انه كان يفيض بالحيوية والدينا ميكية ، وله وقفة منبرية فذة ، كان باستطاعته ان يجعل السامعين يتعلقون بكلماته ، ولم يكن عدد هؤلاء ليقل عن الالف في كل محاضرة !

اما اول لقاء بيني وبينه فقد كان في اواخر كانون الثاني ، او مطلع شباط من سنة ١٨١٣ ـ لست اذكر الآن بالضبط ـ عندما سرت الى المعهد الملكي للقائه ، ولبثت انتظره في الردهة الخاصة وانا ارتجف من فرط الرهبة . فلما رأيت العالم الكبير لم ادر ما اقول ،

وتمتمت انني اريد عملا ، مشيدا بنبل العلم ، مشيرا الى السمعة السيئة التي تلتصق بالتجارة . فابتسم دايفي بسخرية قائلا : « بالنسبة الى سمو اخلاق الفلاسفة والحكماء ، سأدعك بضع سنوات لاختبار ذلك بنفسك . اما نصيحتي اليك فهي ان تبقى في مهنتك كمجلد للكتب . ولكن اذا كان التجليد يسيء اليك فيمكنني ان اعيرك كتبا ، وانتظر ان تسنح الفرصة لشغور مكان في المعهد ، وعندها استدعيك ، اما الآن فلا شيء من ذلك » . . .

صوت : وهل كانت تلك نهاية مقابلتك لدايفي ؟

فاراداي : على تلك الصورة انتهت اول مقابلة بيننا . ولكن كانت هناك مقابلة ثانية هي الحاسمة . أفتود معرفة تفاصيلها ؟

صوت : ولم لا ؟ فهي التي اطلقتك في ميدان العلم . ولا اغالي اذا قلت ان العالم بأسره ليغتبط للقرار الذي اتخذه السر همفري دايفي فيما بعد بالنسبة اليك ، واتاح لك فرصة البروز ! فالجميع اذ يجلسون الآن ويكتبون او يقرأون على اشعة الكهرباء ، او يتنقلون في القطارات الكهربائية ، او يتدفأون بالقرب من المدافىء الكهربائية ، يحمدون لدايفي اكتشافه لفاراداي . . . والآن كيف تمت مقابلتكما الثانية ؟

فاراداي : بعد شهر من المقابلة الاولى ، وفي مطلع آذار من السنة ١٨١٣ ، كنت ووالدتي ننظر من منزلنا الى شارع ويموث عندما ابصرنا عربة كبيرة ترجل منها امروء

خشن . وكم كانت دهشة امي عظيمة عندما رأت ذلك الرجل يقترب من باب منزلنا ، ويترك لي رسالة قصيرة يطلب اليّ فيها ان اقابله في صباح اليوم التالي في المعهد الملكي . وقد كان ووافيته في الموعد المحدد فاذا به يفاجئني بقوله ان مساعداً مطلوب للعمل في المختبر بمرتب قدره خمسة وعشرون شلنا في الاسبوع .

صوت : حسنا . . . ولكن هل لي ان اسألك اين درست علم الكيمياء ؟

فارادای : انا لم ادرس الكيمياء لا في المدرسة ولا على يد اي معلم . لقد اخذتها من الهواء ، كما تأخذ النباتات النيتروجين . وعندما انضممت الى دايفي ، كان هذا العالم يواجه مشكلة اختراع مصباح امين يمكن لعمال المناجم استعماله ، وكان ذلك عملا دقيقا جدا اذ عليه كانت تتعلق حياة الآلاف من العمال الذين يواجهون الاخطار الجسيمة والمميتة تحت طبقات الارض . وقد ساعدته مساعدة كبيرة في تحقيق اختراعه العظيم ذاك . وعزّزت اقتراحاتي الثمينة التي اسهمت في ابتكار مصباح دايفي ، ثقته فيّ بعد ستة اشهر من العمل المتواصل الى جانبه . فلما قرر السفر الى اوروبا للاستزادة من العلم ومتابعة تقدمه وتطوره في بعض الاقطار الاوروبية اراد ان ارافقه لتدوين ملاحظاته والاهتمام بمختلف الشؤون والتفاصيل وكانت زوجته سترافقه وكذت في اللحظة الأخيرة أقرر عدم السفر لأنني لم أشأ أن أكون بمثابة خادم له ! .

صوت : وماذا قررت في النهاية ؟

فاراداي : لقد سافرت ، وغبت عن انكلترا ثمانية عشر شهرا ، عوّض فيها العلماء الاوروبيون باحترامهم ارائي ومناقشتي في مختلف الشؤون العلمية ما كنت القاه من احتقار زوجة دايفي المتكبرة لي ، ومعاملتها الفظة ، واعتباري خادما ليس الا . وقد حظيت بتقدير العالم السويسري غاسبار دو لا ريف ، استاذ الكيمياء الصيدلية في اكاديمية جينيف ، وتوطدت بيننا صداقة عززتها مراسلة لم تنقطع ابدا طوال حياته ، حتى ان ابنه الذي عرف شهرة اوسع من شهرته ، واصل ذلك التقليد بعد وفاة والده ، فترة طويلة ! . .

صوت : وماذا عن اخبارك بعد عودتك الى انكلترا .

فاراداي : عدت من فوري الى المعهد الملكي ، وقد رُفع مرتبي الى ثلاثين شلنا في الاسبوع ، وكنت في حوالي الرابعة والعشرين . وكنت اقوم الى جانب عملي مع دايفي ، باجراء الاختبارات العلمية اثناء محاضرات الاساتذة في ذلك المعهد . وسرعان ما وقفت على قدمي ، ورحت احاضر في الكيمياء في جمعية المدينة الفلسفية التي انضممت اليها ، وكانت ملتقى الشبان المهتمين بالعلم . وصحيح انني لم اكن آتيهم بجديد من عندي ، بل اكرر عليهم ما تلقيته وتعلمته بدوري ، الا انني وجدت نفسي شيئا فشيئا ، وتعلمت كيف اتكلم امام الجمهور ، وكيف اقوم بالاختبارات والتجارب بمختلف الادوات . وفي سنة ١٨٢١ تزوجت

سارة بارنارد ، ابنة احد باعة المجوهرات ، فكان زواجنا موفقا لان سارة كانت راجحة العقل ، تقدر ظروف عملي ، وابعد ما تكون عن الطمع والسعي وراء الشهرة ، مثلي تماما . . . وقد وافقتني على الانسحاب باكرا من الحياة الاجتماعية دون اي تذمر . وكنت ـ على ضآلة دخلي ـ كريما ، فلم تكن تنتقد او تشكو ! . .

صوت : لعل تلك ، يا سيد فاراداي ، من الحالات النادرة في تاريخ البشر ، ان يلتقي رجل وامرأة فيعملان بفكريهما وقلبيهما على فهم احدهما الآخر ، مؤكدين بكل هدوء وصراحة ان الانسجام ممكن بين رفيقي العمر ! . .

فاراداي : اذا كان بالوسع القول ان الانسجام كان تاما بيني وبين رفيقة عمري سارة ، فانه لم يكن كذلك بيني وبين استاذي دايفي الذي يعود اليه كل الفضل في ولوجي ميدان العلم وتحقيقي ما حققت من خدمات للبشرية في حقول الكهرباء المختلفة والغازات ، والمغنطيس .وبقدر ما كنت اكره الشهرة والسعي وراء المجد ، كان دايفي يتهالك عليهما الى درجة بلغ به الحسد من بعض اعمالي ان عارض في ترشيحي لعضوية الجمعية الملكية التي كان يرئسها ، وسانده في ذلك عالم آخر هو وولاستون الذي نجحت في اقناعه بأنه مخطىء في موقفه مني ، فسحب معارضته ولم يسحبها دايفي . ولكن تبين بنتيجة الاقتراع انني فزت

بالعضوية على الرغم من وجود كرة سوداء في صندوقة الاقتراع ، وذلك كناية عن صوت سلبي .

صوت : ومن الذي القى تلك الكرة السوداء ؟

فاراداي : من يدري ؟ فلم يكن لذلك اي اهمية بعد ان اتيح لي التمتع بمقعد في الجمعية الملكية ، وبحق الجلوس مع افضل علماء ذلك العصر ، وانا بعد في مطلع العقد الثالث من العمر . وفضلا عن ذلك كنت مديرا لمختبر المعهد الملكي الذي بدأت فيه عملي في حقل العلوم . وهكذا اقتصرت حياتي على العمل في المختبر ، والقاء المحاضرات بعد الظهر وفي المساء ، والعودة الى قرب سارة ، والتفكير المتواصل بالقضايا العلمية الغامضة التي تحتاج الى حلّ .

صوت : وكانت اخر محاضراتك في ٢٠ حزيران سنة١٨٦٢ ، ولكن وطوال السنوات الخمس التالية كنت معلقا بين الحياة والموت ، تضعف يوما بعد يوم حتى كدت تعجز في النهاية عن الحركة . وكانت سارة بجانبك ، كما كانت طوال الخمسين سنة التي قضتها كشريكة لحياته . وكما ذكرنا في مستهل هذه المقابلة كانت نهاية مايكل فاراداي في ٢٥ آب سنة ١٨٦٧ ، اذ راح في رقاده الابدي بكل هدوء وسلام بعد ان اعطى افضل ما يمكن ان يعطيه انسان لتوفير الراحة والفائدة لاخيه الانسان !!!

مورس : رسام ومخترع
(١٧٩١ - ١٨٧٢)

صوت : الفنان الذي اراد ان يخلد في عالم الرسم ، فخلد في عالم الاختراع بمحض المصادفة هو مخترع التلغراف اللاسلكي صموئيل مورس ، الذي تبرز في حياته خمسة تواريخ ، جعلته يتسم بالشهرة والفخار . اولها : هو سنة ١٨٣٥ عندما أطلع مورس اصدقاءه ، للمرة الاولى ، على خبر الجهاز الذي اخترعه ، والثاني : هو سنة ١٨٤٠ تاريخ تسجيل اختراعه . والثالث : سنة ١٨٤٣ حين اقترع الكونغرس الاميركي على منحه مبلغ ٣٠ الف دولار لمواصلة عمله . والرابع : هو سنة ١٨٤٤ تاريخ ارسال الاشارة البرقية الاولى بين مدينتي واشنطن وبلتيمور. واخيرا الخامس : هو سنة ١٨٦٦ حين ابرقت انكلترا برسالة تحية الى الولايات المتحدة الاميركية ، عن طريق الخط البرقي الذي انشىء عبر المحيط الاطلسي ولنتحدث الى هذا المخترع العظيم مستعرضين معه وقائع حياته ودقائق عمله الجليل . . .

يا سيد مورس ، انت ابصرت النور في شهر نيسان من سنة ١٧٩١ ، اليس كذلك ؟

مورس : اجل ، وانتقلت من العالم الاول الى العالم الثاني سنة

١٨٧٢ ، وقبل احتفالي بعيد ميلادي الحادي والثمانين ببضعة ايام . . . فيا للمصادفة العجيبة !

صوت :لقد مثلت المصادفة في حياتك دوراً كبيرا كما سبق ان ذكرت ، وسيظهر لنا ذلك واضحا في استعراض تفاصيل نشاطك ، ذلك بأنك ظللت حتى الخمسين من عمرك تمتهن الرسم ، وتتخذ من فن رسم الشخصيات الذي برعت فيه ، صناعتك الاساسية .

مورس : صحيح ، وكان الاختراع هوايتي في الواقع !

صوت : وقد بدأت بالرسم في سن مبكرة كما يقولون عنك ؟

مورس : حقاً، وان اول رسومي صنعته وانا بعد في الرابعة من عمري ، وذلك يوم رسمت بسن الريشة صورة معلمي في المدرسة . .

صوت : ونمت موهبتك هذه ، فلما التحقت بجامعة ييل ، راحت طلبات زملائك تنهال عليك لرسمهم ، لقاء دولار للصورة الواحدة ، الا ان والديك عارضا بشدة اتخاذك الرسم صناعة .

مورس : صحيح . لأن والدي كان قسيساً يستنكر الرسم ويزدريه ، ويعتبر الرسامين اخوة للشياطين ، وكانت والدتي ترى في الرسم مجلبة للفقر .

صوت : ولكنهما ما لبثا ان وافقا على ان تكون تلميذ الفنان العبقري الوقور واشنطن آلستون ، عندما رأيا ما دره عليك الرسم من ارباح ، وانت بعد طالب في الجامعة ، تستهويك دراسة الكهرباء !

مورس : نعم . وكنت أعدّ نفسي لامتهان التصوير بعد ان ظفرت بشهرة عالمية فيه ، وانا في الثانية والعشرين من العمر ، حين اختيرت لي صورة رسمتها ، وجعلت بين الصور التسع التي فازت بين الفي صورة ، عرضت في «الأكاديمية الملكية» في لندن .

صوت : وقد صحبك استاذك الى لندن ، ولكن على الرغم من حماستك لم تتمكن من بيع شيء من انتاجك للانكليز!.

مورس : ولذلك عدت سنة ١٨١٥ الى موطني في العالم الجديد ، أجر اذيال الخيبة والفشل ، فدفعني احساسي المرهف وعاطفتي الجياشة الى الزواج ، رغبة مني في الاستقرار وتكوين اسرة . ورحت اجوب المدن الاميركية ، راسما الشخصيات لقاء خمسة عشر دولارا للوحة . ولعل افضل رسومي تلك هو رسم صديقي لافاييت .

صوت : ولكن الاقبال على رسومك كاد ينقطع بعد سنوات ، وذلك عندما حلت باميركا الضائقة الاقتصادية ، وتزوجت ورزقت ثلاثة ابناء ، ولكن القدر حطم آمالك الكبيرة ، واظلم مستقبلك الذي كان يملأه الامل المشرق ، فتوفيت شريكة حياتك بداء الصدر ، الذي سبق ان قصف زهرة حياة اثنين من ابنائك الثلاثة .

مورس : صحيح ان الموت والحزن كانا اقوى مني ، الا انني لم اسمح لهما بتحطيم حياتي ، والمستقبل الذي كنت ارنو اليه

بآمال واحلام غير محدودة ، وهكذا عزمت على القيام برحلة ثانية الى اوروبا .

صوت : وكأني بك لم يكن يخامرك اذ ذاك اي تفكير بأن هذه الرحلة ، ستكون نقطة التحول العظيم في حياتك ، وبداية تركك فن الرسم ، وذلك بأنك عندما كنت عائدا الى وطنك بعد زيارة اوروبا على ظهر احدى السفن ، وفي شهر تشرين الاول من سنة ١٨٣٢ ، سمعت بانباء اختبارات جرت في فرنسا ، تم فيها نقل الكهرباء على مسافة طويلة .

مورس : صدقت . وكان مبعث تسلية بين الركاب ما قلته اذ ذاك ، وكأنني كنت اخاطب نفسي فاقول : « ما يمنع من ان تنتقل الانباء بالكهرباء على الفور الى اي مكان في العالم؟» .

صوت : وقد انصرفت طوال رحلتك الى التفكير في هذه القضية ، وخاصة انك كنت شديد الميل الى الكهرباء ، ودائم البحث عن العلماء ، الذين يقومون بالتجارب في هذا الحقل الجديد من العلوم الطبيعية .

مورس : ولهذا تملكتني تلك الفكرة تملُّك الحمى للمريض ، خلال ما تبقّى من ايام الرحلة ، فاذا كل ما درسته في علم الكهرباء يؤتي ثماره . فما ان وطئت قدماي اليابسة في نيويورك ، حتى كان دفتر مذكراتي يحتوي على رسم جهاز ودورة كهربائية .

صوت : وهكذا ، ما ان عدت الى اميركا ، حتى ولجت ميدانا آخر غير ميدان الرسم وذلك هو ميدان الاختراع .

مورس : ولكنني كنت ما ازال فنانا ، وقد سبق لجامعة نيويورك ان عينتني قبل اشهر من ذلك التاريخ استاذا للنحت والتصوير ، فكان ذلك اول منصب استاذ للفنون الجميلة انشىء في اميركا . . .

صوت : ولهذا كنت تقضي نهارك في الرسم ، وتقضي ليلك في صنع النموذج لجهاز التلغراف وكل ذلك في غرفتك الخاصة في الجامعة ، التي حولتها الى مختبر . . .

مورس : وقد سبق لي ان حولتها كذلك الى مطبخ ، اطهو فيه طعامي بيدي ، توفيراً للمال لكي انفق ما بيدي على تجاربي العلمية . وكان الداخل الى حجرتي يرى الاسلاك وقد غطت جدرانها ، ووسط ذلك كله جهاز الارسال الذي ابتكرته ، وقد دعوته التلغراف المغنطيسي الكهربائي . . .

صوت : وبعد تجارب متعددة ، وفي ٢ ايلول سنة ١٨٣٧ ، عرضت جهازك هذا في جامعة نيويورك ، فاهتم به احد صانعي النحاس والحديد في نيوجرزي ، فاشترك معك في مشروعك .

مورس : ويومها طلبت تسجيل هذا الاختراع ، في انكلترا وروسيا ، فرفض طلبي . ولكني وفقت الى الحصول على موافقة الحكومة الفرنسية ، التي استأثرت بالاختراع فيما بعد ، دون التعويض علي .

صوت : واخيرا ابتسم لك الحظ ، وكان ذلك سنة ١٨٤٣ ، عندما أقر الكونغرس شراء حق الاختراع ، ومنحك

ثلاثين الف دولار لانشاء خط تلغرافي بين واشنطن و بلتيمور .

مورس : صحيح ، وقد كنت اذ ذاك كهلا في الثامنة والخمسين من عمري ، فاذا بتلك الخطوة ، تضع حدا فاصلا بيني وبين حياة الفقر والبؤس والحرمان .

صوت : ووضعت كذلك حدا بينك وبين حياة العزوبة ، فتزوجت مرة ثانية ، وسعدت في هناء الزواج ، وعشت عيشة مترفة ، كلها استقرار ، حتى نهاية اجلك سنة ١٨٧٢ ، وبذلك امتدت حياتك احدى وثمانين سنة بالتمام والكمال !!

مورس : وقليلون اولئك الذين يعرفون ان نشاطي الفياض دفعني الى ميدان السياسة ، فاشتركت اشتراكا فعليا في كل معركة سياسية قومية ، ولكني كنت في الغالب في الفريق الخاسر .

صوت : ولعلهم قليلون كذلك اولئك الذين يعلمون انك قاومت الحرب الاهلية ، مقاومة عنيدة ، وفي الثالثة والسبعين ، كانت حملتك شعواء ضد تجديد انتخاب الرئيس ابراهام لنكولن .

مورس : غاب عن بالي القول انني ادخلت الى الولايات المتحدة الاميركية ، طريقة التصوير الفوتوغرافي ، التي ابتكرها الرسام والكيماوي الفرنسي لويس داغير . وقد سجلت آلة صنعتها لقطع الرخام ، واجريت اختبارات في التلغراف اللاسلكي بواسطة اسلاك تحت مياه البحر .

صوت : وكنت كذلك ، يا سيد مورس ، احد مؤسسي كلية فاسار للبنات في ولاية نيويورك . كما كنت احد مؤسسي الاكاديمية الوطنية الاميركية للرسم ، التي ترأستها حوالي عشرين سنة . وقد مجد ذكرك متحف متروبوليتان للفن في نيويورك سنة ١٩٣٢ ، وذلك باقامة معرض خاص لرسومك ، وكان هذا بمناسبة مرور ستين سنة على وفاتك .

مورس : لقد كتبت ذات يوم : « قيل لي مرارا انني ولدت قبل مئة سنة بالنسبة الى الفنون في بلادي ! »

صوت : على ذكر الفنون اسمح لي او اورد وصفا لك ، اطلقته احدى الفتيات من اللواتي كن يعملن نماذج في محترفك :
« كان مورس قبلة انظار الصبايا في نيويورك ، مع انه شيخ بدأ الشيب يدب في رأسه ، والسبب انه يتذوق الفن . . . »
وقد ظهرت للمرة الاخيرة في المجتمع ، عندما ازيح الستار عن تمثال بنيامين فرنكلين في ساحة المطبعة في نيويورك ، في ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٧٢ !

مورس : وكان لآخر مرة بالفعل ! . .

الدكتور مورتون : المنقذ من الألم
(١٨١٩ - ١٨٦٨)

صوت : تعود بي الذاكرة الى حوالى اكثر من مئة سنة خلت ، فأرى في حانوت احد باعة المجوهرات رجلا وقورا ، تبدو على ملامحه امارات البؤس والألم ، ولا ألبث ان اسمع الحوار التالي يدور بينه وبين صاحب الحانوت بعد ان وضع على منضدته وساما ذهبيا يسمع له رنين : « اي مبلغ تعطيني ، يا سيدي ، لقاء هذا الوسام الذهبي ؟ » فيتناول التاجر الوسام مشدوها ويقرأ ما نقش عليه : « الى المحسن الى البشرية : و. غ. مورتون » . وتزداد دهشته فيسأله : « من اين لك هذا الوسام يا هذا؟ من اين سرقته ؟ بأي حق تبيعه ؟ » فيجيبه الرجل العجوز بكل يأس : « انا لم اسرقه . . منحتني اياه اكاديمية باريس للعلوم تكريما لاكتشافي التخدير . . انا هو الدكتور مورتون ! » وعندها يعتذر التاجر بحرارة وصدق : «إذن أنت الدكتور وليام توماس غرين مورتون؟ . . . المعذرة . . ولكن هل انت مضطر حقا لبيعه ؟ » فيجيبه منقذ البشرية من الألم الذي يرافق العمليات الجراحية بواسطة التخدير او البنج : « اذا لم تشأ ان تشتريه فلن تجد اسرتي ما تأكله غدا » . فما كان من التاجر الا ان قال لمورتون : « اسمح لي ، يا سيدي ، أن اقدم اليك هذا

المبلغ على سبيل القرض ، واحتفظ بالوسام الذهبي . . . » سيدي الدكتور مورتون : اليس هذا ما حدث بالفعل؟

مورتون : ذلك هو الواقع ، يا سيدي . فقد بلغ بي البؤس ، مع الاسف الشديد ، الى ذلك الحد .

صوت : هلا رويت لنا ايها الجراح في طب الاسنان قصتك من البداية .

مورتون : قبل تلك الزيارة لمتجر المجوهرات بعشرين سنة ، وفي يوم ما ازال اذكره جيدا من ايام تشرين الاول من سنة ١٨٤٩ ، جلست في عيادة الدكتور وورين ، رئيس الجراحين في مستشفى مساتشوستس العام في بوسطن ، انتظر ان يأذن لي بمقابلته ، ولكن المرضة اشفقت علي اذ طال انتظاري ونصحت لي بألا اضيع وقتي لانهماك الدكتور وورين بعدة عمليات جراحية . فافهمتها ان الامر ملحّ . وبوسعي انتظاره طوال الليل والنهار ، اذا اقتضى الامر .

صوت : وهل استطعت مقابلته بعد طول الانتظار ؟

مورتون : قابلته مساء وعرّفته بنفسي ، واخبرته انني اكتشفت اكتشافا عظيما ، يتيح للجراحين اجراء العمليات دون ألم . فاصغى الي ، لكنه اعتذر عن مناقشة الموضوع لشدة اعيائه ، وطلب الي العودة الى مقابلته في وقت آخر . وحسبت انه يصرفني هكذا بلباقة ، ولم اكتمه انني اشك في انه ينظر الي نظرته الى مشعوذ ، مصارحا اياه بانه لا ريب

قد سمع قبلي كثيرا باكتشافات عن التخدير ، فكأنت كلها مجرد اوهام .

صوت : كان له عذره اذن في ان يشك في صحة اكتشافك لطريقة تتيح اجراء العمليات دونما الم ؟

مورتون : بالطبع ، ولذا رجوته أن يتيح لي الفرصة لتجربة المركّب الذي صنعته للتخدير . وقد كان ، وحدد اليوم السادس عشر من تشرين الاول سنة ١٨٤٦ ، موعدا للقيام بالتجربة امام طلابه في صف الجراحة . . وفي اليوم المحدد دخل الصف وبادر طلابه بقوله : « ايها الطلبة الاعزاء ، يسرني ان اخبركم عن اكتشاف مركّب معين يدّعي صاحبه الدكتور مورتون ، الجراح في طب الاسنان ، انه توصل اليه ، ومن خصائصه تخدير من تُجرَى له عملية جراحية بحيث يتخلص من ألم العملية . وهناك امرؤ سأجري له عملية بعد قليل . وقد اتفقت والدكتور مورتون على تجربة مخدره في هذه العملية . . ونحن بانتظاره بين لحظة واخرى » .

صوت : ولكنك تأخرت عن الموعد المحدد للعملية فخشي الدكتور وورين وطلابه ان تكون كسواك . ممن ادعوا اكتشاف مواد للتخدير . وتأهب الجراح لبدء العملية دون انتظار قدومك .

مورتون : ذلك هو الواقع ، فقد تأخرت لظرف طارىء ، ووصلت في اللحظة نفسها التي كان الدكتور وورين والطلبة يغادرون قاعة الصف للذهاب الى حجرة العمليات . فناولته البلورة التي تحتوي على المخدر . ودخلنا معا

للشروع في العملية ، وشرحت له كيفية استعمال المخدر .

صوت : هل لك ان تشرح لنا ماذا فعلت والدكتور وورين ؟

مورتون : قلت للدكتور وورين : في هذه البلورة الغاز المخدر ، الذي يسيل من فوهتها الى انف المريض عبر نربيج ، ويطلب الى الذي ستجرى له العملية ان يتنفس تنفسا عميقا ، فيصبح اذ ذاك في حالة غيبوبة تامة ، ولا يعود يشعر بالالم من جراء البضع . واكدت له انني اختبرت ذلك شخصيا مع احد زبائني ، فثبتت لي فعالية التخدير قبل ان احمله اليه . وهكذا تأكد الدكتور الجراح وورين من صحة اقوالي ونجاحي في اكتشافي بعد ان اجرى العملية دون ان يملأ صياح المريض اجواء المستشفى كما جرت العادة .

صوت : والحقيقة ، يا دكتور مورتون ، ان الاطباء الجراحين خصوصا كانوا يتألمون لصيحات المرضى اثناء العمليات كالمرضى انفسهم سواء بسواء ، اليس كذلك ؟

مورتون : بالطبع ، وقد هتف الدكتور وورين بعد ان تأكد من فعالية اكتشافي في التخدير : انها حقا لمعجزة في الطب ! . . عسى ان يكون الالم قد طرد من حجرة العمليات . وبعد ان افاق المريض من سباته الموقت سأل الدكتور وورين متى ستجرى له العملية . ولكم دهش عندما اكد له الجرّاح الكبير انها قد تمت . وعاد يسأل كيف انتهت وهو لم يشعر بأي ألم كما جرت العادة في العمليات الجراحية من قبل . وهنا بدت الدهشة على ملامح الدكتور وورين الذي لم يعد

يخامره اي شك في اهمية الاكتشاف الذي توصلت اليه . والتفت نحوي اذ ذاك مرددا بحزم وثقة تامين : « دكتور مورتون ، الآن بدأ عهد الجراحة دون الم . انه حقا لفتح جديد في عالم الطب . وثق ، ايها الزميل العزيز انك قد منحت البشرية افضل هبة واعظمها ، ولن يبخل عليك البشر بالتقدير والاجلال اللذين تستحق ».

صوت : بالطبع ، سررت لانك قدمت عملا يستفيد منه المتألمون ، ولكن البشرية بخلت عليك كثيرا على ما نعلم جميعا . فكانت مكافأتها ان تركتك تقضي في الثامنة والاربعين من العمر امرأ محطما ، بائسا لا يملك شروى نقير ، او وجبة طعام ، وذلك امر مستغرب حقا . ولكنه الحسد ، قاتل الله الحسد ، والسعي وراء الشهرة ، قاتل الله الطمع ! ففي حين كان المخدر الذي اكتشفته حديث العالم الطبي في اوروبا ، عمد الكثيرون في الولايات المتحدة الاميركية الى منازعتك شرف اكتشافه زورا وبهتانا ، طمعا بالجاه والشهرة . فهل لك ان تحدثنا قليلا حول هذا الموضوع .

مورتون : صدقت يا سيدي ، في ما قلت ، وكثيرون هم الذين فعلوا ما ذكرت ، اذكر منهم الدكتورين هوراس ويلز ، وتشارلز دجاكسون ، والكيمياوي كروفورد لونغ ، وهم الذين كانوا يجرون مثلي الاختبارات في حقل التخدير ، انا لا انكر ذلك البتة .

صوت : ولكنك كنت ، كما هو معلوم ، اسبقهم الى اعلان النتيجة بعد ان اثمرت اختباراتك ، اليس كذلك ؟

مورتون : واكثر من ذلك ، فقد ارسلت الي اكاديمية باريس للعلوم شهادة رسمية تعترف فيها بأنني « المحسن الى البشرية » . فعرف بذلك الحاسدون وتربصوا بي الداوئر . وكان اسوأهم تصرفا دجاكسون الذي سعى الى وقف صرف مبلغ مئة الف دولار ، كان الكونغرس الاميركي قد منحني اياها تقديرا لي على اكتشافي المخدر .

صوت : وماذا فعل دجاكسون لكي يحول دون وصول هذا المبلغ اليك ؟

مورتون : راح في غمرة حسده وغيظه الفتاك يلفق القصص ضدي ، فخدع بذلك العالم آنذاك . تقدم من اكاديمية العلوم الاميركية ، وكان يتمتع ببعض السمعة نظرا لعمله في حقل الكيمياء ، مصرحا بأنني استعمل التخدير في العمليات الجراحية تحت اشرافه المباشر .

صوت : يا له من مخادع كبير ذكي !

مورتون : مهلاً ، يا سيدي ، ليته اكتفى بذلك ، فقد كتب الى الجراحين المرموقين في انكلترا وفرنسا والمانيا ، طالبا منهم مساندته في دعواه الباطلة .

صوت : وماذا فعلت ، ايها المسكين الذي تألب عليه الجميع ؟

مورتون : الواقع انني لم اقف مكتوف اليدين بعد ان زين الغرور لحسادي من الزملاء الاطباء والعلماء الغدر بي وجلهم كان من اصدقائي . اتصدق اذا قلت لك انني قمت بزيارة دجاكسون في منزله ، عاتبته على ما بلغني من أقاويل صدرت عنه ، ولم اكتمه انني عرفت باتصالاته مع جراحي

اوروبا ، فنفى ذلك جملة وتفصيلا . ولما نشرت امامه نسخا عن الرسائل التي بعث بها الى اوروبا ، استهجن ذلك ، ووصفها بانها مزورة . وقال لما اكدت له انها وصلتني من اصدقائي الجراحين الاوروبيين الذين تسلموها منه : « نحن صديقان ، يا مورتون ، منذ امد بعيد ، ولا يعقل ان افعل مثل هذا مع صديقي . واذا كنت بعثت بكتب إلى أوروبا، كما تدعي ، فمن أجل أن أثبت حقك في الاكتشاف، وجمع الأنصار حولك».

صوت : يا للصفاقة تصدر عن طبيب وعالم يفترض فيه أن يكون مثال الانسان الفاضل . استمر ارجوك ، يا دكتور مورتون .

مورتون : صارحته بان كلامه المعسول لن يخدعني ، وانني لم اصدقه يوما ، وان الحق لا بد ان يظهر جليا اليوم او غدا ، وانهيت زيارتي بقولي : « اذا كنت يا دكتور دجاكسون ، تعتمد على ثروتك في محاربتي ، فاعلم ان المال ليس كل شيء في هذه الحياة ، فافعل ما شئت » . . .

صوت : واعتقد انه فعل ما شاء ، اذ انه ودعك بقوله : « حسنا ، ما دمت تتهددني ولا تثق بكلامي ، رافقتك السلامة » .

مورتون : وهكذا ما ان غادرت منزله حتى عكف من فوره على كتابة تقرير آخر مليء بالمغايرات ارسله الى احدى صحف بوسطن فنشرته . وبعث بنسخ كثيرة منه الى بعض ذوي النفوذ من اصدقائه في مختلف اطراف المعمور .

صوت : وماذا كانت فائدته من ذلك ؟

مورتون : كانت النتيجة المحتومة ان الاوساط الطبية في باريس قررت منحه لقب « المحسن الى البشرية » .

صوت : ماذا تقول ؟ اهكذا انقلب الوضع رأسا على عقب ؟

مورتون : اجل ، ولكن بعض اصدقائي في باريس تنبّه للامر ، وقيض لي الله صديقا ابرز تقريرا يثبت انه اجرى تجارب واختبارات عديدة ناجحة في التخدير على طريقتي ، وعندها قررت الاكاديمية الباريسية للعلوم ان يحمل كلانا لقب « المحسن الى البشرية » ، فرفضت حصتي في هذا اللقب ، معتبرا اياه اهانة لا تغتفر ، لمشاطرة دجاكسون لي فيه . . .

صوت : كيف وصل اليك الوسام المذهب ؟

مورتون : لقد دام الجدل العنيف بيننا سنتين كاملتين صح بعدهما العزم على منحي الوسام المذهب من دون دجاكسون الذي اقام الدنيا واقعدها ، ولم يستسلم . فقد اغتنم فرصة غيابي عن منزلي فرشاً الخادمة واطلع على دفاتري ، وقيودي ، فدوّن اسماء زبائني الذين سددوا ما عليهم من حقوق مادية لي . ومن ثم عمد الى مطالبتهم بتسديد ما استحق عليم باوراق رسمية كأنها صادرة عني شخصيا . وهكذا اقفرت عيادتي من المرضى ظنا منهم انني رجل لا يؤتمن . . .

صوت : ان العلم ليتبرأ من هذا الرجل الخطر . ولا ريب انك

اوذيت كثيرا ، وذقت الامرين من كيد دجاكسون لك ، وكرهه وحقده الشديدين !

مورتون : الا ان اصدقائي المخلصين افتتحوا اكتتابا لمساعدتي وتسديد ديوني ، وابتاعوا لي منزلا اقيم فيه . وقدم الي مجلس امناء مستشفى مساتشوستس صندوقا فضيا فيه الف دولار عربون ولاء وتقدير منهم ـ كما ذكروا ـ « لرجل افتقر في سبيل قضية جعلت العالم مدينا له » .

صوت : اذن فقد اعترف العالم بك وباعمالك اخيرا ؟ فهل ثمة ما تضيفه ؟

مورتون : لقد وافق الكونغرس الاميركي على منحي المئة الف دولار ، ولكن دجاكسون كان لذلك بالمرصاد ، فاستطاع بوسائله العديدة ان يوقف هذه المنحة ـ كما سبق ان ذكرت لك في اللحظة الاخيرة ، فاذا بالكونغرس يلغيها في اول كانون الاول سنة ١٨٦٢ .

صوت : ويروى يا دكتور مورتون : انك قرأت ذات يوم ـ وانت في القطار الحديدي متجها الى نيويورك ـ في الصحيفة مقالا يعلن ان الدكتور ويلز هو مكتشف التخدير، فأثارك ذلك وأصابك بالحمى . وتآمر عليك التعب والقلق والمرض ، وانت بعد دون الخمسين فجفاك النوم واصابك الهذيان ، وحاولت القاء نفسك في البحيرة في سنترال بارك في حي برودواي ، ظنا منك ان المياه الباردة تشفيك مما بك .

مورتون : ولكن المارة منعوني من الانتحار ، واعادوني الى عربتي . الا انني ما ان خطوت بضع خطوات حتى ترجلت من العربة مجددا وقفزت فوق احد الحواجز . . .

صوت : وحملت الى مستشفى القديس لوقا ، حيث توفيت بعد بضع ساعات . والآن عرفت لماذا لا يحمل النصب التذكاري الذي اقيم في حدائق بوسطن العامة لمكتشف التخدير اي اسم .. فقد كان هذا الاكتشاف مثار جدل طويل عنيف في حياتك كما كان بعد مماتك .

مورتون : ماذا تقول ، يا سيدي ، اصحيح انه لم ينته بانتهاء حياتي ؟

صوت : اجل ، يا دكتور مورتون ، فقد اثيرت هذ القضية مجددا سنة ١٩٤٠ ، ولكن العالم الطبيعي السر وايو متشل كتب يقول :

« ان قوةً أشد حكمة وعدلاً وانصافاً ستعرف القذارة التي كوفئت بها النفس السمحاء التي وجدت هذا العالم متحجرا ، لا يستطاع العيش فيه » .

مورتون : احسن الله الى هذا العالم المنصف .

داروين : الثائر اللطيف
(١٨٠٩ - ١٨٨٢)

صوت   ان قصة العلم هي قصة بلا بداية ، وبلا نهاية . ولكنها دائما تنمو وتتجدد . الدول ترتفع وتسقط ، والاسر المالكة تحكم وتختفي ، والمذاهب الدينية تعظم وتشرف على الزوال ، ولكن العلم ، وهو يبنى على انقاض الفشل ، والقسوة والطموح ، يتقدم بخطى ثابتة الى الامام . وصحيح ان نسبة التقدم غير مستوية ، الا ان العلم ، طوال خمسة وعشرين قرنا من الزمن لم يتوقف ابدا .

والانسان صنع علمه ، وبدوره صنع العلم الانسان ، وهو هكذا وسط ما يسميه حضارة ، او نتاج ما فكر فيه ، وما صنعته يداه . وان معرفة علم الانسان ، ومعرفة دقائق حياة اولئك الذين صنعوا العلم ، تفضيان الى معرفة الانسان نفسه ، ويكفي ان نتابع ذلك الخط الرفيع ، غير المنتظم الذي سلكه الباحثون عن الحقائق الغريبة منذ قديم الزمان الى اليوم ، لكي نجد ونفهم افضل جوانب الطبيعة البشرية ، واكثرها ابحاء ، هذه الطبيعة التي لا تمجد دائما ، وليست لطيفة دائما ، او بعيدة عن الطمع والانانية . . .

داروين :   أحسنت ، يا سيدي ، في هذه المقدمة عن العلم والعلماء . انها حقا مقدمة جامعة مانعة على ايجازها .

صوت : شكرا ، يا سيد داروين ، انا لم افطن الى وجودك ، والا كنت ترددت في هذا التقديم وانا في حضرة اكبر عالم بالطبيعيات في القرن التاسع عشر ، العالم الذي قلب المفاهيم ، وكشف عن سنن النشوء والارتقاء ، واصل الانواع .

داروين : لا بأس ، لا بأس ، هل لي ان اعرف الغرض من كل ذلك ؟

صوت : انها مجرد مقابلة سريعة أبغي من ورائها تعريفك اكثر فاكثر الى الذين يمكن ان تفيدهم معرفة تراجم الخالدين . . . فأطرح عليك الاسئلة وتجيبني عليها . اواضح ذلك ، يا سيدي ؟

داروين : تمام الوضوح ، يا سيدي ، تفضل بالسؤال .

المعروف ان جدك لابيك داروين كان من النابهين في العلوم والادب والشعر ، ويتمتع بمقام رفيع .

داروين : وكان فضلا عن ذلك زاسخ القدم في علم الحيوان ، تحدث عن تغاير الانواع وعدم ثباتها قبل ظهوري ، انا حفيده ، ومعتقداته في ذلك شديدة الشبه بمعتقدات العالم الفرنسي لامارك ، وقد ترك عددا من الكتب القيمة .

صوت : متى ابصرت النور ، يا سيد داروين ؟

داروين : ولدت في ١٢ شباط ١٨٠٩ ، وقد عشت ثلاثا وسبعين سنة . وعاش والدي اثنتين وثمانين سنة ، وعاش جدي احدى وسبعين ، وكما ترى كانت اسرتنا تتميز بطول العمر .

صوت   الا ان ذلك لا يدل البتة على قوة البنية ومتانة التركيب . فالمعروف عنك انك ظللت عليلا طوال اربعين سنة متوالية .

داروين :   سوى ان ذلك لم يحل بيني وبين كشف عدد من اسرار الطبيعة الحية . وقد كنت ذا ميل شديد الى العلوم الطبيعية .

صوت :   لقد اراد لك والدك ان تدخل سلك اللاهوت ، وخشي فترة من الزمن ان تكون فاشلا في حياتك لانك لم تظهر ما كان يتوقع منك ومن مخايل النجابة في المدارس التي الحقت بها .

داروين :   الحقيقة انني لم اكن خاملا بل كنت مولعا بالصيد والعزف على القيثارة ودراسة الكيمياء وعلم طبقات الارض . ولكني مع ذلك اكملت دروسي في جامعة كيمبريدج سنة ١٨٣١ . ولما فاتحت والدي برغبتي في الالتحاق ببعثة الكابتن فتزروي العلمية حول العالم ، رفض الموافقة في بادىء الامر متهكما . والححت عليه كثيرا . وتوسطت لديه عمي ، فرضي على مضض .

صوت :   حتى ان رئيس البعثة نفسه الذي كان قد اعلن عن وجود مكان في السفينة لشاب متطوع رفض اول الامر الموافقة على انضمامك الى بعثته لان شكل انفك كان يدل على البلادة ، ولا يمكن ان يكون صاحب مثل هذا الانف مؤهبا لبلوغ اي مرتبة في العلوم او الفنون .

داروين :   كان رئيس البعثة من اصحاب الامزجة العصبية ومن

المؤمنين بعلم الفراسة . وقد كان على خطأ في ما ذهب اليه كما ترى .

صوت : هل لك ان تحدثنا قليلا عن هذه الرحلة حول العالم ؟

داروين : ابادر فأضيف الى انها كانت رحلة علمية حول العالم لا رحلة للسياحة والمتعة . بدأت في ٢٧ كانون الاول من سنة ١٨٣١ وانتهت في الثاني من تشرين الاول سنة ١٨٣٦ . فنكون قد قضينا في هذه الدورة خمسة اعوام الا ثلاثة اشهر تقريبا .

صوت : ونذكر ههنا انك لدى عودتك الى انكلترا بقيت فيها ولم تغادرها بعد ذلك مطلقا . والآن ما هي الاماكن التي زرتها في رحلتك العلمية البحرية ؟

داروين . زرنا اماكن متفرقة عديدة من الكرة الارضية منها جزر الغارو ، والعديد من جزر المحيط الاطلسي . ونزلنا في كل الجزر التي صادفناها في طريقنا ومنها جزر الغالاباغوس ، وتاهيتي ، وزيلندا الجديدة ، واستراليا ، وطسمانيا ، وكلنغ ، والمالاديف ، وجزيرة القديسة هيلانة . ومما لا شك فيه ان هذه الرحلة التي قضيت فيها زهرة عمري اكسبتني قوة التمييز وحسن الاختيار اللذين ساعداني في اخراج كتبي التي وضعتها في كثير من العلوم الطبيعية ، ذلك بأنني استطعت ان ادرس الصلات التي تربط الاحياء في كثير من بقاع الارض بعضها ببعض وخلال هذه الرحلة البحرية زرعت في ذهني فكرة التطور .

صوت : ودرست ، فضلا عن ذلك ، الصلات التي كانت تربط الاحياء الموجودة آنذاك بمن انقرض منها في العصور الخالية ، مما اتاح لك ان تتابع البحث في تغاير الانواع وعدم بقائها على حال واحدة .

داروين : وبكلمة اخرى قل انني جمعت خلال رحلتي كل ما اعانني على وضع القوانين التي بنيت عليها مذهبي حول اصل الانواع .

صوت : الواقع ان كتابك « اصل الانواع » الذي صدر سنة ١٨٥٩ قلب رأسا على عقب طريقة العمل واهداف التاريخ الطبيعي .

داروين : اسمح لي ، في هذا المجال ، ان اذكر انه في يوم واحد بيعت الطبعة الاولى منه بكاملها ، وكانت تتألف من ١٢٥٠ نسخة .

صوت : واصدرت بعده كتابا يعتبر من حيث الاهمية في المقام الثاني بين مؤلفاتك وهو « اختلاف الحيوانات والنبات بالادجان » ، وقد نشرته سنة ١٨٦٨ .

داروين : وتوسعت في نظريتي العامة بحيث شملت الانسان ، سنة ١٨٧١ عندما نشرت كتابي « اصل الانسان والاختيار بالنسبة الى الجنس » .

صوت : ان هذه الكتب اثارت عواصف الجدل الشديدة في الاوساط الدينية والتربوية ، وعرضتك لمشاكل وانتقادات كثيرة ، فكان من ابرز المدافعين عنك العالم البيولوجي توماس هكسلي .

داروين : غاب عني ان اذكر لك انني عملت من سنة ١٨٣٨ الى سنة ١٨٤١ سكرتيرا للجمعية البيولوجية . وكنت على اتصال مستمر بالعالم الجيولوجي السر تشارلز لايل ، الذي كان لكتابه « مبادىء الجيولوجيا » اكبر الاثر في تمهيد سبيل العمل امامي .

صوت : في هذه الاثناء ـ وبالضبط سنة ١٨٣٩ ـ تزوجت وانتقلت من لندن للاقامة في داون بعد سنوات ثلاث وبقيت فيها الى يوم وفاتك . وقد وقفت سني حياتك الاخيرة على اقامة الادلة والبراهين دفاعا عن نظرياتك العلمية . وكنت ترد بنفسك على كل المراسلات التي كانت تصلك .

داروين : من طريف ما يذكر في هذا المجال انني تلقيت ذات يوم رسالة من طالب يحضر محاضرة علمية مدرسية يقول فيها ان الوقت لم يسمح له بمطالعة كتبي ، ولذلك فهو يطلب مني ايجاز نظرياتي ومبادئي العلمية ليتسنى له القاء المحاضرة . وقد اجبته الى طلبه .

صوت : وسنة ١٨٧١ نلت وسام الاستحقاق البروسي ، واصبحت عضوا في الاكاديمية الفرنسية سنة ١٨٧٨ . وكانت وفاتك في التاسع عشر من نيسان ١٨٨٢ .

داروين : عندما طلعت بنظرية النشوء والتطور تصدى لتسفيهها نفر من العلماء ورجال الكنيسة ، وايدها علماء كبار امثال هيغل الالماني وهكسلي الانكليزي ، وبنوا عليها الزعم القائل ان الانسان تحدر من القرد .

صوت : من البديهي ان يحارب رجال الكنيسة هذه النظرية ، فقد

ذكرت التوراة ان الله خلق الانسان على صورته ومثاله ونفخ فيه من روحه . فهو اذن مخلوق مميز ، ولا يعقل ان يكون متحدرا من حيوان غير ناطق وغير عاقل .

داروين : ما لنا ولهذا الموضوع الشائك الآن . واحسب انه آن ان تضع حدا لهذه المقابلة .

صوت : كما تشاء ، يا سيد داروين،ولكن دعني اردد ما كان يقوله عنك خادمك : « ان سيدي لا يفتقر الى شيء افتقاره الى عمل مجد يلهو به ! »

باستور : مكتشف الميكروبات
(١٨٢٢ - ١٨٩٥)

صوت : مقابلة اليوم ستجري مع رجل خالد حقا ، لا يستطيع احد ان ينساه . فعندما تشرب كوب الحليب المعقم - او المبستر - وعندما تدخل بلا ادنى خوف المستشفى ، وعندما تتأكد من ان ابنك لن يذهب ضحية عضة كلب مصاب بداء السعار او الكلب ، ولن يقضي متسمما من داء الخانوق (او الدفتيريا) ، وعندما تشعر انك محصن ضد اعداء حطموا اجدادك ، فانك ستذكر لويس باستور ، وعمله ، وحياته البشرية الغريبة المليئة بالتناقض ، والمبادىء الممتازة التي وفرت الصحة والسلامة ، وكانت نتاج عبقريته .

سيدي باستور ، انت ابصرت النور سنة ١٨٢٢ في بلدة آربوى الفرنسية من أب كان يعمل في الدباغة ليحصل معيشة اسرته الصغيرة . ولم يكن يبدو عليك في طفولتك اي من دلائل النبوغ .

باستور : كنت في طفولتي كسائر الاطفال الهو على ضفاف نهر كويزانس ، فاحفر الحفر ، وابني البيوت بالطين ، واتشبع برائحة الجلود الجافة التي كانت تدخل معمل الدباغة . وكنت اتردد الى المدرسة ، وانا اصغر الاولاد فيها .

صوت : ولم يكن والدك جان ـ جوزف باستور رجلا متعلما اللهم الا في شؤون الجندية . فقد حارب من اجل نابوليون في اسبانيا وفي حقول فرنسا .

باستور : كان حقا جنديا مكافحا ، ورجلا محبا للعمل . وكانت تدور في رأسه فكرة او فكرتين . واحدة منهما كانت ان ابنا لويس ـ أي انا ـ ليستحق ان يتلقى التعليم ، لانه يستحق شيئا افضل من الحياة مع الجلود وجرار الاصباغ .

صوت : اما والدتك جان ـ اتيين روكي فلم تكن افضل من والدك من ناحية التعليم ، ولكنها كانت حيوية ، نشيطة ، سريعة الخاطر ، ضاحكة ، وذات مخيلة خصبة . فلقد كانت في روحها شرارة من شيء مقدس ، اورثتك اياه ، فاذا بك ، وانت ابن اسرة تعمل في الدباغة ، تصبح فنانا ، وعالما ، وخالقا .

باستور : وكان رومانيه العجوز ، مدير مدرسة آربوى من وضع في رأسي وفي رأس والدي فكرة الالتحاق بدار المعلمين في باريس . وكان والدي يرجو ان يجعل مني معلما ، وتلك في نظره خطوة كبرى الى الامام .

صوت : وهكذا ارتحلت الى باريس ، وكنت بعد في السادسة عشرة من عمرك . ولكنك كنت فتى خجولا ، فأصابتك باريس بما يشبه الدوار ، ولم تستطع القاء المرساة فيها . حتى انك كنت تعود بالذاكرة الى المدبغة فتردد بينك وبين نفسك شوقا اليها وحنينا : « حبذا لو استطيع تنشق رائحتها من جديد ، فانني اشعر بانني سأشفى مما بي ! »

باستور : الحقيقة ان الدراسة والعمل في دار المعلمين كانا مشوقين ، وقد شغفت بهما كثيرا ، الا انني لم استطع ان انسى جو الريف الطليق الجميل في آربوى .

صوت : كنت تذوب حنينا الى مسقط رأسك ، وتلتهب حقدا على باريس . وقد بدا الشهر الذي قضيته فيها كأنه سنين . وقد تفهم والدك المسكين وضعك ، وهو الذي اغترب طويلا في حقول اسبانيا الموحلة ، فهبط باريس ، وعدتما معا الى آربوى .

باستور : عدنا الى آربوى حيث الجسر ، وحيث المدبغة ، وحيث المنزل الصغير الذي نشأت فيه . وقد كان الشفاء سريعا وتاما . وعدت كذلك من فوري الى مدرسة آربوى .

صوت : وعندما انهيت الصفوف فيها لم تذكر باريس ، ولا دار المعلمين فيها ، بل فكرت في مدرسة بيزانسون الباعدة ثلاثين ميلا عن آربوى .

باستور : كان بوسعي الدراسة هناك ، ورؤ ية والدي غير مرة في السنة الواحدة .

صوت : ولكنك ، بعد بيزانسون ، عدت مجددا الى باريس ودار المعلمين ، وكان ذلك سنة ١٨٤٣ . وكنت مجتهدا ، فلم تضع وقتك سدى ، ولا مالك الذي لم يكن كثيرا . فكان نهارك العملي يبدأ في السادسة صباحا وينتهي في ساعة متأخرة من الليل . وقد استمعت الى محاضرات السوربون حيث تلقيت اول دافع جدي لدراسة الكيمياء . . .

باستور : بهذه الروح العالية ، والهمة القعساء انهيت الدراسة في دار

المعلمين ، وقمت باختبارات فيزيائية ، وكسبت صداقة العالم الطبيعي الشهير جان باتيست بيو عضو الاكاديمية ، والكاتب الغزير الانتاج . ولما بلغت السادسة والعشرين كنت على أتم استعداد لتسلم عملي كمعلم . فعينت معلما للفيزياء في مدينة ديجون .

صوت : وقد اجريت اول بحث كيماوي واختبار على حامض راسميك في خريف سنة ١٨٤٨ بينما كنت في ديجون تدرس الفيزياء . وفي مطلع السنة التالية نقلت الى استراسبورغ استاذا للكيمياء . وكان لعميد الكلية في هذه المدينة ثلاث بنات : واحدة متزوجة ، وواحدة اصغر من ان تكون صالحة للزواج ، وواحدة في السن المناسبة للزواج . فاخترت هذه الفتاة لتشاركك حياتك .

باستور : كنت صنعت لنفسي اسما مرموقا في ميدان العلوم الطبيعية ، فلم اجد صعوبة في الحصول على موافقة العميد ، والد العروس ، وقد تزوجنا اسرع زواج ممكن وعشنا حياة زوجية الى نهاية ايامنا .

صوت : مما يروى ، يا سيد باستور ، انه في يوم زفافك ، اجتمع المدعوون ، والعروس وذووها والكاهن ، ولكنك لم تحضر في الموعد المحدد . فهرع اليك احد اصدقائك يبحث عنك في المختبر ، فألفاك منكبا على انابيب الاختبار ، مستغرقا في ما تدونه من ملاحظات على ما يجري حولك . اتذكر ذلك ؟

باستور : اذكر ذلك جيدا . فقد بادرني هذا الصديق بالسؤال : « انسيت موعد زفافك ؟ » فكان جوابي : « كلا ، ولكنني

اتمم عملي . وهل تتوقع مني ان ادع الاختبار قبل نهايته ؟! »

صوت : وكانت زوجتك واسعة الصدر ، فلم تفسح المجال للغيرة من عملك ، لقد عرفت مقامها ، ورضيت بأن تحتل المقام الثاني بعد المختبر .

باستور : الواقع ، يا سيدي ، انها كانت زوجتي ، ولكن العلم كان عشيقتي ، اذا صح هذا التعبير (يقهقهان) . وقد اعتادت ماري ـ وهذا اسمها ـ ان تنام وتستريح بينما اكون انا غارقا في ابحاثي ، متعبا ، انظر من خلال المجهر الى اشياء غريبة .

صوت : وفيما كنت استاذا وعميدا لكلية العلوم في مدينة « ليل » تحولت الى اكتشاف اسباب المرض في النبيذ والبيرة . فقلبت باختباراتك رأسا على عقب صناعة الخمور في فرنسا . وقد اعلنت نتائج هذه الاختبارات بعد تسلمك ادارة الدروس الطبيعية في دار المعلمين حيث واصلت عملك في حقل الاختبار .

باستور : وقد استطاع الجراح البريطاني الاشهر جوزف ليستر ان يحدث ثورة في عالم الجراحة بفضل اكتشافاتي ، وكنت قد اصبحت عالما بحق وحقيق ، يشار الي بالبنان في فرنسا والخارج .

صوت : وانقذت بأبحاثك حول امراض دود الحرير صناعة الحرير في فرنسا وسائر البلدان التي تربي دودة القز ، حتى انهم فكروا باقامة تمثال لك من الذهب تخليدا لذكراك .

باستور : صحيح انني انقذت صناعة الحرير ولكن على حساب صحتي فقد،كدت اشرف على الهلاك في تلك السن المبكرة ، بسبب انصرافي الى العمل المضني في ابحاثي حول امراض دودة القز . فلما توصلت الى ما كنت اسعى اليه اضبت بالشلل .

صوت : ان الآلة البشرية لا يمكنها الاستمرار في العمل مهما عظمت ارادة صاحبها . ولا ننسى انك اصبت في تلك الفترة بصدمتين عاطفيتين قاسيتين هما : وفاة والدك الذي كنت تحبه كثيرا ، وابنتك الثانية سيسيل . فلما اصابك الشلل في الناحية اليسرى من جسمك نتيجة ذلك النزف الدماغي العنيف قطع الاطباء الامل من حياتك .

باستور : الحقيقة ان من يصاب بمثل ما اصبت به لا نجاة له . اما انا فيبدو انه كتب لي الحياة لكي اتم العمل الذي بدأته .

صوت : وهكذا انهضتك عزيمتك الجبارة من الفراش وحملتك الى المختبر من جديد ، وحملتك كذلك الى اكتشافات اعظم واعظم ، فقد كنت حقا لغزا مطبقا ، وقد بدا انك تحديث القدر الذي شاء ان يقضي عليك قبل ان تكشف اسرار المرض . وكما انقذت مربي دودة القز في فرنسا فقد عملت شيئا من اجل نفسك اذ برهنت على ان مرضا واحدا على الاقل ، وهو مرض دودة القز ، تسببه جرثومة .

باستور : ودرست كذلك عددا من الامراض ، منها الدمل الغربالي ، وكوليرا الدجاج اللذان وجدت لهما الدواء الشافي وحددت من فتكهما الذريع .

صوت : لقد قدرت قيمة اكتشافاتك الصناعية ، يا سيد باستور ، بمبالغ طائلة تكفي لتغطية تكاليف تعويضات الحرب التي دفعتها فرنسا الى المانيا سنة ١٨٧٠ .

باستور : وكنت دائم التفكير بالعمل من اجل البشر رجالا ونساء الا ان المزارعين والفلاحين في فرنسا لم يدعوني وشأني . فقد كانت ماشيتهم تموت بكميات كبيرة تكلف فرنسا كل سنة زهاء عشرين مليون فرنك .

صوت : واستجبت لندائهم وانقذت ماشيتهم باللقاح الذي صنعته . وانتشرت قصة لقاحك في مختلف ارجاء العالم . واصبحت مذ ذاك قبلة الانظار لانك كالساحر الذي يحرك عصاه السحرية صببت الذهب على صانعي الخمور ، ومربي دودة القز ، والفلاحين .

باستور : لا عجب في ذلك ، فقد نلت شعبيتي ودخلت الى قلوب الفرنسيين من خلال محفظة نقودهم . (يقهقهان)

صوت : الا انك ، وقد اصبحت في الستين من عمرك ، وعلى الرغم من شللك وعرجك ، لم تكن قد انهيت رسالتك العلمية بعد . فبعد ان كنت مصدر وحي والهام في مجال التعقيم للجراح الانكليزي الشهير جوزف ليستر رحت تدرس داء الكلب او السعار . ولا يدري احد لماذا اخترت العمل في ذلك الحقل مع ان نسبة الذين كانوا يصابون بهذا الداء من الناس في القرن الواحد لم تكن لتعتبر شيئا يذكر .

باستور : ولكن الذين كانوا يقضون نتيجة داء الكلب كانوا يموتون موتا فظيعا رهيبا .

صوت : وعلى ذلك ، قمت في السادس من تموز سنة ١٨٨٥ باختبارك الخطير اذ حقنت باللقاح الذي صنعته ولدا في التاسعة من عمره عضه كلب مسعور في اربعة عشر موضعا من جسمه . وكان ذلك الولد من مقاطعة الالزاس ويدعى جوزف مايستر . وقد ادى اكتشافك اللقاح ضد داء الكلب والمعالجة الناجحة به الى انشاء معهد باستور سنة ١٨٨٠ .

باستور : وقد ساهم في انشاء هذا المعهد قيصر روسيا نفسه الذي اوفد الغراندوق فلاديمير حاملا الي الصليب الماسي لوسام القديسة آنا تقديرا منه لشفائي عدد من الفلاحين الروس الذين كانوا مصابين بداء الكلب وهبطوا فرنسا لاستعمال لقاحي .

صوت : الواقع ، يا سيد باستور ، ان حياتك تنتهي بهزيمتك لداء الكلب ، ففي هذه المعركة الاخيرة وضعت كل قوتك حتى لم يبق لديك اي احتياطي تعتمد عليه . وحين بلغت السبعين من عمرك جعلت الحكومة الفرنسية عيد ميلادك عيدا رسميا تقديرا للخدمات الجليلة التي اديتها للانسانية . وفي الاحتفال الكبير الذي اقيم لتكريمك في ٢٧ كانون اول سنة ١٨٩٢ في القاعة الكبرى بالسوربون تدفق المحتفون بالخطب الطنانة الرنانة . ومجدت عظمتك بعشرات الاساليب وكلها تجمل بما يلي : « من يستطيع ان

يقدر ما تدين به الحياة البشرية لك ، وكم ستكون مدينة اكثر فاكثر في المستقبل » .

باستور : لقد غمرت بعاطفة من التقدير اعجزتني عن تلاوة كلمتي فتولى ابني عني قراءتها .

صوت : وفي صيف سنة ١٨٩٥ اقمت في فيلنوف ليتان حيث كان الاطباء يأملون ان تستعيد صحتك ، ولكن الشلل كان يزداد حدة حتى اصبحت تجد صعوبة في النطق يوما بعد يوم . وبدت ايامك معدودة . وفي ٢٧ ايلول ودعت العالم الاول . وكانت زوجتك الى جانبك تحتضن بيديها احدى يديك . وكانت تلك آخر صورة لك . . . الا ان العالم لن يستطيع ان ينساك . . .

روبرت كوخ : مطارد الجراثيم
(١٨٤٣ - ١٩١٠)

صوت : في المستشفى اليوناني في الاسكندرية حجرة مغلقة تكاد تكون فريدة من نوعها في مستشفيات العالم ، وقد يجهل الكثيرون خطرها من الوجهة التاريخية . في هذه الحجرة مكتب واجهزة كيماوية ، وميكروسكوب ، وأدوات اخرى خاصة بالابحاث الميكروبية . وقد علقت على احد جدرانها صورة العلامة الالماني روبرت كوخ المولود سنة ١٨٤٣ والمتوفي سنة ١٩١٠ . وسر هذه الحجرة ان كوخ اكتشف فيها ميكروب الكوليرا ، او الهواء الاصفر ، سنة ١٨٨٢ عندما كان يجري تجاربه العلمية في الاسكندرية .
اما خطرها من الوجهة التاريخية والعلمية معا فهو ان اكتشاف ميكروب الكوليرا قد جعل تشخيص الوباء ممكنا ، ومكافحته والوقاية منه مستطاعة ويسيرة . فلا جرم ان حافظوا عليها باعتبارها من الاثار العلمية . فمحتوياتها ، على ما يبدو ، لا تقدر بثمن ! . .

كوخ : على انه اذا كانت هذه الغرفة فذة بين مثيلاتها ، فان ميكروب الكوليرا هو الآخر فذ بين الميكروبات ، لا من حيث فتكه الذريع ، بل من حيث الخصومة التي استفحلت حول اكتشافه . . .

صوت : الخصومة ؟ ماذا تعني يا دكتور ؟

كوخ : هذا هو الواقع . . . فبعد ان اكتشفت ميكروب الكوليرا في الاسكندرية عدت فأكتشفته في مدينة هامبورغ في المانيا لما تفشى وباؤها هناك ، ولكني لم اذع اكتشافي بصفة رسمية الا في مؤتمر علمي عقد سنة ١٨٨٤ .

صوت : ولكنك لم تذكر شيئا عن الخصومة ، واني لأستغرب أن تستفحل الخصومة في الشؤون العلمية.

كوخ : هذا ما جرى فعلا ، وانه لأمر مؤسف غاية الاسف . فلما كدت اذيع اكتشافي جرثومة الكوليرا حتى تصدى لي العلامة الالماني العجوز بتنكوفر وتلميذه ، فزعما انني واهم ، وان الكوليرا تتسبب عن جرثومة اخرى غير التي اكتشفتها .

صوت : وماذا فعلت اذ ذاك ؟

كوخ : رددت عليهما مؤكدا انني على صواب وانني اجريت تجارب عدة تؤيد تأييدا ماثلا للعيان ان الكوليرا تتسبب عن الميكروب الذي اكتشفته ، وهو ميكروب بشكل حرف الواو او الفاصلة .

صوت : عجيب والله ان يصل التعنت والعناد الى هذه الدرجة بين علماء يعملون لخدمة البشرية وتخفيف آلامها !

كوخ : ماذا تريد ؟ انها الخصومة التقليدية بين العقليتين القديمة والحديثة . فلقد كان العلامة بيتنكوفر من علماء الرعيل الاول ومن اتباع العقلية القديمة المشككين ، لا يؤمن بوجود الجراثيم التي تسبّب الامراض مثلما كان يؤمن مطاردو هذه الجراثيم من اتباع العقلية الحديثة

صوت : حبذا لو رويت لنا القصة من بدايتها .

كوخ : اليوم الرابع والعشرون من آذار سنة ١٨٨١ ، يوم حاسم في تاريخ العلم الالماني ، بل في تاريخ الطب العالمي فقد اجتمع في قاعة الجمعية الفيزيولوجية في برلين رهط من العلماء لمناقشتي في الاكتشاف الذي اعلنته وهو اكتشاف جرثومة داء السل الوبيل،وكان ولا ريب حدثا علميا كبيرا . ويومها توجهت الى المجتمعين بقولي : « ايها الزملاء الاكارم ، لقد طالعتم ، ولا ريب ، التقرير الذي وضعته حول اكتشافي جرثومة السل ووزعته عليكم في الجلسة السابقة ليتسنى لكم مطالعته بامعان ومناقشتي اليوم على اضواء استناجاتكم ونظرياتكم العلمية . ولن اطيل عليكم الحديث فقد قضيت ، كما تعلمون ، السنين الطوال في البحث المتواصل عن هذا العدو الرهيب الذي فتك بشخص من كل سبعة اشخاص يموتون . ويقيني ان اطباء العالم بعد هذا الاكتشاف سيصبح بوسعهم مكافحة هذه الجرثومة الوبيلة ، الصغيرة في حجمها ، الكبيرة بأضرارها وفتكها . وفي التقرير الذي بين ايديكم اوضحت ما ينبغي ان تعرفوه عن جرثومة السل ، وطرق التغلب عليها وسحقها للمحافظة على الصحة العامة . وبودي الآن ان اعرف رأي البروفسور رودولف فيرتشوف ، معجزة العلم الالماني ، في تقريري ، فقوله هو الفصل في هذا الموضوع ! . . »

صوت : وماذا كان رأي فيروتشوف هذا ؟

كوخ : قال فيرتشوف : « ايها الزميل الكريم ، لا يسعني في هذا

المقام الا ان اهنئك على هذا الاكتشاف الخطير الذي فتحت به آفاقا جديدة في عالم الطب الحديث ، وانرت امامنا سبيلا لم نكن نحن علماء الرّعيل الاول ، نعترف بوجوده . فلطالما هززنا رؤوسنا استخفافا بعملك في مطاردة الجراثيم هنا في المانيا . وبعمل زميلك باستور في فرنسا . . . ذلك بأننا لم نكن نؤمن بوجود هذه الجراثيم . فالى الامام ، ووفقك الله الى اكتشاف ما امكن من هذه الاعداء غير المنظورة التي تفتك بالبشر فتكا ذريعا » .

صوت : انه يستحق الشكر على هذا الموقف التقديري الرائع .

كوخ : وشكرته قائلاً « ايها الاستاذ الكبير فيرتشوف ، انني اعتز كثيرا بتهنئتك هذه ولن اقف عند هذا الحد بأذن الله . فهناك وباء آخر وبيل طالما اهلك شعوبا بأسرها ، هو الوباء الاصفر ، او الكوليرا . . . سأظل اطارد جرثومته بمساعدة زملائي ومعاونيَّ حتى نكتشفها ونخفف من ويلاتها !

صوت : وماذا عن الكوليرا ، يا دكتور كوخ ؟

كوخ : في عام ١٨٨٣ عيّنت رئيسا للجنة علمية اوفدتها الحكومة الالمانية الى مصر للقيام بأبحاث تتعلق بوباء الكوليرا الذي قرع باب اوروبا بعد ان تسرَّب خلسة من الهند الى صحراء مصر ، وخشي ان يعبر حوض البحر الابيض المتوسط . ونجحت بعد عام واحد في اكتشاف جرثومة هذا الوباء الفتاك . وكان ذلك في الاسكندرية مع معاوني ومساعدي العالم غافكي .

صوت : وماذا عن بيتنكوفر ؟

كوخ : لقد عقد في برلين بعد عودتنا مؤتمر علمي حاسم لتقرير مصير جرثومة الكوليرا . فإما ننتصر على المشككين ، وعلى رأسهم بيتنكوفر ، واما ينتصرون علينا .

صوت : مما يذكر ان بتنكوفر كان قد عرض في رسالة اليك ان يبتلع جراثيم الكوليرا بعد عودتك من الاسكندرية ليقينه انها جراثيم لا تمت الى الكوليرا بأي صلة .

كوخ : كان متأكدا من ان الجرثومة التي اكتشفناها لا تسبب الكوليرا ، ولم يتراجع عن عرضه . فعندما دقت الساعة الخامسة مساء صاح : « دكتور كوخ ، لقد عقدنا هذه الجلسة للفصل في قضية الجرثومة التي اكتشفتها ، وتدعي انها تسبب الكوليرا . . . انا استبعد ذلك . ولعلك اخطأت في تجاربك . فينبغي ان تقوم بها امام زملائك الحاضرين هنا . »

صوت : انه تحد صريح . فماذا كان موقفك ؟

كوخ : قلت ليسمح لي العلامة بتنكوفر ان اقول انني لا ادّعي شيئا مما يقول . فانا على اكثر من اليقين ان الجرثومة التي اكتشفتها هي جرثومة الكوليرا . ولست في حاجة الى اجراء التجارب ثانية امامك .

صوت : وسارع بتنكوفر الى اتهامك بالتهرّب . . .

كوخ : كان معي كمية من هذه الجراثيم ، فقلت له اذا كنت تنكر انها تسبب الكوليرا **فها هي** امامك ، فاشربها كما عرضت

علي ان تفعل في رسالتك الي غداة عودتي الى برلين ، ولكنك المسؤول الوحيد عن النتيجة .

صوت : وهل فعل ؟

كوخ : اجل ، وقال : « هات ما عندك من الميكروبات المزعومة فسأشربها وانا واثق انها لن تصيبني بمكروه . » ولما اعطيته الكوب قال لي : « شكرا .. سأشرب نصفه واعطي الباقي لتلميذي ليشربه ... وسنرى ما تكون النتيجة » . وعندها اقترحت ان ترفع الجلسة على ان نجتمع بعد سبعة ايام في المكان نفسه ...

صوت : انها لقصة طريفة ... بربك قُل لي ماذا حدث بعد ذلك .

كوخ : خرج بتنكوفر وتلميذه من تلك الجلسة وهما واثقان من النجاة . وما هي الا ثلاثة ايام حتى اصيبا باسهال شديد يشبه اسهال الكوليرا تماما ، وارتفعت حرارتهما ، وبدت عليهما اعراض الكوليرا كلها . فاسعفوهما بالعلاج اللازم ، فنجا بتنكوفر ومات تلميذه . وقد قرر اعضاء المؤتمر في الجلسة التي عقدت بعد اسبوع ان الكوليرا تتسبب عن الميكروب الذي اكتشفته ، وكانت الموافقة بالاجماع . اما بتنكوفر فانه اصر على ان ميكروب الكوليرا لم يكتشف بعد ...

صوت : ومات بتنكوفر وهو يكذّبك مع ان العالم كله آمن باكتشافك ميكروب الكوليرا . انها حقا لرائعة قصتك ، يا سيد كوخ ، يا مطارد الجراثيم !..

كوخ : دعني اكمل لك القصة . في عام ١٩٠٤ اوفدتني الحكومة الالمانية الى غربي افريقيا لدراسة مرض النوم ، فلم احجم عن اجراء التجارب الطبية على نفسي ، الامر الذي أثر في صحتي ، فعانيت مشقة كبيرة في السفر الى استوكهولم في عام ١٩٠٥ لأتسلم جائزة نوبل في الطب .

صوت : وفي خلال السنوات الخمس التالية ساءت صحتك من جراء مرض في القلب ، ووافاك الاجل المحتوم في مدينة بادن بادن سنة ١٩١٠ بعد ان هزمت الجراثيم !

كوخ : ماذا تريد ؟ . . تعددت الاسباب والموت واحد . هزمت الجراثيم ولكن القلب هزمني !

فابر : هوميروس الحشرات
(١٨٢٣ - ١٩١٥)

صوت : « باسم القانون القي عليك القبض » ! سمع الرجل الكهل المستلقي بوجهه فوق الرمل كما لو كان شحاذا نائماً ، هذه العبارة ، فالتفت الى شرطي القرية وسأله بكل هدوء عن السبب. فقال له الشرطي : « لقد كنت أراقبك . أنت شخص مشبوه . لم أرَ أحَداً مثلك من قبل . امرك بمرافقتي » . وقفز الكهل كالجندب وراح يوضح للشرطي انه انما يدرس الحشرات . وبسخرية اجابه هذا : « الذباب ! أتتوقع مني أن اصدق انك تستلقي ههنا تحت أشعة الشمس المحرقة لمراقبة الذباب » ؟! وهزَّ رأسه ، الا انه ما لبث ان دهش إذ لمح في عروة ذلك الكهل ذي العينين السوداوين البراقتين والقبعة السوداء العريضة وشريطة وسام جوقة الشرف ، فتركه وشأنه . وعاد الكهل يبحث في التربة امامه . وكان قد جاء الى ذلك المكان منذ الفجر مع خروج الفلاحات الى الحقول ، وبقي حتى الغروب . فلما لمحته احداهن وهي عائدة الى البيت قالت لرفيقاتها : « مسكين هذا الرجل ، انه لا ريب مصاب بمس ! » والواقع ان جان هنري كازيمير فابر قد اعتاد مثل هذه العبارات التحقيرية . فمنذ طفولته وهو موضوع سوء

تفاهم في كل امر . ولد في قرية من جنوب فرنسا الوسطى سنة ١٨٢٣ من ام لا تعرف القراءة ولا الكتابة . . .

فابر : وفضلا عن ذلك كانت امي تعتبر ان حبي للحقول لهو مضر ، وجمعي للمعـادن ولاعشاش العصافير والحشرات من عوارض الجنون . وكان والدي فلاحا فاشلا ، ساخطا ، قلق البال .وبعبارة اخرى كانت حياتنا ، حياة اسرة فابر ، حياة بائسة انقضت في احياء الريف الفقيـرة ، تميزهـا الـديـون ، وعـدم الاستقـرار العاطفي . . .

صوت : ولكي تنقص الاسرة فما يلتهم طعاما ، ارسلت وانت في الرابعة من عمرك الى جديك البسيطين الساذجين في الريف ، فتركاك تنمو وتكبر على هواك . وهكذا التقطت اذناك اصوات مختلف الحشرات التي رأتها عيناك وعمدت يداك الى التقاطها في تلك المنطقة الريفية . وكانت السنوات الست التي قضيتها هناك اساس مهنة فريدة في نوعها استمرت ثمانية عقود توجت بما يمكن ان يسبغه عليها العلم والادب والملوك والحكومات من آيات التكريم والتقدير .

فابر : وفي العاشرة من عمري دخلت احدى المدارس حيث كان اولاد صفي من البلادة بحيث قضوا خمس سنوات ليتعلموا القراءة ، في حين انهم اكتشفوا في خمس دقائق انني كنت اختلف كثيرا عنهم ، فجعلوني ادفع الثمن بتهجماتهم علي واهانتي وضربي .

صوت : ولما فشل والدك في اعمال الحراثة راح يتنقل بين الاحياء الفقيرة في مدينة بعد اخرى مديرا المقاهي الحقيرة . فتحولت حياتك الى جحيم من المشاحنات والقذارة . فلما حُرمت التعليم وأنت في السابعة عشرة همت على وجهك في طرقات جنوب فرنسا البيضاء ، سعيدا مع انك كنت خالي الوفاض .

فابر : كنت هكذا حرا فلم آبه لخلو جيبي من المال ، ولبقائي احيانا بلا طعام . وقد عملت احيانا في الزراعة والحراثة ، واحيانا في السكة الحديدية . واتفق مرة ان اشتريت ديوان شعر باللغة العامية فلم يبق معي ما آكل به . فجرجرت جوعي ورحت انشد الابيات الشعرية لقاء تصدّق الناس عليّ بما اسدُّ به رمقي!

صوت : وفي مدينة آفينيون تقدمت الى مباراة للحصول على منحة تتيح لك الالتحاق بدار المعلمين . فنجحت واحرزت الدرجة الاولى . ولكن الاساتذة اعتقدوا انك كسول ولم يدروا انك كنت تحت ستار الاستظهار بلا فهم تدرس اللاتينية وحاليا كنت تدرس اليونانية من كتاب ليس له سوى ترجمة لاتينية . وتخرجت في سن التاسعة عشرة ، وعملت في التدريس في كلية كاربنترا ، وكان تلاميذك من كل الاعمار . منهم الذكي اللامع ، ومنهم المتأخر عقليا ، وجميعا قذرون وغير مؤدبين ، ويكرهون الدروس والاساتذة على السواء .

فابر : ولم يكن لي من وسائل الدفاع ضدهم سوى اللوح الاسود ، والطبشورة ، ولساني . بهذه الاشياء الثلاثة

سيطرت عليهم وسحرتهم . وادخلت في منهاج التعليم الممل مبادىء الكيمياء والفيزياء التي لم ادرسها قط شخصيا . ولكنني باستعارة الكتب ، وبالادوات البسيطة كنت اسبق تلاميذي بدرس الموضوع ، فاذا دخلت الصف نقلت اليهم ما وعيته من حقائق مقرونة بالحماسة . وقد كلفني كتاب عن الحشرات مرتبي الشهري مما اضطرني الى قبول اعطاء تلميذ دروسا خاصة في مادة الجبر مع انني لم اكن اعرف شيئا من ذلك . الا انني عكفت على دراسة الجبر ، وكذلك الهندسة ، فوجدت متعة في ذلك لا تضاهى .

صوت : لا عجب في ذلك ، فأنت القائل في وصف الاعداد : « انها حجر الزاوية الجبار في قبة هذا الكون ، وسيدة الزمان والمكان ! » ولكن الواجب سرعان ما شدَّك ، يا ايها المعلم في الاقاليم ، اذ انك تزوجت في الحادية والعشرين وتجرأت ان ترزق طفلا وانت ذو دخل بسيط .

فابر : صحيح ، ولكن الطفل لم يعش طويلا ، وبقي المرتب ضئيلا لا يفي بحاجتنا ، ولكي أُحَسّن وضعي تعمقت في دراسة الكيمياء والفيزياء وحزت على شهادات عليا من جامعة مونبلييه . الا انني لم اوفق الى منصب تعليمي حسن فعدت الى كلية كاربنترا ، والى التنقل في الحقول في ساعات الفراغ لمراقبة الحشرات ودراستها . وكان زملائي شديدي الغيرة من شعبيتي بين طلابي فاطلقوا علي لقب الذبابة .

صوت : ولكن تلاميذك الذين كانوا يفكرون بالقاب اكثر لذعا لاساتذتهم الآخرين كانوا يعبدونك حقا . واخيرا حدثت لك مغامرة بسيطة . لعلها المغامرة الوحيدة في حياتك الطويلة التي دامت اثنتين وثمانين سنة . فقد تسلمت كرسي الفيزياء في احدى كليات جزيرة كورسيكا بمرتب سنوي يعادل ٣٦٠ دولارا . فسافرت الى الجزيرة الشهيرة بازهارها وقممها المكللة بالثلج وشواطئها واصدافها .

فابر : الواقع ان جزيرة كورسيكا بدت لي كالفردوس ، وفيها تعرفت الى عالم نباتي شهير علمني كيف اميز بين مختلف الازهار التي تحيط بي ، كما تعرفت الى عالم حيواني معروف علمني كيف أشرّح البزاقة . وقد كان ذلك دافعا لي لكي انطلق في دراسة علمين جديدين ، فلما غادرت كورسيكا بسبب داء الملاريا ، تقدمت لنيل شهادة البيولوجيا من جامعة طولوز .

صوت : وادهشت الاساتذة بمعرفتك ونفاذ بصيرتك . ولكن افضل منصب قدم اليك كان في احدى ثانويات افينيون بمرتب سنوي يعادل ٣٢٠ دولارا . والغريب في الامر انك عندما فقدت هذا المنصب التعليمي بعد عشرين سنة كاملة كان مرتبك هو اياه .

فابر : في هذه الاثناء وقع بين يدي الكتاب الذي بدل حياتي بحق وحقيق . كان مجلدا في علم الحشرات وضعه عالم كان يعتبر ثقة في زمنه . الا ان ما يجعل لصفحاته اهمية كبرى ليس ما كانت تحتويه تلك الصفحات بل عبارة

مغلوطة قادتني الى اكتشاف الحقيقة الصحيحة . ومع ان اكتشافي ذاك كان بسيطا في حد ذاته الا ان قيمته تكمن في إنه اظهر لي ان كل شيء في العلم يمكن ان يكون موضوع تساؤل .

صوت : وانقضت اربعون سنة قبل ان تعتبر دراساتك كاملة تامة بحيث تعمد الى نشر النتائج التي توصلت اليها . فلما ظهرت ابحاثك راح علماء الحشرات في باريس وسواها من العواصم يفركون عيونهم . فقد كان علمهم حتى ذلك الحين في معظمه اندفاعا نحو اكتشاف انواع جديدة . وغالبا ما كان مطلقو الاسماء يعتبرون الحشرة معروفة عندما يمكن اطلاق اسم عليها . وكنت انت من اكتشف حيوات هذه الحشرات ، فبدلا من جمع الحشرات الميتة وتثبيتها على الدبابيس ، كنت تحتفظ بالحشرات الحية في اقفاص لدراستها ، كما كنت تعيش معها في الحقول .

فابر : وفي انكلترا قرأ تشارلز داروين ابحاثي بشغف ودهشة ، وكتب اليّ من فوره طالبا معاونته في اجراء اختبارات غريزة عودة النحل الى القفير ، وما لبث فيما بعد ان دعاني « المراقب الذي لا مثيل له » .

صوت : وذات يوم زارك وزير التربية فكتور دوروي الذي كان يقلب نظام المدارس الرسمية في فرنسا ، فوجدك استاذا ممتازا وعلى هواه . وما هي الا فترة قصيرة حتى استدعاك الى باريس ومنحك وسام جوقة الشرف . وقدّمك الى الامبراطور نابوليون الثالث . ولكن ذلك لم يؤثر فيك

فهربت من الناس ومن ضجيج العاصمة رافضا حتى مشاهدة المتاحف الطبيعية ، مفضلا على كل ذلك اصوات الحشرات التي كنت تعيش وإياها.

فابر : ولكن ايام نابوليون ووزير تربيته كانت معدودة ، اذ أجبر رجال الدين الوزير فكتور دوروي الذي قاوم نفوذهم في المدارس على الاستقالة . ووضع اسمي على اللائحة السوداء بصفتي كنت انعم برضاه . وفصلت من عملي في التدريس لانني سمحت للفتيات بحضور دروس البيولوجيا التي اعتبرها رجال الدين مفسدة لاخلاقهن .

صوت : وكنت قبل ذلك بشهور التقيت في اثناء نزهاتك انكليزيا وحيدا ، مكتئباً لوفاة زوجته هو الفيلسوف الشهير جون ستيوارت مل ، وكان يشاطرك حبك للنبات . فلجأت اليه ، وحصلت منه على قرض بمبلغ مئتي دولار . فماذا فعلت بهذا المال ؟

فابر : انتقلت واسرتي المؤلفة من زوجتي وخمسة اولاد وابي العجوز ، الى منزل صغير بالقرب من اورانج ورحت أواجه المستقبل الفارغ فراغ جدران الحجرة التي كنت اعمل فيها . وكنت اذ ذاك في السابعة والاربعين من عمري وقد قوطعت في مهنة التعليم ، ولم يكن لدي من حطام الدنيا سوى مجموعة غريبة من المعرفة في الحشرات . فرحت اروي ما اعرفه عن اسرار حياتها .

صوت : ولعل تلك الصفحات التي كشفت فيها الاسرار المركبة في حياة تلك الحشرات ليس لها مثيل في الكتابات العلمية .انها جواز مرورنا الى صميم اسرتك الصغيرة ،

مملكة الحيوان . الا ان الكتب المطبوعة على ورق حقير ، وبأحرف صغيرة ، ولا رسوم فيها تزينها ، ولا دعاية تواكبها ، تبيع ببطء ولا تروج كثيرا . ولذا لم تدر عليك كتبك الا اكثر قليلا مما كسبته من مهنة التعليم ، وذلك بصورة غير منتظمة . وتجاهلك النقّاد الادبيون ، وانكر العلماء عليها ذكاءها وسحرها .

فابر : لقد خشوا اذا ما قرئت صفحة دون تعب وجهد ان تكون المعلومات التي تتضمنها غير صحيحة .

صوت : وفي اواخر حياتك ابتعت قطعة ارض بالقرب من مدينة اورانج كانت فردوسا للحشرات التي كرست حياتك لدراستها ، فحملت اليك الشهرة ولو متأخرة ولقب « هوميروس الحشرات » الذي اطلقه عليك العالم الادبي . وراح العلماء كذلك يقرعون بابك بعد ان اعترفوا بقيمتك العلمية .

فابر : وفي عيد ميلادي السابع والثمانين ـ اي في سنة ١٩١٠ ـ كانت بلدة سيرينيان ملتقى النخبة من العلماء والكتّاب والمشاهير العالميين الذين احتفلوا بيوبيلي ، وفيه تدفقت علي الاوسمة والانعامات والالقاب والدرجات العلمية الفخرية .

صوت : الا ان كل ذلك لم يحرّكك البتة مع انه سرّك بالطبع ! وكان قد تبقى من حياتك خمس سنوات ، فلم تكتب الا القليل القليل ، ولم تعد تعمل بين اقفاصك الا لماما . واذكر ههنا ان احدهم شاء ان يمتحن ايمانك بالله فسألك : « اتؤمن بالله ؟ » فماذا كان جوابك ؟

فابر : اجبته يا سيدي بما يلي : « لا ، انا لا أؤمن بالله ـ أنا اراه في كل مكان ! »

مدام كوري : مكتشفة الراديوم
(١٨٦٧ - ١٩٣٤)

صوت : اصابت الشهرة ماري كوري منذ سنين عديدة عندما هزّ العالم اكتشافها مادة الراديوم . واليوم تصيبها شهرة جديدة . ذلك بأنها لولا عملها لبقي تحطيم الذرة حلما يراود مخيلة العلماء . . . سوى ان ماري كوري الحقيقية لم تكن المرأة التي مجدها العالم بالجوائز والشهادات والدرجات الفخرية . ماري كوري الحقيقية كانت الصبية البولونية الفقيرة الجميلة ، التي وجد فيها الشاب الفرنسي بيير كوري ، وكان قد اصبح عالما مرموقا ، خير من يتناقش واياه في شؤون العمل الخطير . كانت المرأة التي كان بوسعها ان تعمل طوال سنوات بلا جدوى في مختبر حقير بارد ، ومع ذلك يتملكها السرور العظيم اذ يعطي الراديوم ذلك الاشعاع الجميل . ولكن فضلا عن ذلك كله ، كانت ماري كوري الحقيقية المرأة التي كانت ابنتاها تدعوانها « امي العذبة » ، امرأة بسيطة ، شديدة التواضع ، حمل اليها العلم حياة غنية ، وزواجا سعيدا ، ونهاية مؤلمة . . . ولكن ما لي ولهذا التقديم استبق فيه الاحداث واختصرها ، فلنستعرض مع ماري كوري نفسها قصة حياتها الحافلة هذه من الألف الى الياء .

مدام كوري : اسمح لي ، يا سيدي ، في مستهل هذه المقابلة ان اشكرك على ما قدمتني به من عبارات انا لا استحقها حقا . فلنبدأ الآن استعراض مراحل حياتي اذا شئت فأنا مولودة في فرصوفيا في ٧ تشرين الثاني من العام ١٨٦٧ . وقد اضطررت لمغادرة العاصمة البولونية في خريف سنة ١٨٩١ لاشتراكي في منظمة ثورية للطلاب ، ورحلت الى باريس حيث سجلت اسمي في السوربون لدراسة العلوم الطبيعية .

صوت : وغالبا ما كان الطلاب يقابلونك في ممرات الجامعة ويتساءلون من تكون هذه الفتاة ذات الوجه الحيّي العنيد والشعر الاشقر الرمادي الجميل والملابس المتواضعة ، فيأتيهم الجواب الغامض : « انها غريبة ، واسمها صعب واشد غرابة ! »

مدام كوري : صحيح ، فانا اسمي الاصلي هو ماري سكلودوفسكا . والواقع انني بقيت فترة طويلة من الزمن اعرف من قبل زملائي الطلبة بذات الرأس السلافي الصغير ، والشعر الاشقر الرمادي .

صوت : ولكن الشبان لم يكونوا ليثيروا اهتمامك فقد كانت دروسك العلمية وحدها تستأثر بك وتجعلك تعملين بحرارة . وكنت تعتبرين ضائعة كل دقيقة لا تقضينها في الدرس . وقد بلغ بك الحياء والخجل من اقامة صداقة مع الفرنسيين انك سكنت مع مواطنيك من البولونيين الذين كانوا يؤلفون جالية صغيرة في الحي اللاتيني ، حيث كانت حياتك بسيطة جدا ، ومكرسة بكاملها

للدرس ، بعد ان طردت منها فكرة الحب والزواج !

مدام كوري : ولكن ذلك لم يمنعني من الزواج بفرنسي هو العالم بيير كوري الذي كرّس حياته للبحث العلمي ، فلم يتزوج على الرغم من بلوغه الخامسة والثلاثين . . . وكنت أنا في السادسة والعشرين ، عندما تم لقاؤنا الاول سنة ١٨٩٤ في المختبر ، وربطت بيننا صداقة حميمة وثيقة . ولقد طلب ان يزورني في حجرتي المتواضعة ، فاستقبلته .

صوت : وقد وجدك رائعة على الرغم من بساطة ثيابك ، وملامحك العنيدة المتحفظة . وكان اكثر ما اعجب بيير فيك اخلاصك لعملك ، وشجاعتك ونبلك . وبعد بضعة اشهر طلب منك ان تكوني زوجته .

مدام كوري : الا ان الزواج من شاب فرنسي ، وتركي اسرتي الى الابد ، وهجر وطني الحبيب بولونيا ، كل ذلك كان امرا غير وارد بالنسبة الي . ولذلك فقد مرت عشرة اشهر قبل ان اقرر نهائيا قبول فكرة الزواج .

صوت : وفي الايام الاولى من حياتكما المشتركة قمتما بنزهات في الريف المجاور على دراجتين دفعتما ثمنهما من مبلغ قدّم اليكما هدية يوم الزفاف . وكنتما تقيمان في فنادق بسيطة مجهولة ، وحيث كانت السعادة في عزلتكما هذه ترفرف اياما بطولها . واخيرا عدتما الى باريس لتقيما في مسكن صغير يحمل الرقم ٢٤ في شارع لاغلاسيير . فهل لك يا سيدتي ، ان تحدثينا قليلا عن هذا المسكن ؟

مدام كوري : كانت جدرانه تزينها الكتب والكتب وحسب ، ولم يكن فيه سوى كرسيين ومنضدة خشبية بيضاء ، فوقها ابحاث في الفيزياء ، ومصباح زيتي ، وبعض الازهار . ولكن رويدا رويدا رحت احسّن معرفتي بشؤون التدبير المنزلي . فابتكرت الوانا من الطعام لا تستدعي وقتا طويلا للتحضير ، او يمكن تركها على النار لتطهى بعد تعديل شعلة النار تحتها. كل ذلك لكي اوفر لنفسي متسعا من الوقت للعمل في المختبر مع زوجي بيير كوري .

صوت : وفي السنة الثانية لزواجكما وضعت طفلة جميلة اسميتماها ايرين التي نالت فيما بعد جائزة نوبل مثلك تماما . غير ان فكرة الاختيار بين الحياة الزوجية المنزلية والانصراف الى العلم واحترافه لم تخطر ببالك ابدا . كنت تعنين بشؤون المنزل ، وبطفلتك ، وبوضع الطناجر على النار ، الى جانب عملك في المختبر لاكتشاف اعظم اكتشاف في العالم الحديث حتى ذلك الحين . وفي نهاية ١٨٩٧ كنت قد حصلت شهادتين جامعيتين ، وكان هدفك التالي درجة الدكتوراه. وبينما كنت تبحثين عن موضوع تقومين بالابحاث حوله لفتت نظرك نشرة وضعها حول خصائص الاورانيوم العالم الفرنسي انطوان هنري بيكريل .

مدام كوري : الواقع ان اكتشاف بيكريل هذا قد ادهشنا وفتننا كثيرا ، بيير وانا ، فماذا كان مصدر الطاقة التي كانت مركّبات الاورانيوم ترسلها باستمرار كاشعاعات ؟ لقد كان ذلك موضوعا شيقا للبحث ، وقفزة الى عالم مجهول . وبفضل

مدير كلية الفيزياء حيث كان يعلم بيير سمح لي بأن اجري اختباراتي العلمية في غرفة صغيرة في الطبقة الاولى من المدرسة كانت تستخدم كمستودع الا ان مناخ تلك الغرفة كان مؤذيا للادوات الدقيقة الحساسة التي كنت استعملها ، كما كان مؤذيا جدا لصحتي .

صوت : وفي غمرة دراساتك لاشعاعات الاورانيوم اكتشفت ان مركّبات عنصر آخر هو الثوريوم يرسل كذلك ومن تلقاء نفسه اشعاعات شبيهة باشعاعات الاورانيوم . وقد تبيّن لك ان قوة المواد المشعة في كل حالة كانت اقوى مما يبدو معقولا بالنسبة الى كمية الاورانيوم او الثوريوم في المركّبات المدروسة . وتساءلت من اين يأتي هذا الاشعاع غير الطبيعي ؟ ولم يكن هناك سوى تفسير واحد ممكن ، وهو ان المعادن ينبغي ان تحتوي بكمية قليلة على مادة مشعة اقوى من الاورانيوم والثوريوم . ولكن ما هي هذه المادة ؟

مدام كوري : في اختباراتي وتجاربي كنت قد فحصت كل العناصر الكيماوية المعروفة . ولذلك كان ينبغي ان تحتوي المعادن على مادة مشعة ما زالت عنصرا كيماويا مجهولا حتى ذلك الحين. في ذلك الوقت ترك زوجي بيير الذي كان يتابع تقدمي السريع في التجارب العلمية باهتمام بالغ اختباراته الخاصة لكي يساعدني على اكتشاف ذلك العنصر المجهول . وقد عزلنا وقسنا اشعاعات عناصر معدن البتشبلند، فتبين لنا بعد فترة وجود عنصرين بدلا من عنصر واحد . وفي تموز من سنة ١٨٩٨ استطعنا ان

نعلن اكتشافنا لواحد من هذين العنصرين . وقد اطلقت عليه اسم بولونيوم تيمنا ببولونيا الحبيبة .

صوت : وفي كانون الاول من السنة نفسها اعلنتها عن وجود عنصر كيماوي ثان جديد في البتشبلند اطلقتها عليه الراديوم ـ وكان عنصرا قدّرتما ان طاقته الاشعاعية هائلة جدا . ولم يكن احد قد رأى الراديوم من قبل ولم يكن احد يعرف وزنه الذري . ولكي تبرهنا على وجود البولونيوم والراديوم عملتها طوال اربع سنوات متواصلة . وهكذا في سنة ١٩٠٢ ، اي بعد خمسة واربعين شهرا من اليوم الذي اعلنتها فيه امكانية وجود الراديوم ، حققت النصر الحاسم : فقد نجحت في عزل دسيغرام من الراديوم الخالص عن معدن البتشبلند ، وحددت وزنه الذري . وهكذا وجد الراديوم رسميا .

مدام كوري : ولكن مع الأسف كانت امامنا معارك اخرى . فمرتب بيير في كلية الفيزياء كان خمسمئة فرنك في الشهر . ولم يكن ذلك ليكفينا بعد مولد ابنتنا إيرين . ولذا اضطر الى القبول بمنصب تعليمي عادي في السوربون . والغريب في الامر انه لم يحصل على منصب الاستاذية الا سنة ١٩٠٤ بعد ان اعترف العالم بأسره بقيمته العلمية . اما انا فقد ساعدته بالتدريس في كلية للبنات بالقرب من فرساي . وفي غمرة انهماكنا بالتدريس واجراء الاختبارات المتواصلة كنا ننسى مواعيد الاكل والنوم . وفي مناسبات كثيرة كان بيير يضطر للذهاب الى فراشه بعد معاناة نوبات الم شديدة في ساقيه . واما انا فقد كنت على وشك ان اصاب بانهيار عصبي .

صوت : لقد كانت الطاقة الاشعاعية تنمو وتكبر على حساب حياتكما انتما العالمان اللذان منحتماها الحياة . وكان الراديوم مسحوقا ابيض شديد الشبه بملح الطعام ، الا ان خصائصه كانت مدهشة ، وقد تجاوزت اشعاعاته في قوتها كل التوقعات . فقد تبين انها اقوى من الاورانيوم بمليوني ضعف . ولعل اعظم ما كان ينتظر ان يقوم به الراديوم من معجزات هو استخدامه في حرب الانسان ضد السرطان . وفي سنة ١٩٠٣ دعا المعهد الملكي البريطاني بيير رسميا ليحاضر في لندن عن الراديوم . وعلى اثر ذلك انهالت عليكما الدعوات لحضور المآدب التكريمية لان لندن شاءت ان ترى والديّ الراديوم . وفي تشرين الثاني من تلك السنة انعمت عليكما الجمعية البريطانية الملكية بواحدة من ارفع جوائزها : وسام دايفي .

مدام كوري : ثم جاء الاعتراف التالي بأهمية اكتشاف الراديوم من السويد . ففي العاشر من كانون الاول من ١٩٠٣ اعلنت اكاديمية العلوم في استوكهولم ان جائـزة نوبل في الفيزياء لتلك السنة قد منحت مناصفة الى انطوان هنري بيكريل ، وبيير وماري كوري لاكتشافاتنا في الطاقة الاشعاعية . وكانت جائزة نوبل تعني مبلغا يناهز السبعين الف فرنك ذهبي . ولم يكن القبول بهذا المبلغ يناقض الروح العلمية . على العكس كانت تلك الفرصة الوحيدة لتخليص بيير من ساعات التدريس المضنية ولانقاذ صحتي المنهارة .

صوت : ولكـــن عندما صرفتما قيمة الشك وزعتما الهدايا والقروض المالية على شقيق بيير وشقيقاتك ، واشتركتما في بعض الجمعيات العلمية ، فضلا عن بعض الهدايا للطلاب البولونيين ، والى صديق لك من اصدقاء الطفولة ، وقد انشأت حماما عصريا في مسكنك واصلحت احدى الغرف الحقيرة . ولكن لم يخطر ببالك قط ان تحتفلي بتلك المناسبة العظيمة بشراء قبعة جديدة .

مدام كوري : وبقيت أعلّم، ولكنني الححت كثيرا على بيير لكي يترك التدريس في كلية الفيزياء ، ومع ابتسام الشهرة لنا راحت البرقيات تنهال علينا من كل حدب وصوب ، وكتبت عنا المقالات الصحافية بالآلاف، ووصلتنا مئات الطلبات ممن يريدون توقيعينا ورسمينا ، فضلاً عن الرسائل العديدة من مخترعين ، وقصائد الشعراء حول الراديوم . حتى ان احد الاميركيين كتب يسألني اذا كان بامكانه ان يسمي فرسه في السباق باسمي .

صوت : الا ان مهمتكما بالنسبة اليكما لم تكن قد انتهت. كل ما كان يهمكما العمل ، والعمل باستمرار . وفي السادس من كانون الاول ١٩٠٤ وضعت طفلة ثانية سوداء الشعر هي ايف التي كتبت فيها بعد سيرة حياتك . ولكن ما لبثت ان استأنفت حياتك العملية في المدرسة والمختبر .

وفي ٣٠ تموز ١٩٠٥ انتخب بيير عضوا في اكاديمية العلوم الفرنسية وكانت السوربون في هذه الاثناء قد انشأت كرسيا للفيزياء من اجله ، وهو المنصب الذي طالما رغب

ان يحتله . غير انه لم يكن قد انشىء بعد المختبر المناسب .

مدام كوري : ولكن القدر كان لبيير بالمرصاد . ففي سنة ١٩٠٦ وكان اليوم الخميس في ١٩ نيسان يوما ممطرا قُتل زوجي المسكين في احد شوارع باريس اثر صدمة عربة تجرها الخيل . فطلب الي ان احتل مكانه في السوربون ، وهي المرة الاولى التي يسمح فيها لامرأة ان تتولى منصبا تعليميا عاليا .

صوت : ومما يذكر في هذا الصدد ان البهو الذي القيت فيه محاضرتك الاولى مستأنفة الموضوع من حيث تركه بيير قبل وفاته قد زخر بالطلاب والمستمعين المشدوهين ، حتى ان الكثيرين احتشدوا في ممرات الجامعة وخارجها . وقد فزت مرة ثانية بجائزة نوبل سنة ١٩١١ ولكن في حقل الكيمياء هذه المرة . ولما زرت الولايات المتحدة للمرة الاولى قدم اليك الرئيس وورين هاردنغ باسم نساء البلاد غراما واحدا من الراديوم .

مدام كوري : وفي زيارتي الثانية الى العالم الجديد قدم الي مبلغ خمسين الف دولار لشراء الراديوم اللازم لمختبر فرصوفيا ، مسقط رأسي .

صوت : وفي سنة ١٩٢٠ هُددت بالعمى ، ولكن سلسلة من العمليات الجراحية انقذت بصرك الا انك لم تشعري بالراحة وعرفت انك ستضطرين الى هجر العمل .

مدام كوري : وانا القائلة في هذا الصدد : « لست ادري اذا كنت استطيع الحياة دون مختبر » .

صوت : وظهر يوم الجمعة في ٦ تموز ١٩٣٤ ، ودون خطب او مواكب ، ودون اي وجود سياسي او هدية رسمية ، احتللت مكانك المتواضع في مملكة الخالدين . فدفنت بجانب بيير في مقبرة صو ، بحضور انسبائك واصدقائك والذين عملوا معك واحبوك . . .

ماركوني : أبو اللاسلكي
(١٨٧٤ - ١٩٣٧)

صوت : بوناسيرا سنيور ماركوني ، انت ابصرت النور في الخامس والعشرين من نيسان سنة ١٨٧٤ ، في مدينة بولونيا الايطالية . . .

ماركوني : اجل في هذه البلدة التي قيل فيها منذ القدم انها ستقدم الى العالم هبتين عظيمتين : احداهما للحلق ، والاخرى للعقل ! . .

صوت : وما هما هاتان الهبتان ؟

ماركوني : المقانق المعروفة باسم بولونيا التي ابتكرها احد جزاري هذه المدينة ، واللاسلكي الذي اخترعه العالم ماركوني - اي انا . . .

صوت : يا للفارق الكبير بين الاختراعين ! هات حدثني قليلا عن نفسك .

ماركوني : اسمع : عندما فتحت وانا طفل عيني للنور نظر الي احد اقربائي ثم التفت الى امي وقال : « ما اكبر اذني هذا الطفل » . فقالت امي : « بهاتين الاذنين سيتمكن من التقاط اضعف الاصوات التي تحملها امواج الاثير » .

صوت : وقد صدقت نبوءة الام . . .

ماركوني : اجل ، فقد شببت شغوفا بالعمل ، منطويا على نفسي ، كثير الاحلام . . . عن امي الارلندية ورثت عقلي الخصب المولد ، وعن ابي الايطالي ورثت اليدين اللتين لا تعرفان الكلل . وبهاتين اليدين استطعت تحويل احلامي الكثيرة الكبيرة الى حقائق ووقائع . . .

صوت : واين درست ، يا سينيور ماركوني ؟

ماركوني : من عجب انني تعلمت على ايدي مدرسين خصوصيين لان والدي المزارع الثري لم يشأ ان يلحقني ، وانا الطري العود ، بأي مدرسة او معهد . فكنت وانا بعد صغير انزوي في مكتبة والدي والتهم مئات المجلدات في مختلف المواضيع وبخاصة تلك التي تتحدث عن المحركات البخارية ، والكهرباء ، والكيمياء ، وكنت احاول دائما ان اختبر بنفسي صحة كل ما اقرأ عنه . . . ولطالما رددت امام اخي الفونسو : هذا ما يقولونه في كتبهم . . . ولكن كيف السبيل الى تصديقهم قبل ان اجري الاختبار بنفسي ؟ الفونسو . . . قلي لي يا أخي العزيز ، ماذا يحدث للكلمات التي يتلفظ بها البشر ويطلقونها في الفضاء كما تلقى الحصى في البحيرة ؟ هل هذه الكلمات تفقد الى الابد ، ام انها تبقى سابحة فوق الارض بانتظار ان يلتقطها جهاز ما ؟

صوت : اني اميل الى الاعتقاد بأنها لا تفقد بل تبقى محفوظة بانتظار من يلتقطها .

ماركوني : حسنا ، هذا هو الصحيح ، ولذا بذلت جهدي ،

انطلاقا من هذا المبدأ ، لابتكر هذا الجهاز ، في المختبر البسيط الذي كنت اعمل فيه .

صوت : اذكر في هذا المجال الاختراع الذي قام به العالم الفيزيائي الالماني هاينريش هرتس . هل افادك في اختباراتك ؟

ماركوني : هرتس اخترع مولّد تموجات كهربائية يمكنه إرسال شرارة من طرف الحجرة إلى طرفها الآخر دون أي اتصال ظاهر.

صوت : وكيف تنتقل هذه الشرارة عبر الحجرة ؟

ماركوني : بواسطة موجة اثيرية طبعا ، تماما كالقطعة الخشبية التي تطفو على موجة مائية في البحيرة . وعندها قلت بيني وبين نفسي « اذا كان ذلك كذلك افلا يمكن توجيه الصوت من مكان الى اخر ؟ » .

صوت : واذا كان بالوسع توجيه الشرارة الكهربائية او الصوت عبر حجرة ما ، أفليس بالامكان توجيههما عبر حقل ، او مدينة ، او بلاد ، او قارة ، او حتى عبر المحيط ؟

ماركوني : كان هذا التفكير مخيفا لبساطته ، وهو بدائي ولكنه منطقي . وما كان يحيرني ان احدا من العلماء الكبار لم يحاول تطبيقه عمليا . . .

صوت : لعل بساطة هذا المبدأ العلمي كانت السبب في ابتعاد العلماء عن الاخذ به . وكان والدك يحاول وقف تجاربك التي كان يسميها مضيعة للوقت ، ولطالما وصفها بالاحلام الجنونية . . .

ماركوني : الامر دائما كذلك مع الآباء . وقد رجوته ان يصبر علي

قليلا ، قائلا له ان في رأسي تدور فكرة اختراع سيقلب الاوضاع رأسا على عقب ، وستجني منه الانسانية اجل الفوائد .

صوت : ووالدتك كذلك حذرتك من مغبة هذا التعب الذي كنت تتعرض له دون جدوى ، ومن الانهيار العصبي ، ناقلة اليك ما كان يردده معارفهم من انك ستفتح عينيك ذات يوم فتجد نفسك في مستشفى الامراض العقلية .

ماركوني : كل ذلك لم يثبط من همتي ، ولم يحولني عن السبيل الذي انتهجته .

صوت : وفي ذات يوم دعوت ذويك الى المختبر لتجري امامهم التجربة العلمية الجديدة .

ماركوني : قلت لهم : اصغوا جيدا . . . سأضغط على هذا الزر الذي ترون فيرن جرس موجود في الطابق الاسفل ، في حجرة الطعام . . . اسمعوا . . .

صوت : ونجحت التجربة وصاحت امك : « يا للغرابة ، كيف تسنى لك ذلك ، ولست ارى اي اسلاك تصل الزر هنا بالجرس في حجرة الطعام ؟! »

ماركوني : وصحت انا : « هوذا اختراعي الذي حسبتموه جنونا . . . انه نقل الصوت بدون اسلاك . . . او اللاسلكي ! » .

صوت : وباركت امك عملك ، ولكن اباك ردد بسخرية : « اذن انت اخترعت اللاسلكي ، وماذا في ذلك ؟ »

ماركوني : فقلت له : « ماذا في ذلك ؟ الا يمكنك ان تتخيل النتائج التي تترتب على نقل الصوت عبر الاثير من مكان الى مكان ؟ » .

صوت : فاجابك انه ليس بامكانه تصور شيء من ذلك . ولكنه لم يدع تشاؤمه يتغلب على كرمه ، فاعطاك خمسة آلاف لير لمواصلة تجاربك بهذه الدمية ، فشكرته قائلا : « لكم انت كريم ، طيب القلب ، يا ابتاه . بتشجيعك المادي هذا سأطوق العالم بصوتي ! »

فكان تعليقه : « اهتم بان تطوق جسمك بالملابس الملائمة . فان اختراعك هذا يبدو لي انه عديم القيمة والاهمية » . وقرأت بعد ذلك بحثا طويلا للعالم البريطاني السر ويليام كروكس يؤيد النظرية التي تمشيت عليها في اختراعك اللاسلكي ، فرجوت امك ان تساعدك في السفر الى انكلترا بعد ان رفضت الحكومة الايطالية تشجيعك ومساعدتك في مواصلة اختباراتك .

ماركوني : فكان جوابها : « سارحل معك الى انكلترا ، وساكون بقربك دائما » .

صوت : وماذا كنت تنوي عمله في انكلترا ؟

ماركوني : كنت اود ان ارسل اشارات لاسلكية عبر بحر المانش من دوفر ، على الساحل البريطاني ، الى بلدة فيمرو على ساحل فرنسا الغربي .

صوت : أوَ لم تخشَ ضباب انكلترا الشهير ؟

ماركوني : كنت واثقا كل الثقة من ان اشاراتي اللاسلكية هذه ، تخترق كل شيء ، فقد اجريت تجاربي ، وحتم علي ان اؤمن بذلك بعد ان نجحت هذه التجارب .

صوت : حدثنا عن هذه التجارب . . .

ماركوني : بدأت بارسال الاشارات اللاسلكية بنجاح على مسافة مئة يردة . ثم ، بزيادة قوة جهاز الارسال ، استطعت ان ازيد هذه المسافة الى ثلاثة اميال ، فثمانية عشر ميلا . . . وفي السابع والعشرين من اذار سنة ١٨٩٩ ، كنت آمل ان ارسل اشاراتي عبر بحر المانش . . .

صوت : شكرا ، يا سيد ماركوني . وتكللت تجربتك تلك بالنجاح . فماذا فعلت بعد ذلك ؟

ماركوني : بعد ان تغلبنا على بحر المانش ، بات علينا ان نعبر المحيط ، كل ما كان علينا ان نفعله هو ان نضع جهاز ارسال من القوة بحيث يقذف الموجات الكهربائية عبر المحيط ، وكان ذلك الامتحان الاخير العسير الذي قرر مصير اللاسلكي .

صوت : وهكذا ظهرت جريدة نيويورك تايمز في الخامس عشر من كانون الاول عام ١٩٠١ ، وقد اثبتت هذه العبارة بالخط العريض « ماركوني يعلن اعظم اختراع في العصر الحديث ، فقد استطاع ان يلتقط اشارات كهربائية عبر الاطلسي » . وآلان ، ماذا عن حياتك الخاصة ؟ لم تذكر لي شيئا من ذلك .

ماركوني : بعد هذا النصر العظيم ، وفي آذار سنة ١٩٠٥ ،

تزوجت فتاة ايرلندية رزقت منها ثلاثة اولاد . ولكن هذا الزواج لم يدم اطول من سنة ١٩٢٤ . وبعد ثلاث سنوات اقترنت بنبيلة ايطالية كنت معها اسعد حظا . وابتعت يختا اقمت فيه مختبرا علميا ، فكان لي بمثابة أداة للراحة والنزهة والعمل .

صوت : ونلت جائزة نوبل للفيزياء وظللت تواصل ابحاثك العلمية في تحسين اللاسلكي ، واستنباط الراديو ، حتى ٢٠ تموز سنة ١٩٣٧ عندما وافتك المنية على متن يختك الخاص ، فارتحلت على متن سفينة اخرى لتواصل استكشافاتك في بحار جديدة .

ماركوني : ولكن ها انت تراني ههنا ، لا تجارب ولا استكشافات ولا من يحزنون .

بانتنغ : مكتشف الانسولين
(١٨٩١ - ١٩٤١)

صوت : احتفل العالم الطبي في سنة ١٩٧١ ، باليوبيل الخمسيني لاكتشاف انجع دواء لداء فتاك لا يرحم ، طالما حير الطب ، وذهب ضحيته الآلاف المؤلفة في أربعة أقطار المسكونة . أما الداء فهو السكّري ، وأما الدواء فهو الانسولين ، وأما مكتشف الدواء المعجزة فهو الدكتور فريدريك بانتنغ الذي سنقضي معه بعض الوقت في الحديث حول اكتشافه الجليل . . . دكتور بانتنغ ، اسمح لي أن أذكر في مطلع هذه المقابلة أنك عندما دخلت المختبر صبيحة السادس عشر من أيار من سنة ١٩٢١ ، لم تكن تبدو انك من الذين ستخلد اسماؤهم في عالم الطب . . .

بانتنغ : ذلك هو الواقع ، يا سيدي . فقليلون هم الذين يبدون انهم سيخلدون ـ على حد تعبيرك ـ وهم في التاسعة والعشرين من عمرهم .

صوت : واسمح لي ان اكمل رسم صورتك ساعة دخلت ذلك المختبر . فقد كنت تبدو اشبه ما يكون بالفلاحين : قوي البنية ، في كتفيك انحناء قليل ، عيناك زرقاوان ضاربتان الى الاخضرار ، ضخم الانف ، ناتىء

الذقن . اما صوتك فكان خافتا ، متلعثما ، يفضح خجلا غريزيا فيك . وما ان دخلت ذلك المختبر حتى طلبت من السيد تشارلز بست ان تباشرا العمل لضيق الوقت .

بانتنغ : حقا ما تقول . فقد كان الوقت قصيرا بالنسبة الي . كنت قد طلبت من جامعة تورنتو السماح لي باستخدام المختبر مدة ثمانية اسابيع ، مع عشرة كلاب ، وذلك بمعاونة رجل متخصص بالكيمياء والفيزيولوجيا . فكان ان عرفوني الى الدكتور تشارلز بست . اما الموازنة التي رصدتها لاختباراتي تلك ، فلم تكن تتجاوز المئة دولار . بذلك المبلغ وضعت نصب عيني كسب المعركة ضد مرض أعيا الاطباء حتى ذلك الحين ، عنيت داء السكري الفتّاك .

صوت : وسألت مساعدك بست اذا كان يقرأ الفرنسية ، فاجابك بالايجاب . فدعوته الى المكتبة لتراجعا في احد الكتب كيف ان رجلا فرنسيا يدعى هيدون قد استأصل البنكرياس من جسم احد الكلاب . وكانت تلك البداية !

بانتنغ : صحيح . . . كلانا كان يعرف مدى فتك داء السكري الرهيب الذي وصفه احد اطباء الاغريق قبلنا بألفي سنة بقوله انه « داء يذوب فيه اللحم فيفرزه الجسم مع فضلاته » . اما اجسام المصابين بهذا الداء فانها تتوقف عن حرق السكر وتحويله الى طاقة . وبدلا من ذلك تصبح اجسامهم اجساما آكلة ، تلتهم الدهن المخزون

والبروتينات . ويرافق ذلك عطش لا يروي ، فان ضحايا داء السكري يشربون كميات كبيرة من الماء يوميا دون ان يفرزوا الا كمية ضئيلة من السكر . فضلا عن ان شهيتهم الى الاكل تصبح كبيرة . وكان العلاج الوحيد لذلك الالتزام بحمية غذائية قاسية لاصلاح التوازن الكيماوي المختل في جسم المصاب .

صوت : على ذلك كان المصابون بداء السكري يُخيّرون بين أمرين لا ثالث لهما : فاما ان يأكلوا جيداً اليوم ويموتوا غداً ، واما ان يقللوا من الوحدات الحرارية في طعامهم اليومي ، ويقضوا فترة من الوقت في حالة من الحزن والارهاق والارتباك .

بانتنغ : لقد رأيت شخصيا كيف ان داء السكري قد حوّل فتاة في الخامسة عشرة من عمرها كانت زميلة لي في الدراسة في مدينة اوليستون في منطقة أونتاريو، الى فتاة حزينة مثيرة للشفقة ، ما عتم الموت ان اختطفها بسرعة . واخبرني مساعدي تشارلز بست ان عمته آنا ، وكانت امرأة قوية البنية ، فارعة الطول ، وفي مستهل عقدها الثالث ، قد هزل جسمها كثيراً قبل ان تفارق الحياة . ولا اغالي اذا قلت ان العالم لا بد انه قد اعتبرنا ـ الدكتور بست وأنا ـ غير قادرين على مواجهة هذا العدو القاتل ، اذ كانت خبرتي في البحث العلمي تكاد تكون صفراً . فقد بدأت بالحاح من أسرتي في دراسة اللاهوت ، ولكن التلعثم الذي كان يلازمني جعلني اتحول الى دراسة الطب . ولا اكتمك انني كنت تلميذاً عاديا .

صوت : مرحى لهذه الصراحة ، يا دكتور بانتنغ ، والمعروف ان مساعدك بست كان في الثانية والعشرين من عمره عندما تعرفت اليه وبدأتما العمل معا ، وكان في هذه الاثناء يحضر لنيل شهادة الدكتوراه في الفيزيولوجيا والكيمياء الحيوية . هل لك ان تستمر في سرد قصة حياتك ؟

بانتنغ : بعد ان خدمت كجرّاح في الجيش الكندي في الحرب العالمية الاولى ، ونلت وسام الصليب العسكري لشجاعتي افتتحت عيادة لجراحة تقويم الاعضاء المشوهة في مدينة لندن في مقاطعة أونتاريو بكندا . وكنت انتظر المرضى الذين لم أرَ منهم أحداً . ولم تكن خطيبتي ترى أَن لها مستقبلا مع طبيب مثلي ، ففسخت خطبتها لي ، وهجرتني . وهكذا غامرت بمواردي الضئيلة الهزيلة على مذبح ايماني في قدرتي على معالجة داء السكري . فتخليت عن ممارسة التطبيب ، وبعت كل اثاث العيادة ، والكتب ، والادوات الطبية ، وكل شيء آخر ! . .

صوت : ومن هنا لم يكن بوسعك ان تمنى بالفشل مرة ثانية ، أليس كذلك ، اكمل قصتك ، يا دكتور بانتنغ . ماذا كانت خطوتك التالية ؟

بانتنغ : كان المعروف ان البنكرياس ، ذلك العضو البطني ذو اللون الاصفر الشاحب ، الشبيه بفرخ الضفدع ، والذي ينتج العصارات التي تساعد على الهضم ، له علاقة ما بداء السكري . ففي المانيا سنة ١٨٨٩ استأصل اوسكار منكوفسكي ، البنكرياس من جوف

احد الكلاب لكي يعرف كيف يستطيع هذا الحيوان ان يحيا بدونه . وفي اليوم التالي تبين له ان الكلب الذي كان في صحة طبيعية في اليوم السابق قد اصيب بداء السكريّ .

صوت : هل كانت عصارات البنكرياس ، اذن ، تحتوي على عامل ينظّم التغيرات الكيماوية في السكّر؟

بانتنغ : لقد قام عدد من الباحثين باختبار ذلك على الكلاب ، فلم يصلوا الى نتيجة تؤكد ان البنكرياس يحتوي على ذلك العامل الذي ينظم التغيرات الكيماوية في السكر . ومن هنا تساءلوا :« اذا لم يكن في عصارات البنكرياس ذلك العامل المطلوب ، فأين يمكن ان يكون ؟ » واجروا اختباراتهم الجديدة ولكنهم خرجوا منها خائبين . وعندها جاء دورنا ، بست وانا لاكتشاف تلك المادة المجهولة المحيّرة ، بل المراوغة ، فكنا نقوم باختباراتنا على الكلاب في ذلك المختبر الذي اصبح قبل نهاية الصيف اشبه بالحمام التركي لكثرة البخار الذي كان يتجمع فيه . ولتفادي الحرارة الشديدة كنا نخفف من الملابس تحت معاطف المختبر البيضاء التي نرتديها . ونظرا لقلة مالنا كنا نأكل في المختبر البيض والمقانق يوما بعد يوم . وسرعان ما انتهت فترة الاسابيع الثمانية ، دون الوصول الى نتيجة .

صوت : لقد كانت تلك مناسبة ممتازة للاقرار بالهزيمة والفشل ، والتخلي عن مواصلة الابحاث ، ولكنك لم تفعل ذلك . فقد عرف عنك عنادك الشديد . وفي الحرب العالمية التي

اشتركت فيها جرحت في ذراعك اليمنى جرحا بليغا بفعل شظية قنبلة . فشاء الاطباء قطع ذراعك تلك ، فرفضت ، ورحت تعنى بها وتعالجها حتى شفيت . . .

بانتنغ : وهكذا ، يا سيدي ، اردت مع زميلي بست ان نعنى بمشروعنا المريض ونعالجه ليتم له الشفاء ويستعيد صحته . وكان البروفسور دجون ماكليود ، رئيس دائرة الفيزيولوجيا الذي زودنا بكل التسهيلات للقيام بأبحاثنا ، في اجازة يقضيها في اوروبا . فقلنا بيننا وبين نفسينا انه لن يعرف ان المدة انتهت اذا نحن واصلنا تجاربنا في المختبر على الكلاب التي استهلكنا منها العشرات قبل ان نحصل على المادة المجهولة لمعالجة داء السكري ، في ٢٧ تموز من سنة ١٩٢١ .

صوت : ولقد كانت تلك حقاً اكثر لحظات حياتك اثارة ولا ريب ، أليس كذلك ؟ ولكنك لم تقل لي أي اسم اطلقته على اكتشافك .

بانتنغ : لقد اسمينا اكتشافنا « إسليتين » . الا انه بعد ذلك بفترة طويلة اقنعنا البروفسور ماكليود بتغييره الى انسولين . غير انه بقي امامنا ان نعلم اذا كان الانسولين يفيد البشر ، كما أفاد الكلاب التي اجرينا عليها تجاربنا . وهكذا كان علينا ان نعلم اذا كان الانسولين لا يضر البشر . وكنا قد تأكدنا من ان الانسولين لا يفيد اذا اخذ جرعة بالفم فحقنت بست بذراعه ، وحقنني بدوره . ولبثنا ننتظر النتيجة . ولما ثبت لنا انه لا يؤذي ، عمدنا الى اعطائه لمريض بالسكري في مستشفى تورنتو العام ، بالمقابل لمختبرنا ، وكان فتى في

الرابعة عشرة من عمره يدعى ليونارد طومسون ، هدّ السكري قواه في مدى سنتين ، واصابه بالهزال ، وهدده بالموت بعد بضعة اسابيع على ابعد تقدير ، بعد ان بات لا يستطيع رفع رأسه عن الوسادة .

صوت : المعروف انك حقنت ذراع ذلك الفتى المحتضر في ٢٢ كانون الثاني من سنة ١٩٢٢ ، وسرعان ما خفت كمية السكّر في دمه ، وراح يأكل وجبات عادية . وامتلأت ملامحه عافية وصحة ، وعادت الحياة الى عضلاته المتعبة المنهوكة . وقد بدا انه سيعيش !

بانتنغ : الواقع انه عاش ثلاث عشرة سنة اخرى . وكانت وفاته في سنة ١٩٣٥ بداء ذات الرئة اثر حادثة دراجة نارية . فكان الاول بين العشرات ، ثم المئات ، ثم الآلاف ثم الملايين الذين عولجوا بالانسولين .

صوت : وراحت الانعامات تنهمر عليكما ، انت وبست ، فقد كوفئتما بجائزة ريف ، البالغة خمسين دولارا من اجل افضل بحث علمي اجري تلك السنة في الجامعة . وعين لك البرلمان الكندي مرتبا سنويا قدره ٧٥٠٠ دولار يُصرف لك مدى الحياة . ثم اطلق اسمك على معهد ضخم للابحاث.

بانتنغ : وكذلك اطلق اسم بست بعد ذلك على معهد آخر للابحاث . ولما حزت جائزة نوبل سنة ١٩٢٣ اقتسمت المبلغ مناصفة مع الدكتور بست . وقد بقينا نحن الاثنين في الجامعة ، نقوم باختباراتنا كل على حدة طوال السنوات التالية . ولكن الاثارة القديمة في عملنا كانت

مفقودة . وذات صباح مطير من ايام شباط سنة ١٩٤١ قلت لبست : « ما قولك يا تشارلي في العودة الى العمل معا ؟ انت تهتم بالكيمياء . . وأنا . . . » .

صوت : ولكن شيئا من ذلك لم يحدث . فبعد ثلاثة ايام كنت قد اصبحت الميجور السر فريدريك بانتنغ ، وتعمل في قضايا طب الطيران . وقد ركبت قاذفة قنابل ذات محركين ووجهتك انكلترا ، عندما لاقيت حتفك في سقوط الطائرة وسط عاصفة ثلجية وتحطمها بالقرب من ميناء مسغريف في نيوفاوندلاند . ولعل اروع رثاء لك واكثره تأثيرا في النفس ، ما قيل بعد ذلك بخمس سنوات في اجتماع عقدته جمعية المصابين بداء السكري في لندن :

« لولا بانتنغ لكان هذا الاجتماع لقاء اشباح يندبون مصيرهم !!! »

آينشتاين : أبو النسبية
(١٨٧٩ - ١٩٥٥)

صوت : السلام عليك، يا ابا النسبية . . .

آينشتاين : ماذا تقول ؟ ومن اين اتيتني بهذه التسمية ؟ انا هنا البرت آينشتاين . . .

صوت : صحيح ، ولكنك اشتهرت بهذه النظرية الرياضية حتى عرفت بانك « ابو النسبية » .

آينشتاين : اذا كان ذلك كذلك فليكن . اهلا وسهلا بك ، ماذا تبغي مني ؟

صوت : اود ان احصل منك على بعض التفاصيل عن حياتك الخاصة ، ونظريتك الشهيرة لزيادة القراء معرفة بك . وقد شئت ان . . .

آينشتاين : . . . انت شئت ، ولكني انا لا اشأ . . . انسيت ان اكره شيء الى نفسي كانت الدعاية في مختلف اساليبها .

صوت : هذا ، يا سيدي آينشتاين ، كان في الحياة الدنيا ، اما ههنا في الآخرة فكل شيء يتبدل ، والامور نسبية كما تعلم . . .

آينشتاين : نسبية . . . انك تخلط نظريتي في النسبية وبين هذه النسبية . . .

صوت : سنعود عما قليل الى البحث في هذه النظرية . ولكن دعنا الآن نتحدث بعض الوقت في شؤون حياتك الخاصة . كنت حقا تكره الدعاية ، والامتيازات الخاصة ، والجاه ، والفخفخة .

آينشتاين : هذا طبع ... مزاج ، سمه ما شئت .

صوت : اذكر على سبيل المثال ، ويذكر الكثيرون غيري ان قبطان الباخرة التي عبرت بك المحيط في رحلتك الى العالم الجديد قدَّم اليك ، احتراما منه لك واجلالا ، افخم جناح في الباخرة لتقيم فيه خلال الرحلة الطويلة ، فرفضت العرض قائلا انك تفضل الاقامة مع المسافرين على ظهر الباخرة على ان تتمتع بأي امتياز خاص .

آينشتاين : ما زلت اذكر هذه الحادثة ، ولست نادما البتة على مافعلت . فقد كنت زاهدا في حطام الدنيا .

صوت : وكنت كذلك تكره مقابلة الصحفيين كرهك لجمع المال ، والالقاب والمديح .

آينشتاين : وقصتي معروفة مع الصحفيين الذين جاؤوا يقابلونني لدى رسو الباخرة التي اقلتني الى نيويورك لتدريس الرياضيات في جامعة برنستون .

صوت : اذكر جيدا انك فررت خلسة من الباخرة لتفادي مصوري الصحف واسئلة مندوبيها . وابتعدت عن عيون المعجبين والفضوليين في سيارة كانت تنتظرك وفيها عدد من اصدقائك .

آينشتاين : انك تعرف امورا كثيرة عني ، يا هذا .

صوت : سيدي العالم الشهير ، ما زلت في اسئلتي الشخصية الحميمة ، وسنهتم بعدها بنظرية النسبية ، كما اتفقنا .

آينشتاين : كما تشاء .

صوت : بم كنت تصنع سعادتك ؟

آينشتاين : كنت اصنعها بنفسي من امور عادية كالعمل ، والعزف على الكمان ، والتنزه بقاربي الشراعي . وكانت الموسيقى مبعث سعادتي الاولى والاخيرة .

صوت : وكنت تعيش عيشة بسيطة ، ولا تأنف من ارتداء الملابس العتيقة التي تحتاج الى الكي ، وكنت تصفر وتغني وانت في الحمام بأعلى صوتك . . .

آينشتاين : . . . الم اقل لك ان الموسيقى كانت مبعث سعادتي ؟

صوت : بلى ، قلت ذلك ولكنني لم اذكر ذلك الا لأصل الى انك كنت تحلق ذقنك وانت في المغطس ، مستعملا في ذلك الصابون. نفسه الذي تغتسل به من دون سائر انواع الصابون الخاصة بالحلاقة . لماذا ؟

آينشتاين : صحيح ، فان استعمال نوعين من الصابون يجعل الحياة كلها معقدة .

صوت : عجيب والله امرك ، يا سيد اينشتاين ـ انت العالم الذي حاولت حل معضلات الدنيا والكشف عن اسرارها تقول ذلك ؟

آينشتاين : والآن ، ما دمنا تحدثنا عن المعضلات ، فهل لك ان تطرح اسئلتك حول نظرية النسبية ؟

صوت : كنت افكر في ذلك ، اقسم بشرفي ، هل لك ان تشرح لنا جميعا هذه النظرية التي لا يفهمها الا نفر ضئيل من علماء الرياضيات ؟

آينشتاين : ولماذا تريد ان اشرحها وانت تعترف بصعوبتها ؟

صوت : على سبيل الفضول ، فقد قرأنا ان عددا غير قليل من المجلدات الضخمة قد وضع حولها لتفسيرها وتوضيحها .

آينشتاين : حسنا ، وتريد مني ان اشرحها لك الآن مبسطة .

صوت : اجل ، بكلمات معدودة مختارة ، مفهومة . . .

آينشتاين : اسمع القصة التالية ، كنت ذات يوم اسير برفقة صديق اعمى فقلت له : اني اشتهي شرب قدح من الحليب . فسألني : ما هو الحليب ؟ قلت انه سائل ابيض . فقال الصديق الاعمى : اني اعرف ما هو السائل ، ولكن ما هو اللون الابيض ؟ قلت انه لون ريش البجع . فقال : حسناً ، الريش اعرف ما هو ، ولكن ما البجع ؟ اجبته انه طائر ذو عنق ملتوية . فقال لي : اعرف ما هي العنق ، ولكني لا افهم ما تعني بملتوية . عندئذ امسكت بذراع صديقي وطويتها ثم اعدتها كما كانت لافهمه ما اقصد بكلمة ملتوية ، فصاح الاعمى حسنا ، الآن عرفت ما تقصد بالحليب . والآن يا سيدي ، هل تصرّ على معرفة ما هي النسبية ؟

صوت : لقد فهمت قليلاً عنها . اليس بامكانك تبسيطها اكثر من ذلك ؟

آينشتاين : بلى ، اسمع هذا المثال : « عندما تجلس الى فتاة حسناء مدة ساعة تظن انك لم تجالسها سوى دقيقة واحدة فحسب . ولكنك عندما تجلس فوق المدفأة دقيقة واحدة تحسب انك اقمت فوقها ساعة بطولها » .

صوت : الآن فهمت اكثر من ذي قبل ، فشكرا . اسمح لي ان اكون صريحا معك وجريئا ، فنحن نستعرض احداثا واقعية وينبغي لنا ان نكون صادقين مع انفسنا ومع التاريخ . . . .

اينشتاين : مهلا ، مهلا ، ماذا هناك ؟ لقد اخفتني . . .

صوت : لا عليك ، كل ما هنالك اني احببت ان اعود قليلا الى ايام صباك ، فأقول انك كنت صبيا بليدا خامل الذهن خجولا . وقد تأخرت في النطق حتى خيل لوالديك انك طفل غير طبيعي .

آينشتاين : ولكني برهنت فيما بعد على انني انسان اكثر من طبيعي ، اليس كذلك ؟

صوت : بالطبع ، فأنت تعتبر اكبر دماغ بشري مفكر وفي مقام العالمين الكبيـــرين اسحق نيوتن وكوبرنيكوس . .

آينشتاين : شكرا . . .

صوت : ومع ذلك فقد رسبت في امتحانات الدخول الى كلية

الفنون الاتحادية في زوريخ ، وكنت وقتئذ في السادسة عشرة من عمرك .

آينشتاين : واضطررت وقتئذ الى استظهار دروسي قبل ان اتقدم للامتحان ثانية .

صوت وقد حالفك النجاح في هذه المرة ، على ما اعتقد .

آينشتاين : بالطبع ، او تعتقد انني كنت بليدا الى هذا الحد ؟

صوت : لا ، ولكني اذكر انك على شدة ذكائك وتفوقك في الرياضيات والحساب كنت ترتكب اخطاء عادية لا تغتفر . . .

آينشتاين : هات مثالا على قولك ، لست اذكر شيئا من هذا .

صوت : الا تذكر انك نزلت مرة من سيارة عمومية ونقدت سائقها مبلغا من المال فأخذ السائق ما يستحق له واعاد اليك الباقي . فقلت له انه اخطأ في الحساب ، فعدَّ السائق النقود من جديد فوجد انك على خطأ فاعادها اليك قائلا : « المصيبة ، يا سيدي انك لا تفهم شيئا في الحساب ! »

آينشتاين : الآن تذكرت كل شيء عن هذه الواقعة ، ولكن الا توافقني على انها تافهة لا تعني شيئا .

صوت : بالطبع . . . بلا شك ، لقد كنت يا سيدي آينشتاين ، انسانا منظم التفكير مع انك كنت تكره النظام في شؤون حياتك اليومية والبيتية ، تؤمن بمبدأين اثنين .

آينشتاين : حقا ، كنت اؤمن ، بمبدأين لا ثالث لهما : احدهما

التحرر من القواعد ايا كانت ، والاخر التحرر من آراء الاخرين ونظرياتهم .

صوت : لا ريب في ذلك فنظريتك تكفيك مؤونة ذلك ، هل لنا ان نعرف ما كانت فلسفتك في الحياة ؟

آينشتاين : القناعة هي مصدر السعادة . ولعل فلسفة سعادتي هي التي تهم الناس اكثر مما تهمّ نظريتي في النسبية .

صوت : ان الامر لكذلك ، اطمئن ، ففلسفتك رائعة !

آينشتاين : الا تعرف قولي « انني سعيد لانني لا اريد شيئا من اي كان ؟ »

صوت : السؤال الآن عن حياتك الزوجية .

آينشتاين : تزوجت مرتين ، وسعدت في الزواجين . اما زوجتي الاولى فقد اعترفت في حياتها انها لم تفهم نظرية النسبية ، ولكنها فهمت شيئا اكثر اهمية بالنسبة اليها كزوجة .

صوت : ماذا فهمت ؟

آينشتاين : فهمتني حق الفهم ؟

صوت : برافو ، وهل كنت تتوقع منها كامرأة ان تفهم نظرية النسبية ؟ هل لك في مثال على فهم زوجتك الاولى لك .

آينشتاين : كانت تدعو صديقاتها احيانا لتناول الشاي وتطلب اليّ مشاركتهن في تناول الشاي والحديث للترويح عن نفسي من عناء العمل والتفكير . . .

صوت : ... تقصد ... الثرثرة ... ماذا كنت تفعل ؟

آينشتاين : كما تشاء ... كنت ارفض بالطبع ، واهدد بالفرار من البيت لانني لم اكن اتحمل المقاطعة اثناء العمل .

صوت : وكيف كانت تتصرّف زوجتك ما دامت كانت تفهمك .

آينشتاين : كانت تلزم جانب الصمت والهدوء حتى يسكن غضبي ، ثم تعود فتقنعني بلباقة ودبلوماسية بأن ارافقها الى البهو لشرب الشاي مع زائراتها واخذ قسط من الراحة .

صوت : هذا ما كنت اتوقعه ، فحواء استطاعت ان تخرج آدم من الجنة ، فهل يصعب على زوجتك ان تخرجك من عزلتك بين الحين والحين لتشرب الشاي مع صديقاتها ؟!

آينشتاين : انك صاحب نكتة ، يا هذا ، هل ترغب في معرفة اشياء اخرى ؟

صوت : لا ، لا ، ياسيد آينشتاين ، شكرا جزيلا ، والسلام عليك .

آينشتاين : وعليك السلام ، ورحمة الله .

الفصل الثاني

٢٥ من أعلام الأدب

دانتي : صوت من القرون الوسطى

رابليه : رائد الضحك الفرنسي

سرفانتس : راوي حكايات

شكسبير : سر عمره ثلاثة قرون

فولتير : بدأ عصر العقل

روبرت بيرنز : شاعر الديمقراطية

اللورد بايرون : شاعر القوة والعاطفة والجمال

غوته : شاعر كل العصور

آدم ميكييفتش : شاعر القومية والحرية

اليزابيث باريت براوننغ : اللقاء

الأخوان غريم : الاساطير الالمانية

هانس كريستيان أندرسن : أمير قصص الجن والاساطير

ديكنز : ٥٠ إنساناً في شخصيته

فلوبير : مزيج نادر من الرومنسية والواقعية

ألفونس كار	:	تحت ظلال الزيزفون
هارييت بيتشرستو	:	كتابها حرّر العبيد
رتشارد برتون	:	رجال في رجل واحد
اميل زولا	:	مزيج من كل شيء طيب
تيشخوف	:	فنان لا مثيل له
جول فيرن	:	روائي التكهّنات
ليون تولستوي	:	نبي القرن العشرين
سترندبرغ	:	شكسبير السويد
طاغور	:	اول قديس لم يرفض الحياة
برنارد شو	:	الأديب الساخر

دانتي : صوت من القرون الوسطى
(١٢٦٥ - ١٣٢١)

صوت : في شهر آب من سنة ١٢٦٤ ظهر في سماء مدينة فلورنسا الايطالية مذنّب ، احال سطوعه وانتقاله من الشرق الى الغرب على شكل مروحة كبيرة ، الليل الى نهار مشرق . فقال الفلورنسيون ان هذا المذنب لهو دليل مجيء رجل عظيم . وما هي الا بضعة شهور ، وفي نهاية ايار من العام ١٢٦٥ ، حتى ولد طفل ذكر للسنيور آليغيير و والسنيورة غبر ييلا . فاسمياه دورانتي - او دانتي ، بالاختصار ! . . وكان طفلا حزينا ، ولديه كل الاسباب للحزن والكآبة . . .

دانتي : كيف لا ، يا هذا ، وقد فقدت والدتي وانا بعد في الخامسة ، وفقدت بعدها والدي وانا في الثانية عشرة .

صوت : بونجورنو ، سيد دانتي . . كنت في صغرك شاحب اللون ، رقيق الملامح ، شعرك ذهبي ويضرب الى اللون الكستنائي . وكانت عيناك السوداوان ، المليئتان بالحزن والحيرة والتساؤ ل ، تجعلان نظرتك خائفة مذعورة . فأطلقوا عليك لقب « شاعر العالم الآخر الصغير » . وكان الناس يحسون احساسا غريبا عندما تلتفت اليهم بوجهك الصغير المؤ ثر . وكان هناك وجه طفلة تتوق الى التطلع اليه .

دانتي : كنت اتوق الى التطلع اليه ، ولكني لم اكن اجر ؤ على ذلك .

صوت : كان ذلك وجه بياتريتشي او «بيتشي» كما كانوا يدللونها . وكانت ابنة احد اغنياء فلورنسا فولكو دو بورتيناري .

دانتي : ولكني ذات يوم اختلست نظرة اليها خلال احدى الحفلات وكانت ذهبية الشعر وترتدي ثوبا قرمزيا ، وكنا ، وقتئذ في التاسعة من عمرنا .

صوت : وبعد تلك النظرة المختلسة ذهبت . . . وبعد سنوات عدة كانت لبياتريتشي من اختلس نظرة اليك . . .

دانتي : كنت مارا في احدالشوارع فالتفتت الي حيث تسمرت حياء وخجلا ، فابتسمت لي ابتسامة متواضعة بكل لطف وبشاشة .

صوت : تلك كانت بداية قصة غرامكما ونهايتها . فقد كنت واثقا من ان لا امل يرجى من حبك لبياتريتشي فمظهرك الخارجي لم يكن لائقا ، ولم تكن تتقن الحديث .

دانتي : ولكني كنت اتقن الكتابة .

صوت : وقد جاء ذلك اليوم الذي بهرت فيه العالم بكتابتك ، اذ خلدت بشعرك الرائع جمال ملهمتك بياتريتشي وحبها . . . وقد تزوجت المسكينة نجل احد اصحاب المصارف الاغنياء ، ولكنها توفيت بعد فترة قصيرة من زواجها .

دانتي : ومذ ذاك عشت نوعا من حياة « الترمل الروحي » .

صوت : وهكذا انخرطت في غمار الحياة السياسية في فلورنسا ، وحاربت في معركة كامبالدينو ، واشتركت في حياة

فلورنسا الفنية ، وعشقت فن رياضة الصقور التي كانت من اكثر الرياضات شعبية اذ ذاك .

دانتي : ولكن كل ذلك لم يكن سوى نشاطات سطحية ، اذ انني في اعمق اعماقي ما كنت احيا الا لغاية واحدة هي تخليد رؤ يا السعادة الهاربة التي عرفتها خلال معرفتي القصيرة ببياتريش .

صوت : ونمت انشودة السعادة هذه تدريجيا في قلب بائس . فلقد كانت روحك مضطربة في عصر مضطرب . ففلورنسا كانت اذ ذاك منقسمة بين حزبين متناحرين هما اشبه ما يكونان بحزبي الاحرار والمحافظين في العصر الحديث . ولم تكن انت بتفكيرك الاستقلالي الحر من انصار اي من الحزبين .

دانتي : في الواقع انني كنت اؤ لف حزبا لنفسي حزبا كنت انا القائد فيه والجندي في آن معا .

صوت : وهناك اليوم في عالمنا احزاب كثيرة مماثلة لحزبك (يقهقهان) ووفقت الى احلال السلام بين مختلف الفئات السياسية المتناحرة في فلورنسا ، لفترة من الزمن .

دانتي : ولكني لم اوفق الى احلال السلام في بيتي ، فقد تزوجت جيما دوناتي السليطة اللسان ، كامرأة سقراط ، التي كانت اشبه شيء بقاذفات اللهب .

صوت : وكنت جريئا وصريحا ، وقد جرَّت عليك جرأتك وصراحتك المتاعب والويلات . وكانت اولى مصائبك من البابا بونيفاس الثامن الذي قابلته في مهمة رسمية . وكان اهتمامه بالشؤ ون الدنيوية اشد من اهتمامه بخلاصه الابدي ، فجبهته برأيك

الصريح فيه . فابتسم لك تأدبا ، ولكنه اضمر لك الشر .

دانتي : لقد كان حقودا ، فلما انتهت مهمتي الرسمية وتأهبت للعودة الى فلورنسا وصلتني اشارة بأنني نفيت من المدينة بتهمة الاختلاس ، اختلاس الاموال العامة . وقررت ان اهبط فلورنسا واجابه تهمتي ببراءتي من تلك التهمة المنكرة . فأفهمت ان محاولتي تلك سيكون عقابها الموت حرقا .

صوت : وهكذا أصبحت ، وانت شاعر فلورنسا الشاب ، متشردا ، لا مأوى لك ، يعطف عليك بعض الاغنياء فيتصدقون عليك بالطعام بدلا من ان يستقبلوك ضيفا على موائدهم .

دانتي : كنت في نظرهم اذ ذاك سياسيا منبوذا محكوما عليه بالموت .

صوت : يوم عُرفت اكثر فأكثر كشاعر مجيد سألك احد النبلاء لماذا يهتم الكثيرون من امثاله بالمهرجين اكثر من اهتمامهم به ، اجبته : « لان الطيور على اشكالها تقع » .

دانتي : لقد كان هؤلاء النبلاء ابعد ما يكونون عن النبل ... صحيح انهم كانوا اغنياء بثروتهم المالية ، ولكنهم كانوا فقراء فكريا وروحيا .

صوت : وفي حين كان فكرك يجوب الآفاق من الجحيم الى الجنة عبر المطهر ، كان جسدك يتحرق شوقا لتلك البقعة من الارض الايطالية التي نفيت منها ... مسقط رأسك فلورنسا . ولكنك لم تكن لتتنازل وتطلب اصدار عفو عنك .

دانتي : كنت بريئا ، وطالبت باحقاق الحق ، فرفض حكام فلورنسا الاعتراف بذلك ، واصروا على اذلالي بطلب العفو منهم . فحاولت مع جماعة من المنفيين امثالي اقتحام المدينة بالقوة ،

ففشلنا . وعندها انفصلت عنهم ، وبات جسدي ، كفكري ، يتجول وحيدا .

صوت : وبات اسمك اذ ذاك يتألق في سائر المدن الايطالية كشاعر . ومع انك كنت تتجول وحيدا في عالم الاحياء ، الا انك لم تكن وحيدا في عالم الاموات . فقد استحضر فكرك طائفة كبرى من النفوس في الجحيم ، والمطهر ، والجنة ـ رجالا ونساء واطفالا كنت تكافئهم وتعاقبهم حسب اعمالهم . ولم يسبق لاي شاعر ان خلق مثل هذا العدد الضخم من الشخصيات « الحية » الذي خلقته في ملحمتك الرائعة « الكوميديا الالهية » ، ملحمة الاموات الخالدة .

دانتي : كانت شخصياتي حية ، حقا ، فالبابا بونيفاس الثامن هددني بالموت حرقا ، فاذا النار لا تفارق مخيلتي ، سن بسن ، وعين بعين ، شريعة عادلة ، في نظري ، تطبّق على اعدائي .

صوت : وهكذا خصصت لبونيفاس هذا اسوأ ارجاء الجحيم .

دانتي : لقد مات هذا البابا سنة ١٣٠٣ ، في الوقت الذي كنت اكتب فيه « الجحيم » .

صوت : وقد وضعت الكثيرين من اعدائك في كهوف الجحيم النارية والجليدية . الا ان « جحيمك » هو اكثر من ملحمة انتقام او ثأر شخصي . وقد وُصفت بأنك « صوت القرون الصامتة » . وكنت تزن العقاب الحق للجريمة المعينة ، فقسمت جحيمك الى اربع وعشرين دائرة ، كل دائرة منها مجهزة بأدوات التعذيب الخاصة بنوع معين من المذنبين والخاطئين .

دانتي : ولكني حاولت ان اكون منصفا بقدر ما يسع بشرا ، او شاعرا ان يكون منصفا ، غير متحيز . فلم اضع في الجحيم اعدائي فحسب ، بل ضممت اليهم اعداء الله كذلك . ومع بونيفاس الذي كنت اكره وضعت فرنشيسكا دو ريميني التي احببت . وصحيح انني عاقبتهم على تجاوزاتهم ، ولكنني رثيت لهم واشفقت عليهم بسبب آلامهم .

صوت : ليت كان المجال يسمح لنا بالقيام بزيارة خاطفة الى الامكنة التي تقوم بها الروح البشرية بعد وفاة صاحبها . . . ولكننا نقتصر على القول انك تقسم الجحيم الى ثلاث مناطق تمثل انواع الجريمة الثلاثة : العاطفة ، والخداع ، والقسوة . ومن هناك تقودنا الى جبل المطهر حيث تتطهر نفوس الموتى في رحلتها الاخيرة لتصبح مستعدة لدخول الجنة بعد انتهاء مدة عقابها في الجحيم .

دانتي : ولقد نسيت ان تذكر انني اقوم برحلتي هذه ودليلي فيها الشاعر اللاتيني الاشهر فرجيل .

صوت : ولكن ما ان تصلا الى عتبة السماء حتى تصبح دليلتك بياتريتشي ، لا فرجيل . . . بياتريتشي ، سيدة النور التي احببتها في فلورنسا ، وحرمك موتها سعادتك الدنيوية . وتروح تصعد بك حتى تبلغا جنة الجنان ، موطن الله . وفي السماء هذه تسع دوائر .

دانتي : ودعنا من الوصف ، فان افصح لسان ، وابلغ لغة ، حتى لغة الشعراء ، ليجعزان عن تجسيد روعة السماء . واختصر الوصف بقولي : السماء نور - نور هو الجمال ، وجمال هو

الحب ، وكل الارواح في الجنة تتجمع في خضم لانهائي من النور ، والجمال ، والحب .

صوت : لقد كتبت « الكوميديا الالهية » يا سيد دانتي تعويضا عن حياتك التي عرفت فيها الخيبة . نفيت ، وطوردت ، واحتُقرت ، فخلقت عالما تُستقبل فيه استقبالا وديا ، حميما ، وتمجَّد وتعظم ! . وبكلمة اخرى ليست الكوميديا الالهية سوى ملجأ خيالي رائع للمضطهدين من البشر .

دانتي : والغاية من هذه الملحمة الشعرية ـ بكلمة اخرى كذلك ـ هي انتزاع البشرية من حالة بؤسها وقيادتها الى حالة من السعادة والهناء . . . ولما فرغت من هذه الملحمة ، ولم يبق امامي ما اعمله ، وضعت رأسي فوق مخدة النفي ، واغضمت عينيَّ الى الابد .

صوت : عندما كنت حيا ترزق ، وامرأ مغمورا ، هددتك فلورنسا ـ مسقط رأسك ـ بالهلاك وبتحويلك الى رماد . فلما اصبحت شهيرا ، وانتقلت الى العالم الآخر ، استجدت شرف استقبال رمادك حيث ابصرت النور . ولكن بلا جدوى ، فقد دفنت في رافينا ، المدينة التي اغمضت فيها عينيك !

دانتي : الم تسمع المثل الشهير « لا كرامة لنبي في وطنه ؟ »

صوت : صحيح، واعلم انه بعد خمسمئة سنة من وفاتك زار ضريحك الشاعر البريطاني اللورد بايرون ، فركع وبكى امام الاموات وهو الذي لم يظهر عاطفته امام الاحياء . . .

دانتي : احقا ما تقول ؟!

صوت : والآن يا شاعري العظيم ، شاعر بياتريتشي لم يبق امامي الا ان اشكرك على هذا اللقاء الممتع . . . آريفيدرتشي !!!

دانتي : آريفيدرتشي !!!

فرانسوى رابليه : رائد الضحك الفرنسي
(١٤٩٤ - ١٥٥٣)

صوت : في قاعة الظرفاء من الفرنسيين يجلس في مقام الصدارة واحد من اسياد النكتة والظرف هو فرانسوى رابليه !

انه اول كاتب ساخر في الادب الفرنسي ، اضحك كثيرا ، بحماسة وحيوية بحيث انه اشتقت من اسمه كلمة « رابليه » لتكون نعتا لكل ما يداني نكتة من نكات ونوادر .

اما اشهر مؤلفاته الادبية فهما « غارغنتوى » و « وبنتاغرويل » اللذان يؤلفان معا قصة هزلية كبرى . وقد سمح رابليه لنفسه في كتبه بالصراحة اللغوية والتصويرية التامة التي جرّت عليه نقمة السوربون ، وحملت البرلمان ، في وقت من الاوقات،على منع تداولها وبيعها . ولكنها مع ذلك خلدت مع الزمن لما فيها من العطف الانساني العميق ، والمرح !

معنا الآن ، قارئي العزيز ، رابليه . . . الاديب ، والكاهن ، والطبيب ، و . . .

رابليه : اهلا وسهلا بك .

صوت : انت مولود في شينون حوالى سنة ١٤٩٤ .

رابليه : لقد اختلف المؤرخون في تحديد ميلادي لان سجلات النفوس في ذلك العهد لم تكن منظمة ، ودقيقة .

صوت : لذا تراني قلت انك ولدت حوالي سنة ١٤٩٤ . . . وهناك من يرجح انك ابصرت النور بين سنة ١٤٨٣ و ١٤٩٥ . . .

رابليه : ما لنا ولهذا الآن ، المهم انني ابصرت النور ، اليس كذلك ؟ . .

صوت : طبعا . . . ولكن تاريخ وفاتك ثابت . . . فقد ارتحلت عن العالم الاول في ٩ نيسان سنة ١٥٥٣ .

رابليه : ذلك لا يقبل اي خطأ . . . فقد اخطرت الجميع برحيلي عن الدنيا ، ولكني لم استطع اخطار احد بمجيئي اليها . . .

صوت : حسنا . . . وكنت ابن محام يملك مزرعة كبيرة ، فنشأت نشأة صغار الفلاحين .

رابليه : سقى الله عهد الصبا ذاك . . . فلقد كان عهدا سعيدا : قطاف العنب ، وعصر النبيذ ، والمآدب في الهواء الطلق ، والسهرات اللطيفة ، والمهرجانات الريفية . . . لكم احن الى تلك الايام المرحة .

صوت : وعندما بلغت الرابعة عشرة من عمرك انتهى عهد الصبا المرح ، وبدأت مرحلة الدراسة الجدية ، فأدخلت ديرا فرنسيسكانيا حيث درست وقرأت كثيرا . وبعد تخرجك التحقت بأخوية البندكتيين فترة قصيرة من الزمن .

رالليه : كنت في الثلاثين من عمري عندما خلعت مسوح الرهبان ، لارتدي ملابس الاطباء بعد جولة جامعية في مونبولييه ، وبواتييه ، وليون ، والسوربون .

صوت : وفي ليون ، في مستشفى اوتيل ديو عملت جرّاحا . . . وكنت اذ ذاك في الثامنة والثلاثين . . .

رابليه : تماما ، واذذاك حدث ذلك التحول في حياتي ، فانتقلت من حقل الطب الى حقل الادب ، فنشرت باسم مستعار هو الكوفريباس نازييه ـ وهو تصحيف لاسمي فرنسوى رابليه ـ كتابي الاول عن مغامرات بنتاغرويل . . .

صوت : وبهذا التحول قلبت رأسا على عقب تاريخ الضحك في العالم .

رابليه : شكرا لك على هذا التقدير . . .

صوت : وبعد ذلك بسنتين ، وفي ليون كذلك ، ولدى الناشر نفسه ، وتحت اسم الكوفريباس نازييه ، ظهرت روايتك الثانية عن مغامرات غارغنتوى . . . وقد جاء في نهاية القصيدة التي كانت بمثابة المقدمة لها : « . . . يستحسن ان نضحك بدلا من ان نكتب بالدموع ، ذلك بأن الضحك من مميزات الانسان » .

رابليه : وبعد ذلك كتبت توطئة برسم القارىء سخرت فيها من اولئك الذين نعوا على مؤلفاتي انها تنبعث منها رائحة النبيذ بدلا من الزيت . . .

صوت : وتنقضي اثنتا عشرة سنة فتنشر كتابك الثالث الذي تسميه « الكتاب الثالث » . . .

رابليه : وبعدها بست سنوات نشر كتابي الرابع ودعوته « الكتاب الرابع » . . .

صوت : وفي جميع كتبك كان الابطال هم اياهم . . وفي هذا العهد كنت قد بلغت الثامنة والخمسين . وتأتي فترة يختفي فيها كل اثر من آثارك ، ويدور الهمس حول دخولك السجن . . . وفي تلك الفترة تجري قصتك الشهيرة المعروفة باسم « ربع ساعة رابليه » او وقت الوفاء بالدين . . . فهل لك ان ترويها لنا ؟

رابليه : كنت قد حُجزت في احد النزل لعدم تمكني من تسديد ثمن ما اكلت وما شربت . فوضعت في مكان بارز من حجرتي صرراً صغيرة كتبت عليها : « سم للملك » ، « سم للملكة » « سم لولي العهد » . . . . فلما اكتشفها صاحب النزل اسرع فأعلم السلطات المختصة ، فألقي القبض علي ، وحملت الى القصر للمثول امام الملك فرنسوى الاول . . . . فأخبرته بالمأزق المالي الذي وجدت نفسي فيه ، وبالحيلة التي لجأت اليها لكي اخرج من النزل . فاستلقى الملك على قفاه من شدة الضحك واستبقاني على مائدته لتناول العشاء . . .

صوت : ان الاسطورة الرابلية ، يا سيدي ، رابليه ، تعزو اليك العديد من المغامرات المرحة ، والنوادر الطريفة . ويروى انك كنت تساعد المصابين بالامراض الزهرية في مستشفى ليون على الشفاء بالضحك ، وذلك بقراءة مؤلفاتك الهزلية عليهم .

رابليه : لقد كان المساكين بحاجة الى مثل هذا الدواء الى جانب المعالجة التي كانت تتَّبع معهم ، وهي المعالجة المعروفة بطريقة توريلا . وكانت تقضي بجعل المرضى يتصببون عرقا في افران محرقة طوال خمسة عشر يوما ، وهم يتبعون ريجيما خاصا في الاكل !

صوت : وفي روما ، حيث نجح الكاردينال دو بيلي في حملك اليها كطبيب ، بعد ان اصبح صديقك ، نجحت في انتزاع عفو البابا كليمان السابع عن كل خطيئاتك في عهد الصبا ، وعن خلعك الثوب الرهباني ، وعن ادمانك الشراب ، الخ الخ . . . فلما سألك ماذا تبغي فوق ذلك كله ، اجبته : « ايها الاب الاقدس ، ارجو ان تتفضل علي قداستك فترميني بالحرم . . . » فدهش الجميع لدى سماعهم قولك . فلماذا تقدمت اليه بهذا المطلب الغريب . . .

رابليه : لقد اوضحت لقداسته الغاية من مطلبي فقلت له : « انني فرنسي ، من بلدة صغيرة تدعى شينون ، احرق فيها عدد كبير من الناس ، وفي جملتهم بعض ذويَّ . فاذا ما حرمتني ، يا قداسة البابا ، فلا ابقى مسيحيا ، وبذلك لن اصبح أبداً من المراطقة . . . » اليس منطقيا هذا التفكير ؟!

صوت : طبعا . . . وعندما كنت على فراش الاحتضار ، وجاءك موفد الكاردينال دون شاتيون يطمئن عليك ، كانت كلمتك الاخيرة نكتة ، اتذكر ما هي ؟

رابليه : اجل ، قلت له « اسدلوا الستار . لقد تم تمثيل المهزلة » !

صوت : وهكذا ، يا سيد رابليه ، في تاريخ الضحك يبقى اسمك بلا ريب ، مرادفا للضحك الصافي ، والضحك في حالته الطبيعية الخام . وقد وصفك الكاتب الفرنسي سانت ـ بوف بقوله : « ان كتاب رابليه مأدبة كبرى عامرة . . . انه ليلة من ليالي الميلاد . . . او اذا شئنا قلنا انها اغنية طويلة لما بعد الشراب » .

رابليه : شكرا على تقدير زميلي سانت ـ بوف ، وشكرا لك على نقله الي .

صوت : والشاعر رونسار كتب على ضريحك هذه الابيات : « اذا كانت الطبيعة تخلق شيئا من الجسد الميت الفاسد المستريح تحت التراب ، فان كرمة ستبصر النور من معدة وكرش رابليه الطيب الذي كان يشرب باستمرار طوال حياته ! »

رابليه : سامحه الله ! . . .

سرفانتس : راوي حكايات
(١٥٤٧ - ١٦١٦)

صوت : انه ميكال دوسرفانتس سافيدرا او دون كيشوت ـ سرفانتس الذي عاش في عصر اسبانيا الذهبي فكرياً وسياسياً ، بين سنة ١٥٤٧ و ١٦١٦ ، وهو أبرز من قدمته اسبانيا من الروائيين الى الادب العالمي . و « دون كيشوت » روايته التي ظهرت على دفعتين ابتداء من سنة ١٦٠٥ ، تعد بحق في طليعة الروايات العالمية ، التي ظهرت في اي ادب من الآداب . وفي العالم اليوم اكثر من الفين وثلاثماية وخمسين طبعة من قصة « دون كيشوت » في ثماني وسبعين لغة عالمية او يزيد .

سيدي سرفانتس ، انت جئت الى هذا العالم الذي عرفته تمام المعرفة في حياتك الحافلة ، سنة ١٥٤٧ في الكالا دو هيناريس ، بالقرب من مدريد ، ولكن اسرتك سرعان ما غادرت هذه المدينة الجامعية القديمة للاقامة في فالادوليد ، ثم في اشبيلية ، واخيرا في مدريد .

سرفانتس : لم يكن لوالدي من ثروة غير مجموعة شعارات الشرف التي كان يمتلكها ، وحقيبته كجراح وصيدلي . ولم يكن معظم المرضى يدفعون له اي قرش بدل معالجتهم . ولعل اولى ذكريات الطفولة التي ما تزال عالقة بخاطري ، منظر والدي وهو يجمع اواني المنزل ليحملها الى مكاتب الرهونات .

صوت : ولكن سرعان ما دخل والدك السجن لتراكم الديون عليه ، فترك ابنتين هما اندريا و لويزا وشقيقيهما الصغيرين في غمرة البؤس الشديد . واستطعت ان تتعلم فعملت في خدمة الطلاب الاغنياء لتسد نفقات دراستك .

سرفانتس : ولكن الحياة نفسها ، يا هذا ، هي المدرسة الحقيقية للروائيين .

صوت : صحيح ما تقول ، ففي شوارع المدن وطرقاتها تعرفت الى الحياة على حقيقتها . فعرفت انها قاسية ، ملأى بالمفاجآت ، ومثقلة بالتجارب والاختبارات .

سرفانتس : وفي المسرح حيث كنت اهرع لدى تجمع بعض القروش في جيبي ، اكتشفت للحياة وجها آخر ، وجها صقله الفن ، وعرفت ان الخيال قوي ، ويبدو غالبا اكثر حقيقة من الواقع . وما ان بلغت الثانية والعشرين ، حتى كنت غنياً بالاحلام . . احلام المجد .

صوت : وانخرطت في الجيش ، وذهبت الى ايطاليا ، حيث كان لاسبانيا عدد من الحاميات الكبيرة .

سرفانتس : اجل لقد تمتعت اذ ذاك بلذة ارتداء الملابس الجديدة القشيبة المزركشة ، وللمرة الاولى في حياتي بدأت آكل يوميا حتى الشبع !

صوت : ولقد ظهرت صور هذه السنين من حياة المعسكرات فيما بعد في مؤلفاتك ، فكنت الجندي القديم الذي يتذكر بحنين حانات ايطاليا ونبيذها اللذيذ . . وفتياتها الجميلات .

سرفانتس : تماماً . . ولكني عرفت الحرب الفعلية كذلك . . عندما ارسل الاتراك سنة ١٥٧١ اسطولاً قويا لاحتلال القسم الغربي من حوض البحر الابيض المتوسط ، زمن السلطان سليم الثاني الذي اراد احتلال روما . وقد اشتركت في الحملة البحرية التي اوفدتها اسبانيا وقادها دون خوان النمساوي ، اخو الملك الاسباني ، فيليب الثاني غير الشقيق ، لمساعدة اسطولي الولايات البابوية والبندقية .

صوت : وقد جرحت في صدرك في احدى المعارك البحرية ، وكسرت ذراعك اليسرى ، ولكن الغلبة كانت لاسبانيا ، فغادرت ايطاليا سنة ١٥٧٥ ووجهتك إسبانيا ، والأمل يعمر قلبك لانك كنت تحمل رسالة توصية من دون خوان الى اخيه غير الشقيق الملك فيليب الثاني الاسباني ، وترجو الحصول على منصب حكومي .

سرفانتس : غيران سفينتي وقعت بين ايدي القراصنة ، فأسرنا وحملنا الى الجزائر ، وقد ظن زعيم القراصنة دالي مامي الداهية ، انني شخصية هامة لعثوره على بطاقة التوصية معي ، وان بوسعه ان ينال مبلغا ضخما من المال فدية لي .

صوت : ومرت شهور على اسرك حاولت خلالها غير مرة الفرار من سجنك ، ولكن بلا جدوى ، وحكم عليك بالموت ولكن شجاعتك انقذتك .

سرفانتس : الحقيقة اننا مهما غالينا في وصف قسوة القراصنة ، الا اننا لا يسعنا ان ننكر انهم احترموا شجاعتي وصلابة عزيمتي . فعندما وقفت امام سيدي وآسري مكتوف اليدين عالي الجبين ، وتحملت المسؤولية الكاملة في تدبير مؤامرة الفرار

من السجن ، لم يسع زعيم القراصنة الا العفو عني !

صوت : حسنا : . . وبقيت خمس سنوات كاملة في الاسر ، وفي سنة ١٥٨٠ وطئت قدماك ثرى اسبانيا . . .

سرفانتس : اجل ، ولكن خيبة املي كانت كبيرة ، فسرعان ما تبين لي ان المجتمع ينسى بسرعة هائلة ابطاله .

صوت : وخلال سنوات الانتظار الباطل حاولت ان تكتب ، ولكن كتابك الاول هذا ـ وكان ذيوان شعر ريفي بعنوان « غلاطية » ـ لم يستقبل استقبالا حسنا من القراء والاوساط الادبية .

سرفانتس : لقد حصلت منه فحسب على ما وفر لي ثمن ملابس العرس واكليل لعروسي الصبية ، وكانت تدعى كاتالينا دو سالآزار اي فوز .. وهي ابنة ميديانو بلاشيوس .

صوت : ومما يذكر ان بائنتها كانت بعض كروم العنب ، وحقول الزيتون ، وعدداً من خلايا النحل ، وبعض الادوات الزراعية وهي حصتها من ارث والدها .

سرفانتس : ان فلاحا شابا كان يمكن ان يستقبل مثل هذه « الدوطة » خير استقبال ، اما انا فكنت اميل الى الكتابة لا الى الزراعة والحراثة .

صوت : وحملت زوجتك الى مدريد ، حيث وجدت نفسها بائسة لان الجو لم يكن جوها .

سرفانتس : طبعا . . جو مدريد البوهيمي ـ بشعرائه وكتابه المسرحيين ـ كان يختلف عن جو الريف الاسباني الصافي .

صوت : وقد اسرك عالم المسرح كما يأسر الفراشات لهب الشموع . . . ولم تكن مسرحياتك تدر عليك الكثير . . .

سرفانتس : . . . الا انها كانت تدر علي ما يكفي لتشجيعي على المضي في الكتابة للمسرح ، حتى انني كتبت حوالي عشرين مسرحية . . .

صوت : كان معظمها ـ وبصراحة ـ فاشلا . وفي تلك الاثناء ظهر الروائي المسرحي الشاب لوبه دوفيغا الذي كان عبقريا حقا ، حتى انه كان بامكانه كتابة مسرحية ناجحة في غضون اربع وعشرين ساعة فحسب .

سرفانتس : وعندها هجرت المسرح والقيت القلم جانبا ، واصبحت من جباة الضرائب ، وهي اول وظيفة عرضت علي . . .

صوت : واسوأ وظيفة شغلتها لانها حملتك الى السجن ، بسبب غلطة ارتكبتها في الحسابات ، ولكن سرعان ما افرج عنك لثبوت براءتك من تهمة الاختلاس، فدفعت غرامة قدرها ستة آلاف ريال.

سرفانتس : وما لبثت ان دخلت السجن ثانية ، لانني ائتمنت احد اصحاب المصارف في اشبيلية على مبالغ حصلتها من الجباية ، فاختلسها وتوارى عن الانظار .

صوت : ولكن السجن كان نعمة عليك ففيه اختتمت روايتك الرائعة « دون كيشوت » التي وصفت بحق انها « توراة الانسانية » . فعندما اطلق سراحك كانت رائعة حياتك على وشك ان تتفتح براعمها . وكانت اسبانيا على استعداد تام لاستقبالها .

سرفانتس : اجل ، بعد ان تلقت اسبانيا هذه اقسى الدروس . فـ «الارمادا» التي لا تقهر ، غرقت بما فيها وبمن فيها ، وتبخرت معها احلام الفتح والاستعمار .

صوت : صحيح . . وكان ينبغي اذ ذاك ان يداوى هذا الجرح البليغ في الكبرياء القومي بالضحك الصافي الممتع .

سرفانتس : وهكذا آن للفارس العجوز الطائش ان يظهر في سهول اسبانيا ، يتبعه على ظهر بغله خادمه البدين . . ومن احلامي ككاتب مسكين في الثامنة والخمسين من عمره ، انبثق هذان الرفيقان الخالدان « دون كيشوت » و« سانتشو بانتشا » ، يتبعهما مئات من الشخصيات ليسوا أخياراً ولا اشراراً ، بل هم بشر جميعا . . .

صوت : و« دون كيشوت » - اذا سمحت لي بوصفه - كان يعتقد انه البطل الموعود لتقويم الاعوجاج ، ونصرة الارامل والايتام ، وشق الجبابرة نصفين ، اما خادمه سانتشو بانتشا فكان اكثر واقعية منه ، وكان يعيده الى صهوة جواده بعد كل كبوة . . وبكلمة اخرى كان رأس دون كيشوت في السحب ، وكانت قدما سانتشو بانتشا على الارض . . ولم يكن الاثنان غير شخص واحد ، انت وأنا ! . .

سرفانتس : تماما . . ولكن دعني اشير ههنا الى ان روايتي « دون كيشوت » ظهرت على دفعتين . . فالقسم الاول ظهر منها سنة ١٦٠٥ فحازت الرواج والاعجاب وقبل ان يصدر القسم الثاني منها ، اوتتمتها نزولا على الحاج الجمهور ، وُضعت في الاسواق رواية زائفة بقلم آفيلانيدا الذي لم يكتف بأن هزأ

من فقري ، بل شوه بقلمه بطلي قصتي « دون كيشوت » و « سانتشو بانتشا » .

صوت : وهكذا دُفعت دفعا الى اتمام روايتك التي اصبحت من الروائع العالمية . غير انك لم تعرف لا الثروة ولا الشهرة في اواخر إيام حياتك التي انقضت في مدريد .

سرفانتس : وعندما هبط سفراء فرنسيون مدريد يسألون عن مؤلف « دون كيشوت » ، قيل لهم ان هذا الرجل ليس الا جنديا قديما ومغمورا لا يملك شروى نقير .

صوت : وقد اكتشفوا بيتك الحقير وزاروك ، وفي ٢٣ نيسان من سنة ١٦١٦ قرع الموت بابك ، وقد دفنت في ضريح ليس معروفا اليوم مع الأسف !

سرفانتس : ولكن تبقى ذكراي كفارس شجاع ، ينقض برمحه المخفوض على كل ما هو كذب ، ويبقى ظله ابدا يجتاز اسبانيا ، ويجتاز العالم ، وكذلك يجتاز القرون .

شكسبير : سرّ عمره ثلاثة قرون
(١٥٦٤ - ١٦١٦)

صوت : انا الآن في حضرة وليم شكسبير المعروف ، بفرنسيس بايكون ، وبكريستوفر مارلو ، وبالايرل اوف اوكسفورد ، وبشاعر ايفن . . .

شكسبير : . . . وبالشيخ اسبر ، على اعتبار ان البعض ينسبونني الى العرب .

صوت : حسنا ، انت ابصرت النور في بلدة ستراتفورد اون ايفن سنة ١٥٦٤ ، ولم يعرف بالضبط اليوم الذي ولدت فيه .

شكسبير : كل ما هو معروف انني عُمدِّت في ٢٦ نيسان من هذه السنة ١٥٦٤ .

صوت : الواقع ان مولدك لا يمكن ان يكون بعد ٢٣ نيسان ما دام قد نقش على ضريحك انك في ٢٣ نيسان ١٦١٦ دخلت سنتك الثالثة والخمسين .

شكسبير : شكرا لك على هذا الايضاح ، وثق انها المرة الاولى التي اعرف فيها ما نقش على ضريحي .

صوت : ما دام الامر كذلك فأسمع اذن ما كتبه بن دجونسون على ضريحك ايضا : « لم يكن ابن عصره ، ولكنه ابن جميع العصور » .

شكسبير : وشكرا لبن دجونسون كذلك !

صوت : وما دمنا في هذا المقام فاسمع ما يقوله فيك الفيلسوف الاميركي جورج سنتايانا في احدى قصائده : « ان الله قد ضاعف الخليقة عندما خلق شكسبير » .

شكسبير : وشكرا كذلك لجورج سنتايانا .

صوت : لا شكر على واجب ! . . والآن ، لنعد الى حياتك فليس ثمة معلومات راهنة عما تخلل صباك ، ويقال انك تأثرت خطى والدك ، فعملت في دار البلدية ردحا من الزمن .

شكسبير : الواقع ، يا هذا ، ان والدي كانَ يتعاطى تنظيف القفازات الجلدية .

صوت : ولكن يقال انه غرِّم مرة بدفع ١٢ بنساً لتقصيره في تنظيف كومة من الاقذار والاوساخ من امام منزله .

شكسبير : تلك واقعة غير ذات اهمية بالنسبة الى القراء ، ولكنها ذات قيمة للمؤرخين الادبيين والدارسين !

صوت : وكانت والدتك تدعى ماري اردن ، ولم يعرف عنها شيء اللهم الا انها رزقت ثمانية اولاد ، واشتهرت بحسن تربيتها لهم .

شكسبير : اشكرك على هذه المجاملة .

صوت : في فترة من الزمن عملت لدى احد الجزارين فطبع منظر الدماء اليومي بطابعه العنيف ، تفكيرك الفتي .

شكسبير : ولقد ابرزت ذلك بكل اخلاص فيما بعد ، في الفصل الخامس من كل رواياتي المأساوية .

صوت : وعندما بلغت الثامنة عشرة تزوجت آن هاثاواي ، وكانت تكبرك بثماني سنوات ، ورزقت منها ابنة هي سوزانا . . .

شكسبير : هذه الابنة البكر كانت - صدّق او لا تصدّق - تجهل القراءة والكتابة .

صوت : وبعد ذلك بثلاث سنوات ، اي سنة ١٥٨٥ رزقت توأمين ، اثنين هما هامنيت ودجوديث ، وقد احترفت التعليم الذي لم يكن ليفي بتكاليف المعيشة ، ومما يذكر انك اضطررت الى مغادرة مسقط رأسك بسبب فضيحة سرقة غزال .

شكسبير : ولكن اعلم ان الذين اتهموني بالسرقة لم يستطيعوا اقامة اي دليل يصحّ الركون اليه .

صوت : وفي سنة ١٥٨٧ أو ١٥٨٨ ضربت بعصا المعلم عرض الافق وهبطت لندن فوجدت نفسك في غمرة ما كان يعرف بالمسرح لما قبل شكسبير .

شكسبير : الواقع انني لم اتبوأ مقامي في عالم التمثيل والتأليف المسرحي الا بعد انفصالي عن اسرتي واقامتي وحدي في لندن ، حيث انضممت الى فرقة تمثيلية هي « فرقة تشمبرلن » التي اصبحت فيها بعد « فرقة رجال الملك » .

صوت : وطارت شهرة هذه الفرقة ووجدت طريقها الى القصر الملكي . وكانت تقدم الروايات كذلك على مسرحها الخاص المعروف « بمسرح الكلوب » .

شكسبير : ولا تنسَ انني كنت اتقاضى اكبر حصة من الارباح بصفتي رئيس المسرح .

صوت : وعلى ذكر الارباح ، دعنا نشير ههنا الى انك ابتعت الكثير من العقارات في مسقط رأسك ستراتفورد ، وفي لندن ، حيث كان لك مسرحان . . .

شكسبير : . . . ومصنع يمتد على بضعة اميال بمحاذاة نهر التيمز ، وقد عرف بأسم « مصانع شكسبير » .

صوت : وفي اواخر حياتك عدت الى ستراتفورد ، وامضيت زمنا غير قصير في قصرك المسمى « القصر الجديد » . وكان لك من العمر عندما قضيت نحبك في ٢٣ نيسان ١٦١٦ اثنان وخمسون عاما . فهل تذكر الابيات الشعرية الاربعة التي طلبت ان تنقش على بلاط ضريحك ؟

شكسبير : بالطبع ، اذكرها فأنا ناظمها ، وهي : « ايها الصديق ، بحق يسوع المسيح انفض الغبار عن هذا الضريح . وطوبى للذين يحافظون على هذه الحجارة ، ولتحلّ اللعنة على الذين يحركون عظامي من هنا » .

صوت : هل تدري ان هناك حوالي نصف مليون شخص بين ناشر وصاحب مكتبة ، ومحاضر ومدرس وامين متحف ودليل سياح وسواهم يكسبون ارزاقهم بفضلك ، يا سيد شكسبير ؟

شكسبير : هذا امر غير مستغرب ، فليشكرني هؤلاء كما شكرت انا في مستهل هذه المقابلة جميع الذين احسنوا الظن فيّ .

صوت : ما دمت قد عدت الى ما جرى بيننا في بداية مقابلتنا هذه

فاعلم انك كنت طوال ثلاثة قرون وما تزال لغزا مطبقا ، فهناك نظريات عدة تقول انك لست انت كاتب رواياتك بل سواك ، وفي طليعتهم كريستوفر مارلو الذي يعتقد الكثيرون من المتخصصين في دراسة ادبك انه لم يقتل في ايار سنة ١٥٩٣ في احدى حانات دبتفورد، بل الذي قُتل بدله امرؤ اخر . ولذا عاش في الخفاء لدى حاميه وراعيه وولسنغهام ، وراح يكتب المسرحيات باسم ممثل شاب هو شكسبير .

شكسبير : لست ادري ما الداعي الى كل هذه المغالطات ما دامت روايات شكسبير قد كتبت ووجدت وما اهيمة معرفة حقيقة شخصية كاتبها .

صوت : انك بذلك تذكّرني بنادرة للاديب الفرنسي الساخر الفونس آلليه ، فقد جرى امامه ذات يوم النقاش حول من كتب روايات شكسبير ، أأنت حقا ام سواك ، وهل عشت ؟ فقال : « انها قضية تافهة ومهينة بحد ذاتها ، فالمهم قبل اي شيء انها كتبت ووجدت » .

شكسبير : تماما كما سبق ان قلت لك .

صوت : ولكن الفونس آلليه قال اكثر من ذلك اذ حسم الجدال بسخريته المعهودة قائلا : « شكسبير لم يوجد قط . . . وكل مسرحياته وضعها رجل آخر كان يدعى كذلك شكسبير » !

شكسبير : لقد ابصرتني الآن وقضيت معي فترة غير قصيرة في الحديث والمناقشة ، وبوسعك التأكيد للجميع انني

وجدت حقا ، او على الاقل هناك من يدعى شكسبير كتب المسرحيات المعزوة اليه ، لا فرق أكان هذا الكاتب انا ام سواي . . .

صوت : ثق انني سأفعل ذلك ، ولن اذكر لك مضمون سائر النظريات التي تقول ان كاتبا ايطاليا هو ميشال آنيولو فلوريو هو واضع مسرحياتك بالايطالية ، وقد ترجمها ابنه من بعده ونشرها حاملة اسم صديقه وليم شكسبير .

شكسبير : دعني في هذا المجال اصف كل هذا الذي يدور حول حقيقة شخصيتي بعبارة هي عنوان احدى مسرحياتي «جعجعة بلا طحن » ! ألست من رأيي ، يا هذا ؟

صوت : بالطبع ، والآن استأذنك بالانصراف ، وشكرا جزيلا .

شكسبير : يمكنك الانصراف وعلى بركات الله .

فولتير : بدأ عصر العقل
(١٦٩٤ - ١٧٧٨)

صوت : لكم يغبطني الوقوف الان في حضرة المفكر والاديب الساخر فرنسوى ماري اروويه . . .

فولتير : فولتير ، من فضلك ، فأنا معروف بهذا الاسم اكثر .

صوت : اعلم ذلك ، ياسيدي . وأنت مولود سنة ١٦٩٤ في ضواحي باريس .

فولتير : اجل ، وقد عشت على الارض اربعا وثمانين سنة بالتمام والكمال .

صوت : درست عند اليسوعيين ، ومع تعلمك اصول الدين تعلمت كذلك الشك .

فولتير : صحيح ، وقد اتهمت بالالحاد .

صوت : وبلغت بك الجرأة حد القول ان الكتاب المقدس سيصبح في غضون قرن من الزمن من الكتب البالية المنسية التي لا وجود لها الا في المتحف . فهل تدري ماذا حدث ؟

فولتير : لا ، ماذا حدث ؟

صوت : انقضت المئة سنة التي حددتها فاذا بمنزلك يصبح مقراً لفرع جمعية الكتاب المقدس في جنيف .

فولتير : ماذا تقول ؟ يا لسخرية الاقدار ! . .

صوت : وليس هذا فحسب ، بل ان الكتاب المقدس يعتبر اليوم اكثر الكتب رواجا في العالم ... في حين بيع اخيراً اثنان وتسعون مجلداً من مؤلفاتك بمبلغ دولارين اثنين فقط . . .

فولتير : فقط ، لا غير ؟!

صوت : فقط ، لا غير ! . . والآن قبل الخوض في شؤون حياتك الخاصة والامور الجدية دعني اسألك صحة ما روي عنك حول طريقتك في الكتابة . فهل كنت حقا لا تبدأ في الكتابة الا بعد ان تضع امامك مجموعة من اقلام الرصاص لا يقل عددها عن « الدزينة » ؟

فولتير : اجل ، وكنت بعد فراغي من الكتابة ، اكسر رؤوس هذه الاقلام ثم ألفها بالورقة التي كنت اكتب عليها واضعها تحت وسادتي عندما انام .

صوت : ولماذا كنت تفعل ذلك ، يا سيد فولتير ؟

فولتير : الا تسمع الشاعر العربي يقول : وللناس فيما يعشقون مذاهب ؟!

صوت : صحيح ، ماتقول ، وانت القائل : « تجارتي ان اقول ما افكر فيه . . . اني اخالفك في كل كلمة تقولها ، ولكنني ادافع حتى الموت عن حقك في قولها ! » .

فولتير : تماما . وهل بلغك ان اقوالي الجريئة هذه كانت تجعل الملوك والبابوات يصغون الي ، ويرتجفون ؟!

صوت : وقد كلفتك جرأتك هذه غاليا . ففي الثالثة والعشرين زجوا

بك في قلعة الباستيل لاهانتك القصر الملكي ، فماذا فعلت ؟

فولتير : في السجن ؟ كان اول شيء فعلته انني طلبت اشعار هوميروس . وبعد ذلك وضعت في السجن كذلك ملحمة « هنرياد » .

صوت : وبعد الافراج عنك سجلت نجاحا ادبيا كبيرا في مسرحيتك « اوديب » .

فولتير : اجل ، وفي سنة ١٧٢٦ اعتقلت من جديد لجرأتي في القول ، وصراحتي المتناهية ، ونفيت الى انكلترا حيث قضيت ثلاث سنوات .

صوت : لا غرابة في ذلك . وهذا ما يبرر اللقب الذي عرفت به !

فولتير : اي لقب تقصد ؟ . . ما اكثر الالقاب التي عرفت بها . . .

صوت : اقصد « شرارة الحرية » .

فولتير : آه ، صحيح . لقبت كذلك لانني اسهمت مساهمة كبرى في وضع الحجر الاساسي للثورتين الفرنسية والاميركية .

صوت : ولِمَ لا تقول انك اسهمت مساهمة كبرى في اشعال نار الثورتين المذكورتين ؟

فولتير : كان ينبغي ان اقول ذلك ما دمت « شرارة » !

صوت : في سنة ١٧٣٤ ، وبعد عودتك الى باريس من منفاك في لندن نشرت كتابك « رسائل عن الانكليز » ، فأحدث ضجة كبرى اضطرتك الى الفرار الى اللورين بعد ان اختطفت زوجة

المركيز دو شاتليه ، وهي سيدة مثقفة كانت طوال اربع عشرة سنة رفيقتك الفكرية وعشيقتك . ...

فولتير : وما الداعي ، يا هذا الى اثارة الفضائح ؟

صوت : إنها الامانة في سرد الوقائع التاريخية !..

فولتير : حسنا اذن ، ما دام الامر كذلك .

صوت : ولما عدت سنة ١٧٤٦ الى باريس انتخبوك عضوا في الاكاديمية الفرنسية ، وانتجت بعد استقرارك فيها ، روايتيك الشهيرتين « صادق » و « ميكروميغاس » وكان لـوفاة عشيقتك بعد ذلك بأربع سنوات بالغ الاثر في نفسك .

فولتير : الا ترى ذلك امرا طبيعيا ؟

صوت : بلا ريب ، بلا ريب . فنشدت السلوى في البلاط البروسي تلبية لدعوة وجهها اليك الملك فريدريك الكبير ، فأقمت هناك ثلاث سنوات !

فولتير : كان ، رحمات الله عليه ، صديقا عزيزا . كان شغوفا بالكتابة ، فانهمك بمراسلتي ، وكنت شديد الاعجاب به وبشخصيته الفذة ، فتوطدت بيننا أواصر صداقة متينة .

صوت : لقد اثر عن فريدريك الكبير هذا ، او فريدريك الثاني ، انه كان يبالغ في تكريم رجال الفكر والعلم والأدب والفن. يؤثر صحبتهم على صحبة رجال السياسة والمال، وربات الجمال والظرف والحسن والأناقة.

فولتير : الا انه كان يؤثر على صحبة هؤلاء واولئك صحبة العسكريين ، قادة وانفارا . فكان يجلس عن يمينه قائد

الفرسان ، وعن يساره قائد المشاة ، في المآدب النادرة التي كان يقيمها ، مبالغة منه في تكريم الجندية في شخصيهما.

صوت : افلم تسأله ، وهو صديقك الحميم ، عن سبب احاطته العسكريين بهذا الاكرام والاحترام ، وميزتهم انهم رجال سيف فحسب ؟

فولتير : سألته هذا السؤال ذات يوم فكان جوابه : « العسكريون هم صفوة خدَّام الوطن والعرش ، يخدمونهما باخلاص ويفتدونهما بالارواح . وعندما يجدّ الجد لا يفيد الوطن والعرش غير السواعد القوية والسيوف الماضية ! »

صوت : كلام منطقي معقول ! وعندما عدت من بروسيا الى فرنسا ، ماذا فعلت ؟

فولتير : عدت الى باريس بعد ثلاث سنوات ، فوضعت اول كتاب فلسفي عن التاريخ ، محاولا فيه ان احلل المسبب الطبيعي وراء تطور الفكر الاوروبي .

صوت : اجل ، انه كتاب يحمل عنوان « مقالة عن الاداب وروح الامم » . واقمت على ما اذكر في داخل الحدود السويسرية ردحا من الزمن .

فولتير : اقمت في فريني زمنا غير قصير وضعت فيه كتابي « كانديد » ، وقاموسي الفلسفي ، وأسهمت في وضع الموسوعة الفرنسية المعروفة « الانسيكلوبيدي » !

صوت : سيدي فولتير ، قليلون يعرفون انك مخترع الدبابة ، فهلا حدثتنا عن ذلــك .

فولتير : كنت في قصري المعروف بقصر اللذات عندما فكرت بالآلة

الحربية الجديدة التي تسميها الدبابة ، وقد دعوتها « عربة احشورش » . وقد وصفتها في رسالة بعثت بها الى الماريشال دو ريشيليو سنة ١٧٥٦ بأنها سلاح جهنمي فعال .

صوت : وكنت شديد الحب للمال الى درجة العبادة مع كفرك والحادك ، فاتصلت بريشيليو تطلعه على اختراعك لتؤمن ظهوره الى حيّز الوجود . اتذكر ماذا كتبت الى ريشيليو عن دبابتك ؟

فولتير : كتبت اليه معددا مزاياها قائلا :
« كم اود ان تستخدم دبابتي هذه من اجلك انت ومن اجل وطننا الغالي فرنسا . فهي قليلة التكاليف ، لا تحتاج الا الى القليل من الرجال والخيل . وثق بأن عدم نجاحها لا يمكن ان يمني قواتنا المسلحة بالهزيمة ، كما قد يتبادر الى ذهنك للوهلة الاولى . ولنفرض جدلا ان مدفعية الاعداء قد حطمت جميع دباباتنا ـ وهذا امر بعيد الاحتمال ـ فان حطامها المتكدس سيعرقل ، لا محالة ، تقدّم اعدائنا ، ويكون بمثابة حواجز او دروع ترد عنا غوائلهم . . . »

صوت : ولكن احداً لم يعر وقتئذ اختراعك نصيبه من الاهتمام .

فولتير : ومرت عشرة اعوام كتبت في نهايتها الى امبراطورة روسيا كاترين الثانية اصف لها دور عربتي الجديدة الحاسم في المعارك . . . ولكم انفجرت ضاحكا سلفا لتفكيري في ان الخلف سيهزون رؤوسهم عندما يعرفون ان فولتير هو صاحب هذا الاختراع الجهنمي !

صوت : كنت اود ان تطول هذه المقابلة ، يا سيد فولتير ، ولكن يبدو

انني سببت لك بعض التعب ، فمعذرة وشكرا على تلطفك باعطائي كل هذه المعلومات القيّمة عنك وعن نشاطك الجم .

فولتير : صحيح انني تعب . . . انها السن ! لا تنس انني في الرابعة والثمانين . . .

روبرت بيرنز : شاعر الديمقراطية
(١٧٥٩ - ١٧٩٦)

صوت : لقاؤ نا الآن مع الشاعر الشعبي الاسكتلندي روبرت بيرنز الذي عرف بلقب « شاعر الديمقراطية » . ذلك بأن بيرنز كان يستحق لقب شاعر الديمقراطية لانه لم يكتب عن الشعب وللشعب فحسب ، بل ان الشعب الذي كان يكتب عنه ، ويكتب له ، كان يقرأه . واذا كان لليونان معلم هو هوميروس ، فان لاسكتلندا معلما هو بيرنز . وليس من المبالغة في شيء القول ان الشاعر الحقيقي مبدع ، واكثر من مبدع . . انه نبي ! والشاعر الحقيقي ابعد كذلك من هذا كله . انه معلم لا يرى النور فحسب ، بل يقود خطانا في اتجاه النور . وهو على نقيض العالم الذي يلازم بهدوء برجه العاجي مستسلما للتأمل ، نجد الشاعر بوجه عام ، يكافح في طليعة التقدم البشري والانساني . والشعراء الكبار يؤلفون اوثق صلة بين بشر اليوم وسوبرمان الغد .

بيرنز : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذه النظرة للشعر وهذا التقدير الكبير لرسالة الشاعر . واسمح لي في هذا المجال ان اشير الى قول للمفكر توماس كارلايل ، وهو ان ثمة عرقا شعريا في قلوب جميع البشر . ونحن جميعا شعراء عندما نقرأ بتفهم ووعي قصيدة عصماء .

صوت : بعد هذه المقدمة سنتناول بالتفصيل - إذا اذنت - وقائع حياتك القصيرة التي تميزت بالبؤس والعسر والكدح .

بيرنز : ولدت ونشأت في اسرة فقيرة معدمة فعملت حارثا في احد المزارع لأكسب قوتي ، وكنت اكبر اخوة سبعة .

صوت : وقد بلغ سوء حال اسرتك وفقرها المدقع ان قضت سنوات لا يعرف اللحم سبيلا الى مائدتها .

بيرنز : لقد كانت ارضنا جرداء ، وكان ابي عجوزا هرما سقيم الصحة . فلما بلغت الخامسة عشرة اصبحت رئيسا لعمالي في الحقل . وكنت قويا ، اعتز باستقامة الاخاديد التي احفرها بالمحراث . غير ان العمل المجهد اتعب قلبي ، فكنت كلما اعترتني نوبات الدوار أثب الى حوض الماء البارد بجانب سريري .

صوت : مما يذكر انك لم تقضِ في المدرسة سوى بضعة اشهر ، ولكنك مع ذلك ، تقف مع اعظم شعراء التاريخ ، وتعتبر حجة في اغاني بلادك ، وصاحب افضل قصائدها الغنائية .

بيرنز : كان لي من العمر سبع عشرة سنة عندما نظمت قصيدتي الاولى ، وكنت ما ازال احرث الارض من طلوع الشمس الى مغيبها ، عندما شرعت انظم القصائد المتينة السبك وانا بعد في الخامسة والعشرين ، الا انه لا ينبغي ان يستخلص المرء من ذلك انني كنت فلاحاً غير مثقف .

صوت : ثق ان ليس هناك من يستطيع بلوغ مرتبة عليا في الادب دونما جهد وكد عقليين متواصلين .

بيرنز : ذلك هو الواقع . فقد كنت بعد كدح النهار ألتهم بنهم كل ما تصل اليه يدي من كتب الادب والتاريخ والفلسفة واللاهوت . ودرست اصول النوتة الموسيقية ، واللغة الفرنسية .

صوت : لعل الكبرياء والعاطفة كانا من الخصال التي اتعبتك . ولو انك كنت تعيش في بلد اكثر ديمقراطية من اسكتلندا لما كان ثمة مشكلة .

بيرنز : كنت ادرك حق الكبرياء ومداها ، ولي في ذلك هذا القول :
« ينبغي اولا ان نعين مستوى اخلاقنا ، ومتى عرفنا بعد الفحص التام اين نقف وما قدرها ، فان علينا ان نكافح في سبيل ذلك على اعتبار انه ملك لنا . »

صوت : وقد ارهقتك العاطفة لانك كنت مفطورا على الحب ، كما كنت مفطورا على الشعر . وكانت لك رقة قلب وغزل مرح لم تستطع الفتيات مقاومتها .

بيرنز : كان ايماني بالحب ايمان المجاهد . وقد انشأت في صباي جميعة للمناظرة يفرض نظامها ان يكون للرجل الصالح لعضويتها حبيبة او اكثر .

صوت : لقد عملت بهذا المبدأ مردداً أن تجارب حياة العزوبة والزواج تثبت أن الحب هو أول مسرات الحياة. وقد تزوجت إحدى حبيباتك دجين آدمز التي اصبحت زوجتك فيما بعد وكنت تحب فتاة اخرى تدعى ماري كمبل توفيت بالحمى ، فألهمتك قصيدتك الرائعة الى ماري في السماء .

ولعل من المناسب في هذا المجال القول ان سيرتك كشاعر تبدأ بروح المرح والفكاهة .

بيرنز : الواقع انني كنت انظم الشعر للتسلي . وانا القائل : « بعضهم ينظم الشعر ليهجو به جادا ، وبعضهم ينظمه ، ويا للعيب، من اجل المال المنشود . اما انا فأنظم الشعر للتسلي » .

صوت : صحيح انك كنت تنظم للتسلي ، الا انه كان لشعرك تأثير اخلاقي لم يعرفه الا القليلون من ابناء عصرك . كنت تكره الطغاة والمنافقين والمتعصبين وتلسعهم بسياط السخرية والعبث .

بيرنز : ولكني ازاء كل شيء اخر ينبض بالحياة كنت افيض رقة وعاطفة .

صوت : ثق ان هذا الجمع بين المتناقضات هو الذي يحلك مقاما مرموقا بين الشعراء والناس . ولقد ذاع شعرك بين الذين كانوا يعرفون كيف يضحكون وكيف يبتسمون . وقد جمعت شعرك في ديوان ونشرته سنة ١٧٨٦ وانت معدم محطم لتجمع مبلغا من المال يؤمن لك السفر الى جزيرة جامايكا حيث كنت تنوي العمل في احدى المكتبات العامة .

بيرنز : سوى ان الطبعة كانت محلية فلم ينشر سوى ٦١٢ نسخة ، سددت تكاليف طبعها من ثلاثمئة اشتراك عقدتِ في ارجاء البلاد .

صوت : حبذا لو ان مثل هذا الاسلوب في البيع يجري عندنا !

وراج ديوانك هذا ، وفتح لك باب المفاوضات من أجل نشر ديوان آخر ، فنزعت من رأسك فكرة السفر ، وبقيت في اسكتلندا ، واقمت في ادنبره حيث عشت عيشة بوهيمية .

بيرنز : على ذكر ديواني الاول لا يسعني كتمان بعض التفاصيل . فقد اختبأت لدى صدور الديوان تهرباً من امر بالقبض علي استصدره في سورة غضب دجيمس آرمر ، والد الحبيبة دجين التي رزقت منها بأربعة اطفال قبل ان اتزوجها ، وبطفلين آخرين من سواها . فقد كنت اعيش في عصر تعتبر فيه مثل هـذه الاعمال امراً منكرا .

صوت : ولكنك ما لبثت ان اعترفت بأبوتك لهم جميعا بكل جرأة وصراحة ، واحببتهم حبا جما .

بيرنز : لقد كانت غريزة الأبوة في نفسي قوية كحبي ، وأبيت ان اقصر حياتي على الادب ، فوهبت نصف ما درّه علي ديواني الثاني لاخي ليقوم بنفقات حقل الاسرة ، واستأجرت بالمبلغ الباقي حقلا خاصا بنيت فيه لزوجتي ولاولادي بيتا .

صوت : ودرست وتقدمت الى امتحان لمنصب جباية الضرائب لانك لم تشأ ان تخلط بين المال والفن . ولما كنت قد نظمت الشعر في بادىء الامر على سبيل التسلي ، فقد شئت ان تستمر في نظم الشعر للتسلي حتى النهاية مهما كلف الامر .

بيرنز : وقد رفضت منصبا ذا مرتب ثابت في احدى صحف

لندن . ولما عرضت على ناشر كتبي اضافة خمسين صفحة من القصائد الجديدة لتضمها طبعة ثانية من احد دواويني لم اطلب مقابل ذلك الا عشرين نسخة لاهدائها « الى بعض عظماء قليلين احترمهم ، وجماعة من العامة احبهم » .

صوت : ونعرف كذلك انك عندما اتفقت مع الناشر على طبع ديوانك الآخر الشهير الذي جمعت فيه الأغاني الشعبية الاسكتلندية وصنفتها ونظمت طائفة كبيرة منها أبيت غاضبا ان تتقاضى اي بدل .

بيرنز : لقد عملت بنظرية الفن للفن ، فلم اسعَ للتكسب من الشعر .

صوت : وطوال السنتين الاوليين اللتين قضيتهما في بذل هذا المجهود الادبي الضخم لم تكن لتكف عن العمل المضني والكدح اليومي ، شأنك في ذلك شأنك في مستهل حياتك .

بيرنز : كنت اشرف على حقل مساحته ١١٨ فداناً ، وأقطع مسافة مئتي ميل اسبوعيا على ظهر جوادي لاقوم بمهام منصبي كمفتش في الجمارك .

صوت : وبعد ذلك اقمت في بلدة دمفريز حيث امضيت خمس سنوات ، هي السنوات الاخيرة من حياتك .

بيرنز : غير ان ايامي الاخيرة لم تكن سعيدة . فقد مللت وظيفتي وكان عطفي الصريح على الثورة الفرنسية قد أكسبني عداء الحكومة .

صوت : وبعد وفاتك اتهمت بأنك كنت سكيرا وكسولا ، كل ذلك بسبب نضالك في سبيل العقل والرحمة في الدين ، وفي سبيل حقوق الانسان .

بيرنز : لقد كان سلاحي سهام السخرية ، فما ان اسكت الموت لساني حتى انبرى المتعصبون والمحافظون للأخذ بالثأر .

صوت : وقد بالغ هؤلاء في افتراءاتهم ، حتى انهم ظلوا فترة طويلة من الزمن يدلون على المكان الذي يقال انك وقعت فيه ثملا فوق الثلج ، فضربك البرد وقضى عليك .

بيرنز : أوَ تصدق ذلك ؟

صوت : ثق ان احدا لم ولن يصدق هذه الرواية لانه ليس فيها حرف واحد من الصدق . فقد قضيت عمرك القصير الذي لم يتعدَّ السنوات السبع والثلاثين في الكدح . وكانت وفاتك بداء القلب ، لا بتأثير الخمرة التي حاول اعداؤك ان يجعلوها سببا في موتك .

بيرنز : ذلك هو الواقع ، ولا اكتمك انني كنت استمتع بالشراب ، ولكن بكل اعتدال ، عملا بالقول المأثور : « قليل من الخمر يفرح قلب الانسان » . . .

اللورد بايرون : شاعر القوة والعاطفة والجمال
(١٧٨٨ - ١٨٢٤)

صوت : كان بايرون نبيلا من نبلاء انكلترا ، ولكنه كان يختلف عنهم بثورته عليهم . ثار على طبقته وجحد بالقيم التي كان يتبناها اهل عصره . وهذه الثورة هي التي ولّدت عند الشاعر تناقضا في بعض اتجاهاته رغم ايمانه بالحرية ايمانا مطلقا . ولقد كان يفسر هذا المبدأ ، الحرية ، تفسيرا خاطئا . . . تراه يقدس نابوليون ، على تعسفه وظلمه ، بينما يموت من اجل حرية الشعب اليوناني يوم ثار ضد مستعمريه . . . وثورته هذه تبدأ منذ كان ما يزال ولدا . فقد وبخته مربيته على توسيخ ملابسه الجديدة ، فنزع عنه هذه الملابس وقطّعها اربا اربا . ثم انقضّ على المربيّة المسكينة ولقنها درسا قاسيا جعلها تستغيث ، وتطلب النجدة . وفي صغره كانت له سبع معارك مماثلة ، الا انه لم ينتصر إلا في ست منها فقط . . . . سيدي بايرون ، قل لنا من اين ورثت حدة الطباع تلك ؟

بايرون : لقد ورثت ثورتي الجامحة من جانب والديّ . فقد كان لي عم قتل رجلا في نزاع جرى في احدى الحانات . ووالدي اختطف فتاة وتزوجها وهرب بها ، ثم هرب منها . وتزوج ثانية فانفق كل اموالها على الخمرة ، وهجرها ليموت في الخارج .

صوت : وكانت هذه الزوجة الثانية والدتك التي عرفت بأنها كانت قوية الشكيمة ، شديدة البأس .

بايرون : بل قل انها كانت كالنمرة . ففي سورات غضبها كانت تمزق قبعاتها واثوابها وتقذفني بالآنية ورفوش الموقد كلما « تشيطنت » ، وتدعوني « الصبي الاعرج » .

صوت : وقد كانت تلك الاهانة تثيرك وتخرجك عن طورك ، فالحقيقة تجرح ، وانت كنت اعرج ، وتشعر بعقدة نفسية من جراء هذه العاهة . حتى انك حاولت مرة الانتحار ، فرفعت مدية الى عنقك وكدت تزهق روحك لو لم يسارع البعض الى انقاذك .

بايرون : لحسن الحظ ، او لسوئه ، لست ادري . . . ولكن على اي حال ، كانت منازعاتي مع والدتي كثيرة ، فدعنا منها الآن .

صوت : حسنا ، كل ما شئت ابرازه هنا ان حياة رجل مثلك مفعمة بشتى العواطف ، كان ينبغي حتما ، ان تكون عاصفة ، فقد كانت تشتعل في داخلك ثورة لاهبة . ففي الثامنة من عمرك عرفت حبك الاول ، ولكن من احببت تزوجت ؟

بايرون : في الثامنة عشرة احببت نسيبتي مارغريت باركر ، فماتت بداء الصدر ، فشعرت بأن نهايتي باتت وشيكة .

صوت : الواقع ، يا سيدي اللورد ، انك لم تكن لتتحمل الشقاء الفكري ، ولكنك تجاه الآلام الجسدية كنت جبارا عنيدا .

بايرون : لا تنسَ ان كل ذي عاهة جبار ! . . فلكي اتغلب على عرجي جعلت سائر اعضاء جسمي تخشوشن ، وذلك بالتمرينات الرياضية على اختلاف انواعها . فركبت الخيـل ، ومارست المـلاكمة والمصـارعـة ، والمبـارزة بالسيف ، والرماية ، والسباحة .

صوت : ومما يذكر انك اصبحت من ابرز سباحي عصرك ، ومن اجملهن صورة . فكنت اشبه بالآلهة حقا وكان حتما ان تتفتح عبقريتك بسبب الحياة الصاخبة التي كنت تحياها ، والتي منحت مخيلتك ما يشبه الجناحين للتحليق في عالم الشعر . وقد نشرت اول ديوان لك وانت بعد في التاسعة عشرة من عمرك ، وكان بعنوان « ساعات الفراغ » .

بايرون : ولكنه كان ـ حسب رأي النقاد ـ عملا ادبيا غير ناضج .

صوت : الامر الذي اثارك كثيرا وجعلك ترد على اولئك الذين عجزوا عن الاعتراف بعبقريتك ، بقصيدة هجائية طويلة بعنوان « شعراء انكليز ونقاد اسكتلنديون » ، ثبَّتت مكانتك الادبية ، ثم نفضت بعدها قدميك من تراب انكلترا ، ورحلت الى القارة الاوروبية .

بايرون : لقد سئمت مجتمعا يصنع العبارات ويقتل الرجال .

صوت : وفي الخارج ، كما في انكلترا ، اندفعت وراء المغامرات غير آبه لشيء .

بايرون : واعلم انه كان يسرني جدا ان يرسموا لي صورة اشد اسودادا من الواقع . ولا اكتمك انني طالما هفوت الى اختبار شيء واحد لم يتسن لي اختباره ، وهو الاجرام .

صوت : احقا ما تقول ؟ اذن فقد كان السر ولتر سكوت على حق عندما اشار اليك وقال ان « الخطيئة ينبغي ان تكون اكثر تواضعا » .

بايرون : الا ان التواضع كان اقل الفضائل التصاقا بي . فلقد كنت اطمح الى بهر العالم بأعمالي وبافكاري ، ونجحت على ما اعتقد .

صوت : صحيح ، فبعد نشرك قصيدتك الهجائية الشهيرة بثلاث سنوات ، وعودتك الى انكلترا ، نشرت ملحمة «تشايلد هارولد » التي جعلتك تقول : « لقد صحوت ذات يوم فوجدت اسمي ملء الاسماع » .

بايرون : اجل ، فقد كانت تلك المفاجأة الاولى ، اما المفاجأة الثانية التي اصابت الرأي العام البريطاني ، فكانت زواجي .

صوت : ولكن الشقاء الذي نجم عن هذا الزواج لم يكن مفاجأة لاحد . فأنت لم تكن من اولئك الذين يستطيعون الاستقرار ، والعيش عيشة هادئة .

بايرون : ولم تكن قط زوجتي من النوع الذي يتسامح بالاخطاء ، ولا من النوع الذي يرتكب اخطاء . . .

صوت : ومما يروى في هذا الصدد انكما عندما صعدتما الى العربة بعد حفلة الزفاف ملت الى عروسك قائلا : « انت الآن زوجتي ، وذلك سبب كافٍ لكرهك . ولكنك لو كنت زوجة سواي ، لكان ذلك كافيا ليجعلني احبك ! »

بايرون : وكانت تلك الحادثة سببا كافيا لحملها على الاعتقاد بأنني

مجنـون ، ولحملي الى احـد اطباء الامـراض العقلية ليفحصني . فلما طمـأنها الطبيب الى سـلامة قـواي العقلية ، كان تعليقها : « يمكن ان يكون سليما عقليا ، ولكنه مجنون اخلاقيا » .

صوت : وهكذا هجرتك بعد سنة من زواجكما وبعد ان رزقتما ابنة . . . وتركتك وحيدا ، مع آلهتك ، منبوذا ، وهدفا للنقد الجارح ، لانك كنت خائنا ، بل لانك كنت صريحا في اقوالك وآرائك .

بايرون : مع ان طبقة النبلاء الانكليز ، وكثيرا من مفكري عصري دعوا الى اللذات ، وكانت حياتهم متناقضة تماما مع مظاهرهم ، الا انهم حاربوني بقوة ، واعتبروني شخصا ساقطا خطرا ، وحرّم الازواج على الزوجات وجودهن حيث اوجد ، وابوا مصافحتي.كانوا يرضون عن شعري الذي يصف الحب الآثم ، ولكنهم يلعنون حبي هذا . يحبون الخيال الذي يصور ما يتمنونه في اعماقهم ويكرهون الواقع ، او يكرهون ان تتجسم هذه الرذائل وتتحقق في اشخاص غيرهم ، وهنا الانانية ، وتلك رذيلة اخرى تجعلهم غيورين على التغني بالفضيلة ما دام الفرد الغيور نفسه لم يمارس الرذيلة ، ولم يستمتع بها .

صوت : وصممت على مغادرة انكلترا . وقد اقلعت في شهر نيسان من سنة ١٨١٦ احد السفن من ميناء دوفر حاملة شاعر القوة والعاطفة والجمال الى روما ، ليعيش على هواه ، ويحيا حياة المغامرات التي ضاق بها جو وطنه ومسقط رأسه . وفي روما احببت سيدة شقراء في العشرين من

عمرها زوجت الى رجل في الستين . فتخلت المرأة عن زوجها لتعيش معك في نابولي .

بايرون : ولكن في غمرة سعادتنا بهذا الحب تسلمت رسالة من جمعية اصدقاء اليونان في انكلترا تدعوني فيها الى المساهمة في تحريرها من نير الاتراك .

صوت : وعلى الرغم من حبك لشقرائك ، وعلى الرغم من فقرك ، تمكنت من شراء سفينة صغيرة واقلعت بها في مجازفة جنونية الى اليونان ، تحدوك اسطورة من اساطير البطولة . وكان عملك رائعا في تنظيم الكفاح . وكنت وانت الدون جوان ، محاربا خشنا ، يروض الجنود . ولكنك اصبت بالحمى ، وتوفيت في ١٩ نيسان من سنة ١٨٢٤ ، بطلا في نضالك ، وبطلا في شعرك الذي ترجم الى العديد من اللغات ، بعد ان اصبحت معبودا للشعوب التي ايقظها نابليون بحروبه . . .

بايرون : لقد كنت مثاليا في تضحيتي بمالي وجهدي وحياتي ، وقصدت ان اقول لابناء طبقتي متحديا : « لقد استرددت هدفي الطيب بالابتعاد عنكم » .

صوت : مات بايرون عن ستة وثلاثين ربيعا ، مات في ميسولونجي وهو يكفّر عن خطاياه ، وقد قال وهو يودع الدنيا : « لقد وهبت اليونان حياتي » . ولقد قدسته اليونان وتنكرت له انكلترا . . . وبدا هذا التنكر واضحا عندما نقل جثمانه الى انكلترا اذ لم يشيعه في ذلك الوقت اي انسان ، ولكن بعد مضي سنوات عادوا فمجدوه .

بايرون : ماذا أسمع ؟ أالى هذا الحدّ بلغ التنكر لي ؟!

صوت : اجل ، ولكن اسمع هذا : يروى انه في **٣٠** تموز **١٩٣٠** ظهرت في احدى الصحف صورة من الصور اليومية التي كان يرسمها روبرت ريبلي تحت عنوان « صدق او لا تصدق » وقد رافقتها العبارة التالية : « بوتسواين ـ كلب بايرون له ضريح فخم ، في حين أن الشاعر نفسه اللورد بايرون ليس له ضريح » . وكان لذلك تأثير عميق الاثر في نفوس ابناء المدارس في انكلترا ، واعتبروا ذلك اهانة لشاعرهم الكبير ، فتنادوا الى فتح حملة اكتتاب لجمع مبلغ من المال يبنون به ضريحا للشاعر يليق بمكانته ، ويعلوه تمثال مناسب لبايرون .

بايرون : اصحيح ما تقول ؟ ان الرجوع عن الخطأ فضيلة حقا ، فشكرا لهم !

غوته : شاعر كل العصور
(١٧٤٩ - ١٨٣٢)

صوت : غريبة هي المصادفات والأقدار ، فنتيجة لغباء القابلة التي تمت ولادة غوته على يدها وصل الى عالم الأحياء على انه طفل ميت ! هذا ما كتبه غوته في مذكراته التي ارخ فيها حياته . ولوِ ان ذويه لم يحاولوا ايقاظه بعد ولادته مباشرة ليتأكدوا من حياته أو موته لما قدِّر له ان يعيش ، ولما قدِّر للعالم ان ينعم بما نعم وينعم به من روائع هذا العملاق في الادب والفكر . فليس غوته اعظم شعراء المانيا فحسب ، وانما هو شخصية عالمية فذة . ولقد كان نشاطه المتعدد الوجوه مكافأة لعظمة تفكيره وشخصيته .

في غوته يمكننا ان نرى تجسيد عصره الخاص ، كما يمكننا ان نعتبره شاعر كل العصور . وان جميع الذين يقدّرون عبقريته يتفقون في رأي ، هو الرأي الذي اطلقه امبراطور الفرنسيين نابوليون اذ هتف بعد لقائهما في ارفورت سنة ١٨٠٨ : « معنا الآن غوته » . اتذكر ذلك اللقاء مع بونابرت ايها الشاعر الكبير ؟

غوته : وكيف يمكنني ان انساه يا سيّدي ؟ لقد تحدثنا اذ ذاك طويلاً عن روايتي « آلام فرتر » التي اعترف لي نابوليون بأنه قرأها سبع مرات متوالية . وفي النهاية قال لي الامبراطور تلك

العبارة المأثورة : « أنت رجل . . . يا سيّد غوته » ومنحني صليب جوقة الشرف .

صوت : على ذكر رواية « آلام فرتر » الشهيرة يطيب لي ان اشير في هذا المجال الى انها نقلت الى اللغة العربية ، ويكاد عدد الذين قرأوها ويقرأونها مذ ذاك لا يحصى . فهل لك ان تصفها لنا ببضع عبارات ؟

غوته : « آلام فرتر » هي تصوير لبعض احوال شبابي ، وخلاصة لميول عصري ومستهل عهدٍ أدبيٍّ جديد ، وقد وصفت بأنها اشهر قصة حب فاشل جريح .

صوت : صحيح ، فأنت تصور في روايتك هذه مرحلة من مراحل شبابك وحبك لشارلوت بوف الذي كاد يودي بك الى الانتحار ، تلك النهاية التي آل اليها بطل الرواية المسكين .

غوته : سوى ان الزيارة التي قمت بها الى الراين ، والمشاغل الجديدة وتعرفي بالفتاة مكسيميليان فون لاروش . . ابنة الكاتبة صوفي فون لاروش ، كل ذلك كان البلسم الشافي لجراح قلبي المعنّى . وبعد ذلك تم لي الشفاء لدى عودتي الى فرنكفورت وانهماكي بالانتاج الادبي .

صوت : ما دمت قد عدت الى فرنكفورت فاسمح لي بأن اعود معك اليها في استعراض سريع لحياتك ، فقد كان اولى بنا ان نبدأ القصة من البداية .

غوته : لك ما تشاء ، سلني ما يبدو لك .

صوت : انت ابصرت نور الحياة في ٢٨ آب من سنة ١٧٤٩ في هذه

المدينة ، فرنكفورت ، حيث امضيت طفولتك . وكان والدك يوهان كاسبار غوته محامياً ، ووالدتك كان اسمها كاتارينا اليزابت .

غوته : كنت الابن البكر لاتحاد هذين المخلوقين ، ولم يعمّر من اخوتي واخواتي الذين رزُقاهم الا كورنيليا .

صوت : يقولون ، يا سيِّد غوته ، ان افضل عناصر عبقريتك مصدرها والدتك التي عُرفت بحيويتها الدافقة وشعورها الرقيق ومخيلتها القوية . حتى قيل ان والدتك التي لم تكن قد بلغت الثامنة عشرة عندما وضعتك في هذا العالم كانت الام المثالية للشاعر .

غوته : صحيح ما تقول ، ولكن ينبغي الا نغمط والدي حقه ، فلقد اورثني خصالا لا تقل اهمية عما ورثته عن امي ، فأنا ادين له بالصلابة واستقرار السلوك ، مما كان له اكبر الاثر في كبح جماح عواطفي وتحقيق التوازن في خيالي الخصب .

صوت : وفي فرنكفورت عشت في المنزل الفخم الكبير ، وسط الكتب ، والرسوم ، والعاديّات والتحف الفنية التي عاد بها والدك من ايطاليا وفي طليعتها مسرح الدمى المتحركة او « الماريونيت » .

غوته : ولقد كان مسرح الدمى المتحركة هذا باعثا على ايقاظ مخيلتي ، وتحريك تفكيري .

صوت : ومع هذه الوسائل التربوية والتثقيفية تولى والدك في البدء شؤون تعليمك ، وفيما بعد تولى ذلك الاساتذة والمربون .

غوته : ولا تنسى ان حياة فرنكفورت نفسها ، الغريبة المتنوعة الوجوه ، كانت كذلك بحد ذاتها من الوسائل المتحررة .

صوت : وفي سنة ١٧٥٩ ، خلال حرب السنوات السبع احتل الفرنسيون فرنكفورت بوصفهم حلفاء الامبراطورة ماريا تيريزا النمسوية ، وعلى مضض استقبل والدك ، وكان من انصار الامبراطور فريدريك الكبير ، في منزله الكونت تورانك الملازم في الجيش الفرنسي .

وقد جلب هذا الاحتلال الفرنسي الى فرنكفورت فرقة تمثيلية فرنسية كنت بواسطة جدك ونفوذه تشهد المسرحيات التي تقدمها مجانا .

غوته : لعل ذلك شحذ في نفسي ملكة التأليف المسرحي الذي تعاطيته فيما بعد .

صوت : وبعد مغامرتك العاطفية الاولى القصيرة الامد ، التي كادت تنتهي بفضيحة ، استيقظت على واقعك وعدت الى الاهتمام الجدي بدروسك التي تؤهلك للدخول الى الجامعة .

غوته : وفي هذه الاثناء استيقظت في نفسي الروح الادبية ، فوضعت رواية في رسائل حاولت فيها ان ابرز موهبتي اللغوية اذ جعلت الاشخاص فيها يتبادلون الرسائل بعدد من اللغات .

صوت : وفي تشرين الاول من سنة ١٧٦٥ ، ولم تكن بعد قد تجاوزت السادسة عشرة بكثير ، التحقت بجامعة ليبزيغ ،

واصدرت في هذه المرحلة المبكرة من عمرك ديواني شعر غزليين الهمتك اياهما علاقة غرامية .

غوته : النساء والغراميات تحفل بها حياتي يا سيدي . وفي ليبزيغ كذلك درست الرسم . وخلال فترة نقاهتي من احد الامراض الخطرة اهتممت بالفلسفة ، والكيمياء ، واللاهوت، والطب ، ومن ثم درست الحقوق في ستراسبورغ . هذه كل مراحل حياتي الدراسية .

صوت : شكراً على هذا الايجاز يا سيِّد غوته ، فقد كفيتني مؤونة السؤال واتحت لي مجال الانتقال الى أشياء اخرى بارزة في حياتك الحافلة . فأنت القائل : « كيف يستطيع الانسان ان يعرف نفسه ؟ انه لن يعرفها بالتفكير ، بل بالعمل . فحاول ان تؤدي واجبك ، وستعلم من فورك قدر نفسك » .

غوته : صحيح ، وأنا من قال كذلك : « انه لمن الخطأ الفاحش ان يعلو المرء بنفسه عن قدرها ، او ان ينزل بها عما هي به جديرة » .

صوت : حسناً ، ولنعد قليلا الى مرحلة اقامتك في ستراسبورغ ، تلك المرحلة المهمة من حياتك . فهناك تعرفت بالكاتب يوهان فون هيردر ، الجرماني-المتحمس الذي كان له تأثير عميق في نفسك وادبك ، واصبحتما صديقين حميمين ، وكان يكبرك بخمس سنوات .

غوته : ولعل لقائي بهيردر كان نقطة تحوّل كبير في تفكيري ، فقد كان الاستاذ الذي طالما بحثت عنه .

صوت : وكان هناك عامل آخر ذو اهمية رئيسية في مرحلة ستراسبورغ هذه ، هو حبك لفريدريكه بريون ابنة احد الكهنة الالزاسيين . ولعل الاشعار الغنائية التي الهمك اياها هذا الحب تعتبر بداية عصر ادبي جديد في الغنائية الالمانية .

غوته : ولكن لسوء الطالع لم تدم علاقتنا الغرامية طويلا . ولن اكشف لك سراً اذا قلت ان هذه الفتاة ، فريدريكه ، الهمتني كذلك شخصية « مرغريت » في روايتي « فاوست » .

صوت : ما دمنا قد ذكرنا « فاوست » فلا بأس من التعرف بها بإيجاز : انها مأساة فلسفية دينية اختصرت فيها حياتك العقلية ، واهواءك ، وتأملاتك وصراعك الداخلي . وهي في رأي النقاد العالميين من اعظم الاعمال في الآداب العالمية ، وخير ما يمثل الفكر الالماني .

غوته : ولقد صدر الجزء الاول من « فاوست » سنة ١٧٩٨ ، ولم اصدر الجزئين الثاني والثالث الا بعد اصرار صديقي الشاعر شيللر الذي ايقظ في كياني الروح الشعرية . وكان ذلك في اواخر حياتي التي انتهت في ٢٢ آذار سنة ١٨٣٢ ، في مدينة فايمار العاصمة السكسونية .

صوت : ودُعيت الى بلاط دوق فايمار حيث اصبحت وزير البلاط الخاص وابديت اهتماما جما بالزراعة والمناجم .

غوته : وفي هذا البلاط كذلك احببت زوجة احد الموظفين فترة من الزمن .

صوت : ما دمت لا تستطيع نسيان وقائعك الغرامية فلا ارى من حرج في القول انك اتخذت عشيقة ورزقت منها ولدا . . . ولكنك جعلت زواجك منها فيما بعد شرعيا .

غوته : طبعا ، فالرجوع عن الخطأ فضيلة كما يقولون ، وليس ثمة افضل من الحلال في كل شيء . والآن هل تبقى لديك من اسئلة اخرى ؟

صوت : ليت كان الوقت يسمح لنا بذلك ، فشخص مثلك لا يسعنا التعرف اليه في مدى هذه الدقائق القليلة ، على اي حال اود قبل ان استودعك الله رواية هذه النادرة التي جرت لك مع بتهوفن .

غوته : حسنا ، هاتها .

صوت : أيها القراء الكرام ، يروى ان بتهوفن كان في زيارة لمدينة كارلسباد ، فقام ذات يوم بنزهة في عربة مكشوفة برفقة الشاعر غوته . وكان المارة الذين يشاهدون العظيمين يتوقفون ويحيونهما بكل احترام ، فقال غوته :

ـ لكم هو امر مزعج ان يكون المرء مشهورا ، الجميع يحيونني .

فما كان من بتهوفن إلا أن قال بهدوء :

ـ هوّن عليك يا صاحب السعادة ولا تبالِ ، فلعل الناس يحيونني انا . . لا أنت !

آدم ميكييفتش : شاعر القومية والحرية
(١٧٩٨ - ١٨٥٥)

صوت : معنا ، قارئي الكريم ، الشاعر البولوني الاشهر ، شاعر الحرية والقومية آدم ميكييفتش الذي تكرم ذكراه كل من روسيا وبولونيا . وهو يحتل مقاما مرموقا في تاريخ الادب العالمي الى جانب بوشكين ، وغوته ، وشيللر ، وهوغو ، وبايرون . . . . ظهر له اول ديوان العام ١٨٢٢ . وفي العام التالي اتبعه بديوان آخر . فكانت قصائدة حدثا جديدا في الادب البولوني . استوحى فيها الاغاني والاساطير الشعبية المحلية . اما قصيدته « قصيدة الشباب » التي يتطلع فيها الى يوم يبزغ فيه فجر الحرية والاستقلال ، فقد اصبحتْ النشيدُ الوطني للشباب البولوني التقدمي . . .

ميكييفتش : اهلا وسهلا بك ، يا سيدي . . .

صوت : جئت لاجري معك حديثا سريعا نلقي فيه الاضواء على بعض نواحي حياتك الحافلة . فلنبدأ من البداية .

ميكييفتش : حسنا ، ولدت في ٢٤ كانون الاول سنة ١٧٩٨ على مقربة من مدينة نوفوغرودوك التي تؤلف اليوم جزءا من روسيا البيضاء . فلما بلغت السادسة عشرة من عمري رحلت الى فيلنو حيث التحقت بجامعتها ، وانضممت الى حلقة من

الشبان ذوي الآراء والنظريات التقدمية الجريئة ، وضعوا نصب اعينهم « العمل من اجل خير الوطن والعلم ، وتنمية الفضائل وتقويتها » .

صوت : وفي هذه الجامعة نظمت اولى قصائدك . ولما ختمت دروسك التحقت كاستاذ باحدى مدارس كوفنو .

ميكييفتش : غير اني كنت ميالا الى قرض الشعر فوجهت جهودي كلها شطر هذا اللون من الادب .

صوت : وفي سنة ١٨٢٣ اعتقلت في فيلنو لاشتراكك في الحلقات السرية السياسية التي كنت تكرس لها كل نشاطك . وفي ٢٤ تشرين الاول ١٨٢٤ نفتك السلطات الروسية القيصرية الى روسيا للحؤول بينك وبث روح التمرد والعصيان والتحرر في صفوف الشبيبة البولونية .

ميكييفتش : وقد قضيت في روسيا زهاء خمس سنوات ، متنقلا بين بطرسبرج ، واوديسا ، وموسكو .

صوت : فكانت هذه الفترة من حياتك - على حد قول مؤرخ الادب البولوني البروفسور بوي - زيلنسكي ، « من اسعد سني حياتك واخطرها ، اذ تبين لك وانت في روسيا انك اديب عبقري » .

ميكييفتش : ففي روسيا توطدت عرى الصداقة بيني وبين شعراء الثورة كريلييف وبستوتشيف وتومانسكي وسواهم ، وفي مقدمتهم امير شعراء روسيا الكسندر بوشكين . ومما زاد عرى الصداقة وثوقا بيني وبين الشعراء الروس الوحدة الفنية والعقائدية المشتركة في ما بيننا .

صوت : واعجب ادباء روسيا بعبقرية زميلهم البولوني الشعرية ، وقدروا فيك حبك الشديد لوطنك المتألم ، واحلامك الذهبية « عن اليوم الذي تتناسى فيه الشعوب نزاعاتها فتمتد لتصبح عائلة واحدة كبرى » .

ميكييفتش : وازهرت شاعريتي في هذا الجو المشبع بالود الخالص ، والصداقة الخلاقة . فاذا بي انظم اروع ديواني « قصائد من شبه جزيرة القرم » » ، وملحمة « كونراد فالنرود » . وسرعان ما نقل الديوان الاول الى الروسية نثراً .

صوت : نقله فيازمسكي وعقد مقالا حوله قال فيه : « ان ميكييفتش من الادباء المختارين الذين يسعفهم الحظ في تمثيل مجد اوطانهم الادبي » .

ميكييفتش : وكانت الترجمة النثرية فاتحة لبضع ترجمات شعرية ظهرت فيما بعد .

صوت : هل لك ، يا سيد ميكييفتش ان تحدثنا قليلا عن ملحمتك الشعرية « كونراد فالنرود » التي تعتبر من روائعك الشعرية ، والتي تبدو فيها قلقا على مستقبل وطنك ومصيره .

ميكييفتش : استقبل ادباء روسيا هذه الملحمة استقبالا حارا كسائر قصائدي . ومما قاله جوكوفسكي الذي استمع الى بعض مقاطعها : « لو كان لدي متسع من الوقت لكنت عكفت على ترجمتها على الفور » . اما بوشكين فنقل الى الروسية القسم الاول من كونراد فالنرود .

صوت : وبينما كانت الاوساط الادبية التقدمية ترحب بمنظوماتك ،

كانت الاوساط الادبية البولونية الرجعية تفرض رقابة شديدة عليها وتتناولها بالنقد اللاذع والتجريح .وفي روسيا اتسع افق تفكيرك،وعمقت شاعريتك واصبحت نظرياتك وافكارك اشياء ملموسة . وقد صدق الشاعر الروسي كوزلوف في ما قاله لزميله البولوني اودينييك في ايار ١٨٢٩ عندما قفلت راجعا الى بولونيا : « كان قويا عندما هبط روسيا ، ولكنه عاد الى بولونيا جبارا » !

ميكييفتش : وفي بولونيا نظمت قصيدتين طويلتين اكسبتاني شهرة رائعة ، وهما « دزيادي » و «يان تاديوز » اما القسم الثالث من القصيدة الاولى فكان رد الفعل الشديد الذي احدثه في نفسي اخفاق ثورة ١٨٣٠ - ١٨٣١ الشعبية . والقصيدة في جملتها جمع رائع بين الواقع والخيال ، واتهام عنيف ساخط لجميع القوى التي تعوق سبيل الانسان الى السعادة والحرية .

صوت : واذكر ان القصيدة الثانية هي لوحة واقعية للطبقة الشعبية البولونية ، تظهر فيها العوامل المؤدية الى انهيار طبقة الملاكين الاثرياء .

ميكييفتش : وقد وصف استانسلاف فورسل هذه القصيدة بقولها انها « الحجر الذي وضعته يد العبقرية على ضريح بولونيا العتيقة » .

صوت : بعد قصيدة « يان تاديوز » اهملت الشعر لتنصرف بكلتيك الى النضال الحقيقي . وفي العام ١٨٣٨ - ١٨٣٩ بدأت سلسلة محاضرات في جامعة لوزان بسويسرا . وفي العام التالي انتقلت الى باريس حيث درست في « كوليج دو

فرانس » الادب السلافي. وقد انضممت في اثناء اقامتك بالعاصمة الفرنسية الى حلقة توفيانسكي الصوفية ، فلما هبت عاصفة الثورة العام ١٨٤٨ رحلت الى ايطاليا لتنظيم الفرق البولونية في صراعها ضد النمسا من اجل حرية ايطاليا وبولونيا معا .

ميكييفتش : وفي العام ١٨٤٩ اسست في باريس جريدة يومية دعوتها « منبر الامم » رحت انشر فيها ارائي التقدمية منددا بالظلم والطغيان مؤيدا نظام الحكم الديمقراطي ، محييا شعوب اوروبا التي هبت لمحاربة الطغاة ، قائلا ان اليوم الذي يشهد انهيار الحكم الفردي سيكون اليوم الاول من ايام السلام ، والامن ، والصداقة بين الامم . . .

صوت : وكانت وفاتك بداء الهواء الاصفر (الكوليرا) في ٢٦ تشرين الثاني ١٨٥٥ في القسطنطينية .

ميكييفتش : تماما ، كما تقول ! . .

صوت : شكرا يا سيد ميكييفتش ، على هذه المقابلة اللطيفة ، فقد ازددنا معرفة بواحد من ابطال القومية والحرية الذين يناضلون بالقلم والحرف ! . .

ميكييفتش : الشكر لك ، ومع السلامة !

اليزابث باريت براوننغ : اللقاء
(١٨٠٦ - ١٨٦١)

صوت : منذ سنوات عرض على الشاشة البيضاء في بيروت فيلم اميركي الانتاج بعنوان « آل باريت في شارع ومبول » يروي قصة حياة الشاعرة الانكليزية الكبيرة اليزابث باريت وقصة حبها للشاعر روبرت براوننغ . والقصتان كلتاهما جديرتان بالاستعراض في هذه المقابلة لانهما غريبتان حقا . اما قيمة اليزابث الشعرية فتقررها الاقوال التالية وكلها اقوال مسؤولة : قال روبرت براوننغ في شعر زوجته اليزابث : « يكشف شعرها عن طبيعة جد ملائكية تصدر عن قلب فيه قبس من النور الالهي » . وقال عنها الناقد باري كورنوول : « كان شعرها اجمل شعر كتبته امرأة منذ قيل الشعر » . وقال ولتر سافيدج لاندور : « لست اعلم ان احدا قال شعرا او يستطيع ان يقول شعرا كهذا الشعر في اي عصر من العصور . . . وقد اصبحت به نصف سكران » .

اليزابث : صدقني ان روبرت يستحق المديح اكثر مني عشرين مرة . . . فلست مبالغة في شيء . . .

صوت : حسنا ، فكلاكما شاعر كبير . والآن دعينا ، يا سيدتي ،

نستعرض دقائق حياتك كما استعرضها الفيلم الذي ذكرت ، ولعلنا نوفق في الدقائق القليلة المخصصة لهذه المقابلة الى اعطاء صورة واضحة وكاملة لك . فلقد ابصرت النور سنة ١٨٠٦ . فلما بلغت الخامسة عشرة اصبت في سلسلتك الفقرية وانت تحاولين امتطاء جوادك . فكان ذلك الحادث ، بالاضافة الى مرضك الرئوي والصدمة التي اصابتك اثر غرق شقيقك الأعزّ ، سببا في بقائك سقيمة طوال حياتك ، واصبحت الكتب عالمك .

اليزابث : كنت وأنا طفلة شديدة الحيوية، أحب الحياة العملية النشيطة، وكنتُ كبرى أولاد أسرة كبيرة العدد. ومزدهرة في هيرفوردشاير حيث كنا نعيش في منزل يدعى «نهاية أمل».

صوت : الواقع ان رجلا قاسيا ، عنيدا كوالدك ادوارد مولتون باريت ، كان وحده من يمكنه ان يطلق على منزله مثل هذا الاسم المشؤوم .

اليزابث : لقد كتبت فيما بعد عن والدي اقول انه كان رجلا غريب الاطوار ، ورث ثروة ، ودرس في كلية هارو وجامعة كمبريدج ، ومع ذلك كان طاغية مستبدا في بيته . وبعد ان توفيت امي الرقيقة ، وكانت قد انجبت له اثني عشر ولدا ، قرر والدي بعد اربع سنوات ان يبيع المنزل الريفي ، وهكذا رحنا طوال سنين ننتقل حسب اهوائه حتى قيّض له ان يبتاع المنزل رقم خمسين في شارع ومبول في لندن . . .

صوت : . . . حيث ازدادات صحتك سوءاً وبت مخلوقة الظلال والصمت . وصحيح انك كنت قد عرفت الشهرة كشاعرة الا ان العالم كان قد اغلق دونك بجدران المرض . وطوال ست سنوات بقيت على حالك رهينة حجرتك حيث كان اعلى صوت هو تنفس كلبك الصغير المخلص « فلاش » .

اليزابث : ولكن على مر السنين اعتدت واسرتي حياتنا المنعزلة . والواقع انه كان لي بعض الاستقلال الذي لم يتمتع به اشقائي وشقيقاتي ، ذلك بأن احد اعمامي كان قد ترك لي دخلا متواضعا . اما الباقون فقد كانوا تحت رحمة انظمة ابي الجائمة ابدا فوق الاسرة كالرعد في الطقس الرديء .

صوت : ولعل اقسى تلك الانظمة جميعا كان تحريم الزواج تحريما مطلقا عليك . . .

اليزابث : ولقد حرّمه على شقيقتي هنرييتا المرحة ، المحبة لرقصة البولكا ، فمزقت المنازعات التي كانت تجري بسبب ذلك قلبي .

صوت : ولكنك مع ذلك كله ، بقيت مخلصة لابيك معترفة بأن له السلطة العليا على قلبك ، فكان ذلك اخلاصا ساعد كثيرا على تمتين جدران سجنك . ومع انك كنت قد بلغت الاربعين من عمرك ، الا انك كنت تحسين بأنك ما تزالين مشدودة برغبات والدك واهوائه ، سوى ان الطاغية لا بد ان يسقط بأعماله الشخصية . وقد كان السبيل الى ذلك تعرّفك الى روبرت براوننغ ، بواسطة الرسائل المتبادلة بينكما في بادىء الامر ، ثم باللقاء شخصيا . . . ومن هنا

كانت تلك المراسلة الفريدة في نوعها في تاريخ الرسائل حتى انها بلغت ٥٧٣ رسالة . ومن هنا ، بالتالي ، كانت قصة غرامكما التي تعتبر من اروع قصص الحب في تاريخ الادب ، افتذكرين الرسالة الاولى التي كانت فاتحة كل ما جرى فيما بعد ؟

اليزابث : وكيف لا اذكرها ؟ ففي يوم قارس البلاد من ايام كانون الثاني من سنة ١٨٤٥ كنت استلقي كعادتي على الصوفا في الطبقة الاولى من منزلنا في شارع ومبول عندما قرع ساعي البريد الباب . وكانت الرسائل تنهال علي باستمرار لانني كنت قد انشأت مراسلة نشيطة منتظمة مع العالم الخارجي ، فضلا عن رسائل المعجبين التي كانت تصلني تعليقا على القصائد التي كنت انشرها . وكنت قد اعتدت من فرط السأم والتعب ان اطعم النيران تلك الرسائل ، الا ان الرسالة التي جاءتني في ذلك اليوم لم يكن ذلك مصيرها ، وقد كانت نقطة التحول في حياتي ، وقررت مصيري !

صوت : لقد كانت ولا شك من روبرت براوننغ ، فماذا كانت فحواها ؟

اليزابث : بعد ان رمقت بنظري التوقيع في نهايتها قرأت بشغف هذه العبارة الاستهلالية « اني احب ابياتك الشعرية من كل قلبي ، ايتها الآنسة العزيزة باريت » . ثم مضى في كلامه ممتدحا « هذا الشعر الحي العظيم » ، الذي هو شعري وذلك بتفهم انعش قلبي ، وقال : « فأنا كما قلت احب هذين الكتابين من كل قلبي واحبك كذلك . اتدرين انني

ذات يوم لم اكن بعيدا كثيرا عن رؤ يتك ، رؤ يتك حقا ؟
قال لي السيد كينون ذات صباح : اتود ان تقابل الآنسة باريت ؟ ثم همّ لاعلان مجيئي ، ولكنه عاد. فقد كنت في حالة سيئة ـ وعدت الى البيت ، ومذ ذاك لم تتح لي رؤ يتك . حسناً ان هذه الاشعار قد وجدت ، ووجد كذلك هذا السرور الصادق والاعتزاز الذي اشعر به .
المخلص لك الى الابد : روبرت براوننغ » .

صوت : تلك الرسالة حملت اليك ، ولا ريب ، موجة من السعادة الحقيقية ولم تكوني قد رأيت الرجل من قبل ، ولكنك كنت قد عرفت عمله الادبي مع انه لم يكن قد اشتهر مثلك . فماذا كان رد فعلك ؟

اليزابث : غمست ريشتي بالحبر من فوري ، وكتبت اليه : « اشكرك ، ايها السيد العزيز براوننغ من صميم قلبي » . هكذا بدأت رسالتي اليه ، ثم رحت اناقشه شؤ ون الكتابة مناقشة الشاعر للشاعر ، ولكنني لم انس علامة الاستفهام التي انهى بها بمهارة اشارته الى الوقت الذي لم يتح له فيه رؤ يتي ، فكتبت اليه : « الابواب موصدة دوني » ، ثم عمدت الى توجيه شبه دعوة رقيقة اليه : « في الربيع سنرى » ووقّعت رسالتي ـ بعد ان كلت المديح اكثر لشعره بهذه الكلمات : « الشاكرة لك المخلصة اليزابث باريت » .

صوت : وكان براوننغ كثير الاسفار ، ارتحل الى روسيا حيث عمل سكرتيراً لأحد الدبلوماسيين ، ومرتين الى ايطاليا التي كانت دائما بالنسبة اليه وطنه الثاني . ومع ذلك شعر لدى

عودته الاخيرة اليها بأنه تائه فيها ، لا هدف له ، وبحاجة الى نجم يبحر على هديه . وفي تلك الفترة من حياته وقع بين يديه مجلدان نشرا في اثناء غيابه عن انكلترا وهما « قصائد اليزابث باريت » .

اليزابث : ولقد كتب الي بقول انه تشرَّب الموسيقى الغربية النضرة في ديواني الشعري واللغة الخصبة والانفعال النفسي الرائع ، والتفكير الجريء الجديد المخلص ، وانه بعد ان كان يعتقد انه عاجز عن حب اي امرأة ، قد صادف في المملكة غير الارضية - حيث وجود الشعراء الحقيقي - المرأة الوحيدة في هذا العالم التي تناسبه ، قائلا : « اني احب ، كما اقول ، هذين المجلدين من كل قلبي ، واحبك انت كذلك » .

صوت . لقد وقع براوننغ في حب الروح والفكر الطاهرين الصافيين . . . وهكذا راحت تتوالى رسائله التي كانت بمثابة طرقات اشارة على جدران منزلك الكئيب . وقد حمل عبارتك الخجول « في الربيع سنرى » على محمل الدعوة الصريحة لزيارتك في تلك الفترة من السنة .

اليزابث : ولما اعتدل الطقس قليلا ذكّرني بأن الربيع قد اقبل ، فكتبت اليه قائلة ان ربيعي يأتي بعد قليل . واخيرا بعد ظهر احد ايام الثلاثاء في اواخر ايار دخل روبرت براوننغ المنزل رقم خمسين في شارع ومبول ، وتسلق الدرجات الى الغرفة التي كنت ارقد فيها .

صوت : وكتبت فيما بعد حول هذه الزيارة الاولى تقولين ببساطة « عندما اقبلت ، لم تنصرف ابدا » . اما روبرت فلم يعد

مذ ذاك ميتاً بحب روح فحسب ، بل راح يكتب اليك باندفاع عارم ومعترفا بحبه الشديد لك . ولكنك كنت تخشين من تدمير حياته بسبب سوء صحتك . ولكم منعته من التحدث في مثل هذه الاموز . ولما تصرَّم الصيف جرى حديث حول رحلة تقومين بها الى بقعة يكون مناخها اكثر اعتدالا ، كايطاليا مثلا ، هرباً من قساوة الشتاء . وشدد اطباؤك على ذلك . ولكن والدك اعترض بصلابة على الخطة في اللحظة الاخيرة فاستسلمت لمشيئته .

اليزابث : صحيح ، ولكني تحققت للمرة الاولى في حياتي من ان الحب الأبوي الذي وثقت به لم يكن سوى انانية وحب للتملك لا يجدان .

صوت : ولما ملت كدرا عن والدك ، لانه كان المعبود المتسلط في حياتك ، ألفيت سيداً آخر لقلبك هو روبرت براوننغ ، وبدأت رسائلك مذ ذاك تردّ على رسائله بحرارة . وبتشجيع منه وحث متواصل ، رحت تنزلين الى الطبقة السفلى من المنزل كما لم تفعلي في اي فصل من فصول الشتاء في السابق . وشعر كلبك « فلاش » بذلك ، فعض براوننغ عندما اشتبه بعلاقته بسيدته .

اليزابث : وفي صباح السبت الموافق ١٢ أيلول من سنة ١٨٤٦ تسللت من المنزل برفقة خادمتي الامينة ولسون بحجة زيارة صديقة لي . وعقد قراني على روبرت في الكنيسة التي كان ينتظرني فيها مع ابن عمه .

صوت : وعدت بعدها الى البيت منهوكة القوى ، على ان تهربي عندما تشعرين بمزيد من القوة . وكان اشقاؤك يبحثون

عن منزل تنتقل اليه الاسرة خلال فترة الاصلاحات في منزل ومبول الاساسي ، فساعدتك الفوضى على حزم امتعتك سرا . ولم يعد روبرت يتردد عليك في البيت .

اليزابث : ويوم التاسع عشر من ايلول نزلت درجات السلم للمرة الاخيرة ، وتسللت خارج البيت مع الخادمة وكلبي فلاش ، فالتقينا وروبرت امام احدى المكتبات ، ثم قمنا برحلتنا الاولى معا الى ايطاليا ، موطن الشمس والغبطة .

صوت : وكانت السنوات التي تلت قصيدة رائعة : باريس ، بيزا ، فلورنسا ، روما ، نيران الموقد ، الدفء ، السكون ، الشعر ، ودائما الرفقة التامة . وتحسنت صحتك وقويت بنيتك ، وفي ربيع سنة ١٨٤٩ انجبت طفلا ذكرا جميلا ، فتضاعفت سعادتكما . . .

اليزابث : وقد استطاع روبرت الذي انقذني من هذا العالم بالذات ، بحبه وعطفه الكبيرين ، ان يبقيني في عالم النور والحب هذا حتى سنة ١٨٦١ . . .

صوت : وقد خلّفت دليلا خالدا على حبك الصادق الكبير . ففي ذات صباح ، في ايطاليا ، اسلمت روبرت مجموعة من الاشعار نشرت فيما بعد بعنوان « قصائد من البرتغالية » . ان في هذه القصائد اروع قصيدة حب كتبتها بالانكليزية امرأة من قبل او من بعد ، ومطلعها :

اليزابث : « كيف احبك ؟ دعني اعدد الطرق.
احبك حتى العمق ، والاتساع ، والارتفاع الذي يمكن ان تبلغها روحي . . .
« واذا ما اراد الله ، فسأحبك افضل بعد الموت . . . »

الأخوان غريم : الأساطير الالمانية
(فيلهلم ١٧٨٦ ـ ١٨٥٩)
(يعقوب ١٧٨٥ ـ ١٨٦٣)

صوت : عرفت البلدان الغربية اهمية المطالعة في حياة الاولاد والاطفال ، فأوجدت مكتبة خاصة بهم زودها الادباء والمربون بالكثير من المجموعات القصصية ، وكتب المعلومات ، والتواريخ التي تلائم اطوار حياتهم وتتفق واصول التربية الحديثة التي تقوم على اسس من علم النفس واكتشافاته .

والغاية من الكتب التي نخص بها الاولاد ليست كما يتبادر الى الاذهان حشداً لمعلومات في اذهانهم فحسب ، بل تنمية ملكة الاطلاع لديهم ، وتعويدهم على الاعتماد على انفسهم في معرفة الحقائق ، وتحمّل التبعات ، وتوسيع آفاقهم .

ونحن في البلدان العربية اخذنا نعنى في الآونة الاخيرة بمكتبة الطفل العربي ، وعسى ان تزداد هذه العناية مع الايام بهذا اللون الجديد من الادب . فادبنا العربي القديم ينبوع لا ينضب معينه من القصص والاساطير والبطولات التي يمكن ان تزود ادباءنا بذخيرة لتغذية اكبادنا التي تمشي على الارض ، وهم عماد مستقبلنا المشرق .

ففي الغرب خص كثيرون من الادباء والكتّاب الاطفال

بأدبهم ، امثال : لويس كارول ، وهانس كريستيان اندرسن ، ودانيال ديفو ، والكونتيس دو سيغور ، والاخوين غريم اللذين سنتحدث اليهما في هذه المقابلة ، ونتحدث عن كيفية جمعهما الاساطير الالمانية عن الجن التي ترجمت الى مختلف اللغات الحية في العالم ، واعتبرت ذخيرة من ذخائر ادب الاطفال . . .

يعقوب : اهلا بك يا سيدي . . انا يعقوب غريم ، احد الاخوين غريم .

صوت : اراك وحدك ، فاين اخوك فيلهلم يا سيد يعقوب ؟

يعقوب : انه منهمك في بعض شؤونه ، ويمكنني ان انوب عنه في تزويدك بكل ما تود معرفته .

صوت : حسنا ، لا بأس في ذلك ، وانت على اي حال الشقيق الاكبر ، اليس كذلك ؟

يعقوب : اجل ، فانا ابصرت النور سنة ١٧٨٥ في قرية هيسن الوادعة في مقاطعة هاناو ، واخي فيلهلم ولد بعدي بسنة واحدة ، اي في سنة ١٧٨٦ .

صوت : غير انكما لم تفطنا الى ضرورة جمع الاساطير المحلية وقصص الجن المختلفة وحفظها للاجيال المقبلة الا حين هبطتما كاسل ، عاصمة اقليم فستفاليا ، سنة ١٨٠٥ ، واستوطنتماها .

يعقوب : كنت وقتئذ امين دار الكتب في بلاط الملك جيروم بونابرت ، ملك فستفاليا ، وشقيق نابليون الاول .

صوت : وكنت تعرف واخوك فيلهلم معرفة جيدة ان مسقط رأسكما

هيسن بجباله الشامخة ، وغاباته الكثيفة الفسيحة ، يزخر بالاساطير الرائعة .

يعقوب : ولم نكن بحاجة الى تجشم مشاق الاسفار لنصبح وسط دنيا الاساطير ، بل كانت ابواب هذه الدنيا مفتوحة لنا على مصراعيها خارج كاسل نفسها ، وفي ضواحيها .

صوت : في ذلك الوقت ، سنة ١٨٠٦ ، كانت تعيش في قرية نيدرتسفهرن ، الواقعة في ضواحي كاسل ، فلاحة تدعى دوروتي فيمان ، فقيل لكما انها تروي عددا كبيرا من قصص الجن .

يعقوب : كانت دوروتي فيمان من اسرة ألزاسية ، نزحت عن متزفي ، ونزلت في هيسن حيث اتخذت لها مقرا في نزل متواضع في احدى القرى . وفي اثناء اضطلاع والديها بادارة هذا المنزل الحقير كانت الابنة دوروتي ما تزال طفلة ، وتجلس كل مساء لتصغي الى القصص والاساطير يرويها المسافرون الذين يعرِّجون على نزل والديها ليقضوا لياليهم ، ويستريحوا من عناء السفر .

صوت : وهكذا عقدتما النية ، انت واخوك فيلهلم ، على زيارة دوروتي فيمان ، وكانت قد اشرفت على الخمسين ، فهل لك ان تصفها لنا كما رأيتها في اولى مقابلتكما لها ؟

يعقوب : كان مظهرها ، يا سيدي ، ينم عن الكثير من القوة والفهم والدعة . وكانت عيناها الواسعتان تنمان عن ذكاء وصفاء في الذهن والتفكير ، وكانت الى ذلك كله ذات نظر ثاقب .

صوت : وكنتما تترددان عليها بانتظام بعد زيارتكما الاولى لها ، فتجلسان اليها كل يوم في المطبخ لتسرد عليكما القصص والاساطير التي وصلت اليها ، بعد ان ترددت على ألسنة الكثيرين من الرواة خلال العصور الطويلة .

يعقوب : وكان سرورنا عظيما بهذه القصص والخرافات ترددها علينا دوروتي . وقد كتبنا لمناسبة اصدار مجموعتنا القصصية المعروفة نقول : « انما توخينا في جمعنا هذه الاساطير الدقة والصدق ، فلم نزد شيئا من عندياتنا على ما نقلته الينا راويتها ، ولم نلجأ الى التمويه او تزويق الحوادث ، بل احتفظنا بالمادة كما وصلت الينا كاملة غير منقوصة دون ان ينالها اي تحوير » .

صوت : ووجدتما ان ثمة قصصا مختلفة تكمل احداها الاخرى وفي الوسع ضم بعضها الى بعض لتأليف قصة واحدة . ولاحظتما انكما في عملكما هذا الممتع في جمع اقدم قصص الجن الالماني انما وقعتما على مفتاح ميثولوجيا الشعب التوتوني القديم . فكان عملكما هذا حافزا لسائر الادباء في العالم بأسره كي يتنبهوا الى اهمية اساطير بلدانهم وقصصها الشعبية ، وضرورة تداركها قبل ان تندثر .

يعقوب : وفي العام ١٨٥٠ كتب اخي فيلهلم يقول : « لما ظهرت مجموعتنا القصصية كانت فريدة في نوعها . ولكن ما لبث هذا الحقل القصصي ان اخصب واعطى ثمارا طيبة . كانت نظرة الجميع الينا والى علمنا اول الامر نظرة استخفاف ورثاء . اما اليوم فقليلون جدا اولئك الذين يستخفون بعملنا » .

صوت : وماذا كان رأي دوروتي فيمان نفسها في عملكما ؟

يعقوب : كانت دوروتي فيمان من رأينا بوجوب تقديم هذه القصص الى القراء تقديما صحيحا لا يشوبه اي تحوير او زخرف . وكانت تعتقد اعتقادا راسخا بهذه الخرافات التي شبَّت بينها وعاشت فيها . وكثيرا ما كانت تأتي بنفسها لزيارتنا في منزلنا .

صوت : وقد اصبح هذا المنزل في الآونة الاخيرة حانوتا لبيع السكاير والتبغ .

يعقوب : اصحيح ما تقول ؟

صوت : بالطبع صحيح ، ولكن الجميع يعرفون انه كان منزلكما ، وانه فيه ولدت القصص المعروفة بقصص «الأخوين غريم» .

يعقوب : حسناً ، وكانت دوروتي تعود من عندنا حاملة الهدايا على اختلاف انواعها ، في مقابل القصص التي كانت ترويها على مسامعنا . وكان جيرانها يحسدونها لحظوتها لدينا .

صوت : ههنا اود ، يا سيد يعقوب ، ان اقول انه لم يتبدل تبدلا كبيرا ذلك القسم من المانيا حيث عشتما . فهو اليوم كما كان منذ طرد هانسل وغريتل من البيت ، وهاما على وجهيهما في الغابة ، او منذ كانت راعية الاوز تسوق قطيعها امامها في المروج الخضراء المترامية الاطراف .

يعقوب : في هيسن نفسها يشعر المرء انه في المهد الحقيقي لاساطير الجن . ولا يستبعد ان يقف الفلاحون الالمان اليوم امام

نوافذهم ، والثلج يتساقط في الخارج ، فيكسو الغابات والرواسي الشامخة حلة بيضاء ، وان يتساءلوا عن هذه او تلك من الجنيات ويتشوقوا لرؤيتها .

صوت : في قرية هيسن وغيرها من القرى المجاورة لها حيث تنتشر الاكواخ المتواضعة بقرميدها الاحمر الابرش يمكننا ان نلتقي كل يوم صبيا يرتدي سروالا قطنيا ويضع على رأسه قبعة يغرز فيها ريشة من ريش الاوز وهو يسير بين قطيعه . اتبعه تجد نفسك وسط اكواخ من الجص ، انيقة المظهر ، سوداء وبيضاء تقوم على حافتي طريق القرية الرئيسي . حدّق الى هذه الاكواخ ترَ جدرانها مكسوة بالزخارف والنقوش ، ورسوم سلال ملأى بمختلف انواع الرياحين .

يعقوب : ان منظر هذه الاكواخ ليوحي الى الناظر بأساطير الجن فيتوقع ظهور احدى العجائز القبيحات من خلال هذه النافذة او تلك الكوة . اما في الغابة فان المرء يقترب اكثر فاكثر من اساطير الجن . فهنا وسط اشجار التنوب والسندر تسهل معرفة الطريقة التي نشأت بها الاساطير عن الجن في مخيلة الفلاحين ، وأصبحت حديثهم اليومي يتناقلونه خلال الاجيال كأنه حقيقة واقعة .

صوت : والان ، يا سيد يعقوب غريم ، دعنا نتحدث قليلا عن حياتكما الخاصة ، واعمالكما العديدة الجليلة التي قمتما بها ، الى جانب جمع تلك القصص والاساطير التي استغرق عنها معظم الوقت المخصص لهذه المقابلة السريعة .

يعقوب : حبا وكرامة ، يا سيدي . . . فكما ذكرنا في مستهل هذا اللقاء ، انا الاخ الاكبر ، وقد اهتممت بشؤون اللغة والصرف والنحو ، واهتم اخي فيلهلم بالادب ، واليه يعود الفضل في الاسلوب البديع الذي سكبت به مجموعتنا القصصية .

صوت : مما يذكر في هذا المجال ان الانسجام التام كان الطابع الدائم لتعاونكما الوثيق ، وحياتكما السعيدة . اما انت لم تتزوج ، في حين اصبح فيلهلم زوجا وابا .

يعقوب : هذا صحيح . الواقع اننا قضينا حياتنا معا : كنا في عهد الطفولة والصبا قلما نفترق ، وفي الجامعة درسنا معا جنبا الى جنب ، واقمنا معا . وعندما انكببنا على العمل الادبي واللغوي كنا نعمل في حجرة واحدة .

صوت : وقد دفنتما ، بعد وفاتكما ، جنبا الى جنب في برلين .

يعقوب : لا غرابة في ذلك ، فكما اننا في الحياة لم نفترق كذلك في الممات لم نفترق .

صوت : لم يكن اخوك فيلهلم قوي البنية مثلك ، وقد توفي قبلك بثلاث سنوات ، اما انت فلم يعرف المرض سبيله اليك طوال حياتك ، وقد ظللت تعمل حتى وفاتك على حين غرة فى ٢٠ ايلول من سنة ١٨٦٣ .

يعقوب : كنت حقا اقوى بنية من فيلهلم واصح جسدا وكنت اكثر ميلا الى العلم . في حين كان ، وهو الاضعف جسدا ، شديد الحساسية والميل الى الادب . ومن هنا كان فيلهلم صاحب الفضل الاكبر في اعطاء القصص والاساطير التي جمعناها واصدرناها حلتها الادبية القشيبة .

صوت : ومع ان فيلهلم كان اديبا ، ومؤرخا ، وناقداً ، فانه انصرف بكليته في العقد الاخير من حياته الى العمل الجبار في إصدار قاموس اللغة الالمانية الذي توجتما به انتاجكما القيم . وقد نشر الجزء الاول منه سنة ١٨٥٤ . وبعد ان راجع الكثيرون ـ بعد وفاتكما ـ ما خلفتما من مواد ، نشر الجزء الثاني والاخير من قاموسكما بعد قرن كامل من الزمن، اي في سنة ١٩٥٤ .

يعقوب : اصحيح ما تقول ؟ لكم سرني سماع هذا الخبر .

صوت : والآن ، يا سيد يعقوب ، وقد آن الاوان لشكرك والانصراف ، اود ان انوه بأنك واخيك فيلهلم تعتبران في طليعة علماء الفترة الرومنطيقية الالمانية بفضل مواهبكما الجمة ، واعمالكما الجليلة التي استغرقت منكما حياتكما .

يعقوب : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذا التقدير .

صوت : العفو ، يا سيدي يعقوب . ارجو ان تبلغ تحيتي الى شقيقك فيلهلم الذي لم يسعفنا الحظ بسماع صوته في هذا اللقاء . . . آوف فيدرزين .

يعقوب : آوف فيدرزين ! . .

هانس كريستيان اندرسن : أمير قصص الجن والاساطير
(١٨٠٥ - ١٨٧٥)

صوت : كان ما كان في قديم الزمان ، صبي فقير ، هو ابن ارملة اسكافي ، ذهب ذات يوم ليطلب هبة من امير البلاد ، الدانمارك . فغنى امام سموه وروى القصص ، فلما سأله الامير ماذا يبغي ليلبي طلبه ، اجابه الصبي : « اود ان اكتب المسرحيات الشعرية ، وامثل على المسرح الملكي » . فنظر الامير الى الصبي الاخرق الجسور ، ذي الانف الضخم الذي يبعث على الضحك ، والعينين الحزينتين ، واجابه بكلام سليم معقول : « ان رواية المسرحيات شيء ، وكتابتها شيء آخر مختلف ، اقول لك ذلك من اجل مصلحتك ! نصيحتي اليك هي ان تتعلم مهنة تفيدك مثل صناعة الاثاث ! . . » . ولكن الصبي الذي لم يكن يتمتع بالفطرة السليمة ، بل بالعبقرية الخارقة ، ذهب الى منزله وحطم القجة ، واخذ ما ادخر فيها من نقود . وودع امه المسكينة وزوج امه اللامبالي ، وبدأ رحلة البحث عن مستقبله ، لقد كان واثقا من انه سيأتي يوم تعرف فيه اجيال لم تولد بعد اسم هانس كريستيان اندرسن وتكرمه !

اندرسن : لكي يصدق المرء مثل هذه القصة ينبغي ان يكون من الذين يؤمنون بقصص الجن والاساطير ! وكنت ، انا

شخصيا ، متشبعاً بهذه القصص ، فبعضها سمعته من والدي ، وكان موهوبا فكريا ـ على ما يبدو اذ اشتغل في صنع الاحذية ، تلك المهنة المفيدة المربحة التي ندم عليها مرة واحدة وحسب ، ولكنه ظل يمارسها طوال حياته .

صوت : وفي المساء ، وقبيل موعد النوم كان والدك يتسلى بقراءة قصص « الف ليلة وليلة » ولم تكن امك المسيكنة تفهم شيئا منها . . . اما انت فكنت تتظاهر بالرقاد بينما كنت تصغي باهتمام الى كل كلمة مما يقرأه والدك بصوت مرتفع .

اندرسن : وفي النهاية ، يا سيدي ، كنت اصغي خارج غرفة النسيج في بيت البر والاحسان الى القصص التي تتناقلها العجائز . ذلك بأنه في ذلك الزمان كان في الدانمارك من الاساطير بقدر ما كان فيها من سقوف القش التي تعشش فيها طيور اللقلاق .

صوت : حتى اليوم ما تزال الدانمارك تبدو كأنها موطن القصص الخرافية ـ المملكة التي تطوقها الجزر ، بقلاعها التي يقوم على حراستها الجنود ، تحيط بها الخنادق المائية التي يسبح فيها البط . ومدينة اودنسة بالذات ، وهي مسقط رأسك الذي ابصرت فيه النور سنة ١٨٠٥ ، لها اساطيرها الشهيرة التي لا تحصى . وقد اعتقد والدك الاسكافي ان الثروة هبطت عليه عندما اوصت لديه احدى الحسان من المجتمع الراقي في اودنسه على حذاء حريري قرمزي اللون . ولكنها خيبت ظنه ورجاءه عندما رفضت دفع الثمن ، مما ملأ منزله مرارة ويأسا . فهل تذكر ذلك ؟

اندرسن : وكيف لا اذكر هذه المأساة وقد هزتنا جميعا ، فمزجتها مع الاسطورة الاودنسية القديمة ، واطلعت منها قصة « الحذاءان الاحمران » المشهورة .

صوت : ولقد بلغت شهرتها ، يا سيد اندرسن ، انها اخرجت على شاشة السينما العالمية وشهدها الملايين من الناس بعد ان قرأوها كما قرأوا سائر قصصك . ولقد دل ذلك على ان سحر العبقرية في القدرة على تحويل اي اختبار ، حتى الاكثر مرارة ، الى اختبار جمالي بالنسبة الى الآخرين ! . . وعبقريتك انت تكمن في ان سحر قصصك الخرافية ـ ولعلها اروع ما كتب في هذا المجال ـ يقوم على كثير من الحقائق اليومية التي تمر بنا . ولقد عرفت في وقت مبكر حقائق الحياة القاسية .

اندرسن : شكرا لك ، يا سيدي ، على هذا التحليل الدقيق فأنا لا استحقه ، لانني لم ادرس فترة كافية ، وقلما كنت استطيع كتابة تخلو من الاخطاء النحوية او الصرفية .

صوت : صحيح ما تقول ، فلم تكن الدانمارك على عهدك تلك المملكة الديمقراطية السعيدة التي هي اليوم . فقد كان فيها الكثير من الفوارق الاجتماعية ، والكثير من البؤس الى جانب تفشي الامية . ولكنك مع ذلك كنت تحول بريشتك السحرية ، مع الوقت ، كل حزن مبكر ، حتى انهيار صحة والدك ، الى قصة رائعة ، فلقد شعرت بالخوف من النهاية عندما وقفت تتأمل باعجاب الاشكال المتنوعة التي يضعها الجليد المتراكم على نافذة الحجرة ، وأراك والدك شكلا يشبه امرأة قائلا لك انها ملكة الثلج ،

وانها عما قريب ستأتي لتحمله . وقد توفي بعد ذلك بشهور .

أندرسن : وتلك كانت الحال لما دخل زوج امي القصة التي كتبتها بعد ذلك ، وعندما قال لي الامير انه يستحسن ان اعمل في صنع الاثاث ، وعندما اعتقدت والدتي انه ينبغي لي ان اكون خياطا لانني كنت اقطع الورق للدمى التي كان والدي يصنعها لي . وهكذا غادرت منزلي وانا في الرابعة عشرة لكي اكسب عيشي في كوبنهاغن . وبعد ان درست في المعهد الوطني الموسيقي اصول الغناء بفضل البروفسور سيبوني وبعض من رغب في مد يد المساعدة الي ، فضلا عن دراستي اللغة اللاتينية ورقص الباليه ، دون ان انجح في اي من هذه الحقول عكفت على كتابة القصص في العلية التي سكنت فيها طوال يومي . وغالبا ما كنت ابقى في السرير للكتابة لكي ادفأ . وما لبث احد مديري المسرح الملكي ، ويدعى يوناس كولن ، ان اعجب بقصصي فعمل على تأمين منحة دراسية لي في المعهد الذي كان يديره سيمون مايزلنغ الذي كان علي ان اقيم معه .

صوت : الا ان مايزلنغ هذا كان شاعرا فاشلا ، فكان شديد الحسد منك بسبب مواهبك ، وطالما كان يغضب عليك ويثور لا سيما لانه كان مكروها من الجميع ، في حين استطعت انت ان تستقطب حبهم واعجابهم بسرعة . . . لذلك فقد كان دائم التهكم عليك في الصف ، يعمل على جعلك تفشل في دروسك ، ويحرمك احيانا كثيرة الطعام والنار للتدفئة .

اندرسن : ولكن هذا الشخص العجوز الحقير كان حريصا عى ابقائي في معهده لانني كنت اسيطر على التلامذة واجعلهم يتقيدون بالهدوء والنظام برواية الاساطير وقصص الجن لهم . . .

صوت : . . . هذه القصص والاساطير التي اصبحت فيما بعد كلاسيكية خالدة ، بدأت اذ ذاك تأخذ شكلها البراق ! ومنذ تلك الفترة ، والى الابد ، بدأ الاولاد يكونون افضل اصدقائك واكثر موجهيك حكمة . فلما بان سوء معاملة مايزلنغ لك انتزعك كولن من معهده ، واعادك الى كوبنهاغن لاكمال دروسك .

اندرسن : وهكذا باتت اسرة كولن الاسرة الوحيدة التي عرفتها في حياتك . وككل اسرة شاب موهوب ، رأت من واجبها ان ادع الاحلام وابقي قدمي على الارض . فراحت تحثني على هجر الكتابة التي نعتتها بالسخف، وتسعى لايجاد وظيفة حكومية متواضعة . . .

صوت : ولكن فهمك لنفسك كان بطيئا ، فطوال سنوات كافحت لتكون شكسبير الدانمارك او بايرون الدانمارك ، بكتابتك الملاحم ، والروايات الرومنطيقية ، والمسرحيات المأساوية، وكلها اليوم منسية . في حين أن القصص والاساطير التي وضعت منها سبعة وثلاثين مجلداً، كان يظهر مجلد منها لمناسبة عيد الميلاد المجيد ، هي التي خلدت اسمك في عالم الادب القصصي للاحداث والكبار ، على السواء . هذه القصص التي تعتبر كنزا من الحقيقة الغريبة والجمال الحزين والسخرية المضحكة ، مما

لم يوضع مثله من قبل امام القراء . ان قصصك حكايات وامثال رمزية ذات مغزى اخلاقي ، وذلك اسلوب لم يتردد يسوع المسيح في اتباعه لتعليم الجموع . ومع انك كنت قد اصبحت مشهورا فقد ازددت طيبة ورقة . يروى أن مايزلنغ صادفك مرة في الشارع فانهمرت دموعه عندما تذكر سوء معاملته لك وقسوته عليك . وقد سامحته ، وهونت عليه . . .

اندرسن : كنت متسامحا في كل تصرفاتي ، فقد وقعت في حب احدى حفيدات كولن ، وشئت ان تكون شريكة عمري . كانت هي في الرابعة عشرة وكنت انا في اواسط عمري ، وكان بوسعي ان انتظرها حتى تكبر . الا انني عندما رأيتها تميل الى شاب اصغر مني دفعتني الحكمة الى مباركة زواجهما . والآن ، وبعد ان وجدت حقيقة الاشياء بالنسبة الي من خلال قصص الجن ، فان الرغبة والطموح قد تطهرا . لذلك عندما بعث يطلبني ذلك الامير الذي سبق له ان نصح لي بان اتعلم مهنة اتكسب منها ، وشرب نخبي واشار الى ان بامكاني ان اطلب اي مكافأة ملكية ، كان جوابي له : ولكنني اكسب بعض المال بجهدي !

صوت : الحقيقة ان ما كسبته كان حب العالم اجمع وتقديره . لقد كنت من الشهرة بحيث ان الاولاد كانوا يتحلقون حولك عندما كنت تطل عليهم معتمرا قبعة عالية ، حاملا عصاك . ويسرني في هذه المناسبة ان اذكر ان قصصك ترجمت الى لغات عديدة اكثر من اي كتاب اخر ، باستثناء

الكتاب المقدس . ولما عدت الى مسقط رأسك اودنسة مكللا بالغار بعد حوالي خمسين سنة من مغادرته ، استقبلت استقبال الفاتحين ، انت الذي هجرت قريتك ابن اسكافي وعدت اليها امير قصص الجن والاساطير ، اتذكر ذلك ؟

اندرسن : وكيف لا اذكر اسعد مناسبة في حياتي ، فقد كانت الاعلام الدانماركية الحمراء والبيضاء ترفرف في كل مكان . والجموع تنشد اغاني وتهتف باسمي . وقد اقيمت مأدبة كبرى لتكريمي ، وانهالت علي التهاني من مختلف ارجاء البلاد . في تلك الليلة احتشدت الجموع حاملة المشاعل تحت نافذتي وراحت تناديني لاطل عليها .

صوت : انه لاستقبال رائع حقا ، فهل لك ان تذكر لنا ماذا كان في قلبك الرقيق الذي عاش وحيدا زمنا طويلا ؟

اندرسن : الحقيقة ان ما جال في خاطري اذ ذاك هو هذه العبارة : « الى الله والانسان شكري ، وحبي ! » .

صوت : وشكرا لك على هذه المقابلة اللطيفة ، يا سيد اندرسن ، واسمح لي ان اختم حديثنا بالقول ان وفاتك كانت سنة ١٨٧٥ .

ديكنز: ٥٠ إنساناً في شخصيته
(١٨١٢ - ١٨٧٠)

صوت : عرف الروائي البريطاني الاشهر تشارلز ديكنز بلقب ربيب الفقر . ومما يجعله جثة يصعب على المترجمين تشريحها انه كان يجمع في شخصيته حيوات خمسين انسانا وارواحهم على حد تعبير صديقه لي هنت . وقد انكر الكثيرون ممن وضعوا سيرة ديكنز ان يكون معبودهم قد قصّر عن المثال الذي وضعه هو نفسه : « انسان لامع ، مخلص ، سخي ، سمح ، طروب ، شديد الحنين الى البيت والموقد » . نحن الآن على موعد مع هذا الاديب : تشارلز ديكنز . اهلا وسهلا بصاحب الوجهين . .

ديكنز : . . . ماذا تقول ؟ اراك تتعمد اهانتي ، ونحن بعد في مستهل هذا اللقاء .

صوت : عفوا ومعذرة ، يا سيدي ديكنز ، ومعاذ الله ان اقصد الحاق اي اهانة بك . وعلى اي حال لا اجرؤ على مثل ذلك نظرا لما عرف عنك من السخرية ، وشدة اللذع . الا انك كنت تمثّل في الادب الانكليزي جبارا ذا وجهين . . .

ديكنز : آه ، حسنا تقصد الوجهين الادبيين ؟!

صوت : اجل لقد قصدت تعريف الناس بتشارلز ديكنز الذي ابكى اجيالا واجيالا من القراء على مآسي اليتيم الصغير « اوليفر تويست » في الرواية التي تحمل هذا الاسم ، واضحك الكثيرين كذلك كثيرا في كتابه « مغامرات المستر بيكويك » .

ديكنز : قيل لي يا هذا ، انه ابتكرت رقصة في عالمكم اليوم سميت رقصة التويست .

صوت : وقد سببت هذه التسمية التباساً لدى المراهقين الذين اعتقدوا ان اوليفر تويست هو كتاب لتعليم الرقص فكانوا يدخلون المكتبات ، طالبين روايتك على اعتقاد انها دروس الرقص .

ديكنز : على اي حال ، يعتبر هذا الالتباس نوعا من الدعاية الحسنة المجانية لروايتي .

صوت : انت ابصرت النور ، ياسيد ديكنز سنة ١٨١٢ ، وتوفيت سنة ١٨٧٠ .

ديكنز : انا اذكر ذلك جيدا . . . ولقد كانت وفاتي بالضبط في الثامن من حزيران سنة ١٨٧٠ ، اثر مشهد من مشاهد التمثيلية التي كنت اقدم فيها اروع فصول روايتي امام الجماهير . وكانت آخر كلماتي على المنبر « الى الارض » .

صوت : وسقطت ارضا ، فما ان اقبل الصباح حتى كانت جثتك بلا حراك ، ودفنت في كاتدرائية وستمنستر في لندن .

ديكنز : لقد ارهقت نفسي بالعمل الادبي اكثر مما ارهق جيوبي افراد اسرتي وانسبائي الذين كنت اعولهم ، ولم اقف عند هذا الحد ، بل كنت اقوم بجولات في انكلترا وفي اميركا لالقاء فصول من رواياتي وتمثيلها .

صوت : كنت تعرف ان في ذلك ارهاقا لصحتك ونشاطك ، وتقصيرا لايامك ، فلماذا لم تخفف من حدتك ؟

ديكنز : لم اكن لابالي لانني كنت اجد لذة كبرى في مشاهدة المستمعين الي ، المعجبين بتمثيلي ، يكادون يختنقون او يصابون بالاغماء من فرط الضحك والقهقهة .

صوت : حقا انك كنت غريب الاطوار . ويروى في هذا المجال انك كنت تغادر منزلك ذلك وسط الظلام الدامس ، وتتيه في شوارع لندن كالمجنون قاطعا خمسة عشر ميلا او اكثر في الليلة الواحدة ، دون ان يكون لك اي مأرب من هذه النزهة الليلية .

ديكنز : أوَنسيت كم مرة دخلت بيوت اصدقائي من نوافذها مرتديا ملابس البحارة ، او راقصا الرقصات التي يرقصها الناس على انغام الناي ؟!

صوت : لعل ابرز الدلائل على غرابة اطوارك ما جرى في الولايات المتحدة الاميركية التي ادهشتها منك حركاتك وعاداتك المستهجنة . ففي احدى المآدب التي اقيمت تكريما لك تناولت مشطا من جيبك ورحت تسرّح به شعرك ولحيتك وشاربيك على مرأى من المشدوهين المتقززين .

ديكنز : وكان اكثر المتذمرين من تصرفاتي التي اعترف بأنها

كانت شاذة ، زميلي الاميركي واشنطن ايرفنغ .

صوت : وقد نسيت ان اذكر ههنا انك كنت ترتدي ثيابا مخملية قرمزية اللون او خضراء لامعة .

ديكنز : صحيح ما تقول ، وكنت ازين اصابع يدي بالخواتم المرصعة بأغلى الجواهر وادقها صنعا .

صوت : حتى ان اسمك الاصلي ، يا سيد تشارلز ديكنز ، كان غريبا لانه كان تيموثي سباركس سيسيلي ايزابيل فيرفيلد اندروز .

ديكنز : الا توافقني على ان اختياري اسم تشارلز ديكنز كان موفقا ؟ فضلا عن انني وفرت الكثير من الجهد على طلاب الادب باختصار اسمي الاصلي .

صوت : اسمح لي الآن ان اذكر ان حبك الاول كان لماريا بيدنل التي احتقرتك احتقارا انتهى بطردك نهائيا من البيت ، فتزوجت كيت هوغارث وسيطرت عليها سيطرة تامة . وقد انجبت لك عشرة اولاد دون ان تتلقى منك شكرا او امتنانا .

ديكنز : لماذا تقول ذلك ؟ لقد كتبت يوم رزقت بالطفل رقم عشرة الى احد اصدقائي اقول له : « لدي فكرة رائعة ، وهي التوسط لدى اسقف لندن لاقامة قداس خاص في كاتدرائية القديس بولس تكريما لي على الخدمة القومية التي اديتها بزيادة عدد سكان بلادي » !

صوت : ولقد عرفت بتشددك في تربية اولادك ، فكنت تقيم المنزل وتقعده وتملأه صياحا وتهديدا اذا وقع نظرك على

قطعة من الرياش في غير موضعها ، او اذا اتت احدى بناتك امرا ، او اهملت شأنا من شؤون المنزل مهما يكن طفيفا .

ديكنز : اني اعتبر قولك هذا اطراء لي ، فالتشدد في تربية الاولاد والمحافظة على النظام من الخصال المحمودة ، اليس كذلك ؟

صوت : وكنت ذا مزاج متقلب ، تذرف الدموع السخية وتنشج احر نشيج ، ولكنك سرعان ما كنت تجفف دموعك وتنفجر ضاحكا ضحكات تكاد تزلزل المكان الذي تكون فيه .

ديكنز : اليس ذلك ابلغ دليل على الطهارة في التمثيل ؟!

صوت : بلا ادنى شك والآن لا بد من الاشارة الى ان شهرتك الادبية كرّستها روايتك الضاحكة « مغامرات المستر بيكويك » التي اشتهرت شخصياتها في طول انكلترا وعرضها ، في حاناتها الشعبية المختصة بتقديم البيرة ، وفي صالونات الشاي ، وفي الاندية الخاصة جدا حيث يحتسون الويسكي .

ديكنز : والغريب في الامر ان اعضاء الاندية الخاصة هذه هم الذين قدورها اكثر من سواهم ، مع ان هذه الرواية كانت بمثابة هجاء لاذع لهذه المؤسسة الوطنية .

صوت : في الرواية نوادر لطيفة ومغامرات مضحكة سخيفة يتعرض لها الاعضاء الاربعة في نادي بيكويك : المؤسس ومساعدوه الثلاثة ، وهم اربعة بورجوازيين

طبيين من لندن . جبناء يتظاهرون بأنهم اناس رياضيون ، يصلحون الفساد ويقومون الاعـوجاج ، ولكن المجال لا يتسع لا يراد شيء منها ، اللهم الا بعض الحكم التي ترد على لسان العضو الخامس سام ويكر الذي لم تذكره لانه كان الخادم .

ديكنز : في الحقيقة ان الاعضاء الاربعة الذين يؤلفون « نادي بيكويك » كانوا خمسة تماما كما كان الفرسان الثلاثة المشهورون اربعة ، في الواقع . . .

صوت : ان الحكم الويليرية حرية بأن تذكر في نهاية هذه المقابلة . . . والمعروف عن الخادم سام ويلر الاريب الماجن انه اعتاد ان يردد بعد كل عبارة من عباراته : « كما يقول فلان . . . » .

ديكنز : اجل ، فهو القائل : « سأفعل افضل من ذلك في المرة المقبلة ، كما تقول الفتاة الصغيرة التي اغرقت شقيقها ، وذبحت جدها » .

صوت : وهو القائل : « انه ليسعدني ان القاك ، وارجو ان تدوم علاقاتنا طويلا ، كا يقول الواحد لورقة نقدية من فئة خمسة جنهيات »

ديكنز : وهو القائل كذلك: « انا لا اقوم الا بمساعدة الطبيعة ، كما يقول الطبيب لام الطفل الذي ظل يسحب من دمه حتى قضى عليه . . . » .

صوت : وهو القائل اخيرا : « سيكون هذا جميلا في نظر الجميع ، كما تقول الفتاة التي اوقدت النار في المدرسة » .

غوستاف فلوبير : مزيج نادر من الرومنسية والواقعية
(١٨٢١ - ١٨٨٠)

صوت : سنة ١٨٤٠ هبط باريس لدراسة الحقوق فتى في الثامنة عشرة ، غريب ، وسيم ، خجول ، شكس ، شديد الاعتزاز بنفسه ، رقيق الشعور ، ولاذع . كان يبدو كأنه واحد من آلهة الاغريق ، يرتدي قميصا من الفانيلا الحمراء ، وبنطلونا ازرق ، كان قليل الكلام ، ولكنه عندما يفتح فمه كان لسانه وكأنه غمس في برميل خل . لم يكن ليكترث كثيرا بالعرف والتقاليد والنظام ، بل كان ينظر الى الجميع - والى نفسه - على انهم مجانين ، وهو القائل : « ان اول احمق اراه كل يوم في نفسي ، صباحا ، عندما اقف امام المرآة لاحلق ذقني . والاحمق الاخير هو أي انسان يتفق لي ان اتحدث اليه قبل ان آوي الى سريري » . ستتساءلون ، ايها القراء الكرام ، من يكون هذا الفتى ، كما تساءل زملاؤه الطلبة لدى لقائهم اياه . . . انه الروائي الاشهر غوستاف فلوبير ، ابن رئيس الجراحين في مستشفى روان في فرنسا .

سيدي فلوبير ، لكم هو رائع ان يكون المرء ابن جراح شهير .

فلوبير : واين الروعة في ذلك ، يا هذا ؟

صوت : فكر في الارواح التي يمكن الطبيب الشهير ان ينقذها .

فلوبير : صحيح ، كان ابي ينقذ الحمقى ليرتكبوا في المستقبل حماقات جديدة !

صوت : الغريب في امرك انك كنت غريب الاطوار منذ البدء ، لا تهتم الا بالوجه القاتم للحياة . ولطالما تسلقت جدار المستشفى لتشاهد الجثث التي كان يتمرن بها الطلبة على التشريح . وكنت تعجب بالمجانين .

فلوبير: وكان المجانين ، من ناحيتهم ، يعجبون بي .

صوت : ولدت دقيق الملاحظة ، فرحت تدون الملاحظات عن الناس الذين تلتقيهم منذ تعلمت اصول الكتابة .

فلوبير: بصفتي ابن مشرح للاجسام البشرية ، كنت اطمح لان اكون مشرحا للنفوس البشرية .

صوت : وكنت بعد فتى صغيرا عندما كتبت روايات كنت تقوم بتمثيلها مع شقيقتك على مسرح الاسرة : مائدة الطعام .

فلوبير : ولم اكتف قط بالروايات التمثيلية ، فكتبت قصة طويلة ، ومقالين علميين عن كورناي وعن الامساك .

صوت : وكنت تضطر الى الاختباء وقت الكتابة تهربا من والديك لانه كان ضد الأدب، وضد امتهانك هذه الحرفة في المستقبل .

فلوبير: الواقع ان الدكتور فلوبير كان يستغرق في النوم كلما قرأت له شيئا من « روائعي » وقد كان كل همه ينحصر في ان اصبح طبيبا ، وجراحا مثله ، ومثل شقيقي آشيل . ولطالما ردد على مسامعي : « نحن آل فلوبير اناس محترمون ، ولا نريد ان يكون فينا اي متشرد او شاعر ! » .

صوت : وهكذا ادخلت مدرسة محترمة . . .

فلوبير : ولكني طوال ثماني سنوات حلمت وراقبت وكتبت ولذعت بالسخرية زملائي الطلبة الذين كانوا من اصدق اصدقائي .

صوت : الواقع ان اصحاب الروح الساخرة اللاذعة هم في اعمق اعماقهم ذوو روح رقيقة ، لطيفة . ولما بلغت الثامنة عشرة صارحت والدك بأنك لن تدرس الطب . وعندها صارحك والدك بأن عليك اذن دراسة القانون .

فلوبير : وعندها حزمت امتعتي ويممت شطر باريس . ولكنني كنت عنيدا ، شكسا ، « كنت بربريا ، ولي عناد البرابرة » .

صوت : وحب البرابرة للمغامرة كذلك .

فلوبير : وكنت انحدر من القراصنة الصقليين ، فوددت ان اصبح قرصانا ، ولكن من نوع آخر، مغامرا في ميدان الفكر ، وباحثا عن الذهب في العبارة المثالية والاسلوب

الادبي الممتع . كنت اود ان اصبح كاتبا . ولا شيء غير ذلك !

صوت : واعتبرك والدك حالة مرضية ميؤوسا منها ، فلم يتشدد معك ، وترك لك كل حرية .

فلوبير : وتركت انا كتب القانون ، وملت الى رواية « دون كيشوت » ، روعة الجنون الانساني . . . وقد اصبح هذا الكتاب الينبوع الرئيسي لفلسفتي ، والمدأ الاساسي لايماني . « فمشكلة البشر هم انهم ليسوا محتالين بل . انهم مجانين » .

صوت : وبتأثير هذه الفلسفة كتبت عددا من المسرحيات والروايات التي تعالج الجوانب القائمة في الحياة ، فكانت كلها قصصا غريبة ، غير ناضجة كتبتها لتسليتك الشخصية ، ولتسلية اصدقائك .

فلوبير : واصدقائي هؤلاء كانوا اكثر تشاؤما مني . فقد كنا جماعة من الشبان الغريبي الاطوار ، نعيش في عالم غريب ، ونسلك ممرا مألوفا بين الجنون والموت . بعض هؤلاء الشبان قتلوا انفسهم ، واخرون ماتوا في اسرتهم . واحد منهم خنق نفسه بربطة عنقه ، وعديدون ادمنوا الشراب لطرد كل تفكير من رؤوسهم . . .

صوت : ولكنك استطعت ان تحافظ على الاتزان الصحيح بين الجنون والانتحار ، وذلك بفضل ثلاثة من اصدقائك كانوا يحبون الادب والحياة .

فلوبير : كان مكسيم دوكان رئيس تحرير « مجلة باريس » مرشدي ودليلي، لا في حدائق الخيال فحسب ، بل في مسالك العالم ، اخرجني من قوقعتي ، وجعلني اقابل الناس ، وحملني معه سنة ١٨٤٩ في رحلة الى الشرق .

صوت : وقد كانت هذه الرحلة الشعرية مرحلة من اروع مراحل حياتك ، وقد كتبت تقول بصددها « لن انسى مطلقا الاختبار ـ الالوان والاصوات في مصر وسوريا وفلسطين ، ومالطة والقسطنطينية » .

فلوبير : ان روعة الاهرامات في وادي النيل ما تزال ماثلة امامي الى اليوم ، وبخاصة منظرها وقت الاصيل .

صوت : ثلاثة اهرامات ، وثلاثة اصدقاء . وصديقة شاعرة هي لويز كوليه ، كانت كذلك رائعة .

فلوبير : صحيح انها لم تكن لتهز الكثيرين من ادباء باريس بجمال شعرها ، الا انها اسرتهم بشاعرية جمالها .

مما يروى في هذا المجال ان الشاعر الاكبر فكتور هوغو تحسر امامها مرة على ذراعي فينوس دوميلو المقطوعتين فكان ردها ان الذراعين قد وجدتا تحت كميها .

فلوبير : لقد كانت اذكى نساء باريس ، واجملهن ، ولكنني لم استطع ان اتزوجها لانني بعد وفاة والدي عشت مع امي بالقرب من روان ، وكانت شديدة التعلق بي ، ولم تشأ ان تشاطرها أياي اي امرأة حتى لو كانت ملاكا هبط من السماء .

صوت : الواقع انك كنت شخصيا ، ضد هذا الزواج ، وضد منح نفسك وجسدك لاحد ، لان جسدك على حد تعبيرك لم يكن الا ظلا لنفسك . وقد كنت تحيا في عالم الافكار ، لا في عالم الاشياء .

فلوبير : انا لم اقبل حقا اي امرأة ، ولا حتى لويز ، ان كل ما كنت اضمه بين ذراعي كان شبه الحب ، وليس الحب نفسه .

صوت : ولكن شبه الحب هذا كان من القوة بحيث انه اثر في مجرى حياتك كلها . فبوحي من لويز اتقنت اسلوبك الادبي ، وانصببت على سلسلة الروايات التي بوأتك مركز الصدارة بين مبدعي الادب العالمي . الا ان وحي الحب ، واخلاص الصداقة لم يكونا سوى ظلال عابرة في عالم افكارك . ذلك بأنك كنت امرأ منطويا على نفسك تؤثر العزلة على كل شيء في الحياة . وقد عشت وحدك مع افكارك في قوقعة عبقريتك بعد أن افترقت عن لويز ، وعن اصدقائك الثلاثة .

فلوبير : تركت اصدقائي واحبائي وغرامي لابحث في الخضم الادبي الواسع .

صوت : سيدي فلوبير ، انت كأديب مزيج نادر من الرومنسية والواقعية . وطوال حياتك ترجحت بين عالمي الخيال والحقيقة . لم تكن لتتحدث قط عن الكتاب الذي كنت تعمل فيه ، بل كنت تتحدث باستمرار عن الكتاب الذي ستكتبه . وكنت تصقل كلمتك صقلا . .

فلوبير : الحقيقة تجرح دائما . ولقد كانت « مدام بوفاري » صورة صادقة عن انها كل حي ـ لها صوت ، وعطر ، وشخصية ، وروح ! ولذا كنت انحت الكلمات نحتا ، واحاول الا استعمل الكلمة نفسها مرتين في الصفحة الواحدة : « فمن الخطأ ان اسيىء الى اذن قرائي ، كما هو من الخطأ الاساءة الى قلبهم » .

صوت : بعد نشر روايتك الشهيرة الجريئة « مدام بوفاري » نعتك النقاد بأنك مجذوم اخلاقيا . والقت الحكومة الفرنسية القبض عليك بتهمة الاساءة الى الاخلاق والآداب العامة . ولكن بعد محاكمة عاصفة برئت ساحتك .

فلوبير : الحقيقة تجرح دائما ، ولقد كانت « مدام بوفاري » صورة صادقة عن الحياة ، وهي في صدقها واخلاصها ليست اباحية في شيء ، وهي الوصف الصادق لانهيار قسم من جبل ثلجي سواء بسواء !

صوت : صحيح ما تقول يا من عرف بأنه كان اكثر البشر عزلة في اوروبا .

فلوبير : لقد عشت في كرواسيه ، بالقرب من روان ، وكنت اذهب بين آن وآخر الى باريس لمجاذبة جورج صاند اطراف الحديث او للعشاء برفقة فكتور هوغو ، او بعض الاصدقاء من ذوي الروح المتجانسة مع روحي .

صوت : ولقد عشت كذلك في كتبك . ولطالما قال جيرانك انك كنت نفورا وتحقد على اقرانك من الناس ، ولكنهم لم

يدروا قط انك كنت تضحي بمعظم ثروتك لمساعدة أنسباء لك كانوا بحاجة اليها اكثر منك .

فلوبير : الواقع يا هذا ، ان المرء يعيش في آرائه ومبادئه . فهناك يجد سلواه الوحيدة ويتلقى مكافأته الوحيدة !

صوت : ووسط مبادئك وآرائك ـ وكنت منكبا على كتابة رواية « بوفار وبيكوشه » ـ سحبك الموت بيده وقادك نحو مشاهد جديدة لروائع اكبر !

ألفونس كار : تحت ظلال الزيزفون
(١٨٠٨ - ١٨٩٠)

صوت : مقابلة اليوم مع الفونس كار ، الروائي والصحفي الفرنسي المعروف ، صاحب رواية « تحت ظلال الزيزفون » التي نعرفها نحن العرب حق المعرفة رواية ، وشريطا سينمائيا عربياً .

كار : ماذا تقول ؟ اتعرفونها حقا ؟

صوت : نعرفها ، كما قلت حق المعرفة ! فقليلون هم الذين لم يقرأوا ترجمة روايتك هذه التي اصدرتها سنة ١٨٣٢ ، وهي رواية مفعمة بالرومنسية ، وقد فتحت لك بشهرتها ابواب جريدة « الفيغارو » .

كار : ولكنك لم تذكر لي من ترجمها ؟

صوت : ترجمها اديب مصري متين الاسلوب طلي العبارة هو مصطفى لطفي المنفلوطي ، ولم يكن يعرف الفرنسية . . . كان يصيغ عباراتها بعد ان تترجم له مقاطعها الفرنسية !

كار : انه والله لعمل رائع ! وماذا عن الشريط السينمائي الذي ذكرته ؟

صوت : قبل ذلك ، دعني اقل لك ان الكثيرين ممن طالعوا « تحت ظلال الزيزفون » ، انما فعلوا ذلك مدفوعين بحب تقوية لغتهم العربية . فقد قرأوها كما كانوا يقرأون « كليلة ودمنة » لاكتساب روعة الاسلوب العربي . . . وكما كانوا يقرأون كذلك مؤلفات جبران خليل جبران ! . . وكلها من المؤلفات القيّمة .

كار : حسنا جدا .

صوت : اما الفيلم الذي اقتبس من روايتك فكانت بطولته معقودة اللواء للمغني والموسيقي الشهير محمد عبد الوهاب ، وللمغنية نجاة علي . . . وكان بعنوان « يحيا الحب » . وقد لاقى رواجا كبيرا .

كار : شكرا لك على كل هذه المعلومات .

صوت : وقد نشرت بعد روايتك الناجحة « تحت ظلال الزيزفون » عددا من المؤلفات الروائية تكاد تكون منسية اليوم ، وغير معروفة من مثل « اقصر الطرق . . . » و« رحلة حول حديقتي » و« قصة بيدق » . . .

كار : على نقيض النشرات التي خلدت اسمي وقد اصدرتها شهريا ابتداء من سنة ١٨٣٩ بعنوان « الزنابير » ، ودام اصدارها طوال عشر سنين .

صوت : الواقع انك مصيب في قولك انها خلدتك ، ففي « الزنابير » عرفنا وجهك الحقيقي ، وجهك المرح الساخر ! . .

كار : شكرا . وأنا مؤسس جريدة « جورنال » لمساندة الجنرال كافانياك ضد لويس نابوليون ، ولكنني انسحبت من الحياة الصحفية بعد انقلاب سنة ١٨٥١ ، ولجأت الى نيس حيث انشأت مزرعة ، كنت استلهم منها مؤلفاتي الروائية .

صوت : وكانت وفاتك في سان رفاييل ، هذا الميناء والمحطة الصيفية الاستجمامية على شاطىء البحر الابيض المتوسط سنة ١٨٩٠ .

كار : تماما . . قضيت آخر ايام حياتي في مزرعتي ، واحسب ان جدي البافاري الطيب من عهد فولتير لا بد ان يكون قد ابتسم وهو ينظر الي في حديقتي الواسعة ، وردد « لنزرع حديقتنا » !

صوت : على ذكر جدك البافاري دعني اذكر في هذا المقام انك من اصل بافاري ، مع كونك الباريسي الصرف بين كتّاب القرن التاسع عشر من الفرنسيين . ولقد هبط جدك هذا باريس سنة ١٧٨٧ ، واقام فيها . وكان في مونيخ عاصمة بافاريا ، مدير المرتلين في احدى الكنائس .

كار : وقد توفي في باريس زمن الثورة الفرنسية .

صوت : وكان والدك من مواليد مونيخ ، كذلك ، ومهنته تجريب البيانوات ، لدى مؤسسة « ايرارد » . اما انت فكنت تلميذا نجيبا في كلية بوربون ، وقد بدأت حياتك العملية استاذا مناوبا للصف الخامس الثانوي ،

قبل ان تنصرف الى الصحافة والادب ، وقد كانت تلك نقطة التحول في حياتك !

كار : بل قل نقطة التحرر في حياتي . . التحرر من حياة القيود المدرسية ، وصلابة المراقبين ، واطلاق العنان لحدة الذهن والنشاط الخلاق .

صوت : في مؤلفاتك نجد الكثير من الاشارات واللفتات البارعة الضاحكة المتنوعة التي تذكّرنا بكبار الادباء الساخرين الفرنسيين امثال تريستان برنار ، والفونس آلليه ، وساشا غيتري .

كار : كان لي شيء من كل واحد من هؤلاء الثلاثة الذين ذكرت . فمثل آلليه كان اسمي الفونس ، ومثل تريستان برنار كان لي لحية كثة طويلة . ومثل ساشا غيتري ، كان الكثيرون يجدون متعة كبرى في مصادقتي ، وصحبتي !

صوت : ولكن الفرق ، يا سيد كار ، انك ابصرت النور سنة ١٨٠٨ ، اي حوالي ثلاثين سنة قبل الساخر الاميركي مارك تواين وقبل الفونس آلليه بخمسين سنة ، وقبل تريستان برنار بتسعين سنة ، وقبل ساشا غيتري بثمانين سنة . . .

كار : ولا تنس انني وُجدت في مطلع عصر الفكاهة والدعابة وخفة الروح ، فكنت الرائد الاول لهذا الادب ، وكانت مبتكراتي فيه هي الاولى ، بلا اي مبالغة .

صوت : صحيح ، فعندما نقرأك يحملنا التفكير في كل لحظة الى

خلفائك هؤلاء الاربعة الذين يضاهونك خفة روح ، وذكاء ، وغرابة . . . وانها لمباراة شائقة تقام بين محبي الضحك وعشاقه تلك التي يطلب فيها اليهم معرفة لمن هذه النادرة الطريفة ، ولمن هذا القول الرائع ؟ . . اهما لساشا غيتري ، ام لالفونس كار ؟ . . فهل لك أن تسمعنا شيئا منك لا يقبل الجدل ؟

كار : هذه ملاحظة لي اضحكت باريس بأسرها حوالي سنة ١٨٥٠ : « ان العقوبات التي تفرض على المرأة الزانية قد اختلفت على مر العصور . فاللوكريون كانوا يقتلعون عينيها . وشريعة موسى تعاقبها بالموت . اما الشعب الساكسوني القديم فكان يشنقها ثم يحرقها . والملك كانيوت الانكليزي اصدر الامر بقطع اذني المرأة الخائنة . في حين كان قدماء المصريين يجدعون انفها . وكانت شريعة جوليا ، لدى الرومانيين ، تقضي بقطع رأسها . اما في جزيرة كريت فكانت المرأة الزانية تكره على حمل اكليل من الصوف ، وتجعل جارية . فهل تدري اليوم ماذا يجري في فرنسا » ؟

صوت : طبعا !!! والآن ، هات اسمعنا بعضا من آرائك السياسية المبتكرة المضحكة .

كار : اصغ الي : الفرنسي ذكي في اصله ، وقد اوجد المقصلة .

اتدري ماذا تريد الطبقة العاملة ؟

صوت : لا ، أنّى لي ان اعرف ماذا تريد الطبقة العاملة ؟

كار : الطبقة العاملة تريد الا تعمل .

- ينبغي الا يطيل المرء في الحديث عندما يكون الموضوع يدور حول امور مفيدة .

- واخيرا : فرنسا غنية جدا ، وهي لا تعرف ذلك الا بخساراتها . تماما كالصحيح والسليم ، لا يقدّر الصحة الا عندما يكون مريضا .

صوت : ولك آراء بعيدة عن السياسة لا تقلّ روعة عما سمعنا . ارجو ان نستمع الى بعضها .

كار : انها ، ولا ريب خطرات فلسفية فاسمع : كل واحد منا يريد ان يكون له صديق ، ولكن لا احد يهتم بأن يكون صديقا .

- نحن لا نسافر من اجل السفر ، بل نسافر لكي يقال اننا سافرنا !

- انا احب الموسيقى اكثر من الموسيقيين ، وأحب الرسم اكثر من الرسامين .

- اذا شئنا الغاء عقوبة الموت ، ففي هذه الحالة ليتفضل السادة السفاحون بأن يبدأوا بذلك .

صوت : صحيح ، والله قولك . . . . بل صحيحة كل اقوالك وعميقة على الرغم من مسحة السخرية التي تغلفها .

كار : واسمع هذين القولين ايضا : « السعادة تتألف من المصائب التي تجنبناها » . و« الملكية الادبية نوع من الملك » .

صوت : والآن ، يا سيدي ، لك قول جميل وهو : « في باريس ليس ثمة مواسم اللهم الا للفقراء والبخلاء » . فهل لنا ان نعرف المناسبة التي قلت فيها ذلك ؟

كار : في شهر كانون الاول من احدى السنين طلبت كرزا فقيل لي ان الموسم ليس موسم الكرز ، فقفز على لساني القول الذي ذكرت !

صوت : ومن شدة حبك للريف قضيت سنوات حياتك الاخيرة فيه .

كار : وفضلا عن حبي المخلص للريف ، انا القائل ايام الصبا : « المرء يولد فلاحا » !

صوت : وكفلاح قضي عليك ان تموت !

كار : واسمع ما كتبته في هذا الصدد : « شكرا لمنحك اياي الذكاء ، والحاجة ، والارادة ، لاقضي حياتي كلها في الحقول ، وفي الغابات وفي البراري ، وعلى ضفاف الانهار ، وعلى رمال وحصى الشواطىء البحرية ، وخصوصا لانك منحتني فكرا ، وقلبا ، وروحا قادرة كلها على الاعجاب وتفهم كل الكنوز الحقيقية وهذه الثروة الصحيحة التي يسرت لي الاستغناء عن الآخرين . . .

صوت : وهنا بيت القصيد : « فالبعد عن الناس غنيمة » كما يقولون !

هارييت بيتشر ستو : كتابها حرّر العبيد
(١٨١١ - ١٨٩٦)

صوت : في اواخر شهر تشرين الثاني من العام ١٨٦٢ ـ تقول الحكاية ـ استقبل الرئيس ابراهام لنكولن في البيت الابيض سيدة في اواسط عمرها ضئيلة الحجم ، فلما صافح يدها الصغيرة بيده الكبيرة المليئة بالعقد صاح : « اذن هذه هي السيدة الصغيرة التي تسببت في هذه الحرب » .

كانت تلك السيدة الصغيرة هارييت بيتشر ستو ، مؤلفة كتاب « كوخ العم طوم » ، الرواية التي ساهمت ، عندما نشرت قبل عشر سنين من ذلك في انتخاب ابراهام لنكولن رئيسا للجمهورية ، اما الساسة والمؤرخون المعاصرون فيعتبرونها التأثير المفرد العظيم الذي ادى الى ازالة الرق وتحرير العبيد في العالم الجديد . وسنقضي مع هارييت بيتشر ستو هذه الدقائق في الحديث معها عن حياتها وعملها الجليل . ولا بد ان تكون هذه المقابلة ممتعة ومفيدة معاً من حيث الاضواء التي ستسلط على هذه الشخصية الفذة . . .

هارييت : ولدت في مدينة ليتشفيلد من اعمال ولاية كونكتيكت حيث ترعرعت ثم انتقلت الى سنسناتي حيث عشت ثماني عشرة سنة . وهناك شهدت الاضطرابات المعادية

للرق . وقد ساعدت العبيد الذين كانوا يفرون من اسيادهم واستمعت الى قصصهم . ثم في سنة ١٨٥٠ انتقلنا الى برونزويك في ولاية ماين حيث كان زوجي كالفن ستو قد عيّن استاذا في كلية بودوان .

صوت : الا انه كان من المستحيل عليك ان تهربي من قضية الرق حتى في ولاية ماين . كانت تلك القضية شغل الصحافة الشاغل ، وكان مجلس الشيوخ الاميركي يردد صدى خطب تشارلز صمنر الداعية الى الغاء الرق ، كما كان اخوك القس هنري وورد بيتشر يلقي عظاته في الكنيسة وكلها تدور حول العبيد الأرقاء . وكنت قد كتبت عددا من القصص القصيرة لزيادة دخلكما الذي لم يكن كافيا لسد حاجات الاسرة . وكانت روحك الشديدة التدين تسعى الى اعطاء العالم صورة عن وحشية استعباد البشر لاخوانهم البشر .

هاريت : اردت ان اظهر قضية الرق بتعابير انسانية تصور الأسر التي تحطمها مطرقة النخاس ، والقسوة التي يعامل بها هؤلاء المنكودو الطالع ، بحيث تساهم هذه الصور الروائية في حمل الجميع على عدم التساهل في الاستعباد بعد الان . ولكن الكتابة في موضوع سياسي كانت تغاير التدريب الذي خضعت له طوال حياتي . الا ان رسالة من شقيقة زوجي اطلقت الشرارة ، فقد كتبت السيدة ادوارد بيتشر الي تقول : « لو كان باستطاعتي استخدام الريشة لكنت كتبت شيئا يجعل هذه الامة تحس كم هي لعينة قضية الاستعباد والرق » .

صوت : ويذكر اولادك لفترة طويلة قراءتك تلك الرسالة على مسامعهم كما يذكرون كيف قفزت على قدميك كما لو كنت تؤدين عملا من اعمال التكريس ، وهتفت وقد جعدت الرسالة بيدك الصغيرة « سأكتب شيئا ما » .
وهكذا جلست ذات يوم الى مكتبك وبدأت بالكتابة .
هل تذكرين ما هي اول عبارة كتبتها ؟

هارييت : بالطبع اذكر ذلك ، فاسمع ما كتبت : « في ساعة متأخرة من بعد ظهر احد ايام شباط الباردة كان رجلان يجلسان وحيدين وامامهما كأسان من الخمر في قاعة الطعام الفخمة الرياش في احدى المدن في ولاية كنتكي » .

صوت : وهكذا بدأت ريشتك رحلة طويلة لم تكوني تدرين اين ستنتهي تلك الرحلة ، ولكنها انتهت في جيتسبورغ وابوماتوكس ولم يكن لديك اي فكرة مسبقة عن القوة الرهيبة التي ستطلقها روايتك تلك « كوخ العم طوم » .

هارييت : كنت انظر الى روايتي على انها رسولة سلام ، ولطالما رددت ان الاله نفسه هو الذي كتبها .

صوت : اصحيح ، يا سيدتي ، ان مشهد جلد العم طوم كتبته قبل اسابيع عديدة من تخطيطك الحاسم لروايتك ؟

هارييت : انه الواقع . . . فلقد ظهر ذلك كالرؤيا امامي اثناء احد القداديس ، وبوضوح ! وكما لو كنت حاضرة شخصيا رأيت عبدا عجوزا يجلد جلدا مميتا من احد

غليظي القلب من البيض . فلما انتهت الصلاة هرعت الى المنزل وانا اغالب الدمع بصعوبة ، وكما لو كنت في غيبوبة اوصدت دوني باب غرفتي ورحت ادون على الورق المشهد كما رأيته . ولما قرأته على مسمع افراد اسرتي بكى الاولاد بكاء مراً وقال لي زوجي : « هاتي ، ينبغي ان تكتبي قصة يكون هذا المشهد ذروتها » .

صوت : وهكذا كان ، وانصرفت الى كتابة روايتك الشهيرة ، اليس كذلك ؟

هارييت : الحقيقة انني رسمت قصتي لتكون ثلاثة اسكتشات او اربعة ، وقدمت الى الناشر بايلي في صحيفة « ناشونال ايرا » الصغيرة الصادرة في واشنطن ، المخطط الذي وضعته لها ، فقبل بها دون ان يراها واتفقنا على مبلغ ثلاثماية دولار ثمنا لها .

صوت : ولكن مسكينة هارييت ، لقد اصبحت الاسكتشات الثلاثة او الاربعة اربعين ، وانقضت سنة كاملة قبل ان تستطيعي جمع كل خيوط السجادة التي عملت في حياكتها . فبايلي لم يرفع مبلغ المكافأة في حين استمرت القصة تزداد طولا وتنشر في صحيفة ناشونال ايرا .

هارييت : في الخامس من حزيران سنة ١٨٥١ ، وعلى الصفحة الاولى من تلك الصحيفة نشرت الجزء الاول من الرواية التي اثرت في موقف جيل كامل من الاولاد وكان بينهم ابني «فريد» فمشوا بروح صليبية بعد ذلك بعشر سنين الى فوهة المدفع غير هيابين .

صوت : من العجيب حقا ان تحدث قصتك التي نشرت متسلسلة في صحيفة مجهولة ذلك الاثر الوطني البالغ . فقد كان في كل جالية احد انصار تحرير العبيد ، وكان مشتركا في تلك الصحيفة . فكانت الصحيفة التي يقرأها تنتقل من يد الى يد حتى تتلف ، فلما لم ترسلي في الخريف الفصل المنتظر للنشر في حينه هبت عاصفة احتجاج على الناشر المسكين .

هارييت : الواقع ، يا سيدي ، انني اصبحت شيئا فشيئا اسيرة روايتي ، ذلك بأنني كنت اكتب واكتب فيها والنهاية لا تلوح قريبة لناظري . فأنى ذهبت ومهما فعلت كان شبح الفصل التالي الذي سينشر في الصحيفة يلاحقني فضلا عن انني لم اكن متحررة من تدبير شؤون منزلي والاهتمام بأسرتي ، الامر الذي كاد يدفعني الى الجنون .

صوت : وكان هناك رجل ينظر برعب بالنسبة الى طول روايتك هو دجـون دجوويت احد ناشري الكتب في بوسطن الذي وافق على نشر روايتك المتسلسلة في كتاب مستقل . وكان يتوقع ان يكون مجلدا عاديا يباع بسعر معقول ، إلا انه فوجىء في نهاية تشرين الاول بأن رواية « كوخ العم طوم » تبدو انها ستملأ مجلدين ضخمين ، فطلب منك ان تضعي لها النهاية ، لان الموضوع كان في رأيه غير شعبي ، ومجرد صدوره في مجلدين سيقضي على رواجه حتما .

هارييت : الحقيقة انني وافقت الناشر دجوويت على رأيه لانني

كنت قد ارهقت نفسي بسبب اطالة الرواية ، ونشرت الصحيفة انه نظرا لما بلغته « كوخ العم طوم » من الطول فان كاتبتها ستنهيها ببضع فقرات تروي فيها تطورات الاحداث . فقامت قيامة القراء ، مما جعل صاحب الجريدة يسارع الى تطمين المشتركين والقراء بأنني سأواصل الكتابة دون اي قطع او تجزئة . وهكذا كان !

صوت : وابصر الكتاب النور دون اي دعاية مسبقة بالنسبة الى المراجعين والناقدين ، الا ان يوم صدوره في العشرين من اذار سنة ١٨٥٢ كان يوما مشهودا في مكتب الناشر اذ التهمت على الفور نسخ الطبعة الاولى البالغة ستة الاف نسخة . وفي غضون الاسبوع الاول كان الناشر دجوويت يشغل ثلاث آلات طابعة تعمل اربعا وعشرين ساعة يوميا باستثناء الاحد ، ومئة مجلد ، وثلاثة مصانع لتقديم الورق اللازم .

هارييت : وكان المبلغ الذي تقاضيته بمثابة حقوق تأليف عن مبيعات الاربعة اشهر عشرة الاف وثلاثمئة دولار . ولمناسبة مرور سنة على صدور روايتي « كوخ العم طوم » اعلن الناشر انه بيع خلال السنة ثلاثمئة وخمسة الاف نسخة ، مع ورود طلبات متزايدة يوما بعد يوم .

صوت : ومما يذكر ههنا ان روايتك « كوخ العم طوم » كانت عرضة لقرصنة ادبية من قبل الناشرين الاجانب في عدد من البلدان ، وترجمت الى العديد من اللغات . اما في اوروبا فقد راج الكتاب بين الطبقات البائسة

والمحرومة ، وفي لندن ونيويورك وبوسطن حولت الرواية الى مسرحية عرفت النجاح الكبير . وراح الاميركيون يغنون اغاني العم طوم والطفلة ايفا ، وهما من ابطال روايتـك ، وقد حظيا بعطف القراء ... .

هارييت : وتضاربت الاراء في الرواية التي كانت تلاقي رواجا في الولايات الشمالية والجنوبية على السواء وتباع بحرية مكتسبة مؤيدين وانصارا لحركة التحرير . ولكن فجأة منع بيع الكتاب في الجنوب وبات من الخطر اقتناء نسخة منه . وراح البريد الذي كان يتدفق علي يتضمن رسائل تهديد لي بسبب اثارتي عصيان العبيد ، وسرعان ما تبين للفريقين ان « كوخ العم طوم » لم تكن رواية وحسب ، بل لغما وضع في اساس الجمهورية .

صوت : في نهاية هذه المقابلة اود ان انقل اليك ما كتبه بعد ذلك بأربعين سنة الناقد النيويوركي كيرك مونرو مقيّماً روايتك واثرها التاريخي قال : « ان الغاء الرق لم يكن ولا يمكن ان يكون من صنع شخص واحد . فقد كان نتيجة جهود كثيرة التحدت . ولكن اعظم تلك المؤثرات وابعدها مدى كانت رواية « كوخ العم طوم » !

رتشارد برتون : رجال في رجل واحد
(١٨٢١ - ١٨٩٦)

صوت : نحن الان في حضرة رجل فريد حقا جمع في شخصه عدة رجال : فكان مغامرا ، ورحالة مستكشفا ، ودبلومـاسياً وجنديا ، وعالما ولغويا ، ومستشرقا ، واكثر من ذلك . وبلا ادنى ريب كان السير رتشارد فرنسيس برتون من ابرز الوجوه في العصر الفكتوري في انكلترا . ولعله كان من اكثر البشر اثارة في اكثر من عصر ومصر . . . والطريف في هذه المقابلة اننا سنتجـاذب اطراف الحديث باللغة العربية التي اتقنها كأي واحد من افضل ابنائها .

برتون : وقد اتقنت كذلك لزيادة معلوماتك ، يا سيدي ، ثلاث عشرة لغة ، بينها الفارسية ، وخمس لغات هندية ، لكي نحصر الموضوع في الشرق فحسب .

صوت : على ذكر الشرق ، انت عشت ردحاً من الزمن في هذه البقعة من العالم ، واختطلت بسكانها ، وتعرفت الى عـاداتهم ، واتقنت لهجاتهم وسبـل حيـاتهم وطرائقها . . .

برتون : في الهند اقمت سبع سنوات ، فأرسيت اسس معرفتي بالحياة الشرقية والعادات والتقاليد ، وخاصة في اوساط الطبقات الدنيا في المجتمع . وبصفتي مساعدا في دوائر

المساحة في منطقة السند استطعت ان اظهر في الأسواق كسائر الهنود ، دون ان يشك احد بأصلي الانكليزي .

صوت : لقد عرف عنك ذكاؤك الحاد ، وغرابة اطوارك فلم يكن تلبسك الشخصية الهندية امرا عسيرا عليك . وذلك يحملنا الى العودة قليلا الى الوراء لكي نتعرف اليك اكثر في مطلع حياتك .

برتون : كما تشاء ، يا سيدي ، فانا مولود في توركواي في انكلترا سنة ١٨٢١ ، في اسرة موسرة على جانب من المحافظة .

صوت : ولكنك لم تكن من انصار المحافظة في شيء ، بل على النقيض تمردت منذ البدء واضطررت الى هجر جامعة اوكسفورد بسبب تصرفاتك الغريبة ، فالتحقت اذ ذاك بشركة الهند الشرقية لكي تكمل دراستك حول الحياة الشرقية واللغات التي كنت قد بدأتها في الجامعة البريطانية الشهيرة . وكنت قد ابديت مهارة كبيرة في حقل اللغات . . .

برتون : هبطت بومباي سنة ١٨٤٢ فما لبثت ان اتقنت خمس لغات هندية الى جانب العربية والفارسية .

صوت : وفي الهند ، بلاد السحر والارواح ، شرعت في بنيان مجدك الادبي . فأصدرت اربعة كتب نشرتها بعد عودتك من الهند ، وذلك الى جانب اعمالك الكتابية الروتينية التي كان يفرضها عملك الحكومي .

برتون : لقد كنت غزير الانتاج ، سريعا في الكتابة ، فوضعت في حياتي خمسين كتابا في مواضيع مختلفة ، معظمها يدخل في ادب الرحلات ويتناول علم الآثار أو «الاركيولوجيا».

صوت : ولكنني اسمح لنفسي بأن اردد في هذا المجال رأيا اعتقد انك ستوافقني عليه بما عرف عنك من رحابة صدر ورجاحة تفكير.

برتون : وما هو هذا الرأي ؟

صوت : لا شك في ان خمسين كتابا بقلم رجل فرد يعتبر هرما ادبيا ، ولكن لعل ضخامة هذا الانتاج لم تسمح لك باتقان الاسلوب الادبي ومهره بالخيال الجبار ، ويقدر العارفون انك لو اهتممت بذلك لضمنت الخلود لمؤلفاتك التي لم تعرف على نطاق واسع .

برتون : الواقع انني من هذا الرأي ، ولكن ما رأيك بترجمتي الحرفية لكتاب « الف ليلة وليلة » ؟!

صوت : ان نقلك « الف ليلة وليلة » الى الانكليزية لعمل جبار حقا ، وقد اكسبك شهرة لانه دليل ساطع على تبحرك باللغة العربية ، وسعة اطلاعك على الحياة الشرقية بدقائقها . لذا جاءت ترجمتك لهذا الاثر الادبي الروائي الشرقي رائعة ودقيقة وامينة . . .

برتون : شكرا على هذا التقدير ، ودعني اذكر هنا ان « الف ليلة وليلة » الانكليزية صدرت في ستة عشر مجلدا كاملة وبلا حذف شيء منها ، وطبعت طبعة خاصة بين سنة ١٨٨٥ و ١٨٨٨ .

صوت : ولكنها اليوم نشرت مجددا في طبعة عالمية ، ولعل ما يجعل لها اهمية كبرى تلك الاشارات والتفسيرات والتعليقات التي تزخر بها ، وتكسب القارىء الغربي ثروة من المعلومات التاريخية والانتروبولوجية التي جمعتها من معرفتك للعالم العربي والشرقي ، والشعوب التي تقطن هذه المنطقة ، ومن التجارب التي مررت بها اثناء اقامتك بين ظهرانيها .

برتون : الواقع ان ترجمتي هي الترجمة الكاملة لهذه الرائعة الادبية . بعد ان تعرف العالم الاوروبي اليها عن طريق المستشرق والدبلوماسي الفرنسي انطوان غالان سنة ١٧٠٤ ، ثم ترجمها بعده الفرنسي مادروس سنة ١٩٠٠ ولكن ترجمة غالان لم تكن كاملة . وحتى الطبعة العربية لالف ليلة وليلة لم تظهر الا سنة ١٨١٤ ، وكانت كذلك غير كاملة . ذلك بأن الرقابة كانت تفرض حذف الكثير من الحكايات الصريحة اللهجة والاباحية .

صوت : اما انت فكانت لك الجرأة على نقلها كاملة غير منقوصة لانك لم تنشرها اذ ذاك للجمهور بل لعدد محدود من العلماء ، والمختصين والطلاب .

برتون : صحيح ما تقول .

صوت : وننتقل الان من حقل الكتابة والتأليف الى حقل المغامرات والرحلات في ارجاء الشرق والغرب ، في العالمين القديم والحديث ، فقمت بحملات استكشافية

خطرة عرضتك للموت غير مرة . جبت انحاء الهند وتوغلت في مجاهلها ، واكتشفت مع سبيك منابع النيل في افريقيا ، وبلغت رحلاتك التي كانت تحف بها المخاطر والاوبئة الاميركتين الشمالية والجنوبية وساعدك على التنقل هذا عملك في حقل الدبلوماسية وخدمتك العلم !

برتون : ولعل من امتع رحلاتي ومغامراتي كان حجي الى المدينة المنورة ومكة المكرمة بصفتي حاجا افغانيا . لكي لا يفتضح امري ان من ناحية التصرفات او من ناحية الخطأ اللغوي . وكان ذلك سنة ١٨٥٣ ، بعد ان كنت قد اصبحت ملما الماما كبيرا بالتقاليد والعادات المفروضة . واثمرت رحلتي تلك كتابا قيما - حقا - هو « حج الى المدينة ومكة » نشر سنة ١٨٥٥ فجاء وثيقة تاريخية لا بأس بها !

صوت : ولك كتاب بعنوان « مدينة القديسين » كان نتيجة لزيارتك الخاطفة للولايات المتحدة الاميركية سنة ١٨٦٠ فهل لك ان تحدثنا قليلا عنه ؟

برتون : ان كتابي هذا يدور حول طائفة دينية هي طائفة المورمون الطريفة في مدينة « سولت لايك » في ولاية يوتاه وزعيمهم بريغام يونغ الذي كان له سبع وعشرون زوجة !

صوت : ولكن لمَ تزوج بريغام يونغ كل هذا العدد من النساء ، هل كان ذلك شهوة جامحة ملكت عليه مشاعره ؟

برتون : كلا ، فقد كان رجلا شديد الاعتدال والتقوى ، الا انه وافراد طائفته كانوا متقيدين تقيدا تاما بتعاليم العهد القديم من الكتاب المقدس . . . قرأوا في التوراة ان ابراهيم واسحق ويعقوب وسليمان الحكيم وداود قد اخذوا بمبدأ تعدد الزوجات . واعتقدوا ان الله سبحانه وتعالى قد اوحى اليهم بأن يتزوجوا اكثر من واحدة وينجبوا البنين والبنات لتمتلىء بهم الارض ، ومن اقوال بريغام يونغ :

« ان الشخص الذي لا يعتقد بحسنات تعدد الزوجات قضت عليه اللعنة الى الابد ، وان الشبان العازبين سيلعنون ما بقوا دون زواج ! » .

صوت : (مقاطعا) وكم من عازبين انصبت عليهم اللعنة بعد الزواج !

برتون : وفكر بريغام يونغ بضرب المثل الصالح لاتباعه ذات يوم فاقترن قبل الغداء بامرأتين معا ، وبعد ان تناول واياهما الطعام ، تزوج امرأتين اخريين قبل حلول موعد العشاء . . . وكان وقتذاك في الرابعة والاربعين من عمره .

صوت : وكم بلغ عدد اولاده ؟

برتون : ستة وخمسين ولدا ، وذلك بأن احدى عشرة زوجة لم ينجبن له اولادا ، اما طفله الاخير فقد ابصر النور وهو في الثامنة والستين ، وتعتبر قصة هذا الرجل الذي استطاع ان يؤسس شيعة جديدة وينصّب نفسه كاهنا

اعلى لها ، ويجعلها تروج لهي من اغرب القصص في التاريخ الاميركي .

وصدق او لا تصدق ، ان بريغام يونغ هذا لم يتردد على المدرسة الا لمدة احد عشر يوما فحسب في حياته كلها ، ومع ذلك فقد اصبح من قادة القرن التاسع عشر البارزين وقد صرح ناظر الخارجية في عهد الرئيس لنكولن بأن اميركا لم تنجب سياسيا اذكى من بريغام يونغ وادهى !..

صوت : ونعود ، اذا سمحت لي ، الى قصتك انت ، يا سيد برتون ، لننهيها بعد ان دهمنا الوقت ، فنقول انك تزوجت في سن الاربعين ، فكان ذلك الزواج مبعث دهشة كبرى لاصدقائك لانه كان يتعارض وطريقتك في الحياة .

برتون : صحيح ، فقد اقترنت بامرأة محافظة جدا ، ولكن مع الفارق الكبير الذي كان بيننا من مختلف النواحي ، فقد اخلص احدنا للاخر طوال حياتنا المشتركة ، وقمنا معا بالعديد من الرحلات .

صوت : وكانت وفاتك في تريستا ، في ايطاليا ، سنة ١٨٩٦ .

برتون : هوذا الواقع ، فانا لله وانا اليه راجعون !

اميل زولا: مزيج من كل شيء طيب
(١٨٤٠ - ١٩٠٢)

صوت : في احد شهور سنة ١٨٧٤ اجتمع اربعة كتّاب للعشاء في « الكافيه ريش » في باريس . كانوا اميل زولا ، وغوستاف فلوبير ، وايفان تورغينيف ، والفونس دوديه . . . وكانوا يلتقون على مثل هذا العشاء مرة كل شهر ، فيتبادلون الآراء ، والنوادر الطريفة الجريئة احيانا ، ويتناولون افخر الوان الطعام . ولقد كتب زولا في هذا الصدد يقول : « كنا جميعا نهمين ، نتلذذ بالاكل ، واذا ما تحدثت عن نفسي فقد كنت مضطرا لان اكون كذلك . كان علي ان املأ معدة ظلت خاوية طوال سنين ! . . . »

جلسوا في تلك الليلة الى المائدة في السابعة مساء ، ولم يغادروا المطعم الا عند منتصف الليل . ولكن لا ليذهبوا الى منازلهم بل ليتسكعوا في الشوارع حتى الثانية ، والثالثة ، والرابعة صباحا ، متبادلين عقد رواياتهم ، مناقشين رواياتهم الجديدة ، محطمين العالم ثم معيدين بناءه حسب اهوائهم وميولهم . وكان الروائي الروسي تورغينيف اول من ينفصل عن الجماعة يتبعه دوديه . اما زولا فيرافق فلوبير حتى منزله في شارع موريللو . . .

زولا : . . . بابا فلوبير ، من فضلك .

صوت : حقا ما تقول ، وقد كان استاذك هذا يعانقك مودعا اياك بعبارة الاستاذ الى تلميذه ، اتذكر ما هي ؟

زولا : كان يقول لي : لقد قيل كل شيء قبلنا ، يا بني . ولم يبق لنا الا ان نردد الاشياء ذاتها . ولكن ينبغي لنا ان نقولها بكلمات اجمل واروع . . . » .

صوت : وقد عشت ، يا سيد زولا ، لا لتقول فحسب الاشياء القديمة بكلمات اجمل واروع ، بل لتقول اشياء جديدة بكلمات سيتردد صداها في ارجاء العالم . والآن اسمح لي ان نستعرض معا حياتك ، وادبك . فكلمة زولا تعني قطعة طين ، او قطعة ارض .

زولا : وقد كنت صادقا مع اسمي ، كنت ابن امنا الارض ، واحببت كل المخلوقات التي ظهرت من احشائها .

صوت : كانت الدماء التي تجري في عروقك مزيجا من كل شيء طيب .

زولا : كانت جدتي يونانية ، وامي فرنسية . وابي ايطاليا .

صوت : ابوك فرنشسكو زولا كان مهندسا عرف دائما بآرائه الصائبة .

زولا : ولكنه كان يعوزه الاشخاص المخلصون الاكفاء لمساندته وقد توفي سنة ١٨٤٧ قبل ان ينهي قناة اسعفه الحظ اخيرا بانشائها .

صوت : وهكذا تركت مدام زولا مع طفلها اميل البالغ سبعة اعوام .

زولا : ولم يترك لها غير حلم يائس نعيش عليه .

صوت : كانت سنوات دراستك الاولى صعبة وكثيرا ما كنت تتخاصم مع رفاقك التلامذة بسبب تحفظك ، وانزوائك ، وسبب لثغة لسانك .

زولا : بسبب اللثغة كنت الفظ اسمي « ثولا » بدلا من زولا ، وكنا نتخاصم بسبب تهكمهم علي ومناداتي بهذا الاسم .

صوت : ولكنك كنت شديد البأس ، تكيل الكيل كيلين لخصومك ، وفي ذات صباح ، وبعد معركة مع نفر من رفاقك وقفت منهوك القوى ، حزينا تكفكف الدمع الذي اغرورقت به عيناك . فتقدم منك صبي وصل لساعته الى الملعب وابدى اسفه لما حدث ، كما ابدى رغبته في ان يصبح صديقك .

زولا : كان ذلك الصبي بول سيزان الذي اصبح فيما بعد رساما شهيرا ، وقد بدأت مذاك رفقتنا التي دامت سنين طويلة ، رفقة ثائرين عنيدين ضد العالم .

صوت : في كلية ايكس برهنت على انك كنت كاتبا جيدا ، ولكن كنت تلميذا اقل من عادي . ففي الثالثة عشرة كتبت رواية ، ومسرحية من ثلاثة فصول . ولما انتقلت من الكلية الى دار المعلمين في باريس بقيت ، كتلميذ على حالك السابقة ، فكنت تتغيب عن الدروس ، وترفض ان تسمع دروسك ، مكرسا كل وقتك لكتابة الشعر ، ومطالعة مؤلفات رابليه، ومونتاين، وهوغو ، وموسيه .

زولا : وفي نهاية السنة الدراسية كانت علامتي في امتحان الادب صفرا ، وكان سقوطي ضربة عظيمة بالنسبة لوالدتي ، بعد ان مسحت الارض وغسلت الثياب بالاجرة لتسدد اقساطي المدرسية .

صوت : لقد شاءت المسكينة ان تصبح مهندسا كأبيك ، فانهارت آمالها لانك شئت ان تصبح كاتبا ، وقيض الله لك صديقا قديما لوالدك فساعدك على ايجاد وظيفة كتابية تسد رمقك .

زولا : ولكن لم يكن ثمة ما اغذي به روحي وفكري ، فتركتها بعد بضعة اشهر ، وتسكعت في البؤس ، والجوع ، والمرارة ، والحاجة ، طوال سنتين .

صوت : نسيت ان تذكر احلامك الكبيرة وخططك لبعث الانسان ، ولتوراة جديدة تقرب السماء من الارض اكثر فأكثر . وفي باريس عدت فالتقيت بسيزان فعشتما معا .

زولا : وحلمنا معا ، وجعنا معا !

صوت : كنت انت رسول القلم ، وكان سيزان رسول الفرشاة في عصر لم يكن احد يهتم فيه بالرسل . كتبت الشعر ، ورسم الصور ، ولكنكما لم تستطيعا ايجاد الجمهور لنتاجيكما .

زولا : الحق اقول لك ان احدا منا لم يكن يستحق بعد ان يجد جمهوره . فوقود المنا وعذابنا لم تكن قد مسته بعد شعلة الوحي والالهام .

صوت : وفي شتاء سنة ١٨٦١ ـ ١٨٦٢ بلغ بك الجوع حدا جعلك تنصب الفخاخ للعصافير على سطح غرفتك لتشويها على الشمعة وتلتهمها ، وكم من مرة اغمي عليك من فرط الجوع .

زولا : ولكني وجد ت عملا في احدى دور النشر فاستعنت به على العيش .

صوت : كنت ترزم الكتب في قاعة التوزيع ، وفي وقت فراغك كنت تكتب مراجعات لهذه الكتب ، لمجرد التسلية .

زولا : ولكن هذه التسلية الفارغة لفتت ذات يوم نظر رب العمل ، فنقلني الى دائرة الدعاية والاعلان حيث فسح امامي المجال للكتابة ولابراز مواهبي ، وكنت أذّاك قد تحولت من الشعر الى كتابة القصة ، فظهرت مجموعتي الاولى في ربيع ١٨٦٤ .

صوت : وهكذا بدأ نجمك يلمع ، ومعه بدأت حياة عاطفية ، فقد تعرفت الى ابنة صاحب المسكن الذي كنت تعيش فيه على ضفة نهر السين اليسرى ، واتخذتها زوجة ، بعد ان خانها حبيبها . وكانت حياتكما سعيدة موفقة . . .

زولا : على الرغم من انه لم يكن ثمة شيء كثير مشترك بيننا . فقد كنت دميما كالكابوس ، وكانت الكسندرين فاتنة كالحلم .

صوت : ولكن اذا كنت انت قد عبدت جمالها الجسماني ، فقد عبدت هي جمالك الروحي . . . ولكن ما حز في نفسي أنك لم ترزق منها اطفالا . . . ولكننا سنضرب صفحا عن

مشاكلك العائلية لننتقل الآن الى نشاطك الأدبي ، فقد لفتت روايتك الاولى « تيريز راكان » الانظار اليك . ثم بدأت سلسلتك الروائية التي تؤلف حوالي عشرة مجلدات ودارت حول اسرة روجون ـ ماكار التي ابتدعتها ودرست بها فترة لا بأس بها من التاريخ الفرنسي . ولكن شهرتك كروائي لم ترسخ الا بعد اصدارك رواية « النبوت » التي عالجت فيها مشكلة الشراب . ومع الشهرة جاءتك الثروة العريضة .

زولا : ان رواياتي عن الفقراء والفقر قد جعلتني غنيا موسرا . وتلك نكتة اخرى من نكات القدر :

صوت : وجعلتك كذلك سمينا جدا وكئيبا جدا . ومهما كنت تفعل كانت الحياة تشد على خناقك .

زولا : عندما يكون المرء فقيرا معدما فانه يجوع ويكاد يموت من الجوع . . . وعندما يكدس الثروة فانه يأكل نفسه حتى ليكاد يموت .

صوت : الواقع انك كنت كثير الوساوس من الناحية الصحية . تعتقد انك مصاب بكل ما هنالك من امراض تحت الشمس . مع انك كنت سليم البنية ، نشيطا كالحصان .

زولا : لعـل ذلك يعود الى الحرمان الفظيع الذي قاسيته في طفولتي وصباي .

صوت : ولكن عندما حققت حلمك الكبير في ملحمة الصراع في سبيل الحقيقة ، لم يبق امامك سوى النوم على اكاليل المجد

والغار . ولكن الواقع انه في تلك اللحظة بدأ صراعك الحقيقي . . . انها قضية دريفوس الشهيرة .

زولا : صحيح ، ولقد مثلت دوري الكبير في قضية هذا الضابط الفرنسي ، التي اعتبرتها قضية فرنسا ، فدريفوس لم يكن متهما ويواجه المحاكمة بقدر ما كانت فرنسا في موقف المتهم تواجه محاكمة العالم .

صوت : ولقد كان كتابك المفتوح الى رئيس الجمهورية آنذاك وهو بعنوان « اني اتهم » مع سائر المحاولات لتبرئة ساحة دريفوس مثار اعجاب العالم وتقديره . ولكنك هوجمت بعنف في وطنك ، وحوكمت بتهمة تحقير اولئك الذين اتهموا دريفوس ، .وغرمت بمبلغ ثلاثين الف فرنك . وشطب اسمك من لائحة الحائزين على وسامي جوقة الشرف من رتبتي فارس وضابط .

زولا : لكل قضية ثمن مهما يكن غاليا . والمرء يستهين به اذا كان ضميره مرتاحا لما يقوم به . وقد كنت واثقا من انه سيأتي يوم تشكرني فيه فرنسا لمساعدتي في انقاذ شرفها ! . .

صوت : ولقد كلفك صراعك هذا وقتك ، وصحتك ، وشهرتك وما ادخرت من مال طوال حياتك ، كما كلفك اصدقاءك . وعدت من جديد كما كنت لاربعين سنة مضت فقيرا ، معدما ، وحيدا ، ولكنك عشت لترى ذلك اليوم الذي تحدثت عنه في محاكمتك ، اليوم الذي شكرتك فيه فرنسا على مساهمتك في انقاذ شرفها . ولكنك لم تعش اكثر من التاسع والعشرين من ايلول سنة

١٩٠٢ ، اذ توفيت مختنقا بالغاز في حجرة نومك ، وذلك بسبب عطل في انبوب الغاز !..

زولا : لقد كنت احرص على غلق النوافذ واسدال الستائر عليها عندما كنت اكتب لان نور النهار كـان يعوقني عن الكتابة !

تشيخوف : فنان لا مثيل له
(١٨٦٠ - ١٩٠٤)

صوت : هذه المقابلة هي مع احد اسياد الادب الروسي ، مع انطون تشيخوف الذي اشتهر بلقب « بوشكين روسيا في النثر » .

تشيخوف : هكذا وصفني صديقي ليون تولستوي الذي عرف كذلك بلقب النبي الروسي .

صوت : الواقع ان تولستوي كان يعتبرك شخصا فاتنا ، متواضعا ، لطيف المعشر ، ومن عجب ان تتعارفا ، ويتطور تعارفكما الى صداقة متينة العرى ، وحب وتقدير متبادلين .

تشيخوف : لماذا تقول ذلك ، يا سيدي ، واين وجه العجب ؟

صوت : اقول ذلك لانكما لا تتقابلان في نقطة واحدة ، فالجميع يعرفون انك كنت واقعيا ، وتولستوي كان متصوفا ، وكان تولستوي يتحدر من اسرة ارستقراطية وتشيخوف - اي انت يا سيدي - كنت من عامة الشعب ، بل ان اصلك من الفلاحين الارقاء . . .

تشيخوف : اذا كان الناس ينظرون الى الامر من هذه الناحية ، فان لعجبهم مبررا . . .

صوت : حسنا ، لنستعرض بايجاز مراحل حياتك واعمالك . . .

انت ابصرت النور في تاغنروغ ، على ساحل بحر ازوف في ١٧ كانون الثاني سنة ١٨٦٠ من اب كان وكيلا لاملاك احدى الاسر ، ثم اصبح تاجرا .

تشيخوف : اما جدي فكان عبدا رقيقا للسادة تشرتكوف .

صوت : درست في المدرسة اليونانية الابتدائية في مسقط رأسك ، وكنت في مطلع حياتك هادئا ، منطويا على نفسك ، تبتعد ما امكنك عن الناس .

تشيخوف : الواقع انني كنت اشعر بأنني شيء تافه في هذه الحياة .

صوت : وكنت شديد الميل الى الكتابة ، فاصدرت وانت بعد في المدرسة ، مجلة « الارنب » التي كنت تحررها ، وتنشر فيها نكاتك ومداعباتك .

تشيخوف : وقد ساهمت في الكتابة للمسرح المدرسي الذي انشأته .

صوت : وانهيت دراستك الثانوية في سن التاسعة عشرة ، والتحقت بكلية الطب في جامعة موسكو سنة ١٨٧٩ ، حيث درست اربع سنوات تخرجت بعدها طبيبا ، ولكنك لم تمارس الطب مهنة دائمة بسبب حادثين سيئين وقعا لك على الرغم من حبك الشديد لرسالة ابقراط .

تشيخوف : الواقع انك تنطق بالصواب ، واحب ههنا ان اشير الى انني مارست الطب ممارسة فعلية خلال وباء الكوليرا الذي انتشر سنة ١٨٩٢ و١٨٩٣ .

صوت : ومن حسن الطالع ان ميلك للادب واهتمامك بالطب لم يتعارضا قط ، بل اكمل احدهما الاخر .

تشيخوف : اني اعترف مخلصاً انه كان لاختباراتي في الحقل الطبي اعمق الاثر في نفسي ككاتب روائي ومسرحي . وقد كانت اولى قصصي « رسالة الى جار عالم » من نتائج فترة تحصيلي في كلية الطب .

صوت : وقبل ان نبتعد كثيرا عن فترة ممارستك مهنة الطب ممارسة فعلية وفعالة اود ان **اشير** الى ان سنة ١٨٩٢ ـ وهي سنة المجاعة الكبرى في روسيا ـ عمدت الى انشاء حياة جديدة لك حافلة بالنشاط والانتاج . فابتعت قطعة ارض مهجورة في قرية قريبة من موسكو تسمى ميليخوفه ، فحرثتها ، وعبّدت طرقاتها ، وحفرت فيها الآبار ، واقمت عليها المستشفيات ، وغرست فيها الاشجار ، ورحت تعتني بها عناية المرء بأطفاله .

تشيخوف : لقد شئت ان اكون عضوا عاملا نافعا في المجتمع من هذا السبيل ، الا ان القلم كان اشد جذبا لي ، فخدمت وطني بالكتابة قدر المستطاع .

صوت : حسنا ، وهكذا شرعت تحرر في عدد من المجلات ، وتنشر القصص التي تنحو فيها نحو الهزل والسخرية .

تشيخوف : ولقد ظهرت بواكير قصصي باسم مستعار هو انتوشا تشيخونته . وكانت مجموعتي القصصية الاولى التي ضمها كتاب بعنوان « قصص براقة » ، وقد صدرت سنة ١٨٨٦ ، واتبعتها سنة ١٨٨٧ بمجموعة ثانية بعنوان « الشفق » .

صوت . وكانت تلك فاتحة عهدك بالشهرة الادبية . وقد نلت على

اثر صدور هذه المجموعة جائزةبوشكين الادبية التي كانت تمنحها الاكاديمية الروسية ، هل لك ، يا سيد تشيخوف ان تذكر لنا عدد القصص التي وضعتها في هذه المرحلة من حياتك الادبية ؟

تشيخوف : اعتقد انها تبلغ الالف قصة ! ويقتضيني الانصاف في هذا المجال القول ان افراد اسرتي شاركوا في وضعها .

صوت : وكيف كان ذلك ؟

تشيخوف : الواقع اني اعلنت ذات مرة امام افراد اسرتي انني ادفع جوائز مالية لقاء اي حكاية مضحكة ، او موضوع يصلح لقصة ، وذلك تسهيلا لي لايجاد شخصيات ومواضيع لقصصي .

صوت : انه لامر طبيعي ، يا سيد تشيخوف . ومن القصص القصيرة انتقلت الى كتابة الروايات والمسرحيات التي بوأتك مركزا مرموقا في الادب الكلاسيكي الروسي ، وقد توطدت الصلات بينك وبين المسرح الذي غذيته بالكثير من المسرحيات الناجحة . . . وفيها يقول المسرحي الاشهر ستانسلافسكي : « مسرحيات تشيخوف مملوءة حركة ، في تطورها الداخلي لا في تطورها الظاهري . . . ووراء جمود شخصيات مسرحياته تختفي حركة داخلية معقدة ! »

تشيخوف : الحياة ينبغي ان تكون كما هي تماما ، والبشر كما هم تماما لا على عكازات . . ليكن كل ما يجري على المسرح معقدا غاية التعقيد وفي الوقت نفسه بسيطا غاية البساطة كما هو

في الحياة ! انا اصور « الحياة الحقيقية » كما يحياها البشر العاديون . ينبغي ان تكتب المسرحية وفيها اناس يروحون ويغدون ، يأتون ويذهبون ، يتناولون عشاءهم ، يتحدثون عن الطقس ، ويلعبون الورق .

صوت : واشخاص مسرحياتك اناس بسطاء لا صباغ عليهم ، يتحدثون عن الامور البسيطة بلغة واسلوب بسيطين ، ليس بينهم ندابون ولا ابطال . انهم اناس مبهمون يحمل المؤلف الناظر والقارىء على العطف عليهم .

تشيخوف : لقد نظرت الى الناس بعينيّ لا بعيون تولستوي ودوستويفسكي وتورغنيف ، فلا ابطال لدي ، وانما امزجة مختلفة من الناس ، وان الذين يحاولون « التمثيل » او « المبالغة » عندما يمثلون مسرحياتي يرتكبون خطأ فادحا ، ذلك بأن على الممثل ان يصبح جزءا من مسرحياتي ، وان يحياها ، وان يسكب نفسه فيها ، وان يتبع الشرايين المدفونة عميقا التي تنساب فيها العواطف انسياب الدم من القلب !

صوت : سيدي تشيخوف ، ما رأيك بالروائيين الذين كانوا من معاصريك ؟ اعتقد ان لك رأيا في اسلوبهم الكتابي . . . فهل لنا ان نعرفه ؟

تشيخوف : « الروائيون المعاصرون يحشون مسرحياتهم بالملائكة . والجراء الطويلة الشعر ، والمهرجين . . . ولقد شئت ان اكون مبتكرا . . فعندي لست تجد اي لص ، ولا اي ملاك مع العلم اني لم استطع الاستغناء عن المهرجين ، لم اتهم احدا ، ولم ابرّىء احدا ! . . »

صوت : ما دمنا قد تحدثنا عن نظرياتك في المسرحية وكتابتها ، فلا مندوحة من ذكر اشهر مسرحياتك : « ايفانوف » ، و « طائر النورس » ، و « العم فانيا » ، و « الشقيقات الثلاث » ، و « جنينة الكرز » . وقد تزوجت سنة ١٩٠١ الممثلة اولغا كنيير .

تشيخوف : وما دخل زواجي بمسرحياتي ؟! .

صوت : لقد خطرت لي الفكرة في هذا المجال لان زوجتك كانت ممثلة .

تشيخوف : ويمكنك تبرير ذلك ايضا بأن الزواج مسرحية كبرى .

صوت : ونستمر في استعراض دقائق حياتك فنذكر ههنا انك انتخبت سنة ١٩٠٢ ، مع كل من مكسيم غوركي وكورولينو ، اعضاء في الاكاديمية الروسية للعلوم .

تشيخوف : الا ان القيصر نقولا الثاني ، حرم غوركي من العضوية ، فرفضت على الفور عضوية الاكاديمية احتجاجا على استبعاد غوركي ، وتصرّف القيصر المشين .

صوت : وكنت سنة ١٨٩٧ قد اكتشفت انك مصاب بـداء الصدر ، فرحت تتنقل من مكان الى اخر للاستشفاء حتى حططت الرحال في بادنفايلر في الغابة السوداء . . .

تشيخوف : كان ذلك امرا طبيعيا ، فالمثل يقول : « ايها الطبيب طبب نفسك » !

صوت : وفي ١٥ تموز من سنة ١٩٠٤ ، وبعد ان استنفدت كل

وسائل الطب ، اشار الطبيب بتقديم كأس من الشمبانيا اليك . . .

تشيخوف : صحيح . . . ولم يفتني ، وانا الطبيب ، المعنى من تقديم كأس الشمبانيا ، فنهضت من فراشي وقلت للطبيب بالالمانية : « انني اموت ! » ثم رفعت الكأس وقلت لزوجتي مبتسما : « لقد مضى علي زمن طويل لم اذق خلاله طعم الشمبانيا » . وافرغت الكأس في جوفي حتى الثمالة ، واضطجعت بهدوء على جنبي الايسر ، وسكتت سكتتي الابدية ! »

صوت : يا لذاكرتك الجبارة !! والآن اتسمح لي باطلاعك على بعض الامور التي تجهلها لانها حدثت بعد انتقالك الى هذا العالم الآخر ؟

تشيخوف : انك تحسن صنعا بذلك ، هات ما عندك من اخبار . . .

صوت : بعد وفاتك عثر بين اوراقك المتروكة على اربعة دفاتر ملأى بالآراء والاقوال الحكيمة ، الظريفة ، والملاحظات والانطباعات ، تتناول السنين الاربع عشرة : من ١٨٩١ ـ ١٩٠٤ . وقد نشرت مقتطفات منها سنة ١٩١٤ ، ثم نشرت مجموعة كاملة منها سنة ١٩٢٧ قدم لها البروفسور ليونيد غروسمان . وهي حصيلة مشاهدات في روسيا وخارجها .

تشيخوف : فضلا عن عدة مواضيع لقصص قصيرة استخدمت لها بعض محتوى هذه الدفاتر الاربعة ، فان ما تبقّى جديد وغير منشور .

صوت : وقد اهمل الناشر بعض المقاطع غير المقروءة ، وتلك التي اعتمدت فيها التلاعب بالالفاظ مما لا يترجم ويبقى على طرافته وجدته .

تشيخوف : هل لنا ان نستعرض بعض هذه الاقوال والآراء ؟

صوت : تلك هي الغاية من الاشارة اليها ، لكي يكوّن القارىء فكرة عن تفكيرك وظرفك . . . فأنت القائل مثلا : « ينبغي ان تكون الرغبة في خدمة الخير العام قبل اي شيء آخر حاجة من حاجات القلب ، وحالة من حالات السعادة الشخصية ، فاذا كانت تصدر عن اعتبارات مبدئية او سوى ذلك من اعتبارات ، فأنها تصبح شيئا اخر » .

تشيخوف : وانا القائل كذلك : « الاهداف هي التي تحدد اعمالنا : والمهم فحسب هو العمل الذي يكون هدفه مهما . » و « ينبغي للمرء ان يكون صافيا فكريا ، طاهرا نفسانيا ، وسليما جسديا » .

صوت : اتذكر ، يا سيد تشيخوف ، رأيك في ما يميز الرجل من المرأة ؟

تشيخوف : الفرق بين الرجل والمرأة ان المرأة ، وهي تتقدم في السن ، تنغمس اكثر فاكثر في مشاكلها وهمومها الصغيرة ، في حين ان الرجل كلما تقدمت به السن يبتعد عنها جميعا .

صوت : وما رأيك الآن في ايراد بعض الاقوال الظريفة التي تتناول بها الرجال والنساء . . . من مثل « رجل بلا شاربين كامرأة بشاربين » .

تشيخوف : واسمع هذه : « اريان تتكلم ثلاث لغات باتقان . . فالمرأة تهضم بسرعة اللغات الاجنبية لان في دماغها امكنة فارغة كثيرة » .

صوت : وانت القائل : « اذا كنت تخشى الوحدة فلا تتزوج » .

تشيخوف : كان الزوج والزوجة يحبان دعوة الاصدقاء الى منزلهما ، لانهما ، وحدهما ، يتخاصمان .

صوت : واطلقت الكثير من الاقوال عن الازواج . . اتذكر قولك : « زوجة روائية ـ وهذا لا يروق للزوج ـ ولكنه ، تأدبا ، يلزم جانب الصمت ، ويتألم طوال حياته » .

تشيخوف : واذكر كذلك هذا القول : « في خلال الحفلة التمثيلية كان زوج الممثلة الذي يحضر الحفلة من مقصورته ، ينهض ويحيّي الجمهور » .

صوت : واسمح لي يا سيدي بأن نختتم هذه المقابلة الممتعة بهذا القول : « النساء ، بلا عشرة الرجال ، يذبلن . . والرجال ، بلا عشرة النساء ، يتبلدون ! »

تشيخوف : انه خير ما نختتم به هذه المقابلة التي كنت اود ان تكون اطول مما كانت . فشكرا لك على تلطفك باجرائها .

صوت : الشكر لك ، يا سيد تشيخوف !

جول فيرن : روائي التكهنات
(١٨٢٨ - ١٩٠٥)

صوت : لم يبرح جول فيرن القاعة الصغيرة ، التي اقامها في البرج القرميدي من منزله في مدينة اميان في فرنسا ، طوال اربعين سنة قضاها في الكتابة المستمرة ، فكان يطبع كتابا كل ستة اشهر ، وبعدها اشترى يختا ، وقام بجولات بحرية في المحيط الاطلسي والبحر الابيض المتوسط ، وها نحن معه نحاوره لنستطلع جلية خبره . . .

صوت : نحن في حضرة جول فيرن روائي التكهنات . . .

فيرن : بل قل كاتب الروايات العلمية ، فانا ـ بكل تواضع ـ فعلت ذلك واعتز به .

صوت : لقد سبقتني الى تعريف نفسك تعريفاً صحيحا ، فلا عجب ان تكون كذلك وانت من بشر بالعصر العلمي الحديث ، فتحدثت في رواياتك عن المطاردة تحت البحار ، والقنبلة الذرية ، والميكروفون ، ومكبر الصوت ، والصاروخ ، والهليكوبتر . . .

فيرن : مقاطعا ولا تنس الطائرات ، والاضاءة بالنيون ، وتكييف الهواء ، وناطحات السحب ، وغير ذلك من

معجزات عصركم هذا ، وقد تحدثت عنها في القرن الماضي .

صوت : ووصفت مخترعات العلم بدقة متناهية وبالتفاصيل المذهلة ، بحيث ان الجمعيات العلمية انصبت على دراستها ومناقشتها ، والتدقيق في ما ورد فيها من حسابات وارقام .

فيرن : صدق او لا تصدق ، انه عندما ظهرت روايتي : « من الارض الى القمر » اكتتب خمس مئة شخص للقيام بالرحلة الاولى . . تماما كما يجري عندكم اليوم !!

صوت : وهل تدري، يا سيد فيرن، ان كل الذين استوحوا رواياتك حرصوا على تسجيل اعترافهم بفضلك عليهم ، امثال الرحالة الاميرال بيرد الذي طار فوق القطب الشمالي ، وسايمون لايك الرائد في بناء الغواصات في اميركا ، والمستكشف الجوي والبحري اوغست بيكار ، وماركوني ابي الراديو ، وسواهم الكثيرين ؟!

فيرن : لا يسعني في هذا النظام الا ان اشكرهم على اعترافهم بفضلي . . كما تقول !!

صوت : ولقد عشت طويلا ورأيت عددا كبيرا من تخيلاتك يدخل حيز الحقائق الملموسة .

فيرن : ذلك امر طبيعي ، فان ما يتخيله رجل ما يمكن ان يحققه رجل آخر .

صوت : لنعد الآن قليلا الى الوراء ، فنقول انك ابصرت النور

في نانت في ٨ شباط سنة ١٨٢٨ في جزيرة فيرو ، وكان ابوك موظفا ينوب مناب المترافعين في اجراء المعاملات اللازمة مع المحاكم . ومن نافذة المنزل كانت عيناك تراقبان كل يوم - بل كل ساعة - حركة الزوارق الشراعية في الميناء . . .

فيرن : كان ذلك المكان مصدر تعطشي للاكتشافات ، وميلي الى الروايات غير المألوفة ، التي تنطلق في الاجواء بحثا عن المغامرات والعجائب .

صوت : وبلغ من شدة لهفتك الى السعي وراء المغامرات ان تسللت خفية ، وانت بعد في عشرة من عمرك ، الى السفينة كورالي المتجهة نحو جزر ما تحت الريح .

فيرن : كان يكفي ان يكون هذا هو اسم الجزيرة ، حتى يثير في نفسي ما كنت انشد من اسرار وغوامض تطلعت الى اكتشافها .

صوت : الواقع انك كنت تريد الذهاب في تلك الرحلة لتعود منها الى حبيبتك بعقد من المرجان كانت قد طلبته منك ، ولكن والدك علم بالامر فمنعك من الرحيل .

فيرن : حدث هذا فعلا ، ولكن والدي سمح لاخي ان يصبح بحارا .

صوت : لعل ذلك من حسن حظ العالم ، فبعد عودتك الى البيت جعلت تحيا حياة المغامرات بينك وبين نفسك ، فكانت حصيلة ذلك اربعة وسبعين كتابا ترجمت الى سبعين لغة ، بينها اللغة الصينية .

فيرن : ان ذلك يثبت انني كنت عالميا ، وان رواياتي لا تقتصر على الفتيان الصغار وحسب !

صوت : عندما بلغت الثامنة عشرة اطعت اوامر والدك رجل القانون الصارم ، وذهبت الى باريس لدراسة الحقوق ، مع انك كنت تشعر بميل شديد نحو الشعر والمسرح ، وكان للقائك بالكسندر دوما ، صاحب « الفرسان الثلاثة » فضل ثباتك على عزمك على الكتابة .

فيرن : صحيح ما تقول ، وقد وضعنا معا مسرحية لاقت بعض النجاح ، ولكني عملت بنصائحه ، وقررت ان اعمل للجغرافية ما عمل دوما هو نفسه من اجل التاريخ .

صوت : غير ان والدك لم يرقه اهمالك دروسك فقطع عنك كل مورد مادي .

فيرن : الامر الذي اضطرني الى شد حزامي فترة من الزمن غير قصيرة ، والبحث عن عمل عادي في احد المسارح ، وكان عملي اطفائيا . .

صوت : ومما يروى في هذا الصدد انك كتبت الى والدك تقول : « انني آكل قطعة بفتيك كانت قبل ايام تجر عربة في شوارع باريس . . » .

فيرن : وهمست في اذن احد اصدقائي بقولي : « ان جوربي يشبه نسيج العنكبوت ، وقد تدثرت به فرس البحر لتنام ! . . » .

صوت : الا ان طالعك ما لبث ان اشرق مرة عندما التقيت بالناشر هتزل مصادفة ، وكنت وقتذاك في الخامسة والثلاثين ، فاستقبلك باللامبالاة ، وتصفح الرواية التي عرضتها عليه ، وهي تدور حول رحلة بالمنطاد فوق افريقيا ، ثم طلب اليك العودة بعد اسبوعين لمقابلته .

فيرن : وظننت اذ ذاك ان مصيري مع هتزل لن يختلف عن مصيري مع سائر الناشرين الذين سبق ان قابلتهم ، ولا يقل عددهم عن خمسة عشر ناشراً .

صوت : ولكنك لم تكد تقابله بعد اسبوعين ، حتى فوجئت بالناشر الذي بنى مجده على اكتشافه جول فيرن ، يقدم اليك عقدا بمبلغ ضخم ، ثمن حقوق نشر كل رواية من رواياتك . وفي هذا المجال دعني اذكر هذه النادرة : ففي صباك كنت شديد الخجل في حضرة النساء ، وهمت يوما بحب فتاة من بلدة نانت ، فرحت تبعث اليها برسائل الغرام الحارة . وحملت الحبيبة رسائلك هذه الى احد الاختصاصيين في الخطوط ، وطلبت اليه معرفة شخصيتك منها . فتأملها مليا ثم قال وهو يهز كتفيه استخفافا : من حسن طالعك انك جئت تستشيرينني، فحبيبك هذا شاب مسكين ممل ، ناضب القريحة ، ضيق التفكير ، ولا خيال له ، ولن يستطيع حياته كلها ان يخط سطرين لهما اي معنى ، وستشقين كثيرا اذا اقترنت به ! . . »

فيرن : كذب المنجمون ولو صدقوا !

صوت : ولكن ذلك لم يمنعك من ان تحب ثانية وتتزوج في هذه المرة .

فيرن : حقا وقد كانت حياتي الزوجية سعيدة وموفقة .

صوت : غير ان حياتك لم تكن سعيدة في سنيها الاخيرة . فقد اصبحت هدفا لسخرية الاوساط الفكرية ، وحرمت مقعدا في الاكاديمية الفرنسية .

فيرن : مع العلم انني كنت بلا منازع الكاتب الاكثر خصبا ، والمقروء اكثر من اي كاتب آخر في جيلي .

صوت : واخيرا اصابك القدر بسهم المرض ، فاصبت بداء السكري ، وفقدت نعمتي النظر والسمع . وكانت وفاتك سنة ١٩٠٥ وفي ٢٠ من اذار ، فكان الحداد عليك وطنيا ، ونشرت النبأ مختلف صحف العالم في صفحاتها الاولى . ومشى في جنازتك الملوك ، ورؤساء الجمهوريات ، والسفراء . وكان ابرزهم الامبراطور الالماني غليوم الثاني وسواهم ، وخاصة اولئك الذين سخروا منك في حياتهم ، واعضاء الاكاديمية الفرنسية ، ولكنك ولا ريب توافقني على انك كنت تفضل على كل هذه المظاهر ، وعلى امواج البلاغة التي تدفقت على نعشك ، هذه العبارة البسيطة التي كتبها صحفي فرنسي اذ قال : « مات راوي الحكايات العجوز ، وان ذلك ليشبه موت بابا نويل » !

فيرن : صحيح ما تقول . وقد اصاب ما في نفسي دون ريب !

ليون تولستوي : نبي القرن العشرين
(١٨٢٨ - ١٩١٠)

صوت : جبار من جبابرة الادب الروسي ، كانت حياته نزاعا متواصلا عنيفا بين الروح والجسد ، بين الرغبة في الفقر والمثالية وبين الحب والمقامرة . كان غنيا ، محبوبا من الجميع ومحطا لاعجابهم ، تحدى القيصر ، ولكنه فضل الموت في احدى محطات السكة الحديدية في الريف ، مسافرا بسيطا لا يحمل اي حقيبة !

ان حياة ليون تولستوي ، هذا النبي الروسي الذي توفي سنة ١٩١٠ ، لهي اعجب من قصص الف ليلة وليلة ، فقد كان قبل عشرين سنة من وفاته معبود الملايين ، يحجون الى منزله لالقاء نظرة على وجهه ، او لسماع صوته او لمس طرف من ردائه !

سيدي تولستوي ، سيكون حديثنا بالعربية في هذه المقابلة . . . ما دمت تعرف العربية .

تولستوي : كما تريد ، فأنا قد تعلمت اللغات الشرقية في جامعة قازان التي درست فيها الحقوق ، واتقن الى جانب العربية اللغتين التركية والتترية .

صوت حسنا ، انت ابصرت النور في ٢٨ آب سنة ١٨٢٨ ، في قصر مؤلف من اثنتين واربعين غرفة ، تحيط بك

الثروة من كل جانب ، فنشأت وترعرعت في الارستقراطية الروسية القديمة .

تولستوي : ولكني في اواخر ايام حياتي وزعت كل ما املك من الاراضي والممتلكات ، ومت بداءِ ذات الرئة وحيدا فقيرا في محطة للسكة الحديدية محاطا ببعض الفلاحين .

صوت : وكنت في الثامنة من عمرك ، وتعرف باسم ليفوتشكا لا باسم ليون تولستوي ، عندما عرفت ان اسرتك ستغادر منطقة اياسنايا ـ بوليانا للاستقرار في موسكو ، فلم يرق لك ذلك وبكيت .

تولستوي : لقد بكيت لانني ايقنت ان عهد الطفولة المذهبة ، البعيدة عن كل قلق وهمّ ، قد انقضى الى غير رجعة ، وذلك بانتقالنا من الريف الى عاصمة القياصرة .

صوت : في اسرتكم النبيلة ، اسرة الكونت نيقولا تولستوي ، كان الحب يملأ الجو . فمع اشقائك الثلاثة ، نيقولا وسيرج وديمتري ، كنت تشاهد الحجاج الفقراء والكهنة المتسولين الذين كانوا يملأون روسيا في تلك الايام ، وتعاملهم مع باقي افراد اسرتك بكل احترام .

تولستوي : لقد انشئنا على ذلك الحب والاحترام ، وما زلت اذكر قول امي : « اذكروا دائما ان الفقراء هم رجال الله » .

صوت : الا انك لم تفد قط من نصائح امك التقية الرقيقة ، ابنة الامير فولكونسكي القائد العام السابق لجيوش الامبراطورة كاترين الثانية ، ذلك لانها توفيت وهي في

حالة الوضع في آذار من سنة ١٨٣٠ ، ولم يكن لك من العمر بعد الا سنتان .

تولستوي : صحيح انني لم اشعرك اذاك انني فقدتها ، غير ان صورتها الرقيقة المثيرة كانت منقوشة في قلبي . فكنت اتوسل اليها ان تمدني بالعون كلما مررت بفترة صعبة مؤلمة من فترات حياتي ، وكلما تنازعت مع نفسي وترددت اي سبيل اسلك .

صوت : ولكن طفولتك كانت طفولة سعيدة ، لان حنان الام وحبها عوضتهما عاطفة كبيرة شملك بها والدك الكونت وعماتك وجدتك .

تولستوي : كل هذا صحيح ، ولكن هذه الطفولة السعيدة وجد ثمة ما شابها ، وهو سماعي احدى عماتي مرة تقول : « من المؤسف حقا ان يكون ليون الصغير دميما . . وليس له وسامة اشقائه » . قالت المسكينة هذه العبارة ولم تدر انني كنت مختبئا وراء احد المقاعد . وقد حبست يومها دمعي حتى وجدت نفسي وحيدا ، ولكم تضرعت الى الله ان يحدث معجزة فيمنحني ملامح متناسقة لقاء اي شيء يمكنني منحه .

صوت : الواقع ان ألمك جاور اليأس وانت من كان يعتقد انه لا يمكن ان يكون ثمة سعادة على الارض بالنسبة الى رجل دميم مثلك ، ضخم الشفتين ، افطس الانف رمادي العينين .

تولستوي : سوى ان كل هذه الهموم كانت تتلاشى عندما آوي

مساء الى حجرة جدتي التي كانت تستمع معي الى القصص والحكايات التي يرويها لنا العبد الرقيق الضرير العجوز ليف ستيبانوفيتش وهو جالس فوق حافة النافذة .

صوت : وغادرت اسرتك هذا الفردوس الارضي - كما ذكرنا - لتستقر في موسكو . . وفي المدرسة كنت تلميذا صعب المراس عنيدا ، مما كلفك السجن في الحجرة المظلمة غير مرة عقابا لك . وذات يوم حاولت القفز من نافذة قاعة الدرس في الطبقة الثانية ، فوجدوك مغمى عليك ولكن ، من حسن الطالع ، غير مصاب بأذى .

تولستوي : طوال مرحلة الطفولة تملكني شعور غريب ملحاح بترك الارض والطيران في الفضاء ، وهكذا قمت بمحاولتي الصبيانية تلك في الطيران .

صوت : في المدرسة كنت فاشلا ، وقد يئس مدرّسوك الخصوصيون من امر ادخال اي علم في جمجمتك الكثيفة .

تولستوي : الا انني بعد ثلاثين سنة وضعت روايتين من اشهر الروايات التي عرفها العالم هما : « الحرب والسلم » و « آنا كارينينا » .

صوت : في شبابك كنت انيقا ، تنفق اموالك على البذخ والفخفخة فترتدي افخر الحلل .

تولستوي : لكن في الشطر الاخير من حياتي كنت ارتدي ثياب الفلاحين الخشنة ، واصنع احذيتي بيدي ، واكنس

غرفتي بيدي ، وآكل على مائدة عارية طعامي البسيط مستعملا صحنا وملعقة من الخشب .

صوت : وفي شبابك كذلك عشت حياة وصفتها انت بأنها حياة فاسدة ، ماجنة ، ملأى بالموبقات .

تولستوي : ولكني في اواخر ايامي حاولت ان اتبع في حياتي تعاليم السيد المسيح . . واحيا حياة القديسين بحق وحقيق .

صوت : في البدء كنت سعيدا بزواجك من سونيا صغرى بنات الدكتور بيرس ، ولكن هذه السعادة لم تعمر طويلا واصبحت لا تطيق رؤية زوجتك ، حتى انك اوصيت لدى وفاتك بألا يسمح لها برؤيتك .

لقد كانت مأساتك بزواجك كمأساة ابراهام لنكولن تماما ، بسبب التباين الكبير بين شخصيتك وشخصية زوجتك . كانت هي تحب الفخفخة والجاه ، وانت تكرههما، كانت تسعى الى الشهرة التي لم تكن تعني شيئا لك. كانت تتكالب على الثروة وانت تنظر الى حطام الدنيا نظرتك الى الخطيئة ، كانت تعتقد بأن السيطرة يجب ان تكون بالقوة ، في حين كنت تعتقد ان السيطرة للحب .

تولستوي : وفضلا عن ذلك كانت زوجتي شديدة الغيرة ، تكره اصدقائي . وقد طردت ذات يوم ابنتنا من المنزل ، ثم عمدت الى مسدس افرغت رصاصاته على صورة لهذه الابنة معلقة في حجرتها .

صوت : وكم كانت تنغص عليك عيشك كلما عرفت انك

سمحت للشعب بأن ينشر كتابا من كتبك دون اي مقابل .

تولستوي : اجل ، وخاصة الكتب والنشرات التي وضعتها في اواخر ايامي مبشرا فيها بالحب والسلام والغاء الرق ، فقد كانت تطبع طبعات شعبية وتوزع بالعربات على البيوت .

صوت : مما يذكر في هذا المجال انه بيع من هذه المؤلفات في اربع سنوات فقط ١٢ مليون نسخة ، وعلى ذكر الاصدقاء دعني اشير الى ان اصدقاءك كانوا يقيمون في منزلك السنين الطوال ويدونون بالاختزال كل كلمة تتلفظ بها ولو في اي حديث عابر ، ويصفون بالدقة والتفصيل كل حركة من حركاتك اليومية . وقد نشرت هذه الدقائق فيما بعد في مجلدات ضخمة . واحب ان تعلم ان عدد المؤلفات التي كتبت عنك بلغ ٢٣ الف كتاب . وبلغ عدد المجلات التي تحدثت عنك وعن آرائك وافكارك ٥٦ الف مجلة وصحيفة يومية .

تولستوي : واحب ان تعلم انت ان التراث الذي خلفته يملأ مئة مجلد .

ستريندبرغ : شكسبير السويد
(١٨٤٩ - ١٩١٢)

صوت : في السادس والعشرين من كانون الثاني سنة **١٩٤٩** ، احتفلت السويد ، حكومة وشعبا ، بذكرى مرور مائة سنة على مولد اوغست ستريندبرغ ، احد مشاهير الروائيين المسرحيين في العالم ، والشاعر ، والرسام ، والرجل الذي تعرف الى مختلف ميادين النشاط الفكري من الجغرافيا الى الكيمياء ، ومن الطب الى اللاهوت .

ستريندبرغ : أصحيح ما تقول يا سيدي ؟ لكم يسرني معرفة ذلك .

صوت : صحيح تماما . . . وقد اقامت « جمعية ستريندبرغ » للمناسبة معرضا لرسومك في المتحف الوطني للفنون في استوكهلم ، وجلها لوحات تمثل البحر في العواصف ، كما أصدرت مصلحة البرق والبريد ثلاثة طوابع مختلفة تخليدا لذكراك . اما مسارح العاصمة السويدية فقد اقتصرت برامجها على تمثيل الروايات الرائعة التي وضعتها ويزيد عددها على الثماني والخمسين .

ستريندبرغ : لا عجب في ذلك ، فقد عرفت بلقب شكسبير السويد . ويدهشني كثيرا ان وطني قد اعترف بفضلي على الرغم من مواقفي العنيفة المعروفة .

صوت : لقد ذكرتني بضرورة الاشارة الى ذلك تنويرا للقراء . . . فقد قضى سترندبرغ وقتا غير قصير خارج السويد بسبب نقده اللاذع للمجتمع السويدي ولعدد من الشخصيات المعروفة ، ولم يكن يعرف الهوادة في نقده . عاش في المانيا ، والنمسا ، وفرنسا ، وسويسرا ، وايطاليا ، والداغارك ، وتزوج ثلاث مرات ، ورزق ستة اولاد ، وكان على اهبة الزواج للمرة الرابعة عندما عاجلته المنية العام ١٩١٢ .

سترندبرغ : ارجوك ، بلا فضائح !

صوت : ثق ان شيئا من ذلك لم يراود تفكيري ، ولكنها الامانة التاريخية .

سترندبرغ : اذا كان كذلك فلا بأس . والآن ماذا تريد قوله ؟

صوت : كنت ، يا سيد سترندبرغ ، في شخصيتك وحياتك وادبك واعمالك سلسلة من المتناقضات . كنت في آن ملحدا ، وفي آن اخر تقيا ورعا ، شديد التعصب . . . . كنت من انصار الطبقة العاملة ، كما كنت ارستقراطيا من الناحية الفكرية ، تتصرف تصرف السوبرمان . وكنت واقعيا ، كما كنت متصوفا . . .

سترندبرغ : . . . لا عجب في ذلك ، يا سيدي ، فان رجلا في مثل قوتي ، لا بد له ان ينجذب نحو هذا التناقض الغريب .

صوت : لم تدعني انهي سلسلة المتناقضات ، وسارعت الى التعليق والتبرير .

سترندبرغ : وماذا بقي لديك من صفات متناقضة تجدها فيَّ ؟!

صوت : كنت رحب الصدر ودنيئا ، مقداما وجبانا ، قاسيا ورقيقا متواضعا ، محبوبا ومسببا للنفور والاشمئزاز ، طيب القلب وفجا . . لم تكتف بشن حربك الشعواء على الافراد ، بل تحديت المجتمع السويدي ، والعالم بأسره . . .

سترندبرغ : حتى ان الكثيرين يتهمونني بأنني تحديت الله نفسه !

صوت : ومع ذلك فكثيرون هم الذين يحبونك ويقدرونك حق قدرك ، ولا يقل عنهم الذين يمقتونك اشد المقت ، اما حياتك وشخصيتك فهما في عرف الكثيرين قصيدة رائعة غريبة ، تأسر الالباب ، وتبعث على النفور في آن معا . . .

سترندبرغ : التناقض يلاحقني في كل شيء . . . ماذا تريد ؟!

صوت : دعنا نتحدث الآن عن الناحية المسرحية في اعمالك الادبية . فقد ظن الناقد المسرحي الفرنسي المعروف فرنسيسك صارسي عندما شاهد في اواخر القرن الماضي (حوالي ١٨٩٨) رواياتك تمثل على مسارح باريس ، ان باستطاعته ان يستخلص منها افضل النتائج وادقها عن سلوك الازواج الاسكندينافيين اليومي في حياتهم العائلية . وقد اجمل صارسي معاملة الرجال لزوجاتهم بالعبارة الموجزة المؤثرة التالية : « ترى الازواج ، اول ما تراهم ، غاضبين حانقين ، وسرعان ما تتملكهم سورات من الجنون المخيف » .

بدبرغ : لا عجب في ذلك ، فقد اتيح لصارسي ان يشهد اروع تمثيلياتي عن الحب والزواج ، وهي التي اكسبتني شهرتي العالمية كمؤلف مسرحي ، امثال : « الآنسة جولي » ، و « الدائنون » و « الاب » .

صوت : غير ان مسرحيات الحب والبغض ، والنزاع بين الرجل والمرأة من اجل النفوذ والتسلط ، وفقدان الانسجام والوفاق بين الزوجين ، ليست سوى ناحية من نواحي نتاجك الادبي الضخم ، ففي اثناء الاحتفال الذي اقيم في استوكهلم وحضره ضيوف من مختلف انحاء المعمور ، القي الضوء على عبقريتك وشمول نظرتك وشخصيتك الادبية والفكرية الفذة ، وتنوع مؤلفاتك وقد مثلت خلال هذا المهرجان ابدع مسرحياتك « الحلم » .

سترندبرغ : انها مسرحية شعرية خيالية ، لا يقيدها زمان او مكان ، فيها العطف الصادق على الجنس البشري المتألم في عالم يعج بالاحلام الذهبية والاوهام . . .

صوت : اما « على طريق دمشق » ، وهي مسرحية « سريالية » ، فتعتبر فاتحة عهد المسرحيات التعبيرية ومصدر وحي والهام لعدد من الشعراء المسرحيين الواقعيين امثال يوجين اونيل ، وجان بول سارتر وسواهما .

سترندبرغ : ولا تنسَ ان لي مسرحيات مستقاة من صميم التاريخ السويدي ، واشهرها « السيد اولوف » ، و « غوستاف فاسا » ، و « الملك شارل الثاني عشر » ، وقد نحا في

المسرحية الاخيرة نحوا جديدا في كتابة المسرحيات التاريخية يختلف كثيراً عما الفناه في مثل هذا النوع من المسرحيات ، واشهرها مسرحيات شكسبير .

صوت : وكنت تكره هذا الملك المحارب ، شارل الثاني عشر ، كرها لا مزيد عليه ، فدعوته « المجرم الكبير » ، وقد اجدت في وصف سقوطه المهول في مشاهد موسيقية رائعة .

سترندبرغ : لا تنس انني كنت موسيقيا ، وقد تركت في هذا الفن بعض الآثار . . .

صوت : ذلك هو الواقع فقد كنت ذا قدرة فائقة على العمل ، قوي الذاكرة ، شديد التعلق بالحياة ، يعج رأسك بالآراء والنظريات الجديدة ، على اختلاف انواعها . وكنت ترغب في اختبار كل شيء ، والاطلاع على كل شيء . وقد اشتهرت كرسام . فتخصصت في رسم مناظر العواصف البحرية ، وتلاطم الامواج ، واكفهرار الجو . ووقفت قسما من وقتك على الموسيقى والنحت ، فتركت بعض الآثار فيهما . واكببت على العلوم ترشف من معينها دون ان ترتوي ، حتى بات لديك من كل علم اخبار واخبار .

سترندبرغ : كنت عالما بالجغرافيا ، والكيمياء ، والفيزياء ، وعلم الحيوان ، وعلم النبات ، وعلم طبقات الارض ، والفلكيات ، والرياضيات ، وعلم الآثار ، والاجتماع ، والابحاث اللغوية ، والفلسفة ، والطب ، واللاهوت ، والتاريخ الخ . . .

صوت : وكان لديك مختبر علمي خاص تجري فيه مختلف التجارب وقد وضعت كتبا ومقالات عديدة في الاختبارات والمباحث التي كنت تقوم بها . . .

سترندبرغ : ولم اقف عند هذا الحد ، بل درست اصول تكرير المشروبات الروحية ، وصنع الخزف والبورسلين ، وتعلمت اللغة الصينية وآدابها ، وعقدت حول الثقافة الصينية فصولا لها اهميتها في عالم الصحافة والنشر . وتركت حوالي ستة آلاف رسالة في مواضيع متنوعة لا ادري ماذا تم بها .

صوت : اطمئن ، فان « جمعية سترندبرغ » تهتم اليوم بجمعها تمهيدا لنشرها في عدة مجلدات . . .

سترندبرغ : شكرا لك على هذا الخبر ، وشكرا للجمعية المذكورة على نشاطها هذا واهتمامها بي وبانتاجي .

صوت : ونعود الى نشاطك الادبي فنذكر انك كنت كاتبا قصصيا من الطراز الاول . الا ان رواياتك وقصصك القصيرة هي ذات طابع قومي شديد ، وصبغة محلية ، فلم تلق خارج حدود السويد ، وحتى في بلدان اوروبا الشمالية ، الرواج الذي عرفته مسرحياتك . ولعل اشهر قصصك « ابن الجارية » ، وهي ترجمة مطولة لحياتك ، افرغتها في قالب قصصي جذاب ، فجاءت على غرار اعترافات جان - جاك روسو . وفيها تسرد دقائق حياتك الغريبة ، المليئة بالمخاطر في صراحة تامة وتحليل نفسي عميق .

سترندبرغ : ولي مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الزواج والتزويج » اثارت علي السلطات العامة لدى ظهورها لجرأتها وصراحتها المتناهية . فيها رسمت لوحات رائعة عن الزواج العصري ، والمرشحين للزواج ، الاكفاء منهم وغير الاكفاء ، وامعنت في الهجو والتهكم اللاذعين .

صوت : ولك كذلك ثلاثة دواوين شعرية تخولك احتلال مقام ممتاز في مصاف الشعراء الغنائيين الكبار ، وقد قضيت خلال تنقلاتك في القارة الاوروبية حوالي سنة ١٨٩٠ وقتا غير قصير في الحلقات البوهيمية الدولية التي كانت تتردد الى احد مقاهي برلين .

سترندبرغ : كنت انزوي في ركن من اركان المقهى المظلمة ساعات وساعات محتضنا قيثارتي ، متمتما لحنا من الحاني الشجية ، وهناك وضعت انشودة « روح الشلالات » التي تتضمنها مسرحيتي الشعبية الغنائية « العروس المتوجة » .

صوت : ولعل من اشهر قصائدك الغنائية « رحلة الى البلد » و « الاناشيد » ، وهما قصيدتان تظهران بوضوح تام روحك الشعرية الموسيقية .

سترندبرغ : سيدي ، هل بقي لديك شيء عني لم تتحدث فيه ؟

صوت : لا ، يا سيد سترندبرغ . . . لماذا هذا السؤال ؟

سترندبرغ : لاعرف متى ستنتهي هذه المقابلة . . ولاشكرك على تفكيرك في تقديمي الى جمهور قراء العربية !

صوت : لا شكر على واجب ، يا سيدي ، واستودعك الله !

طاغور : أول قديس لم يرفض الحياة
(١٨٦١ - ١٩٤١)

صوت : « غابت الشمس وراء ضفة النهر الغربية ، وسط الغابة الكثيفة . وعاد التلامذة الصغار بالقطعان الى الحظيرة وقعدوا حول النار ليصغوا الى المعلم غوتاما ، عندما تقدم منه غلام غريب وقدم اليه زهورا وفاكهة . وانحنى كثيرا حتى لامس قدميه ، وتكلم بصوت ملوءه النغم اشبه ما يكون بزقزقة العصفور .

ايها السيد ، جئت اليك لكي تقودني في سبيل الحقيقة العليا . ان اسمي هو : ساتيكاما فقال المعلم : لتحل البركة عليك الى اي طائفة تنتمي يا بني ؟ فالبراهمة وحدهم ، دون سواهم يمكنهم ان ينشدوا الحكمة العليا :

فأجاب الغلام :
ايها المعلم ، انا لا أدري الى أي طائفة انتمي . سأعود الى امي فأسألها ذلك .

قال ساتيكاما ذلك ، وانسحب ، فسلك معبر النهر عائداً الى كوخ امه القائم في طرف الصحراء الرملية عند تخوم القرية الهاجعة .

وكان السراج يلقي ضوءاً شاحباً في الغرفة ، وأمه على الباب ، في الظلمة ، تنتظر أوبته .

فضمته الى صدرها ، وقبلت شعره ، وسألته عن زيارته للمعلم .

فبادرها بسؤاله :

« ما اسم ابي ، يا اماه العزيزة ؟ فالمعلم غوتاها قال لي ان البراهمة دون سواهم يحق لهم نشدان الحقيقة العليا » .

فخفضت المرأة عينيها ، وتمتمت بصوت خافت :
« في صباي كنت فقيرة ، وكان لي عدة اسياد . وقد ولدت انت بين ذراعي امك جابالا ، يا حبيبي امك التي لم يكن لها بعل » .

أشعة الشمس الاولى تتلألأ على رؤوس الاغصان في غابة الصومعة.

وقد جلس التلاميذ وشعورهم ما تزال مبللة بعد الحمام الصباحي ، تحت الشجرة المقدسة امام معلمهم .

وبدأ ساتيكاما ، فانحنى بخشوع حتى حاذى قدمي الحكيم ، وبقي صامتاً .

فسأله الواعظ الكبير :

« الا قل لي ، من أي طائفة انت » ؟
فأجابه الغلام :

« لست ادري ، يا سيدي . عندما سألت امي اجابتني : لقد خدمت اسياداً عديدين في صباي ، وولـدت أنت بين ذراعي امك جابالا التي لم يكن لها بعـل » .

وتعالت دمدمة شبيهة بطنين النحل الهائج عندما يزعج في قفيره . وغمغم التلامذة لوقاحة هذا الغلام وسفهه .

ونهض غوتاما من مكانه وبسط ذراعيه ، وضم الغلام الى صدره ، قائلا :

« أنت افضل البراهمة ، يا بني ، لانك تملك انبل « تراث الحقيقة » .

هذه قصيدة من القصائد الرائعة التي تطالعنا في ديوان « سلـة الفاكهة » لشاعر الهند الاكبر وفيلسوفها رابندرانات طاغور وسنقضي هذه الدقائق القليلة معه لانه كان علما من اعلام الادب العالمي ، وكان لكتاباته الوافرة المشبعة بروح جمال الكون ، وحبه الاطفال ، والبساطة ، ووعي الله اكبر الاثر في ترجمة روح الشرق عامة وروح الهند خاصة الى الغرب .

طاغور : شكراً لك يا سيدي ، على هذه المقدمة ، وعلى حسن اختيارك للقصيـدة انها حقا من اقرب القصائد الى نفسي . والان لندخل في صلب الموضوع .

صوت : أنت يا سيد طاغور من مواليد كلكوتا ، سنة ١٨٦١ وقد نشأت في اسرة تعتبر من الأسر الاولى التي تفتحت

على نفوذ الادب الغربي واصبحت مرتكز الحركة الكبرى التي تدعى اليوم « النهضة الهندية » .

طاغور : هذه الحركة اطلقت قوى اجتماعية وروحية جبارة وانجبت عباقرة في كل ميدان من ميادين النشاط الانساني .

صوت : وقد بلغت هذه الحركة ذروتها فيك ، انت من جمعت شخصيته الغنية ، الى افضل ما في التقاليد الثقافية الهندية والشرقية ، النظرة العلمية الغربية الحديثة .

طاغور : وعلى ذلك فقد بدأت دراستي الخاصة في الهند ثم اوفدت الى انكلترا سنة ١٨٧٧ لدراسة القانون .

صوت : ولكنك ما لبثت ان عدت الى وطنك الهند ، ورحت تكتب وانت بعد في ميعة الصبا ، في صحف البنغال وكنت شديد الوطنية في صباك ، فتجاوبت اصداء التحرر في قصائدك العديدة واناشيدك .

طاغور : الا ان وطنيتي لم تكن لتقف عند حدود الهند بل كنت في كتاباتي ارجع صدى العاملين على تحرير بلدانهم في العالم اجمع . . .

صوت : ولك ، يا سيدي ، على الهند ، وبالتالي على العالم ، فضل مزدوج ، فقد خلقت للهند عالما اوسع مما كانوا يعرفون ، وجعلت من العالم كله بلدا واحدا يقطنه جنس واحد ، وهو الجنس البشري ، ولم يتحدث قط احد قبلك باستمرار عن وحدة الروح الانسانية في كل زمان ومكان .

طاغور : الواقع انني كنت ارى ان هذه الثقافات العنصرية ليست سوى اختلافات سطحية اوجدتها التربة والمناخ .

صوت : ولم يثر اهتمامك شيء بقدر ما اثارته اعادة اكتشافك الحلقات المفقودة في العلاقات الانسانية السابقة ، ويذكر السكان في جنوب شرقي آسيا كيف ذهبت سنة ١٩٢٧ سفيرا ثقافيا الى بلدانهم لاعادة العلاقات والاتصالات التي كانت بين شعوب هذا الجزء من العالم في الماضي البعيد .

طاغور : وكما جلت في آسيا ، كذلك جلت في العقد الثاني من هذا القرن العشرين في اوروبا واميركا والشرق الاقصى ، حاملا رسالة السلام العالمي ، مبشرا بالارادة الطيبة والتفاهم بين الشعوب .

صوت : وقد استقبلتك اوروبا التي مزقتها الحرب العالمية الاولى استقبال المنقذ . وقد كان اهتمامك بالسياسة يقتصر على ما له علاقة مباشرة بحياة الهند الصميمة . وكنت ترغب في ان تعتبر الحركة الوطنية الاصلاحات الاجتماعية في المقام الاول ، وقبل الاستقلال السياسي .

طاغور : وفي سبيل ذلك انشأت سنة ١٩٠١ مدرسة الغابة الصغيرة في بوليور الباعدة ٩٣ ميلا عن كلكوتا .

صوت : تقصد موئل السلام في شنتينيكتان ، حيث رحت تختبر ، على نطاق مصغر ، تجربتك في الالفة الدولية

وقد دعوت هذه المؤسسة التربوية التي تطورت الى مؤسسة هامة فريدة في نوعها فسفا بهاراتي . . .

أي « الجامعة الدولية » أليس كذلك ؟

طاغور : أجل ، فقد كانت حقا موطن ثقافات الشرق والغرب جميعا ، وكانت الدراسة تجري فيها تحت ظلال الاشجار المزهرة ، وفي جو يكتنفه الجمال ، والمحبة ، والبساطة .

صوت : وفي سنة ١٩١٣ ، فزت بجائزة نوبل للآداب تقديراً لك على قصائدك الانسانية المشبعة بروح التدين والوطنية ولكنك استخدمت قيمة هذه الجائزة البالغة ثمانية آلاف ليرة استرلينية في المحافظة على مدرستك وتأمين استمرارها في اداء رسالتها .

طاغور : لا عجب في ذلك ، فمدرستي كانت في الحقيقة كل حياتي . . .

صوت : ولا غرو في ذلك فقد كنت انسانا كبيراً رقيقاً ، وطيب القلب ، كبيرا في كل شيء وفي مختلف الموازين قال عنك يوما احد نواب وزير الخارجية الهندية وقد عرفك معرفة وثيقة ولازمك فترة من الزمن غير قصيرة « ان حياتنا اليوم بلا شك احلى كثيرا مما كان يمكن ان تكون لان طاغور عاش بيننا » .

طاغور : انك تخجل تواضعي ، يا سيدي . الحقيقة ان صديقي هذا نائب وزير الخارجية ، كان هو الانسان الكبير !

صوت : وفي نهاية هذه المقابلة الممتعة يا سيد طاغور نذكر انك

احترفت الرسم سنة ١٩٢٩ ، وقد جعلت لنفسك اسما لامعاً فيه . وقد كانت وفاتك في السابع من آب من سنة ١٩٤١ وقبل ان استأذنك بالانصراف دعني اورد كذلك عبارة اثبتها الشاعر الانكليزي ييتس في مقدمته لديوانك « جيجنتالي » او « قربان الاغاني » في ترجمته الانكليزية .

طاغور : وما هي هذه العبارة ؟

صوت : قال ييتس : « طاغور هو اول قديسينا الذين لم يرفضوا الحياة ، قال لي ذلك الهندي ، ولكنه انتظر وحيه والهامه من الحياة نفسها ، ولهذا السبب بالذات نحن نحبه » .

طاغور : شكراً للجميع على هذه العاطفة الكبيرة ، وشكراً لك يا سيدي على اتاحتك لي هذه الفرصة لتبادل الحديث عن حياتي ونشاطي الذي كنت ارجو صادقا لو كان اوفر واكمل .

صوت : لا شكر على واجب ، يا سيد طاغور .

برنارد شو : الأديب الساخر
(١٨٥٦ - ١٩٥٠)

صوت : السلام عليك . . ألست امام اشهر اديب ساخر عرفه القرن العشرون ؟ . . .

شو : . . . اجل ، ايها السيد ، انت في حضرة جورج برنارد شو الذي اصبح عند الانكليز ، بمرور الزمن ، مؤسسة قومية لا غنى لمجموعة المناظر اللندنية عنها . فأنا كساحة ترافلغار ـ او الطرف الاغرّ ، على حدّ تعبيركم أنتم العرب ـ او كاتدرائية وستمنستر ، او المتحف البريطاني ، او قصر بكنغهام . . .

صوت : صحيح ، ولكن اغلبية العالم الادبي رفضت ان تُنظر اليك إلاّ نظرتها الى مهرّج ظريف لطيف ، يمتص بشغف طبقة السكّر التي تغطي حبوب افكارك اللاذعة المرارة . هل لنا ان نسمع الآن بعض هذه الاراء ؟

شو : ولم لا ، سلني ما تريد .

صوت : ما هو في نظرك الحب المثالي ؟

شو : الحب المثالي هو الحب الذي يكون بالمراسلة .

صوت : ما هي المدارس ؟

شو : المدارس سجون للاولاد ، وقد سجنت انا في احداها ساعات عديدة ولكنني لم اتعلم شيئا فيها قط . وهكذا احتفظت بدماغي وتفكيري . ولولا ذلك لاصبحت معتوها كسائر المتعلمين .

صوت : ما رأيك بشكسبير ؟

شو : باستثناء هوميروس وحده ، ليس ثمة اي كاتب لامع ، حتى ولا السر ولتر سكوت ، احتقره احتقارا كليا كشكسبير عندما اوازن بين عقله وعقلي .

صوت : من هم في اعتقادك اشهر عشرة ادباء معاصرين ؟

شو : جورج برنارد شو ، برنارد شو ، برنارد جورج شو ، ج . ب . ش ، شو ، ج . ب . شو ، ج . برنارد شو ، جورج ب . شو ، برنارد ج . شو ، شو . ج . ب .

صوت : حسنا ، حسناً . والآن يا ج . ب . ش . لو اتيح لك ان تعود ثانية الى الحياة فهل توافق ، وماذا تفعل ؟

شو : كلا ، لا اوافق ان اعود ثانية الى الحياة لان في ذلك اعترافا باخفاقي في حياتي الاولى .

صوت : اختلفت الناس في حياتك حول مذهبك في الحياة ، فهل كنت مثاليا ام ماديا ؟

شو : اترك للناس الآن ان يقدّروا بانفسهم مذهبي . . . ولكن اسمع رأيي في المثالي والمادي : المثالي في نظري هو الرجل الذي ينقطع عن تدخين لفائف التبغ

الفاخرة عندما يرى اصدقاءه ينبهونه اياها . اما المادي فهو الذي ينقطع عن رؤية اصدقائه عندما يلاحظ عليهم انهم يريدون سرقة لفائفه . . .

صوت : يقال ان احدى السيدات كانت اشد منك سخرية اذ افحمتك في رد على سؤال طرحته عليها ، هل هذا صحيح ؟

شو : اجل ، فقد سألت يوماً سيدة لطيفة بلغت الثانية بعد المائة عن الحياة ، وما هي في نظرها ؟ فاجابتني : « لا اكثر من « تبكيل » ازرار ثوبي وفكها » ، فلم احر جوابا هذه المرة ـ مع ان لي مع النساء مواقف غاية في السخرية . فقد كنت شديد القسوة معهن .

صوت : هل لك ان تذكر لنا بعض هذه المواقف الساخرة ؟

شو : في احدى الحفلات الخيرية الراقصة اتفق ان راقصت احدى السيدات ، فلما انتهينا من الرقص وعدنا الى مكاننامالت الي السيدة وقالت : « جميل منك ان تراقص سيدة مسكينة غريبة مثلي ، فاجبتها مبتسما : هه ، ألسنا في حفلة خيرية ، يا سيدتي » ؟ .

صوت : هذه من نوادرك المعروفة ، هات نادرة سواها .

شو : اسمع اذن هذه : المعروف عني اني كنت رجلا نباتيا ، آكل النبات من دون سائر انواع الاغذية ، وأعنى بحديقتي ايما عناية . وذات يوم جاءت سيدة لزيارة زوجتي فرأتني منهمكا في تشذيب بعض النباتات ، ولم تكن تعرفني ، فجرى بيننا الحوار التالي :

ـ هل مضى عليك زمن طويل وانت تشتغل لحساب آل شو ؟

ـ بين العشرين والخمس والعشرين سنة ، يا سيدتي .

ـ وكم تتقاضى منهم ؟

انني اعمل في مقابل طعامي وكسوتي . . .

ـ ما رأيك في العمل عندي ؟ اني اكفل لك الطعام والكسوة واعطيك مرتبا شهريا .

ـ اسمحي لي ، يا سيدتي ، ان ارفض طلبك هذا . فانا مرتبط مع السيدة شو مدى الحياة .

ـ مدى الحياة ؟ انها عبودية ! . .

ـ كلا ، ايتها السيدة ، نحن ندعو ذلك زواجا !

صوت : حسناً ، هل لنا في سماع نادرة اخرى من تلك النوادر التي يقال انه كان لك الكثير منها مع الاطباء . فالاطباء والمحامون والادباء والرسامون كانوا جميعا هدفا لسخريتك اللاذعة ، وقلما نجت جماعة من الجماعات من مقرعتك ، وقد قيل انك وضعت تصنيفا طريفا للرسامين .

شو : اجل ، يمكن تصنيف الرسامين على النحو التالي : « الرسامون الذين يرسمون ما يرون ، والرسامون الذين يرسمون ما يظنون انهم يرونه ، والرسامون الذين يظنون انهم يرسمون ما يرون ، والرسامون الذين يظنون انهم يرسمون ما يظنون انهم يرون ، والرسامون الذين يظنون انهم يرسمون ! . . » .

صوت : والاطباء ، اليست لك حادثة طريفة مع احدهم ؟

شو : استيقظت ذات صباح فالفيت نفسي تعبا ، فقلت لزوجتي انني لن ابرح السرير طواك يومي . فأشارت باستدعاء الطبيب فلم امانع . وبعد نصف ساعة كان الطبيب يدخل حجرتي وهو يلهث من شدة التعب . وكان رجلا قوي البنية ، طلق المحيا ، بشوشا . فلم تكد عيناه تقعان علي حتى رفع صوته قائلا :

ـ ان اكره ما اكرهه تسلق السلالم الطويلة ، وانت ، ايها السيد شو ، تقطن في اعلى عليين . وقد شعرت وانا اصعد الى منزلك بأنني سأقضي نحبي قبل ان اصل اليك لفرط ما تملكني من الاعياء ، وضيق النفس .

ـ اذن انت تشعر بانحراف صحي ، اليس كذلك ، ايها الطبيب ؟

ـ انه دوار بسيط سببّته هذه السلم الشيطانية .

اجلس ، ايها الطبيب ، واسترح قليلا . اتشعر بصداع ؟

ـ نعم ، وسببه المجيء الى هنا وتسلّق هذه السلم . البغيضة . . . .

ـ سأنهض من سريري وآتيك ببرشامة وكأس ماء فانها كفيلة بشفائك من سقمك .

ـ شكرا لك ، فقد ازعجت نفسك من اجلي .

ـ كيف تشعر الآن ؟

ـ شكرا ، ايها السيد ، فقد تحسنت حالي تحسنا كليا .

ـ ان هذه التوعكات جميعا سببها الافراط في اكل اللحوم ، فعليك ايها الطبيب ، والحالة هذه ، الا تفرط في اكل « البفتيك » .

ـ وماذا تشير علي بأكله ؟

ـ خير ما تفعله في رأيي ان تأكل ما آكله انا : اكثر من تناول الخضار على انواعه والثمار . . . الا قل لي ، ايها الطبيب ، ما هي سنك ؟

ـ ثلاثة واربعون عاما .

ـ الا تخجل ؟ فانا في التسعين من عمري ، ولا ابالغ اذا قلت ان مِرونتي تفوق مرونتك بثلاثة أضعاف. اتجيد الرقص ؟

ـ كلا ، لم ارقص قط في حياتي .

ـ سأضع اسطوانة على « البيك آب » وارقص امامك .

وأدرت اسطوانة ورقصت على نغمها. ثم قلت : والآن ، يا سيدي الطبيب ، هات خمسين شلنا مقابل النصائح الطبية التي اسديتها اليك .

ـ ماذا تقول ؟ اتطلب مني ثمنا لذلك وانا الذي يحق له مطالبتك بليرتين استرلينيتين . اسمع ، ايها الكاتب ، دعوتني لعيادتك دون اي سبب . وقد وجدت انا الطريقة المثلى لمعالجة مثل هذه الحالات . وهي ان ابدأ

بالتألم والشكوى امام المريض كي ادخل في روعه انني متألم مثله . فلا يرى المريض بدا من القفز من فراشه لمساعدتي والعناية بي ، ناسيا انه هو متوعك المزاج . وقد شفيتك ، ايها السيد شو ، بهذه الطريقة المثلى . . .

ـ خذ ، ايها الطبيب ، هذا شيك بخمسين جنيها وليس بجنيهين ، لقاء اتعابك لا لقاء طريقتك الجديدة المثلى في المعالجة ، فأنت ، كما يبدو لي ، تستحق هذه المكافأة واكثر منها . انت تعرف جيدا كم سخرت في حياتي من الاطباء ، وها انت اليوم ترد لي الكيل كيلين .

صوت : حسنا ! . . يقال ، يا سيد شو ، انك كنت سقراط عصرك ، ادهشت اراؤك العالم واثارت حفيظته في آن واحد . الا انها لم تستطع تبديله في قليل او كثير .

شو : اجل ، وهذا ما يؤسفني . . فقد ظل الناس يأكلون اللحم ليعيشوا بدلا من ان يأكلوا الخضار والنباتات عملا بنصيحتي ، وظلوا يترددون الى الكنائس بدلا من الذهاب الى دور الاوبرا كما كنت اقول ، وظلوا كذلك يستشيرون الاطباء دون ان يتقيدوا بأقوالي القاضية بالمحافظة على حرارة القدمين وبرودة الرأس .

صوت : اسمح لي الآن ، ان ننتقل من جو الهزل الى الجدّ لاعطاء فكرة ولو موجزة عن تفاصيل حياتك الادبية والفكرية ، ومقامك في عالم الادب العالي .

شو : لست أرى اي مانع في ذلك ، فليست الحياة هزلا وسخرية ، ولا بد من ان نعطي الجدية مكانها في حياتي واعمالي . فتفضل بما تود قوله .

صوت : ان شهرتك هي ، في الاساس ، شهرة ادبية ، طالما انك تعتبر اشهر مؤلف مسرحي في العصر الحديث ، ويشاطرك في هذه الشهرة اديبان كبيران هما جان جيرودو الفرنسي ، ولويجي بيرانديللو الايطالي .

شو : غير ان نشاطي تخطى دائما حدود الحقل الادبي ، فقد كان عندي في كل علم خبر ، وقلما تركت موضوعا لم اكتب او اناقش فيه . فقد استهللت حياتي الادبية في الصحافة - في مجلة « ستراديي ريفيو » الاسبوعية - حيث عملت عشر سنين . وكانت مقالاتي فنية ، تدور اكثرها حول المسرح ، والموسيقى ، والتصوير والرسم .

صوت : صحيح ، يا سيد شو ، وقد كنت اعظم اديب في عصرك ، هذا العصر الذي يمتد من عهد الملكة فكتوريا حتى عهد القنبلة الذرية . وكنت روائيا وروائيا ، اعظم من شكسبير ، وناقدا موسيقيا أخبر من بتهوفن ، واشتراكيا رأيت ابعد مما رأى كارل ماركس . وقد خلدّك معاصروك قبل ان يخلدك الموت لانك عمرت طويلا .

شو : ومع ذلك سبق ان بدأت هذه المقابلة بقولك ان اغلبية العالم الادبي رفضت ان تنظر الى برنارد شو الا نظرتها الى مهرج ظريف لطيف . فيا للعجب !

صوت : لا غضاضة في ذلك ، يا سيدي ، فقد كنت اكثر من كل ما ذكرنا في عرف الكثيرين ، وفي عرف خصومك قبل محبيك بك وبعبقريتك . وقد حفلت حياتك الطويلة التي بلغت ٩٤ عاما بالنتاج الادبي والفكري الرائع الذي قلما يصدر عن انسان واحد فرد . . .

شو : شكرا . . . ولي قول اود ايراده في هذا المجال : لقد استطعت طوال ستين سنة كاملة اقناع العالم بأني رجل غريب مدهش ، روحاني ، حاد الذكاء ، لامع ، فأصبح ذلك جزءا من الرأي العام الانكليزي ، وليس ثمة قوة في العالم تستطيع تبديل هذا الموقف . فان سمعتي لن يؤثر فيها شيء لانها ترتكز على دعائم متينة متانة الدعائم التي ترتكز عليها شهرة شكسبير .

صوت : بلا أدنى ريب . والآن دعنا نستعرض بعض تفاصيل حياتك فقد كنت ايرلندي الاصل ، وكان ابوك من البورجوازيين الانكليز الصغار ، وامك قروية تملك بعض العقارات البسيطة . وكنت تلميذا مهملا ، كسولا . تركت لك والدتك الحبل على الغارب ، فلم تشأ ان تقسو عليك ، وهي التي عرفت اشد الوان القسوة في سني دراستها . فلما توفي عنك والدك ، التحقت كموظف بسيط في شركة تليفونات اديسون . . .

شو : ولكن سرعان ما طردت من العمل ، وما لبثت ان شرعت في التأليف . ولكن احدا من الناشرين لم يوافق على نشر كتبي . . .

صوت : كما ان مديري المسارح رفضوا اخراج مسرحياتك . وكنت تتلقى هذه الصدمات بسخرية ما بعدها سخرية يقينا منك ان الزمن يعمل في مصلحتك .

شو : وقد كنت على صواب ، اليس كذلك ؟ والدليل على ذلك فوزي بجائزة نوبل للآداب سنة ١٩٢٥ . . .

صوت : ولكنك ابيت قبض قيمتها ـ وهي سبعة الاف استرلينية ـ وفضلت توزيعها على الادباء الاسوجيين المعوزين . فكان لهذه البادرة الطيبة ابلغ الاثر في النفوس ، لما عرف عنك من الفقر والشح . ودعنا الآن ننهي هذه المقابلة بطرفة ، ولا عجب ، فقد كنت الاديب البريطاني الساخر الممتاز . اتذكر انه لمناسبة بلوغك العقد التاسع من العمر منحك مجلس دبلن البلدي براءة مواطن شرف في هذه المدينة العاصمة . فلم ترفض الامتياز الرسمي . . .

شو : . . . صحيح انني لم ارفض ذلك الامتياز الرسمي ، ولكنني اعتذرت عن حضور الحفلة التكريمية قائلا لهم : لم يبق مني الا القليل ، ولن يلاحظ احد غيابي ! » .

صوت : الواقع ، يا سيد ج . ب . ش . ، انه بقي منك اكثر من الكثير ! . .

الفصل الثالث

٩ من أعلام الريادة

كولومبس	:	عرف ان الارض كروية
ماجيلان	:	فاتح البحار.
سيمون بوليفار	:	المحرر الكبير
لافاييت	:	صديق الجنود
غاريبالدي	:	تحرير ايطاليا وتوحيدها
الفريد نوبل	:	ملك المتفجرات وخادم السلام
اليزابث بلاكويل	:	الطبيبة الاولى
غوستاف ايفل	:	عبقري الهندسة
هيلين كيلر	:	خارج الظلمة

كولومبس : عرف ان الأرض كروية

(١٤٥١ - ١٥٠٦)

صوت : هاي كولومبوس !

كولومبس : هاي . . .

صوت : في الثاني عشر من تشرين الاول من كل سنة يحتفل الاميركيون باعظم حدث في تاريخهم، الا وهو اكتشافك بلادهم اميركا . .. .

كولومبوس : اعتقد ، يا هذا ، انهم يخطئون في تحديد الثاني عشر من تشرين الاول موعدا لاكتشاف اميركا . فالتاريخ الصحيح هو الثالث والعشرون من تشرين الاول ، لا الثاني عشر .

صوت : وكيف كان ذلك ؟

كولومبوس : الامر في غاية البساطة . . . فالتقويم الذي تتمشون عليه اليوم هو من صنع البابا غريغوار ، وانا لم اسمع قط بهذا التقويم لانه لم يظهر الا بعد وفاتي بحوالي قرن من الزمن وقد اعتمدت المستعمرات الاميركية التقويم المذكور سنة ١٧٥٢، وتقدمت بالزمن احد عشر يوما.

صوت : لماذا فعلت ذلك ؟

كولومبوس : لان تقويم ذلك الزمان كان متأخرا عن الشمس احد عشر يوما .

صوت : وهكذا تكون قد اكتشفت اميركا في الثالث والعشرين من تشرين الاول، لا في الثاني عشر منه .

كولومبوس : على اي حال الثاني عشر من تشرين الاول تاريخ شهير كذلك ، ففيه تصادف ذكرى ميلادي في سنة ١٤٥١ ، وذلك في المنزل رقم ٢٥ شارع بونتبتشيللي ، في مدينة جنوى الأيطالية .

صوت : حسنا ، كنت على وشك سؤالك عن نشأتك قبل الخوض في قصة مغامرتك الجريئة التي فتحت لنا ابواب العالم الجديد . فهل ستعرفنا قليلا بنفسك ؟

كولومبوس : كنت الابن البكر لدومينيكو كولومبو ، وكان لي ثلاثة اخوة هم بارتولوميو، وجيوفاني ، وجياكومو ، واخت هي بيانيكنتيا .

صوت : منذ نعومة اظفارك التحقت باحدى سفن القراصنة . . .

كولومبوس : لا عجب في ذلك فقد كانت العائلات المعروفة ترسل ابناءها على مثل هذه السفن وقصدها ان تنمي في نفوس هؤلاء الشبان روح المغامرة والثقة بالنفس، وتتيح لهم التعرف الى العالم ، فضلا عن كسب بعض المال .

صوت : ولم يكن في ذلك اي عار اللهم الا في حالة الوقوع في أيدي السلطات ، وعندها يتأزم الموقف .

كولومبوس : بالطبع . . . وكنت وانا صغير اتوق الى الاكتشاف . . . اكتشاف اي شيء بطريق البحر . .

صوت : حسنا . . . وبينما كنت منهمكا في التفكير في ما ستكتشفه

رحت تدرس علم الفلك والهندسة، وترصد النجوم. وخلصت من ذلك كله الى الاعتقاد بأن بوسعك الوصول الى الشرق بابحارك غربا .

كولومبوس : صحيح ، فقد قرأت في كتاب لفيثاغوراس ان الارض مستديرة كالبرتقالة ، واستنتجت من ذلك ان في مثل هذه الحالة يمكنني الوصول الى الهند من طريق اقصر من الطريق المعروف ، وان في وسعي ان اجمع ثروة طائلة .

سوى ان اساتذة الجامعات والفلاسفة سخروا منك واستخفوا برأيك ، قائلين كيف يستطيع هذا المجنون ان يصل الى الهند الواقعة في الشرق بمجرد ابحاره باتجاه الغرب ؟

لقد حاولوا اقناعي بان الارض ليست مستديرة ، بل مسطحة ، وان سفني ستصل الى حافة الكرة الارضية ثم تسقط في الفضاء الرحب الذي لا نهاية له .

وبقيت سبعة عشر عاما تبحث عمن يمد لك يد المساعدة ويمول مغامرتك الكبرى ، فلم تلق غير الفشل والخيبة المريرة .

ولما فقدت كل امل، وكدت انسى مشروعي ، انسحبت الى احد الاديرة في اسبانيا لاقضي فيه البقية الباقية من ايامي على وجه البسيطة .

سوى ان قداسة البابا في روما اهتم للامر وحث الملكة ايزابيلا، ملكة اسبانيا ، على مساعدتك ، فارسلت اليك ما مقداره اليوم خمسة وستين دولار . . .

كولومبوس : . . . انفقتها في شراء ملابس جديدة، وخمار لمقابلتها ، وكنت فقيرا معدما فاضطررت لاستجداء طعامي وانا في الطريق الى البلاط الملكي . . .

صوت : ومنحتك ايزابيلا السفن التي كنت تحتاج اليها .

كولومبوس : سوى انني وجدت صعوبة كبرى في حشد العدد الكافي من البحارة لان الجميع كانوا يخشون المغامرة بحياتهم .

صوت : فما كان منك الا ان قبضت على بعض البحارة وجررتهم بالقوة الى سفنك ، واستعملت الرشوة والتهديد لاستمالة عدد اخر منهم .

كولومبوس : . . . كما اخترت بعض رجالي من السجون واعدا اياهم بالحرية في حالة ذهابهم معي .

صوت : واخيرا ، وبعد ان تم كل شيء ، ابحرت سفنك الثلاث وعلى ظهرها ثمانية وثمانون بحارا ، وذلك قبل شروق شمس يوم الجمعة في الثالث من اب سنة ١٤٩٢ بنصف ساعة .

كولومبوس : كانت السفن الثلاث تدعى : سانتا ماريا ، وبينا ، ونينا . وكان بين البحارة على متنها رجل ايرلندي يدعى «ول» واخر انكليزي يدعى ارثر لاركنز ، وفتى اسباني اسمه بيدرو دو اكيفيدو .

صوت : وقد اشتهر اكيفيدو هذا فيما بعد ، لانه غافلك وانت نائم فقاد السفينة سانتا ماريا ذات ليلة ، الى مكان غير عميق ، فجنحت ، وغرزت في الرمال .

كولومبوس : وفي السابع عشر من ايلول التقطنا سرطانا حيا . وفي

التاسع عشر منه حط على ظهر المركب احد طيور البجع . وفي العشرين ابصرنا عددا من الطيور من نوع البجع . وفي الحادي والعشرين وقع نظرنا على حوت . وهكذا ايقنا اننا نقترب من اميركا .

صوت : واخيرا في يوم كولومبوس من العام ١٤٩٢ وصلتم الى جزيرة اعتقدتم انها تدعى جزيرة غوانا هاني لان سكانها ما فتئوا يرددون لفظة «غوانا هاني» .

كولومبوس : وعلى ذلك اطلقت عليها اسم سان سلفادور ، ورحت اكتشف المكان تلو الاخر . . .

صوت : . . . وتطلق عليها الاسماء الخاطئة . اعتقدت انك في جزر الهند الشرقية في حين انك كنت في جزر الهند الغربية .

كولومبوس : هوذا ما يحدث عندما يبحر المرء غربا ليصل الى الشرق .

صوت : ولذلك فقد رحلت عن هذه الدنيا دون ان تعرف تمام المعرفة ماذا فعلت . وقد توفيت عن ستين عاما مغمورا ، لم تكرمك السلطات ولم ينشدك الشعراء ، مع انك قمت باعظم عمل واجرأ مغامرة في التاريخ البشري دون ان تحصل من ورائه على شيء .

كولومبوس : لا تنسَ انني وعدت بلقب «اميرال المحيط ، ونائب الملك في الهند» ، ولكنني لم احصل على اي لقب .

صوت : وكيف يمكنك الحصول على لقب نائب الملك في الهند ، وانت لم تذهب الى الهند ، بل الى اميركا ، الى العالم الجديد ؟ !

كولومبوس : صحيح ، ولكن حتى العالم الجديد لم يعرف باسمي بل سمي باسم صانع خرائط ايطالي يدعى ايمريكو فسيوتشي . . .

صوت : والمصيبة ، يا كولومبوس ، انك لم تعرف انك وصلت الى قارة جديدة للتعزي بعض الشيء ، بل توهمت انك اكتشفت طريقا بحريا جديدا الى الهند .

كولومبوس : هو ذا الواقع ، وقد اطلقت على السكان الحمر الذين وجدتهم في اميركا اسم الهنود !

صوت : والان قبل نهاية هذه المقابلة ، اسمح لي بسؤالك ماذا حملت معك من العالم الجديد الى اوروبا ؟

كولومبوس : عدت الى اوروبا حاملا الشيء الكثير ، البطاطا ، والبهارات من جامايكا ، والبزرة الهندية ، والتبغ ، وجوز الهند وزيت النخيل ، وجذور البوكا والبام او الاغنام الشبيهة بالبطاطا ، والموز ، والقطن ، وصمغ المصطكى وثمر المنكروف ، وبعض القلل ، وسحليات ، وكلبا اميركا ، ونوعا من الارانب وبعض الطيور المحنطة ، وتمساحا محنطا . . . و. . .

صوت : وبعد عودتك ورجالك بفترة قصيرة تفشى في اوروبا داء الزهري . . . وفي سنة ١٥١٩ ، اثبت الرحالة ماجيلان ان الارض كروية الشكل كما كنت تعتقد .

كولومبوس : اصحيح ما تقول ؟ شكرا لماجيلان . . . فقد توفيت سنة ١٥٠٦ وانا في حيرة من امر الارض : اكروية هي ام مسطحة ؟ . .

صوت : بقي هناك امر واحد احب ان اطلعك عليه لانك تجهله . فانت ثالث من اكتشف اميركا ، في حين تعتبر اول من اكتشفها هذا؛ اذا اهملنا ما يؤكده الكثيرون من ان الفينيقيين هم اول من وصل الى تلك القارة . . .

كولومبوس : ما هذا اللغز ، يا سيدي ، انا لا افهم شيئا ! كيف اكون اول من اكتشف اميركا واكون في الوقت نفسه ثالث من اكتشفها ؟

صوت : الامر في غاية البساطة . فقد اكتشفها قبلك بالف سنة كاهن بوذي يدعى هو شين. كما اكتشفها قبل مولدك بخمساية سنة ليف. ركسون ، احد سكان اوروبا الشمالية .

كولومبوس : وما الفائدة من كل ذلك ما دام العالم الجديد دعي باسم صانع الخرائط الفلورنسي اميريكو فسبوتشي ؟ ولم يحمل لا اسمي ولا اسم هو شين ، ولا اسم ليف اريكسون .

صوت : ان للقدر سخريات لاذعة حقبا . . . والان باي باي ! . .

كولومبوس : باي !

مـاجيلان : فـاتح البحار
(١٤٨٠ - ١٥٢١)

صوت : البحَّار البرتغالي فرناندو ماجيلان وهو مكتشف مضائق ماجيلان ، واول من عبر المحيط الباسيفيكي ، واول من حاول الدوران حول الكرة الارضية بطريق البحر . وعلى الرغم من انه لم يعمر ليتم شخصيا عمله الجبار الذي يضاهي من حيث الاهمية اكتشاف اميركا ، الا انه نال الجزاء الحسن الذي يستحقه صانعو التاريخ . فاسمه بارز بين كبار الرحالة في العالم ، وما يزال اكبر المحيطات يحمل الاسم الذي اطلقه عليه ، المحيط الباسيفيكي ، اي المحيط الهادىء . . . ولقد اتم ماجيلان مـا خططه كريستوفر كولومبوس - ربط اوروبا الغربية بآسيا الشرقية بخط مباشر عبر المحيط الغربي . وفوق ذلك فقد برهن على ان الارض مستديرة ، وان اميركا ليست مجموعة جزر او شبه جزيرة تمتد جنوبا من آسيا، بل قارة بحد ذاتها . والان لنبدأ من البداية مع فرناندو ماجيلان .

ماجيلان : اهلا وسهلا بك يا سيدي ، تفضل ، سلني ما تشاء .

صوت : انت ابصرت النور حوالي سنة ١٤٨٠ في البرتغال ، في اسرة نبيلة ، وبهذه الصفة دخلت البلاط الملكي في عهد الملكة ليونور ، زوجة الملك خوان البرتغالي الثاني . وفي

بلاط هذه الملكة درست الرياضيات وشؤون الملاحة البحرية .

ماجيلان : اؤكد لك ، يا سيدي ، ان البلاطات الملكية هي افضل مدرسة لتعلم مبادىء الملاحة . فيها يتعلم المرء كيف يمخر بسفينة وسط المؤامرات ، ويبحر في المياه الصاخبة المضطربة ، ويخوض كل المواضيع دون ان يغرق في السخافة .

صوت : ولم تكن لتحلم الا بالاسفار والاستكشافات ، وكانت كل الظروف مواتية لارواء غليلك في البحث عن المجهول ولم تكن لتعير اي اهتمام للاساطير التي كانت تقول ان المحيطات يسكنها مسوخ ووحوش ، وان الارض مسطحة .

ماجيلان : ان عشاق لعبة البيتانك هم الذين كانوا يروجون تلك الشائعات مرددين قولهم : «لو كانت الارض مستديرة ، فان الكرات التي نلعب بها كانت تدور وتدور دون توقف » .

صوت : وفي اذار من سنة ١٥٠٥ اشتركت في حملة بحرية تألفت ، بقيادة القبطان لوبيز دو سيكويرا ، من خمس سفن كانت مهمتها البحث عن جزر بعيدة مشهورة بالتوابل .

ماجيلان : لقد حدث ذلك بطريقة تكاد تكون حمقاء . ففي ذات مساء قالت لي امي : «فرناندو ، لم يعد لدي بهار وقرفة . فاذهب واشتر لي اوقية من عند البائعة السيدة راميز ، وحانوتها في ركن هذا الشارع » . وفي الطريق الى الحانوت

قابلت بحّارا قال لي : « انا ذاهب لجلب بعض التوابل من بهار وقرفة » ! فلما قلت له انني مثله ، ذاهب للقيام بهذه المهمة ، سر كثيرا وقال لي : « هيا ، لنذهب معا . » وهكذا أبحرت في تلك الحملة وغبت ست سنوات كاملة .

صوت : ولما عدت من تلك الحملة البحرية كان والداك قد انتقلا من العالم الاول الى العالم الثاني .

ماجيلان : من حسن حظي انني لم اجدهما ، ففي اثناء هذه المدة الطويلة نسيت البهارات التي اوصتني عليها والدتي . ويمكنك ان تتصور مبلغ غضبها فيما لو كانت ما تزال تنتظر عودتي .

صوت : دعنا من المزاح ، ولنعد الى رحلتك تلك التي كانت الغاية منها جلب التوابل وتأسيس وكالات تجارية للبرتغال ، على الرغم من عداوة السكان الاصليين .

ماجيلان : وكان من اهداف تلك الحملة الاستكشافية كذلك نشر المسيحية بين تلك الشعوب في المناطق الجديدة ، التي كان بعضها من اكلة لحوم البشر .

صوت : ولدى مغادرتك شبه جزيرة مالاقه هاجمك القراصنة الصينيون ، ولكنك تغلبت عليهم واستوليت على سفينتهم وعلى حمولتها .

ماجيلان : ولكن السفينة الصينية تلك كانت قد اصيبت اصابة بالغة من جراء المعركة التي نشبت بيننا ، وكانت معرضة للغرق .

صوت : ولكن لم يحدث شيء من ذلك ، فلما عدت الى البرتغال كانت تحدوك امنية كبيرة ، وهي ان تكتشف بسفن خاصة بك ، تتولى انت قيادتها ، الطريق البحري الذي يتيح لك الدوران حول العالم . ولذلك طلبت مقابلة الملك مانويل الاول ، الذي خلف الملك خوان الثاني البرتغالي ، ولكنه رفض ان يستمع الى مطلبك .

ماجيلان : في عهد هذا الملك اديت خدمات جُلّى في الهند ، وقد شجعني ذلك على مطالبته بالسماح لي بقيادة حملة بحرية لاكتشاف الطريق التي تدور حول الكرة الارضية كما ذكرت لك . وكنت قد التحقت سنة ١٥١٣ بحملة برتغالية وجهتها مراكش ، وهناك جُرحت واصابني العرج الذي لازمني طوال حياتي .

صوت : واتهمت بأنك تتعامل مع السكان العرب هناك ، مما اغضب عليك الملك مانويل وجعله ، ربما ، يقف من طلبك ذلك الموقف المعارض . وعندها تخليت عن جنسيتك البرتغالية ، وعرضت خدماتك على اسبانيا ، بايعاز من صديقك الفلكي الكبير وواضع الخرائط روي فاليرو .

ماجيلان : ذلك هوالواقع . ذهبنا معاً إلى بلاط ملك أسبانيا شارلكان ـ أو شارل الخامس ـ الذي تحمَّس كثيراً للمشروع ووضع اموال خزينته تحت تصرفي . وامر بأن تجهز خمس سفن بالمؤ ن والسلاح ، وتوضع في امرتي . غير ان بعض الجواسيس من الذين كانوا يعملون في خدمة الملك مانويل البرتغالي ، حاولوا اغتيالي ، ولكنني نجوت من تلك

المحاولة في حين جُرح صديقي الفلكي فاليرو ، ولم يستطع مرافقتي في تلك الرحلة البحرية التي طالما تمنينا ان تتم .

صوت : ويتحريض من الملك مانويل نفسه كذلك جرت اعمال تخريب في تجهيز السفن ، واعلن عمال الميناء ذات يوم العصيان واضربوا عن العمل . ولكن ذلك لم يؤثر في شيء ولم يؤخر قيام تلك الحملة . وقبل الابحار ببضعة اشهر تزوجت بياتريس باربوزا . وكنت تعتقد ان جزر التوابل في الهند الشرقية يمكن الوصول اليها بالابحار غربا وحول رأس اميركا الجنوبية .

ماجيلان : وعلى ذلك، ابحرنا من اشبيلية في ١٠ تموز سنة ١٥١٩ في اسطول يتألف من خمس سفن في رحلة تعتبر من اكثر الرحلات رومنطيقية في التاريخ. وفي تشرين الثاني ١٥٢٠ عبرنا المضايق . . .

صوت : (مقاطعا) المضايق التي تحمل اليوم اسمك «مضايق ماجيلان ».

ماجيلان : احقا ما تقول ؟ اقول عبرنا المضايق ، وكانت رحلة عاصفة . فلما وصلنا الى مياه المحيط الهادئة ، دعوت هذا المحيط باسم المحيط الباسيفيكي ، اي المحيط الهادىء . . . وطالت الرحلة فخشينا ان تنفد المؤن التي نحملها وكميات الماء الصالحة للشرب . واصيب البحارة بفساد الدم واضطروا الى اكل الجلود والنشارة . . وفي ٧ نيسان سنة ١٥٢١ وصلت الحملة الى قلب جزر الفيليبين.

صوت : وفي الفيليبين استقبلك سلطان البلاد الملك كيبو احسن

استقبال ، فدعوته الى اعتناق النصرانية . فادعى ذلك خدعة منه لكي يستخدم اصدقائي الكاثوليك .

ماجيلان : وقمت على الاثر بحملة على جزيرة مجاورة لحمل السكان على اعتناق النصرانية كذلك، والانضمام الى الملك كيبو المذكور. . .

صوت : ولكنك لم توفق في هذه الحملة اذ جرى بينك وبين زعيمها نزاع واشتباك ادى الى مقتلك في ٢٧ نيسان ١٥٢١ . وبعد ذلك قتل الملك كيبو عددا من زعماء الحملة الاسبانية البحرية ، مما جعل الاسبان يولون الادبار من الفيليبين .

وقد نجح ٣١ شخصا من اصل القوة الاسبانية في الوصول الى اشبيلية على ظهر السفينة فيكتوريا ، اول سفينة تقوم برحلة حول العالم .

ماجيلان : هذه المعلومات الاخيرة كنت اجهلها بالطبع ، لانها حدثت بعد وفاتي ، فشكرا لك على ايرادك اياها .

سيمون بوليفار : المحرر الكبير

(١٧٨٣ - ١٨٣٠)

صوت : في ذلك الزمان كانت الثورة على الحكم الاسباني في اميركا الجنوبة امرا خطرا . ففي سنة ١٧٨١ ، عندما حاول توباك - امارو تحرير البيرو ، قطع الحاكم الاسباني لسانه ، ثم اكرهه على حضور مشهد تعذيب زوجته وابنه . وفي نهاية المشهد المؤلم الفظيع قتل على أبشع صورة .

ان قصة هذه الفظائع كانت ما تزال على كل شفة ولسان عندما ابصر بوليفار النور في الرابع والعشرين من تموز سنة ١٧٨٣ في أسرة نبيلة المحتد . وقد شاء والده ان يسميه سانتياغو ، ولكن الكاهن الذي عمده اعطاه اسم سيمون على امل ان يصبح في يوم من الايام محرر العالم الجديد . ولقد كان منذ طفولته وافر النشاط ، ثائرا . . .

توفي والده وهو بعد في الثالثة ، فوضع في عهدة المشترع اللامع في كاراكاس ، ميغيل خوسيه سانز الذي طالما اورد له هذه الملاحظة : « يا صغيري ، انت صندوق بارود . . . فكان يجيب بكل برودة : « على ذلك يستحسن ان تبقى بعيدا عني ! »

أما أنا فلا اخشى الاقتراب منه ، وها اني أبدأ معه

مقابلة لا اشك لحظة في انها ستكون ممتعة . فقد كانت حياة هذا المحرر حافلة حقا .

بوليفار : اهلا وسهلا بك يا سيدي ، ولا تخش شيئا ، فلم يبق من البارود الذي تحدثت عنه الا الرماد .

صوت : لكم انت متواضع . . وعلى اي حال نحن يهمنا ان نستعرض دقائق حياتك منذ كانت جمرا متقدا حتى اليوم الذي اطبقت فيه عينيك بعد أن تحقق حلمك الكبير بتحرير اميركا الجنوبية من نير السيطرة الاسبانية . ففي صغرك كنت تحيا حياة الامراء . فلما توفيت والدتك ، وانت في التاسعة ، ورثت ثروة طائلة كانت من نصيبك ، ونصيب شقيقك وشقيقتيك .

بوليفار : ولكني لم اكن لابالي بتلك الثروة ، كل ما يهمني ويملك علي تفكيري كان حياة المغامرات .

صوت : وقد جمعت حولك نفرا من الشبان المتمردين الذين أثاروا حفيظة رجال القانون والتجار في كاراكاس . وقد كان لك اذ ذاك معلم متشرد ، بل فيلسوف يدعى رودريغز ، تدور في رأسه مختلف المذاهب الاجتماعية والسياسية . وكانت عقيدته تقوم على هذين الواقعين : « قدسية الجسم البشري ، وسخافة العقل البشري » .

بوليفار : وعلى ذلك كان كثيرا ما يظهر في المجتمع عاريا من كل لباس - ربي كما خلقني (يقهقهان) تدليلا على صحة مذهبه .

صوت : ولعله كان من رواد مذهب العري ؟! .

بوليفار : الا ان مبادىء رود ريغز الجنونية الجدية الرصينة، كما كان لها جوانبها الخفيفة الطائشة.

صوت : ان « سقراط اميركا الجنوبية » هذا كان شديد التقدير لك من ناحية القوة البدنية ، وكان يعول على بنيتك الحديدية في المعارك الكبرى المرتقبة في سبيل تحير فنزويلا . وكانت تلك الفترة من حياتك فترة ثورات وعصيان واضطرابات متكررة في اميركا الجنوبية . حتى ان استاذك رود ريغز نفسه اشترك مرة في احد الاضطرابات في كاراكاس ، ولم ينج من عقاب الموت الا بفضل نفوذ اسرتك .

بوليفار : ولكنه بقي خارج البلاد ، وبقيت انا بلا استاذ او مرشد .

صوت : واذا كنت قد فقدت استاذك فانك سرعان ما عرفت حلاوة الحب بالقرب من اثنتين من نسيباتك كانتا على وفرة من الجمال والفتنة . الا ان غرامياتك هذه لم تشكل سوى مرحلة من مراحل حياتك الصاخبة ، فقد انخرطت في الميليشيا ، فبرهنت على انك جندي ممتاز ، كما كنت عاشقا ممتازا ، وبعد سنتين اثنتين اصبحت في رتبة ملازم ثان ، فوجهت مغامراتك نحو العالم القديم . ففي كانون الثاني من سنة ١٧٩٩ ، رحلت الى مدريد حيث كان عمك استيبان بلاتشيو يحتل مقاما مرموقا يحسد عليه في البلاط الملكي . . .

بوليفار : (مقاطعا) ـ وكانت الشائعات تدور حول مقامه المرموق في مخدع الملكة (يقهقهان) .

صوت : لقد هبطت مدريد بتوصية للملك كارلوس والملكة مايا

لويزا على انك من الرعايا المخلصين . سوى انه لم ينقض بضعة اشهر على وصولك حتى صدر الامر باعتقالك بتهمة التآمر على العاهلين الاسبانيين بالاشتراك مع عمك استيبان .

بوليفار : ولكني نجحت في الفرار الى فرنسا حيث أبديت ولاءك لنابوليون « مخلص الثورة الفرنسية » .

صوت : وحيث أبديت حبك لنسيبة لك من الاسرة نفسها التي عرفت مغامراتك العاطفية الاولى في كاراكاس قبل دخولك الجيش . وفي غمرة حبك هذا بلغك ان الملك كارلوس قد أسقط عنك كل التهم ، فعدت الى مدريد من فورك ، وتزوجت فتاة اسبانية ، وكنت اذ ذاك في التاسعة عشرة من عمرك .

بوليفار : وعدنا الى كاراكاس حيث نعمنا بشهر عسل لا أشهى ولا أروع . ولكن حياتنا الزوجية السعيدة لم تعمر طويلا اذ توفيت زوجتي بعد ثمانية أشهر نتيجة حمى خبيثة . فكانت تلك المأساة نقطة تحول في حياتي : وضعت حدا لفترة اللهو ، وآذنت بفترة العمل الجدي الذي نذرت له منذ تلك الساعة كل قوتي ونشاطي ووقتي . . .

صوت : ولكي تنسى حزنك عدت الى مدريد حيث التقيت جماعة من المثقفين من أبناء اميركا الجنوبية ، كانوا يحملون ، مثلك احلام الحرية فانتظموا في جميعة سرية ، وجعلوك واحدا من قادتهم وزعمائهم .

بوليفار : واثار ذلك ، مجددا حفيظة البلاط الملكي الاسباني ، فصدر أمر ملكي بطردي من مدريد .

صوت : وكما فعلت في السابق ، ذهبت الى باريس حيث اصبحت نجم الصالونات الراقية ، ونعمت بتقدير الشخصيات الفرنسية ، رجالا ونساء على السواء من امثال : تاليران ، والجنرال دوروك ، والمارشال أودينو ، وابن زوجة نابليون، والممثل الفرنسي الشهير فرنسواتالما، ومدام ريكامييه ، ومدام دوستال .

بوليفار : ولا تنسَ ، ياسيدي،العالم الطبيعي الالماني الذي كان يعيش في ذلك الزمن في باريس الكسندر فون هومبولت . وكان قد قضى فترة من الوقت في رحلة علمية قام بها الى اميركا الجنوبية .

صوت : صحيح . وقد سألته يوما : « أتعتقد أن أميركا الجنوبية مستعدة للاستقلال ؟»فكان جوابه بالايجاب : « أجل ، اعتقد انها لكذلك . وكل ما تحتاج اليه بلادك هو قائد عظيم . . »

بوليفار : وثق ان قلبي كاد يطير من شدة الفرح لدى سماعي قوله ذلك ، وتوسمت في نفسي ذلك القائد المنتظر .

صوت : وكان استاذك القديم قد انتقل الى الاقامة في باريس ، متأبطا كتاب « اميل » لجان جاك روسو ، وحاملا احلامه الكبيرة البعيدة التحقيق . وكان واثقا من انك ستكون ذلك القائد شرط ان تنهي دراستك . وعلى ذلك زودك بتلك الكتب التي دقت من قبل نفير الحرية : كتب افلاطون ، وفولتير ، وروسو ، وسبينوزا ، ومونتسكيو ، وهلفيسيوس ، وهوبز ، وهيوم .

بوليفار : وبعد تقوية فكري، جاء دور تقوية جسدي ، فوضعت حدا للحياة المرفهة المريحة التي كنت أحياها وأقمت في منزل متواضع، أنام على فراش قاس، وآكل بنظام محدد . وتعلمت المبارزة بالسيف حتى أتقنتها بيدي الاثنتين .

صوت : وعند ذاك قمت برفقة رودريغز بجولة في أرجاء أوروبا الجنوبية . وفي روما اقسمت قسمك الشهير.

بوليفار : قلت لرودريغز : « رودريغز ، أقسم باله اجدادي ، ان يدي لن تعرفا الراحة حتى اخلص بلادي من نير اسبانيا .» وعدت الى بلادي لاقود الكفاح الثوري الذي ادى الى ما يعرف اليوم بفنزيلا ، وكولومبيا ، والاكوادور ، وبناما ، وبوليفيا،والشيلي . . .

صوت : لن يتسع المجال ، يا سيد بوليفار ، للتبسط في العمليات الحربية ، على اهميتها وسنكتفي بايجازها .

بوليفار : لا بأس في ذلك . ففي ٥ تموز من سنة ١٨١١ أعلن استقلال فنزويلا محرر ومحارب فنزويلي غريب يدعى ميراندا وكان برتبة جنرال. وكنت انا أدرب الجنود وبرتبة كولونيل .

صوت : ولكن سرعان ما انقلب هذا النصر المبدئي الى فشل ، ففررت الى غرناطة الجديدة حيث قدت جيوش كل من البلدان على حدة ، فكنت تلقى الهزيمة والنصر . وفي سنة ١٨٠٩ قدت جيشا من فنزويلا عبر سلسلة جبال الاندس لنجدة القوات الثائرة في غرناطة الجديدة . وصل جيشك المنهوك القوى بسبب الاهوال التي لقيها في مسيرته لنجدة قوة اسبانية اتية لملاقاتكم .

بوليفار : ولكن ما هي الا ثلاثة ايام حتى تأهبت للقتال ، وتم لي الانتصار على العدو . وبعد بضعة اشهر عدت فعبرت جبال الاندس الى فنزويلا حيث استطاعت قواتي خلال سنة من الحرب والصلح ، ان تشتت القوات الملكية الاسبانية .

صوت : وعندما أضيف ما يعرف اليوم بالاكوادور الى حكومة غرناطة الجديدة المتحدة المستقلة وفنزويلا ، مشيت الى البيرو ، فحالفك النصر . وفي ٩ كانون الاول سنة ١٨٢٤ تغلبت على كل مقاومة ، وانهيت السيطرة الاسبانية في العالم الجديد الى الابد . وتكريما لك انشئت على جزء كبير من البيرو جمهورية مستقلة اطلق عليها اسم « جمهورية بوليفار » وهي بوليفيا اليوم .

بوليفار : في الرابع من ايلول من سنة ١٨٢٦ انهيت كفاحي التحريري . ولكن مأساتي بدأت اذ ذاك ، واستمرت طوال السنين القليلة التي بقيت لي من حياتي . ففضلا عن الصحة السيئة التي أورثتني اياها اهوال الحروب ، واجهتني مشكلة دائمة هي مشكلة التمرد والعصيان بين مختلف عناصر تلك البلدان التي تم تحريرها على يدي .

صوت : الواقع انك كافحت من أجل حرية شعوب لم تكن تعرف كيف تفيد من التحرر والاستقلال . فقد كسب الاميركيون الجنوبيون حربهم ، ولكنهم خسروا سلامهم وراحتهم . وانت القائل في هذا الصدد : « ان أولئك الذين خدموا منا قضية الثورة أشبه بمن حرثوا البحر . »

بوليفار : تعب كثير ، وكسب ضئيل . . ولما فشلت محاولاتي المتكررة لاعادة الوحدة بين شعبي رحلت على ظهر سفينة كانت في طريقها الى جزيرة جامايكا حيث رجوت ان أقضي البقية الباقية من ايامي في هدوء تام . الا ان القبطان حوّل وجهة سير السفينة الى الشاطىء الكولومبي بعد ان ساءت حالتي الصحية . . .

صوت : وقد حملوك الى سانتا ماركا على نقالة . . حملوا عليها الحطام الذي تبقّى من محرر اميركا الجنوبية ! حملوك مريضا ، فقيرا ، معدما ، تنتظر انطفاء سراج حياتك .

بوليفار : وكانت امنيتي الاخيرة قبل ان اغمض عيني الى الابد ان أرى مواطنيَّ موحدين متحدين . .

صوت : دعني أذكر لك في هذا المجال ، لتقر عينا وتنعم بالا ، أن بعد وفاتك باثني عشر عاماً تحققت أمنيتك جزئيا . ففي الرابع من كانون الاول من سنة ١٨٤٢ ، رافق اسطول متحد مكون من مختلف الامم التي حررتها ، جثمانك في طريق العودة الى مسقط رأسك . وفي تلك الساعة فحسب ، وأخيرا ، عرفوا قدرك حق المعرفة ، كما عرفوا اي رجل عظيم كنت .

بوليفار : شكرا لهم على أي حال ، وشكرا لك ، يا سيدي ، على هذا الخبر الذي يثلج الصدر حقا .

صوت : لا شكر على واجب أيها المحرر .

لافاييت: صديق الجنود
(١٧٥٧ - ١٨٣٤)

صوت : في صيف سنة ١٧٧٧ وذات يوم جمعة وافق الثالث عشر ، وهو رقم حسن الطالع اذا اقترن بيوم الجمعة وبخاصة في التاريخ الاميركي ، ألقت بارجة ترفع العلم الفرنسي المرساة في عرض ساحل كارولاينا في اميركا وأنزل منها زورق اتجه نحو الشاطىء . وكان اول من قفز منه على الرمال الحارة فتى في التاسعة عشرة من عمره ما لبث ان وضع يده على سيفه واقسم الايمان المغلظة بأن ينصر قضية الاستقلال الاميركي او يموت دون ذلك . والواقع ان اخبار المعارك كانت سيئة في ذلك الصيف عندما وصل ذلك الشاب الاجنبي الذي اقسم يمين الاخلاص بشرف آل لافاييت ! ان دارتانيان الثاني هذا كان في صميم قلبه اميركيا قبل ان يعبر المحيط مع انه مولود في اسرة فرنسية نبيلة وعريقة في شهرتها ، اسرة لافاييت. ابصر النور في قصر كافانياك في اوفرني سنة ١٧٥٧ ، وتزوج وهو في السادسة عشرة من آدريين دو نواي ، واصبح هكذا من اغنى النبلاء : له قصر في الاقاليم ، وقصر ثان في العاصمة ، ومنصب ممتاز في البلاط الملكي .

لافاييت : ومع ذلك ، يا سيدي ، وضعتُ جانبا كل هذه الامتيازات وانتزعت نفسي من بين ذراعي زوجتي الحسناء الصبية لانني كنت اؤمن بديمقراطيتنا الناشئة وبأنها نور العالم الجديد ، ولا يسعني ان اقف مكتوف اليدين وأرى هذا النور يطفأ .

صوت : لذلك قرر الكونغرس فيما بعد ان تُعتبر وكل نسلك من بعدك والى الابد ، مواطنين شرفا في الولايات المتحدة الاميركية . هات حدثنا عن مغامرتك من البداية .

لافاييت : كانت المعركة الاولى ان اذهب الى العالم الجديد ، فعندما عقدت العزم على تجربة حظي مع المستعمرات الثلاث عشرة الصغيرة في كفاحها ضد اكبر امبراطورية على وجه الارض، حمل انسبائي ذوو النفوذ العظيم الملك لويس السادس عشر على اصدار امر بوقف الحملة . ولم اجرؤ على اطلاع زوجتي على خططي فجمعتُ حولي احد عشر نبيلا مغامرا مع المحارب السابق «دو كالب» ، ورحنا نزحف الى الشاطىء سرا في الليل بعد ان نختبىء في النهار فما كان من الملك الا ان ثار فأرسل بعض جنود الدراغون في اثرنا مع امر بالقبض علي .

صوت : ولكنك استطعت ان تجتاز مع رفاقك المقاتلين النبلاء الحدود الى اسبانيا حيث كانت تنتظركم في ميناء لوس بارسايس سفينتك التي اطلقت عليها اسم «النصر» ولم يقف الملك مكتوف اليدين بل اطلق في اعقابكم سفنا فرنسية سريعة وكان بعض المرتزقة البريطانيين بانتظارك . .

لافاييت : ولكنني ،وقد ولدتُ في برج سعد الطالع ،استطعت ان اتخلص

من كل العقبات التي وضعت في سبيلي وكنت في الرابع من تموز من سنة ١٧٧٧ على صهوة جوادي اجتاز غابات الصنوبر شمالا لاقدم سيفي الى بطلي جورج واشنطن .

صوت : والتقيتها في فيلادلفيا : الشاب النبيل الديمقراطي لافاييت ، والرجل النبيل الجمهوري واشنطن . وكان واشنطن قد سمع الكثير عن الضباط الاجانب الاتين من اوروبا ، كما كان الكونغرس قد سئم مراجعاتهم والحاحهم على تسلم القيادة لكسب الحرب . فلما وصلت رفضوا مقابلتك في بادىء الامر ثم استقبلك واحد منهم ببرودة وللحظات معدودة .

لافاييت : ولكن صبري ، يا سيدي ، ورفضي ان استسلم للغضب او اليأس وعرضي على الكونغرس ان اخدم في الجيش بلا مقابل ، كل ذلك انتزع منه رتبة ميجور جنرال في الجيش ، وسرعان ما تلاشت شكوك جورج واشنطن نظرا لاخلاص «الفتى» ، كما كان يدعوني تحببا .

صوت : وفي هزيمة الاميركيين وانسحابهم من برانديواين اندفع الفتى الذي هو انت والذي لم يخض اي معركة من قبل داخل صفوف البريطانيين بينما كان الجميع من حوله ينسحبون ويهتفون «تشجّع» ، وقد جرحت في قدمك ولكنك واصلت القتال حتى اغمي عليك وحملت حملا من الميدان . ومنذ اليوم الذي سُفك دمك مع دم الاميركيين بدأ هؤلاء يعبدون المركيز الشاب لافاييت ، وكانت الحشود الغفيرة تهتف باسمك في الشوارع .

لافاييت : وعندما عرفوا انني انتظر رسالة من زوجتي في فرنسا حاملة

بشرى ولادة طفل لنا كان كل جندي وزوجة كل جندي يتسقطون باستمرار اخبار الطفلة التي منَّ الله بها علينا .

صوت : ثم كانت معركة وادي فورج. ففي كل ليلة كنت تقوم بجولاتك على الحراس مزودا اياهم بالمؤاساة والتشجيع حتى اطلقوا عليك لقب « صديق الجنود » وكنت مع صديقك جورج واشنطن لا تغادران خيمتكما العادية التي تقضيان فيها الليالي القارسة البرد الى كوخ خاص بكما قبل ان يكون كل جندي من جنودكما قد توفر له كوخ يؤويه.

لافاييت : لايغربن عن بالك ياسيدي ، اننا كبشر اخوانٌ لا يفرقُ بيننا شيء . ولذا كنا نعتبر الجنود مثلنا ويحق لهم ما يحق لنا من معاملة طيبة . اما من ناحية الصداقة بيني وبين جورج واشنطن فقد وثق عراها بـلائي الحسن في معركتي براندیواين ووادي فورج ، فظلت متينة طوال حياتنا .

صوت : وفي سنة ١٧٧٩ عدتَ إلى فرنسا لتعمل على الاسراع في تدخّل بلادك في النزاع الأميركي من أجل الاستقلال فألقي القبض عليك فوراً لعصيانك أوامر الملك واكرهت على الاقامة الجبرية في منزلك.

لافاييت : ولكن ما لبثتُ ان اصبحتُ طفل البلاط المدلل فرحت اقنع الملك لويس السادس عشر المتردد ووزراءه العصبيين بمساعدة الجمهورية الاميركية الفتيـة حتى افلحت في مسعاي . واخيرا وفي نيسان من سنة ١٧٨٠ وبعد سنة من الغياب عن الصراع في اميركا قبّلتُ زوجتي آدرين وطفلتي ومولودي الجديد الذي دعوته جورج واشنطن لافاييت

قبلة الوداع وابحرت الى العالم الجديد لنجدة جورج واشنطن الذي كان يلقى ضغطا عسكرياً وماديا شديدا !

صوت : وهكذا أبحر الاسطول الفرنسي يحمل جنودا وصناديق ملأى بالذهب فلما تقابلت وجورج واشنطن وتعانقتما بكى من التأثر ذلك بأن الصداقة بين فرنسا واميركا التي لم يفسدها قط اي حرب بينهما والتي بدأت بحلم في خاطر فتى في التاسعة عشرة من عمره كانت تتجسد في حبك لواشنطن وحب واشنطن لك. فلما تحقق لكما النصر اصبحت حرا في العودة الى فرنسا والى اسرتك. وفي باريس علقت وثيقة اعلان الاستقلال الاميركي على مدخل البهو فلما سئلت ماذا ستعلق في المكان الفارغ بجانبها اجبت « وثيقة اعلان الحقوق الفرنسية » وفي البلاط عُرفتَ مع رفاق السلاح الفرنسيين باسم الاميركيين .

لافاييت : وكنا اول من روَّج الشعار المثلث « حرية ، مساواة ، اخاء » . وفي حين كانت الجمهورية الاميركية الناشئة تعاني الصعوبات المالية طالبتُ بتأجيل ديون فرنسا عليها ونجحتُ في مسعاي .

صوت : وتركز حولك التفكير الحر عندما بدأت سحب الثورة الفرنسية تتجمع ففضحت تصرفات النبلاء امثالك وطالبت بالمعاملة الانسانية للمجرمين الذين في السجون وباعادة الحقوق والحريات المدنية للبروتستانت مع انك كاثوليكي . ونشرت اعلانا لحقوق الانسان ما لبث ان انتشر في باريس بسرعة . وما هي الا ثلاثة ايام حتى هاجمت الجماهير قلعة الباستيل .

لافاييت : وكانت الجماهير تعبدني وكم من مرة سمحت لي بأن انقذَ بعض الابرياء من مخالبها . . .

صوت : ولكن هذه الجماهير سرعان ما انقلبت عليك لانك كنت ديمقراطيا حقا ، فطالبت برأسك واضطرتك للفرار الى المانيا حيث سُجنتَ بتهمة انك راديكالي خطر . وعندما أفرجَ عنك كان نابوليون قد تسلم السلطة فأعيدت اليك ممتلكاتك ولكن ذلك لم يمنعك من معارضته بشدة ونعته بالدكتاتور حتى بات كل من يحيط بنابوليون يخشى التلفظ باسمك .

لافاييت : وكم حاول نابوليون استمالتي اليه ليأمن جانبي وصراحتي وخطورة ارائي المتطرفة في الحرية !

صوت : ولا اذيع سرا اذا ذكرت انه قد سنحت الفرصة مرتين امامك لتتسلم زمام الامور في فرنسا ولكنك لم تغتنمها : مرة عند بدء الثورة الفرنسية ، ومرة ثانية سنة ١٨٣٠ عندما تربع الملك لويس فيليب على العرش ؛ لماذا يا سيد لافاييت ؟

لافاييت : لان معتقداتي وآرائي السياسية هي التي منعتني من ذلـك!

صوت : واذكر كذلك انك عندما تسلمت قيادة الحرس الوطني كان بامكانك ان تصبح دكتاتورا ولكنك لم تفعل انسجاما مع تلك المعتقدات والآراء. ويروي التاريخ ان الصداقة توطدت بينك وبين الملكة ماري انطوانيت ، ولكن كتب لها ان تتحول على مر الايام الى حقد فظيع .

لافاييت : ويذكر التاريخ ايضا انني بعد عشرين سنة من ذلك انقذت

الملكة ماري انطوانيت من الموت المحتم على يد الجماهير الثائرة ، وكان بوسعي ان انقذها من مصيرها فيما بعد لو لم تصح .ساعتئذ « الافضل لي ان اموت بدلا من ان ادين بحياتي للافاييت » . وهكذا قضت على المقصلة مع زوجها الملك لويس السادس عشر .

صوت : وفي ١٤ اب من سنة ١٨٢٤ وطئت اليابسة في نيويورك تلبية لدعوة الكونغرس الاميركي لك فاستقبلت اثناء تجوالك في طول البلاد وعرضها استقبال الفاتحين ، والقيتَ خطابا في الكونغرس نفسه الذي اقترع على منحك مبلغ مئتي الف دولار تعويضا لك عن مغامرتك بثروتك كلها في سبيل حرب التحرر والاستقلال . وعندما عدت الى فرنسا كان بين حاجياتك صندوق ضخم أثار دهشة الكثيرين ، فما كان فيه ؟

لافاييت : كان فيه تراب حملته من اميركا واوصيتُ بأن ادفن فيه .وكما فعل جورج من قبلي انسحبت الي الريف اقضي فيه بقية ايامي .

صوت : وتوفيت في سنة ١٨٣٤ عن سبع وسبعين سنة مطبقا يدك على نوط صغير فيه خصلة من شعرزوجتك . ولمعلوماتك الخاصة يا سيد لافاييت اقول لك في هذا المجال ان الرئيس دجاكسون لما بلغه نبأ وفاتك امر بان تكرّم بالمراسم العسكريه نفسها التي كرّم بها جوج واشنطن . فقد حيّت المدفعية في كل قلعة وحصن وباخرة حربية رحيلك عن العالم الاول بطلقة مدفع مرة كل نصف ساعة من الفجر الى الغروب . اما الكونغرس نفسه فقد انزل الستائر السوداء على جدرانه طوال شهر من الزمن .

غاريبالدي : تحرير ايطاليا وتوحيدها

(١٨٠٧ - ١٨٨٢)

صوت : عرف التاريخ العديد من الجنود المرتزقة الابطال . اما غاريبالدي ، وهو واحد من ابرز الابطال في كل عصر ومصر ، كان من الجنود المرتزقة غير المحظوظين . وذلك بمحض اختياره . فقد كان دائما يسعى وراء القضايا القليلة المكاسب ، فيناصرها ويحارب في سبيلها وكان دائما يحمل السلاح لنصرة المظلومين والمحرومين . فحيثما كانت هناك أمة تنهد الى تحرير نفسها ، سواء أكانت في العالم القديم او في العالم الجديد ، كان غاريبالدي يهب على رأس قوات التحرير . ولقاء خدماته لم يكن ليطلب اي مكافأة أو مجد . ففي سنة ١٨٤٢ ، عندما أحرز سلسلة من الانتصارات من أجل الاورغواي ، كان يعيش وزوجته في كوخ آيل الى السقوط ، ليس له باب ، ومحطم النوافذ .

هذا في الحرب ، اما في الحب ، فقد كان كذلك قليل الحظ . فقد احب مرارا ، وتزوج ، ولكن اخر زواج له كان كارثة عليه . فحتى اخر يوم من حياته ظل يفكر في المركيزة ذات الثمانية عشر ربيعا التي بهره جمالها . . ظل

يفكر فيها بحقد ، ولكن أليس الحقد قريبا من الحب ؟ !

غاريبالدي : مهلا ، مهلا ، يا سيدي ، اراك تتعمق في حياتي الخاصة .

صوت : عفوا ، يا سيد غاريبالدي . انا لم اشأ الا أن أكون مؤرخا صادقا . واعتقد ان حياتك العامة والخاصة على السواء باتت ملكا للعالم . ومن الانصاف للواقع والتاريخ ان نلم بكل شاردة وواردة من دقائق حياتك الحافلة في هذه المقابلة .

غاريبالدي : حسنا ، ليس أحب من ذلك الى نفسي ، فسلني ما تشاء اذن !

صوت : انت من مواليد نيس في سنة ١٨٠٧ ، وقد كان أبوك قبطانا بحريا ، وفي دمك كان يجري منذ نعومة أظفارك حب المغامرة والحرية . وكانت تسليتك المفضلة وانت صغير التجول فوق التلال ، والسباحة في البحر .

غاريبالدي : والواقع انني قلت مرة للروائي الفرنسي الكسندر دوما أنه يبدو انني ولدت برمائيا .

صوت : ولم يكن الخوف يعرف الى نفسك سبيلا . ولعل ابلغ دليل على ذلك انقاذك امرأة اشرفت على الغرق ولم تكن قد جاوزت الثامنة من عمرك .

غاريبالدي : انا لو لم اكن صغيرا عندما انقذت تلك المرأة من الغرق لما لفت عملي الانظار واستحق التأريخ .

صوت : في الخامسة عشرة غادرت المدرسة .

غاريبالدي : كانت الحرية والانطلاق احب الي من الجلوس في حجرة الدرس .

صوت : وأبحرت بمفردك الى جنوى سعيا وراء المغامرات . فكان ذلك ضربة شديدة توجهها لوالدك الذي شاء ان يجعل منك كاهنا .

غاريبالدي : ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن . فلما ايقن والدي انني لم أخلق لحياة الهدوء والسلام ، جعلني في عداد بحارة سفينته .

صوت : وكنت ، على صغر سنك ، أفضل البحارة ، وأكثر منهم معرفة ، مع انك لم تدرس مثلهم .

غاريبالدي : الواقع انني كنت شغوفا بالمطالعة فلم أقصر في قراءة كتب الفلسفة ، والتاريخ ، والشعر . . وخصوصا الشعر .

صوت : وكنت كذلك مولعا بالغناء ، تردد كثيرا اناشيد الثورة الفرنسية . وما لبثت بعد سنين أن اصبحت قبطانا . وكانت مهمة قيادة السفن في مطلع القرن الثامن عشر على جانب كبير من الخطورة . وقد أبحرت شطر المشرق حيث كان الاتراك واليونانيون مشتبكين في معركة دامية .

غاريبالدي : وقد حاربت القراصنة الذين هاجموا سفينتي بالفؤوس والمدى . وقد مخرت عباب البحار التي خلدتها قصائد الشاعر بايرون البطولية ، وكنت أعمل بوحي قوله « انه لافضل للمرء ان يموت حرا بدلا من ان يعيش عبدا رقيقا » .

صوت : وفي ذلك الوقت علمت بخبر ذلك الايطالي الذي لم يأبه

بالموت في سبيل الحرية : شيرو مينوتي الذي حاول توحيد بلاده المفككة الاوصال ، وتخليصها من نير النمسويين ، فوقع اسيرا بين ايديهم ، وكان مصيره الموت .

غاريبالدي : قتلوه ، ولكنهم لم يستطيعوا قتل روحه الثورية . ذلك بأن الشرارة التي اطلقها مينوتي ، ازدادت جذوتها اتقادا فباتت شعلة متأججة في الكثير من قلوب الايطاليين .

صوت : وقد قادك احد اتباعه الى الوطني الثائر ماتزيني الذي كان ما يزال حيا يرزق ، ويعتبر رسولا من العناية الالهية للاخذ بالثأر . وهكذا أبحرت الى مرسيليا لمقابلة ماتزيني ، وكان قد نفي اليها ، دون ان تلين له قناة .

غاريبالدي : الواقع ، يا سيدي . ان كولومبوس لم يجد من السعادة والسرور لدى اكتشافه اميركا ، مثلما وجدت انا لدى اكتشافي هذا المخلّص الذي كان عليه ان يحقق لشعبنا امانيه ومطامحه القومية .

صوت : وهكذا أثمر تعارفكما تعاونا في سبيل الحرية دام طوال حياتكما : كان ماتزيني صاحب الحلم الكبير، وكنت انت مترجم الحلم الى أعمال أعظم وأكبر . . .

غاريبالدي : في البدء كان تحرير ايطاليا يبدو عملا لا رجاء منه . فقد كانت ايطاليا نتيجة للحلف غير المقدس الذي عقد سنة ١٨١٥ ، مفككة الاوصال ، واشبه بجثة تنزف دما . . . كانت كما وصفها السياسي النمساوي الداهية الساخر مترنيخ ، وهو والد حلف سنة ١٨١٥ غير المقدس ، « مجرد اسم جغرافي ، وليس لها شيء من مقومات الامم ! »

صوت : ولكي تحيل الاسم الميت الى أمة حية بدأت باثارة العصيان بين بحارة الاسطول الملكي الجنوي . ولكن أحد الثائرين ارتكب جرم الخيانة ، فهربت الى مرسيليا لتجد حكومة بيدمونتي قد وضعت ثمنا لرأسك . . .

غاريبالدي : عندها لم يكن بد من السفر مع نفر من الرفاق المخلصين الى اميركا الجنوبية ، حيث كانت تنتظرنا ثورات اخرى ، وطغيان يجب ان يزول .

صوت : وكانت مغامراتك هناك اغرب حقا من حكايات الف ليلة وليلة . وطوال اثنتي عشرة سنة - اي من سنة ١٨٣٦ الى سنة ١٨٤٨ - قدت جنودك الذين كانوا يعرفون بالقمصان الحمر في حروب العصابات التي ادت الى تحرير الاورغواي وريو غراندي . وكما كنت محاربا ممتازا ، كنت كذلك عاشقا ممتازا .

غاريبالدي : لست أنسى الظروف التي جمعتني بتلك الفتاة الاسبانية الحسناء انيتا ريبيرا التي اصبحت زوجتي على الرغم من ارادة والدها الذي لم يشأ ان يوافق على زواجها مني ، أنا أنا محرر بلادها .

صوت : ومما يذكر في هذا المجال ، يا سيد غاريبالدي : ان زوجتك كانت تشترك معك في حملاتك العسكرية . ولما أنجبت لك ولدا أسميته مينوتي .

غاريبالدي : تيمنا باسم بطل اول ثورة ايطالية .

صوت : وكنت شابا مليح الوجه ، هرقلي البنية ، تروق في عيون الجميلات . ولكنك كنت مع ذلك مخلصا لزوجتك .

ولكي تخفف من غيرتها قصصت شعرك الذهبي الضارب الى اللون الكستنائي ، ذات مرة ، وقلت لها : « الان ستتوقف الحسان عن مطاردتي بعض الوقت ! »

غاريبالدي : لقد فعلت كما فعل شمشون من قبل .

صوت : ولكنك لم تفقد مثل شمشون قوتك على محاربة خصومك واعدائك . فما أن أنهيت مهمتك في أميركا الجنوبية حتى عدت الى ايطاليا لتحارب النمسويين ، ولتدافع عن روما ضد الفرنسيين ، وكنت اذ ذاك تحمل لقب « نمر مونتيفيديو » .

غاريبالدي : كنا الف رجل ضد ثلاثين ألف فرنسي . ولم يكن ثمة ما ينقذ رجالي من الهلاك على يد الجيش الفرنسي الا معجزة . وقد حدثت المعجزة . وشتت قوات الجنرال أودينو وأعلنت روما سنة ١٨٤٩ جمهورية حرة - وحكومة « بلا سجون ، وبلا محاكمات ، وبلا عنف ! »

صوت : ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فقد لجأ الجنرال أودينو الى الخدعة ، وفتك بحامية روما ، ولكنك استطعت النجاة بعد اصابتك برصاصة في جنبك . وكانت زوجتك حاملا ، ففرت معك . . .

غاريبالدي : وفر معي ايضا ما تبقّى من جنودي ، بعد أن أرسلت اليهم نداء أدعوهم فيه الى الالتحاق بي اذا شاؤوا تحرير بلادهم من نير الدخلاء بمواصلة الحرب.

صوت : ولا تنس انك وعدتهم بالجوع ، والعطش ، والاعياء ، والمعارك ، والموت ، وطمأنتهم الى انهم لن ينالوا اي مرتبات ولا أية مؤونة (يقهقهان) .

غاريبالدي : ذلك هو الواقع . وكانت الشجاعة الفائقة التي اظهرتها ، واظهرتهامعي زوجتي آنيتا ، حافزا لهم على تلبية ندائي .

صوت : وكان انسحابكم ملحميا حقا . ولكن زوجتك المسكينة آنيتا مرضت اثناء الانسحاب من وجه النمساويين، وماتت قبل ان تكتحل عيناها برؤية احلامك الكبرى تتحقق . ورحلت الى الولايات المتحدة الاميركية حيث حاولت الاقامة ، وحيث عملتَ في احد مصانع الشموع .

غاريبالدي : ولكن سرعان ما هجرت العالم الجديد لاقود سفينة عائدة الى الشرق مرددا بيني وبين نفسي : « لقد كفاك مغامرات يا جوسيبي ، عد الى ايطاليا ، وانسحب من الحياة العملية ، واخلد الى الراحة . فأنت تتقدم في السن ! . . . »

صوت : وذهبت الى كابريرا ، وهي جزيرة في عرض ساحل سردينيا ، وابتعت كوخا رجوت ان تنهي فيه ما تبقّى لك من ايام على الارض ، في عزلة وهدوء تامين !

غاريبالدي : ولكن صوت المضطهدين بلغني عبر المياه ، وسرعان ما دبت الحياة مجددا في اعماقي . فقد كانت ايطاليا ، بوحي من السياسي القدير كافور ، تحاول من جديد ان تنفض عنها نير السيطرة النمساوية .

صوت : انه الحلم القديم نفسه ـ ايطاليا موحدة ، وحرة ! فغادرت كابريرا ، والتحقت بقوات كافور . وهكذا عدت مرة اخرى الى الحرب ، وعدت كذلك الى الحب . ذلك انك التقيت فتاة في التاسعة عشرة من عمرها تدعى المركيزة

راكموندي ، فتزوجتها بعد فترة غرام لاهب ، في كانون الثاني من العام ١٨٦٠ .

غاريبالدي : ولكني تركتها بعد بضعة ايام من الزواج لانني عرفت انها كانت ما تزال على علاقة بشاب كانت تحبه قبلي .

صوت : ولم يبق أمامك الا ميدان القتال .

غاريبالدي : لم يكن بد من ذلك . فقد تألمت كثيرا ، وطعنت في حبي وفي كبريائي .

صوت : ولكنك تعزيت بتكريس حياتك من جديد لخدمة بلادك . فبألف متطوع منحت ايطاليا كلا من نابولي وصقيلة . ثم انسحبت الى جزيرتك كابريرا . وحتى اخر يوم من حياتك ظللت تفكر في المركيزة ذات التسعة عشر ربيعا التي بهرك جمالها . . . كنت تفكر فيها بحقد . . . ولكن اليس الحقد قريبا من الحب ؟ !

غاريبالدي : تماما . . . لم يتحقق حلمي في الحب ، فتحقق في الحرية والوحدة ، فاذا بايطاليا تتوحد تحت حكم ملك واحد هو فكتور عمانوئيل ، من أسرة سافوى .

صوت : وماذا كانت مكافأة الملك لك على ما قمت به من أجل توحيد ايطاليا ؟

غاريبالدي : في السادس والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٦٠ ، قابلني الملك فكتور عمانوئيل وكنت مع نفر من رفاقي الثوار : كان لقاء باردا في ذلك الصباح البارد الرطب . وبعد أن هز الملك يدي مصافحا ، واصل طريقه تتبعه الحاشية في موكب فخم . وكان موقفنا ، جنودي وأنا ،

موقف المتفرجين العاديين الذين لم يكن لهم اي دور في تحمل ضريبة الحرب الباهظة . وكان الى جانبي صديقة انكليزية تدعى دجيسي هوايت ، قلت لها : « دجيسي ، انظري ، انهم يدفعوننا الى الخلف » !

صوت : لا عليك ، يا سيدي غاريبالدي ، فالحال هكذا دائما مع امثالك : في الحرب تكونون في المقدمة . وعندما تنتهي الحرب ، تصبحون في المؤخرة ! اليس كذلك ؟

غاريبالدي : لا بأس ، يا سيدي ، لا بأس !

الفريد نوبل
ملك المتفجرات وخادم السلام
(١٨٣٣ - ١٨٩٧)

صوت : جوائز نوبل خمس ، تمنح سنويا من مؤسسة نوبل التي اوصى بانشائها الفريد برنارد نوبل . وقد بدأ توزيع الجوائز في العاشر من كانون الاول سنة ١٩٠١ ، في الذكرى الخامسة لوفاة مؤسسها . وهذه الجوائز تمنح في حقول الفيزياء ، والكيمياء ، والفيزيولوجيا او الطب ، والادب ، والسلام . وكل جائزة من الجوائز هي كناية عن وسام مذهب ، وبراءة ، ومبلغ من المال . ويمكن ان تمنح اي جائزة من هذه الجوائز المفتوحة للجميع دون تمييز من حيث الجنسية. قرائي الكرام، مقابلة اليوم مع مؤسس هذه الجوائز، الفريد نوبل، فقصته قصة متفجرات وحب، وهي عجيبة غريبة! سيد نوبل، مكتشف المتفجرات، السلام عليك . . .

نوبل : وعليك السلام من رمز السلام . . .

صوت : صحيح ما تقول . وانه لتناقض غريب فكيف يقترن اسم مكتشف الديناميت وهو من اخطر المواد المدمرة ، بالسلام وجوائز السلام التي تمنح باسمك للعلماء ، والسياسيين ، والادباء ، والمفكرين ؟ . .

نوبل : فتش عن المرأة.

صوت : ماذا تقول ؟ وهل وراء كل ذلك امرأة ؟

نوبل : اجل .. يقول المثل ان وراء كل عمل عظيم امرأة .. ووراء عملي الجليل كانت امرأة.

صوت : اذن فهناك قصة حب حولت نوبل من دنيا الشر الى دنيا الخير...

نوبل : بالطبع ، فهل تريد ان تسمعها ؟

صوت : لقد جئت من اجل ذلك ، ولكن دعنا قبل كل شيء ، نستعرض قليلا حياتك العامة .

نوبل : كما تشاء، تفضل بالسؤال .

صوت : انت من مواليد الحادي والعشرين من تشرين الاول سنة ١٨٣٣ .. لم تقضِ في المدرسة الا فصلين اثنين من فصول الدراسة .

نوبل : صحيح ، ولكني اكملت الدراسة على ايدي اساتذة خصوصيين .

صوت : وحوالي سنة ١٨٥٠ ارسلت لانهاء دروسك المهنية في الولايات المتحدة الاميركية حيث قضيتِ زهاء سنة من الزمن . وقد عانيت من سوء صحتك طوال حياتك . وبعد عودتك الى السويد من سان بطرسبرج انصرفت الى دراسة قضية المتفجرات ، وخاصة النيترو غليسيرين ، وكرست جهودك في هذا السبيل .

نوبل : وقد حصلت على براءة لصنع الديناميت سنة ١٨٦٢ .

ويبلغ عدد المخترعات المسجلة باسمي في انكلترا ١٢٩ اختراعا في حقل المتفجرات .

صوت : لن اقول اللهم زد وبارك . . . ولكنك جمعت من صنع الديناميت وسائر انواع المتفجرات ثروة طائلة .

نوبل : ولاَ تنسَ استثماري حقول باكو البترولية . وكنت سنة ١٨٧٥ اشرف على خمسة عشر مصنعا للمتفجرات بينها عدد في اميركا .

صوت : وفي اواخر ايامك عملت في مختبر سان ريمو بالقرب من نيس في فرنسا حيث توفيت تاركا ثروتك الكبرى لجوائز نوبل .

نوبل : صدق او لا تصدق ان الحب هو اشد انواع المتفجرات . . . وقد كفّرت برصيدي وثروتي وبريعها لخدمة السلام والادب والعلم تكفيرا عن كل ما اقترفت بصنعي الديناميت ، وذلك بفضل قصة حب صامتة . . .

صوت : لقد وصلنا الى بيت القصيد ، ياسيد نوبل . فقليلون يعرفون انك لم تقدم على هذا العمل من تلقائك ، اذ كان للمرأة يد في مشروعك الانساني الكبير . ولنبدأ القصة من اولها . . . فذات يوم وجدت نفسك ولاَ سكرتيرة لك ، وبعد البحث عثرت على فتاة تدعى برت كنكي ، ما لبثت ان برهنت عن رزانة ، ووفرة نشاط ، وسرعة بديهة . . . ما كان عمرك في ذلك الوقت ؟

نوبل : كنت في الثالثة والاربعين ، فاذا بقلبي يخفق بحب هذه الفتاة . فطلبت يدها سنة ١٨٧٧ ملوحا لها بثروتي الطائلة .

صوت : وبالطبع رفضت عرضك لانها كانت قد خطبت للنبيل النمساوي ارتور دو سوتنر .الذي كانت تدرّس شقيقيه الصغيرين قبل التحاقها بالعمل لديك.

نوبلُ : والغريب في امر هذين الخطيبين انه كان قد تم الاتفاق بينهما على الانفصال مدة ثلاث سنوات يمتحنان خلالها حبهما المتبادل .

صوت : ولم تجدد برت عقد العمل لديك لان خطيبها ارسل في طلبها ، فتوسلت اليها ان تعود الى استوكهلم بعد زواجها فوعدتك بذلك . وقبل ان تعود ، دعنا نذكر ان خطيبها كان رسولا من رسل السلام في اوروبا ، فاعتنقت برت المبادىء التي كان يقول بها ، وانطلقا معا يبشران بانيجلي الاخاء والمحبة على ضآلة مواردهما وضعف بنية الزوج !

نوبل : ان ضآلة مواردهما المادية هي التي حملتهما الي والى استوكهلم .

صوت : صحيح ، فلقد تذكرت برت عطفك عليها وحبك لها ، فمضت الى استوكهلم ، ففتحت لهما قصرك . . .

نوبل : . . . وخزانة اموالي كذلك . . .

صوت : . . . مدفوعا بحب السكرتيرة الحسناء التي لم يطفئه الزواج . وما لبثت ان اقنعتك بنبل الرسالة التي تضطلع بها وزوجها ، فتحمست لها ، وشجعتها بكل ما تملك دون ان تتظاهر بتأييدها .

نوبل : طبعا ، خشية ان يسخر مني العالم الذي يعرف جيدا انني صاحب المعامل الكبرى لصنع المتفجرات .

صوت : صحيح ، فكيف يمكن ان ينظر العالم الى داعية متحمس للسلم يضحي بالاموال الطائلة في هذا السبيل وهو يدير مصانع المتفجرات على مختلف انواعها ؟

نوبل : وطلعت برث ذات يوم بالحل المناسب ، المنطقي . فقد قالت لي ان بامكاني خدمة قضية السلام ميتا ، وذلك بتخصيص جوائز سنوية للذين يؤدون خدمات بارزة لهذه القضية .

صوت : وما كان موقفك اذ ذاك ؟

نوبل : الحقيقة ان وجهي احمرّ لدى سماع قولها ، فقلت بلهجة كئيبة : «كل ما في الامر انني اضع باقة زهر صغيرة على ضريح حب قديم .»

صوت : وفي سنة ١٨٩٦ رحلت عن هذه الدنيا بعد ان انشأت جوائزك الشهيرة .

نوبل : ولكن برت دو سوتنر ، اتدري ما حل بها ؟

صوت : لقد عاشت برت دو ستنر الى ما قبل الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤ باسبوعين اثنين ، فلم تشهد مصرع رسالتها الانسانية السامية .

نوبل : حسنا، رحمات الله عليها.

صوت : والان ، يا سيد نوبل ، وقد استعرضنا حياتك في ابرز خطوطها اسمح لي بالاستئذان مع شكري لك على تلطفك باستقبالي .

نوبل : مع السلامة . . .

اليزابث بلاكويل : الطبيبة الاولى

(١٨٢١ - ١٩١٠)

صوت : قارئي الكريم ، المرأة ، وهي نصف الجنس البشري - وكثيرون يدعونها النصف الافضل - كانت لآلاف من السنين مستعبدة. نقرأ في الشريعة المانوية « ان النساء ينبغي ان يبقين ليل نهار عبدات رقيقات ، تحت سيطرة رجالهن وسلطانهم » .

وفي ظل القانون الروماني القديم كان بوسع الزوج ان يقتل زوجته ، والاب ابنته بتهمة الزنى . وحتى بعد اعلان (الماغنا كارتا » او الوثيقة العظمى ، وهي دستور الانكليز الصادر سنة ١٢١٥ ، وبعد ذلك بقرون عدة ، لم يكن بوسع المرأة شرعا اتهام رجل بجريمة قتل . وفي فرنسا القرن الثامن عشر ، كان المفكر الكبير جان جاك روسو ينظر بارتياح الى تحرر النصف الخشن من البشرية لا النصف الناعم . وهو القائل : « النساء خلقن لارضاء الرجال » .

ولما كن عاجزات عن اتخاذ المقررات والاحكام بأنفسهن وجب عليهن اطاعة احكام ومقررات آبائهن وازواجهن . وفي العديد من ارجاء الولايات المتحدة الاميركية ، وحتى زمن الثورة ، كانت النساء اللواتي

يتحدثن في المجتمع يعاقبن بدفع غرامات مالية وبالسجن فكيف بمن يفكرن في دراسة الطب ؟ !

اليزابث : انك ، ولا ريب ، تقصدني ، وتشير بكلامك هذا الى العراقيل الجمة التي اعترضت سبيل دراستي الطب !

صوت : تماما، ايتها الدكتورة . . . ولكن اسمحي لي ، قبل ان ندخل في تفاصيل حياتك ودقائقها ، ان اكمل المقدمة التي بدأت بها هذه المقابلة .

اليزابث : لك ما تشاء . . .

صوت : قلت ان النساء اللواتي كن يرفعن اصواتهن امام الجماهير في المجتمع الاميركي كن يعاقبن بالغرامات النقدية ، وبالسجن . . .

ولكن تهديد «أمهات » الثورة الاميركية بالعصيان اكره آباء الثورة هذه على الاعتراف بأن النساء لسن ماشية .

اليزابيث : اذكر ان ابيغيل آدمز كتبت الى زوجها جون آدمز ، وكان يحضر احد المؤتمرات السياسية تقول : « ارغب في ان تذكروا النساء ، وتكونوا اكثر تسامحا معهن وعطفا عليهن من اسلافكم . . . فاذا لم تمنح النساء عناية واهتماما خاصين فاننا لعلى استعداد لاشعال نار العصيان».

صوت : ولكن الرجال ، مع ذلك لم يعترفوا بأن النساء يساوينهم ، الا بعد قرن ونصف القرن من الزمن . وعلى الرغم من كل العوائق التي اعترضت سبيل المرأة ، فقد قدمت حفيدة حواء من المنجزات ما لا يقل روعة عما قدمه نصفها الجائر الباغي .

اليزابث: اسمح لي ، يا هذا ، ان اورد هذه الملاحظة تعليقا على مقدمتك واستخلاصا لنتيجة ملموسة .

ففي زمن كليوزباترا وتيودورا ، عندما كان الرجال العظام انصاف وحوش لم تكن النساء العظيمات اكثر من رجالهن وحشية ، واليوم عندما يحاول الرجال العظام ان يكونوا انصاف الهة ، فان النساء العظيمات لسن اقل الوهية من رجالهن .

صوت : قول رائع حقا ، يا دكتورة بلاكويل . والان لنبدأ القصة من البداية. انت من مواليد انكلترا ، ابصرت النور في الثالث من شباط سنة ١٨٢١ . وكنت ابنة احد المشتغلين بتكرير السكّر، هاجر الى العالم الجديد سنة ١٨٣٢ ، واقام في نيويورك . وعبثا حاولت دخول كليات الطب في نيويورك وفيلادلفيا .

اليزابث: في سنة ١٨٤٤ وحدها تلقت كليات الطب الاثنتا عشرة الرئيسية في الولايات المتحدة الاميركية طلبات مني للالتحاق بها ، فكان ذلك امرا غريبا ، واستولت الدهشة على عمداء هذه الكليات ، ورفضوا طلب انضمامي بحجة انه ليس ثمة اي سابقة .

صوت : وشددوا على المحاذير من جراء رؤية فتاة تتعلم اشياء واشياء عن طبيعة الجسم البشري ، ووظائف اعضائه . ورأى الكثيرون ان الطب مهنة خاصة بالرجال ، ولا دخل للنساء بها .

اليزابث: الا ان ذلك الموقف الرجالي لم يفت في عضدي ، فكنت

يعد انتهائي من التدريس ، ولدى عودتي الى البيت ، انكبّ على كتب الطب والتشريح التي كنت ابتاعها مما ادخره من مرتبي الضئيل ، وغايتي من ذلك دراسة الطب لاصبح اول طبيبة في العالم .

صوت : وتحققت غايتك اذ تلقيت ذات يوم من كلية الطب في جينيفا بولاية نيويورك كتابا ابكاك من شدة الفرح ، فماذا كان مضمونه ؟

اليزابث: اني احفظ نصه عن ظهر قلب ، فقد كان نقطة التحول الكبرى في حياتي . . . اسمع ما جاء فيه : « ان عمدة الكلية ، بعد التداول الدقيق ، رأت انه ليس ثمة سبب مشروع يحول دون السماح لفتاة اكملت دروسها الثانوية ، بدخول كلية الطب لدراسة هذا العلم » .

صوت : ولكن الشهور الاولى في كلية الطب كانت عبئا ثقيلا على كاهلك : فتاة ضئيلة الجسم تتابع الاختبارات الفيزيولوجية ، وعمليات التشريح وسط عدد كبير من الشبان تغمرها نظراتهم الفضولية ، فيحمر خداها خجلا .

اليزابث: وفكرت في ان الصوم ينقذني من الخجل الذي كان يعذبني ، فاتبعت « ريجيما » قاسيا ، فشحبت ملامحي ، وبذلك توصلت الى ما كنت ارمي اليه ، وهو الا يظهر الاحمرار على ملامحي اثناء القيام بالاختبارات التطبيقية للدروس التي كنا نتلقاها .

صوت : وهكذا انتصرت على كل العقبات ، وخاصة مضايقات

زملائك لك . فكنت تقبلين الى الصف وتنصرفين منه دون ان تنظري الى احد .

اليزابث: كثيرةكانت العقبات في سبيلي : فاصحاب الغرف رفضوا تأجيري غرفة اقيم فيها بحجة انني اسيء اليهم . . . واصحاب الحوانيت الذين كنت امر بهم وانا في طريقي الى الكلية كانوا يتجمعون لدى رؤ يتي ليتأملوا اول امرأة طبيبة !

صوت : ولكن يوم تخرجت سنة ١٨٤٩ ونلت شهادة الطب اقبل الناس من مختلف ارجاء الولايات المتحدة لمشاهدتك .

اليزابث: الحق اقول لك ان يوم تخرجي كان اسعد ايام حياتي . . . فقد وقفت بثوبي الاسود على المنبر مرددة امام عمدة الكلية : « ان كل لحظة من لحظات حياتي سأكرسها لرفع شأن هذه الشهادة التي تمنحوني اياها » .

صوت : وبررت بالوعد الذي قطعته على نفسك ساعة خرجت الى الحياة الواسعة تكافحين الكفاح المرير نفسه الذي كافحته خلال دراستك . . .

اليزابث: وقبل دراستي ايضا ! . . وقد قمت برحلة الى اوروبا ولكنني منعت من دخول مستشفياتها . وفي نيويورك نفسها ، لدى عودتي وجدت كل صعوبة في العثور على مسكن اقيم فيه .

صوت : حتى الاطباء زملاؤك كانوا يرفضون ان تجتمعي معهم اذا كان ثمة استشارات طبية .

اليزابث: وعندما سئلت مرة لماذا لا ارتدي ملابس الرجال لمزاولة

الطب ، اجبت بأن ما اقوم به ليس من اجلي بقدر ما هو من اجل بنات جنسي . وعلى ذلك ينبغي لي اما ان اقوم بعملي بصفتي امرأة ، او ان اتخلى عنه كليا . . .

صوت : نعمَ القول هذا . . . ولكن على الرغم من المعارضة الشديدة التي لاقيتها ناضلت حتى النهاية ، واسست في نيويورك في ايار من سنة ١٨٥٧ مستشفى للنساء والاطفال ، كان كل من يعمل فيه من الجنس اللطيف .

اليزابث: ونجحت كذلك في انشاء صفوف لتدريس التربية الطبية للنساء ـ او افراد الجنس اللطيف ـ على حد تعبيرك ، وذلك في مستشفاي هذا .

صوت : ومرة اخرى عدت بصفتك اول طبيبة في العالم الى انكلترا سنة ١٨٦٩ لممارسة مهنة ابقراط . فنجحت في تقرير هذا الواقع ، وهو ان المرأة هي حقا نصف البشرية !

اليزابث: أرأيت انني بررت بعملي هذا ما جاء في مقدمتك لهذه المقابلة ؟ !

صوت : طبعا ، يا دكتورة ، وقبل مغادرتي اياك ، وشكرك على تفضلك بهذه الدقائق الممتعة ، اود ان اشير الى ان رحيلك عن العالم الذي ذقت فيه الكثير من المرارة والحلاوة كان في ٣١ ايار ١٩١٠ .

اليزابث: صحيح ، ولم تنفع في شيء مهارتي الطبية في درء الموت عني او تأخير ساعتي ! ! !

غوستاف ايفل : عبقري الهندسة

(١٨٣٢ - ١٩٢٣)

صوت : الآلاف المؤلفة من زوار باريس تتسلق كل سنة برج ايفل ، بالمصاعد العديدة ، لتشاهد من ارتفاع يقارب الالف قدم اجمل المناظر التي تقدمها العاصمة الفرنسية بحدائقها الغناء ، وشوارعها الفسيحة وعماراتها الضخمة . وبالنسبة الى الكثيرين من الزائرين والسائحين يبقى هذا الانطباع محفورا في نفوسهم طوال حياتهم . وذلك هو بالضبط ما توخاه المهندس الفرنسي غوستاف ايفل سنة ١٨٨٩ ، عندما بنى هذه الرائعة الهندسية التي تعتبر من اعلى الانشاءات في العالم. ولكن الاقدار التي تشاء ان تنتشر شهرة برج ايفل في اربعة اقطار المسكونة ، تبقي مبدعه غوستاف ايفل مغمورا نسبيا . وهو الذي قال ذات يوم : « ينبغي لي ان اغار حقا من البرج . . يبدو ان الكثيرين يعتقدون ان برج ايفل هو الصنيع الوحيد الذي انجزت ، مع انني انجزت اشياء كثيرة كذلك ! . . »

ايفل : ذلك هو الواقع ، يا سيدي . فالانشاءات الهندسية التي انجزتها لا تعد ولا تحصى ، وهي منتشرة في مختلف بقاع العالم ، في اوروبا نفسها وخارجها . وقد منحت لقب « ابو البناء الفولاذي الحديث » ، والي يعود الفضل في

تشييد بعض الجسور الكبرى في العالم على اسس تكنيكية جريئة احدثت ثورة حقيقية في ميدان هندسة الجسور وبنائها .

صوت : ان تجاربك الغربية الجريئة حقا في ميدان البناء والتعمير من كل نوع بشرت بعهد جديد ، هو الانتقال من عهد الحجارة والخشب الى عهد الفولاذ والاسمنت المسلح الجديد . ولعل الكثير من المبادىء الهندسية التي اعتمدت في تصميم ناطحات السحاب النيويوركية وهندستها كان مصدرها الحسابات الدقيقة التي شيدت على اساسها روائعك وتحفك الهندسية قبل ذلك بسنوات .

ايفل : ويطيب لي ، يا سيدي ، في هذا المقام ان أذكّر بأنني كنت او من بنى النفق الهوائي ، ووضعت الكثير من المبادىء الاساسية لصنع اجنحة الطائرات ، والمروحة . وفضلا عن ذلك ، ولتسليتي الخاصة ، اخترعت اشياء صغيرة عديدة ، بينها جهاز خاص بالافلام السينمائية الناطقة .

صوت : لقد ذكرت النفق الهوائي فهل لك ان تشرح لنا ما هو ، وما فائدته ؟

ايفل : النفق الهوائي اوجدته لاختبر فيه مقاومة البنايات لسرعة الرياح والصمود في وجه الاعاصير . وقد نشرت وانا في الخامسة والسبعين من عمري مجمل اختباراتي في هذا الميدان، فأتحت بذلك للمهندسين ان يحسبوا مقاومة البنايات للرياح، وان يبنوا هذه البنايات باقل ما يمكن من الهياكل الفولاذية.

صوت : وقد ساهم ذلك العمل الجليل الذي قمت به في تسهيل

مهمة القائمين ببناء ناطحات السحاب الاولى . وتحضرني في هذه المناسبة عبارة رددها احد احفادك يقول فيها : « ان اروع شيء في ما خص جدي قدرته الفائقة على الاستمتاع بكل ما كان يصنع . كان يعمل اكثر من اي انسان عرفت وكان دائما من اسعد الناس ! »

ايفل : ذلك هو الواقع . فقد عشت عيشة سعيدة حقا لان حياتي كانت مليئة . . . وكنت اول من ابتاع سيارة صنعت في فرنسا ، كنت اتنقل بها في شوارع باريس بين البرج ومختبري الخاص بالنفق الهوائي مرددا : « ان المرء يكون شابا مرة واحدة » . . .

صوت : أحسب أنك كنت تردد ذلك وانت في الثمانين من العمر كما يروى . وتلك في رأيي من المزايا الحميدة ، وهي ان يشعر المرء دائما بأنه شاب مهما تقدم في السن . وقد بلغت من العمر احدى وتسعين سنة وكانت وفاتك في اواخر كانون الاول من العام ١٩٢٣ .

ايفل : اذكر في هذا الصدد انني كنت في ١٥ كانون الاول من تلك السنة على وشك ان اتصدر مائدة العشاء التي اقيمت لمناسبة ذكرى ميلادي الحادي والتسعين ، عندما شعرت بالتعب الشديد ، فقررت الانسحاب الى غرفتي بعد ان قبّلت افراد اسرتي جميعا . . قبلة الوداع !

صوت : لقد كانت حقا قبلة الوداع ، ولكنك لم تفارق الحياة الا بعد اثني عشر يوما ، تاركا في العالم اكثر من نصب لك فضلا عن البرج الذي يحمل اسمك . ان هناك الاف المنشآت في طول العالم وعرضه تدين لك ولعبقريتك

الهندسية . . . والان دعنا نستعرض حياتك من اولها ، فلقد جرنا الحديث دون ما انتباه الى خاتمتها ، دون ان نتوقف عند اهم مراحلها الحافلة . فما رأيك ؟

ايفل : لك ما تشاء، يا سيدي . . . سلني ما يبدو لك، وانا على استعداد للاجابة بكل سرور!

صوت : لقد ابصرت النور في اسرة موسرة في مدينة ديجون سنة ١٨٣٢ ، وفشلت في امتحانات الدخول الى مدرسة الهندسة الفرنسية المعروفة باسم البوليتكنيك .

ايفل : ولكنني نجحت في التخرج في المدرسة المركزية للهندسة في باريس ، ودخلت العمل في شركة لبناء القطارات الحديدية حيث قضيت سنتين اثنتين اضع التصاميم . غير ان والدتي ، وكانت امرأة حازمة وقديرة وتدير متجرا لبيع الفحم والخشب ، لم تكن كبيرة الثقة بي وبقدرتي وبمستقبلي . ولطالما طمأنتها بقولي : « تذرعي بالصبر يا اماه . . لدي افكار كثيرة ، سترين ! »

صوت : وفي الخمسينات من القرن التاسع عشر راحت السكك الحديدية تنتشر بسرعة ، ولكن عقبة كأداء كانت تواجه ذلك النوع الجديد من المواصلات ، الا وهو بناء الجسور التي كانت حتى ذلك الحين تبنى بالحجارة وتستدعي نفقات باهظة وايدي عاملة ماهرة . فجئت انت وقررت بعد دراستك الموضوع ، أن تستعمل في بناء الجسور الركائز الحديدية بعد ان حسبت قدرتها على تحمل الشد والثقل والضغط .

ايفل : وقد ترجمت دراساتي النظرية والحسابية الدقيقة تلك الى تصاميم ومخططات هندسية عندما منحتني الشركة الفرنسية الجنوبية التزاما لبناء جسر فوق نهر الغارون طوله الف قدم . وقد ذهل سائر المهندسين للسرعة التي تم بها بناء ذلك الجسر ، ولضآلة النفقات .

صوت : وهكذا بدأت وأنت بعد في التاسعة والعشرين ، تبدل نظام المواصلات في اوروبا . وقد منحك نجاحك في اقامة جسر نهر الغارون الثقة التي كنت بحاجة اليها .

ايفل : الواقع ، يا سيدي ، انني من والدي تعلمت كيف احلم ، ومن والدتي تعرفت على وقائع الحياة العملية والتجارية القاسية . وقد كان ذلك الجمع بين النقيضين جليل الفائدة بالنسبة الي . وهكذا اسست سنة ١٨٦٦ « شركة ايفل للبناء » ، بتشجيع معنوي من والدي ، وسند مادي من والدتي ، وقد علقت على باب مكتبي في باريس لوحة نحاسية متواضعة حفر عليها ما يلي : «غوستاف ايفل ، مهندس معماري ، يلتزم كل المباني المعدنية» .

صوت : هل لنا ان نعرف ما هي المشاريع العمرانية التي نفذتها قبل بنائك برج ايفل الشهير ؟ فالمعروف انك ساهمت في اقامة تمثال الحرية في خليج نيويورك كرمز ابدي للصداقة الفرنسية الاميركية ، فما كان بالضبط دورك في ذلك؟

ايفل : ذات يوم زارني نحات يدعى بارتولدي ، وكان فريسة القلق الشديد لان المهندسين اكتشفوا بعد اتمام تمثال الحرية الذي يرتفع ١٥٠ قدما أن ليس ثمة ما يدعمه ضد رياح خليج نيويورك . فهونت عليه الامر بعد ان انفقت

ملايين الفرنكات على ذلك التمثال . ووضعت له التصاميم الكفيلة باقامة التمثال بطريقة يصارع فيها اشد الاعاصير . هذا واحد من انجازاتي الهندسية الكثيرة التي سأقتصر الان على تعداد بعضها من مثل جسر ماريا ـ بيا البرتغالي الذي كان ثورة في ترميم الجسور، الى جانب العديد من الجسور في روسيا ومصر والبيرو . فضلا عن السدود والمصانع والمحطات والمنشات الضخمة التي لم يسبق ان بني بحجمها . حتى ان المهندسين في بلدان اوروبا كانوا ينسخون التصاميم وينفذونها بحرفيتها ، مما جعل احد معاوني يحتج ويطالب بأن تبقى اعمال الشركة محاطة بالسرية والكتمان ، فكان جوابي له : « ولكن يا عزيزي ، اذا انا استمتعت بابتكار شيء فلماذا لا يمكن للاخرين استعماله ؟ ان ذلك ليشرفني كثيرا فضلا عن ان باستطاعتي دائما ان اكتشف شيئا جديداً » .

صوت : رائع حقا موقفك هذا ، ورائع كذلك كونك لم تتبدل ابدا في حياتك وتصرفاتك على الرغم من الثروة والشهرة اللتين احرزتهما . ولكن دعنا يا سيد ايفل الان نتحدث قليلا عن البرج الضخم الذي يحمل اسمك ويعتبر من اشهر المناظر التي يقصدها السواح في باريس . ففي منتصف الثمانينات من القرن التاسع عشر الماضي اقنع جماعة من الاقتصاديين الفرنسيين الحكومة باقامة معرض عالمي في باريس ، فاقترحت عليهم بناء برج حديدي يرتفع ثلاثمائة متر (او ٩٨٤ قدما) يكون رمزا لهذا المعرض . فهل لك ان تحدثنا عما حدث معك في هذا الصدد ؟

ايفل : للوهلة الاولى رفضت لجنة التخطيط هذا الاقتراح الجبار وخشيت مغبة اقامته . فقابلت وزير التجارة وعرضت عليه الوقائع والأرقام ،فوافق عليها ،ولكن الحكومة الفرنسية لم تمنحني إلا خمس المبلغ المقدر لتكاليف هذا البرج التي قدرت بنصف مليون جنيه استرليني . فلم اتردد ، ورهنت جزءا من شركتي للحصول على قرض لتمويل هذا المشروع الضخم . وفي كانون الثاني من سنة ١٨٨٧ بدأ البناء : بدأه اربعون مهندسا ومصمما و٢٥٠ عاملا باشرافي ، وعملنا طوال سنتين لانجازه مما اذهل باريس لان البرج كان اضخم مما تصور الكثيرون . .

صوت : وعندها هب الاعصار ، فقد وقع ثلاثمائة كاتب وفنان عريضة يطالبون فيها بهدم ما سموه « البشاعة الهندسية » . وتتالت العرائض المماثلة على وزير التجارة . ولكنك كنت قبيل الانتهاء من الانشاء والبناء تظهر كل يوم على اعلى السقالات مرددا بكل هدوء :

« عندما سينتهي بناء هذا البرج فان الجميع سيحبونه » . وانتهى برج ايفل في آذار ١٨٨٩ ، وبينما كانت المدفعية تطلق احدى وعشرين طلقة تحية للبرج رفعت انت العلم الفرنسي المثلث الالوان على أعلى سارية بناها بشري . والواقع ان عملك هذا اعتبره معاصروك معجزة هندسية حقا . فلم يسبق ان اقيم بناء مثله . ولم يسبق كذلك ان تجاوز احد قبلك مصاعب العمل ومخاطره على مثل ذلك الارتفاع المحفوف بمختلف الاخطار من الدوار الى الرياح العاتية الى الانزلاق فالموت المحتم !

ايفل : الواقع ، يا سيدي ، انه في غضون الاشهر الثمانية الاولى من الافتتاح الذي تم في ايار ١٨٨٩ بلغ عدد الزائرين حوالي مليوني نسمة . وهكذا سددت ديوني ، وبموجب الاتفاقية التي عقدتها مع الحكومة كان هذا البرج الذي هو بمثابة منجم ذهب هوائي احتكارا لي لمدة عشرين سنة كاملة . وفي سنة ١٨٩٤ انسحبت من عالم التجارة وحولت برجي الى مختبر فيزيائي . ومنذ تلك السنة تعرف بالتفصيل كيف سارت حياتي حتى نهايتها .

صوت : اجل : لقد سبق واستعرضنا في بدء هذه المقابلة نشاطك في سني حياتك الاخيرة يا سيد ايفل . ويطيب لي ههنا ان اعلمك ان عدد الذين يزورون برج ايفل سنويا ، حتى يومنا هذا ، يقارب المليون نسمة ، مع الاشارة الى انه لم يستبدل حتى الان في هذا البرج الضخم اي مسمار او اي عارضة .

هيلين كيلر : خارج الظلمة
(١٨٨٠ - ١٩٦٨)

صوت : عمياء ، صماء ، بكماء منذ طفولتها المبكرة ، ولكنها ارتفعت فوق عاهتها المثلثة لتصبح واحدة من الشخصيات الفذة المعروفة في العالم الحديث ، ومصدر وحي والهام للمكفوفين وذوي البصر في كل مكان . انها هيلين كيلر المولودة سنة ١٨٨٠ والمتوفاة سنة ١٩٦٨ . وعندما زارت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية ، هرع الصبيان والبنات من القرى الصغيرة النائية لتحيتها صائحين : « هيلين كيلر ! » فلقد اخترق اسمها الادغال قبل عصر الراديو او السينما . ومع انها كانت تشعر بحرارة رد الفعل البشري هذا فانها لم تشأ ان تكون منعزلة عن سائر ابناء البشر . فقد كانت تؤمن بأن العميان ينبغي ان يعيشوا ويعملوا مع سائر الناس ، متحملين المسؤولية الكاملة .

ولدت هيلين كيلر في مدينة تسكمبيا من اعمال ولاية الاباما الاميركية في ٢٧ حزيران سنة ١٨٨٠ وعاشت سعيدة ، بل اسعد نساء العالم ، ثماني وثمانين سنة ، وبرهنت على ان الانسان الاصم والاعمى يمكن ان تكون له حياة مليئة ومفيدة مثل حياة اي انسان اخر يستطيع ان يسمع ويرى .

هيلين كيلر : الواقع ، يا سيدي ، ان تلك السعادة ادين بها قبل اي

كان الى والدتي التي عقدت العزم على ان تجعلني اتغلب على عاهتيّ اللتين اصبت بهما اثر مرض خبيث وانا بعد دون السنتين من عمري . وقد كانت تلك مأساة حقا ، وبدا ان كل سعادة قد اختفت من حياتي .

صوت : وهكذا علمتك والدتك ان تستعملي يديك في صنع الاشارات لتفصحي بها عما تودين قوله ، ولكي تسترشدي بهما طريقك . وكانت رفيقتك الدائمة فتاة زنجية هي ابنة الطاهية التي كانت تعمل لدى اسرتك ، كما كان لك كلب يتبعك انى ذهبت .

هيلين كيلر : كنت شديدة الولع بهذا الكلب ، وكنت احب الحيوانات والطيور ، وطالما خرجت الى الحديقة ، لاطعم الدجاج وامسح اجساد البقر اوان الحلب .

صوت : وطاف بك والداك على عدد من الاطباء الذين لم يستطيعوا ان يعيدوا اليك نعمتي البصر والسمع . وعندما بلغت السادسة من العمر لجآ الى مخترع التلفون الكسندر غراهام بل طالبين اليه النصح فيما خص تعليمك وتدريبك فدلهما على معلمة تدعى الانسة ان سوليفان ، وكانت في العشرين من عمرها اذاك ، وقد اصيبت بالعمى وهي طفلة ولكنها شفيت منه جزئيا . وقد تدربت على تعليم المكفوفين وتخرجت معلمة من معهد بركنز للمكفوفين في مدينة بوسطن . ولعل قصة تعليمك وتدريبك يمثلان اروع انجاز تم في حقل تأهيل المعاقين يا سيدتي .

هيلين كيلر : لقد وصلت الانسة سوليفن الى منزلنا قبل عيد ميلادي السابع بقليل . والحقيقة ان هذه المعلمة جعلت الحياة

مغامرة جديدة بالنسبة الي . فقد علمتني ان اصغي واتحدث بواسطة يديّ. واذكر أنها اعطتني في اول صباح جاءت فيه الينا دمية وعلمتني ان اتهجأ كلمة «دمية » على يدها . وشيئا فشيئا تعلّمت كيف اتهجأ واقرأ أسماء كل الاشياء المحيطة بي والتي استعملها يوميا . وهكذا تدربت على الكلام على يدي معلمتي ، وكنت اطرح الاسئلة واجيب عنها بتلك الطريقة المبتكرة . وما هي الا ثلاثة اشهر حتى كتبت رسالتي الاولى الى نسيبتي آنا .

صوت : وسرعان ما تعلمت القراءة بواسطة قطع من الكرتون عليها احرف نافرة كنت تلمسينها بيديك وتدريجيا بدأت تؤلفين الكلمات والجمل بنفسك ، وتقرأين تلك التي كانت تضعها الانسة سوليفان امامك .

هيلين كيلر : وليس هذا فحسب بل انني درست الجغرافيا على خرائط صنعت على ارض الحديقة وذلك بتحسس اشكال الجبال والوديان وضفاف الانهر باصابعي . ودرست الطبيعة بحفظ النباتات والازهار في آنية زجاجية ، وكنت ألمسها كل يوم لاعرف كيف هي ، وكيف تنمو .

صوت : وعندما بلغت الثامنة من عمرك حملتك الانسة سوليفان الى معهد المكفوفين في بوسطن حيث تعرفت على سائر الاطفال المكفوفين الذين كانوا على جانب كبير من السعادة والرضا في ذلك المعهد ، بحيث ان الزائر ما كان ليشك لحظة في انهم محرومون نعمة النظر . ولعل مغامرتك التالية الكبرى حدثت عندما بلغت العاشرة . فقد تعلمت الكلام .

هيلين كيلر : صحيح ، يا سيدي ، فقد علمتني مدرّسة ماهرة ان اضع يدي على فمها واحس بدقة كيف أنها تؤلف الكمات بلسانها وشفتيها . ولكن انقضت فترة طويلة قبل ان يصبح باستطاعة احد ان يفهم الاصوات التي كنت احدثها . الا ان معلمتي والانسة سوليفان لم ييأسا ، ومع مرور الوقت استطعت ان اتكلم بحيث كان يفهمني حتى الغرباء بكل يسر وسهولة .

صوت : في سن العاشرة هذه كنت قد تعلمت قراءة ابجدية براي الخاصة بالمكفوفين ، واصبح بامكانك الاتصال بسواك بواسطة هذه الابجدية اليدوية . وفي ربيع تلك السنة ١٨٩٠ علمت بأن فتاة نروجية كانت مثلك صماء عمياء بكماء قد دربت على الكلام ، فبادرت من فورك ونقلت الى يد آن سوليفان هذه العبارة : «ينبغي ان اتكلم» وهكذا اخذتك رفيقتك ومعلمتك الاولى هذه الى الانسة سارة فولر ، رئيسة معهد هوارس مان للصم في بوسطن .

هيلين كيلر : وبدأت الانسة فولر تدريبي ، فأخذت يدي ومرت بهما على الجزء الاسفل من وجهها ، ثم وضعت اصابعي داخل فمها بحيث استطيع ان اعرف وضعية لسان معلمتي ، واسنانها وحركة فكها الاسفل . وراحت ، وهي كذلك ، تعلمني الحروف الابجدية بلفظها اياها فتُنقل الى اصابعي فأتعرف هكذا عليها . وما هي الا فترة ، وبالضبط بعد الدرس السابع ، حتى استطعت ان اؤلف اول جملة انقل بها ما اريد قوله : « انا لم اعد بكماء » .

صوت : وبلغت الدروس التي تلقيتها على يد الانسة فولر احد عشر درسا ، كانت في الحقيقة بداية صراعك مع النطق . وقد كنت تجهدين في تحسين النطق واللفظ اسبوعا بعد اسبوع وشهرا بعد شهر وسنة بعد سنة وكنت تعيدين الكلمات والجمل طوال ساعات مستخدمة اصابعك لالتقاط اهتزازات حنجرة الانسة سوليفان وحركة لسانها وشفتيها ، وتعابير وجهها وهي تتحدث .

هيلين كيلر : ولم اتوقف قط عن العمل على تحسين صوتي ، والقاء الخطب على الجمهور ، والمحادثة بطريقة النطق المباشر . وقد لاحظ المقربون مني ان نطقي قد تحسن بشكل ملحوظ عندما اصبحت في العقد السادس من عمري .

صوت : ان براعتك الفائقة في النطق وصفت بأنها اعظم الانجازات الفردية في تاريخ التربية . وبعد سنوات من التدريب اصبحت بارعة في قراءة الشفاه بواسطة الاهتزازات . فكان يمكنك بوضع اصبعك الاوسط على الانف وسبابتك على الشفتين وابهامك على الحنجرة ان تسمعي ما يقوله الاخرون وخصوصا اذا كان نطقهم واضحا ورنانا .

هيلين كيلر : ذلك هو الواقع ، يا سيدي ، فقد وجدت الرئيس فرانكلين روزفلت اروع مثل في هذا الميدان . وبواسطة طريقة الاهتزازات هذه سمعت كل نوادر مارك تواين الظريفة ، واغاني انريكوكاروزو ذي الصوت الذهبي . كما نعمت بصوت فيودور شالیابين في اغنية «بحارة الفولغا» وروائع انغام كمان ياشا هايفتس، وقصائد

شاعر الريف الامريكي كارل ساندبرغ واغانيه الشعبية التي كان ينشدها بمصاحبة الغيتار .

صوت : وكانت الجامعة الخطوة التالية التي خطوتها عندما دخلت معهد كمبردج للفتيات في ولاية ماساتشوستس . وكانت الانسة سوليفان تذهب برفقتك وتجلس بقربك في الصف لتنقل اليك ، او بالاحرى الى يدك ، المحاضرات التي كانت تلقى .وقد تخرجت من الجامعة سنة ١٩٠٤ ، وكنت في الرابعة والعشرين من عمرك ، وقد ذاعت شهرتك ، فراحت تنهال عليك الطلبات لالقاء المحاضرات وكتابة المقالات في الصحف والمجلات . ودعيت الى معرض سانت لويس لكي تثيري اهتمام العالم بتعليم الصم والمكفوفين .

هيلين كيلر : الا ان الجموع الغفيرة تمردت على كل سيطرة عندما ظهرت امامها فراحت تعبر عن تقديرها لي ولما قمت به من اجل التغلب على عاهتي ، تارة بانتزاع الورود من قبعتي ، وتارة بشدي من ملابسي حتى تمزقت .

صوت : وعندما خرجت من الجامعة ، لم تشائي ان تحيي حياة اية امرأة عادية ، بل عزمت على تكريس كل جهودك للعمل من اجل المكفوفين الذين لم يكونوا محظوظين مثلك . وما هي الاسنتان حتى تم تعيينك عضوا في لجنة المكفوفين في ولاية ماساتشوستس ، فبدأت عملا استمر حتى نهاية حياتك .

هيلين كيلر : وعكفت على كتابة الرسائل والمقالات والكتب محاولة ان اجعل الذين ينعمون بالنظر يهتمون باولئك المحرومين منه

ويمدون اليهم يد المساعدة . وهكذا قمت في الثلاثينات من القرن العشرين بجولاتي المتكررة في مختلف ارجاء العالم القديم والجديد ، واضعة نصب عيني دائماً المكفوفين ، متحدثة عنهم ، جامعة الاموال من اجلهم .

صوت : وكنت في تلك الفترة قد اصبحت مشهورة ، فكان اولئك الذين قرأوا عنك يهرعون لمقابلتك ، وراحت الدرجات الفخرية والاوسمة من بلدان عديدة تتدفق عليك . ولكن في غمرة هذه السعادة العارمة راحت صحة معلمتك آن سوليفان تتدهور وكادت تصبح عمياء ، ولم يعد في وسعها ان تكون رفيقة هيلين كيلر النشيطة المتعافية فتوفيت سنة ١٩٣٦ ، بعد فترة قصيرة من اجراء آخر عملية من سلسلة عمليات جراحية في العينين .

هيلين كيلر : لا يمكنك ، يا سيدي ، ان تقدر هول الصدمة التي حلت بوفاة معلمتي ورفيقتي المخلصة طوال نصف قرن من الزمن .

صوت : الواقع ان مهارة آن سوليفان في التعليم والتدريب كانت رائعة كمهارة تلميذتها هيلين كيلر . ولذلك منحتها معا في تلك السنة ١٩٣٦ وسام روزفلت «من اجل تعاونكما الرائع في سبيل التغلب على العوائق والصعاب» .

الفهرس

الفصل الأول

٢٥ من أعلام العلم

الموضوع	الصفحة

الفصل الثاني

٢٥ من أعلام الأدب

الموضوع الصفحة

الفصل الثالث

٩ من أعلام الريادة

أبرز المراجع

Great Men of Science —
By Grove Wilson.

Microbe Hunters —
By Paul de Kruif.

Great Lives, Great Deeds —
Published by The Reader's Digest Association Ltd. (London).

Living Biographies of Great Painters —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Famous Men —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Famous Women —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Great Composers —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Religious Leaders —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Great Poets —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Great Philosophees.**—**
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

Living Biographies of Famous Novelists —
By Henry Thomas and Dana Lee Thomas.

50 Great Artists —
By Bernard Myers.

The Pocket Book of Old Masters —
Edited by Herman J. Wechsler.

Lives of Destiny —
By Donald Curloss Beattie.

Brief Biographies of Famous Men and Women —
By W. Stuart Sewell.

The Encyclopedia Britannica – (1962 Ed).

Encyclopedia Americana — (1962 Ed).

Collier's Encyclopedia — (1965 Ed).

Grand Larousse Encyclopédique

The New Book of Knowledge —
Edited by Grolier Incorporated 1979.

مؤسسة عز الدين
للطباعة والنشر

هاتف: ٢٧٣٦٣٦-٢٧٥٥٣٢-٢٧٥٥٦٣-٢٧٥٨٦٧- ص.ب: ١٥٢٥١٣/٥ بيروت - لبنان